



JAFET LIE.

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

الْفُتُوَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

أَوْ أَحَادِيثُ الْفَرُوسِيَّةِ وَالْمَثَلِ الْعُلْيَا

تأليف

عَمْرٍو الدَّسُوقِي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

مكتبة المطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالقاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي

٢٩ مارس ١٩٥١

1081

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة

الأمة العربية اليوم في يقظة عقلية وسياسية لا ريب فيهما ، وقد قضت ردحاً طويلاً من الزمن في غفلة تامة ، وجهل مطبق ، واستكانة غربية للحوادث التي صُبت فوق رأسها تباعاً منذ أن مُزقت أوصال الدولة العباسية ، فغشيها من الهم ما غشيها ، وفقدت على توالى الأيام مقومات شخصيتها ، ونسيت ذلك الماضي المجيد الذي تآلق في سماء التاريخ نوراً ساطعاً باهراً ، اهتدت به الإنسانية في مهبّع التقدم والمدنية ، بعد أن كانت تتعثر في حنّس الجهالة والبعى . وفقد العرب الثقة بأنفسهم ، وشكّوا في قدرتهم على استرجاع ذلك المجد .

أتراهم اليوم ، وهم في نشوة اليقظة يلتفتون إلى ذلك الماضي العريق ، والتراث التليد ؟ فيلتمسون منه زاداً يغذى مشاعرهم ، ويثبت إيمانهم بأنفسهم ، ويدعم شخصيتهم ، ويدفعهم إلى درج المجد دفعاً حميداً ، ويهبهم العزة ، والقوة المعنوية ؛ حتى يصمدوا أمام تيار الغرب الجارف ، فلا يكتسحهم في طيات أمواجه ، وتعود الأمة العربية مسيخة مشوهة لا هي بالعربية فيحترمها ، ولا هي بالغربية فيهابها ؟

للغرب مدنيته المادية العتيدة ، شادها على العلم البحت ، ونسى في غمرة
المادة كل ما تهدف له الإنسانية من مثل عليا نحو الخير والسعادة ، وانتصبت
المادة وحشاً ضارياً عملاقاً ، شبع الخلقه محدد الأنياب ، مُشرع البرائن يبطش
بكل الفضائل الجميلة ، ويفتك بقوى الخير فتكاً ذريعاً ، ويجر وراءه
الإنسانية بيد غليظة أيّدة جاسية إلى هوة سحيقة ماله من قرار .

لا يعرف إلا شرعة الغاب ، وقانون القهر والغلبة ، وسلطان البطش
والظلم ؛ فلا يرق ولا يعفو ، ولا يعدل ولا يحلم ، ولا يؤاسى ولا يستخو ،
لا يغيث ملهوفاً في كُرْبته ولا يقبل كائناً من عثرته . بل الويل للضعيف الذي
لا يقوى على انتزاع الغلبة والظفر ، والذي لا يعرف الخداع والمداينة ، والحيلة
والغيلة ؛ حتى يفلت من سطوة القاهرين ، ونقمة العتاة الغاشمين .

أجل ! إن المدنية الغربية قد ذلت قوى الطبيعة للإنسان ، ومهدت له
سبل الرفاهية والمتعة ، فوطىء الجو بساطاً ممهداً ، وطوى المسافات البعيدة في
لحظات ، وغاص في أعماق البحار ، وكشف عن الجراثيم ، واخترع آلاف
المخترعات ؛ وهي إلى جانب هذا قد عنيت بالتنظيم والترتيب والتنسيق في كل
شئون الحياة عناية فائقة ، ولا يكابر في هذا ولا يحجده إلا كل جاهل معاند .

ولكن المدنية الغربية قدمت للإنسان مع كل هذا معاول الهدم
والتخريب ، والإيذاء والتعذيب ؛ فشعر بقوة ، وقن بجبروته وعظمته ، ونسى
في حُمَيّا نشوته كل معاني الخير والجمال ، واضطربت بين يديه المقاييس
الخلقية ، وانطلقت غرائز الشر من عقلاها تحت ستار الحرية الشخصية
والاجتماعية ، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل في نفوس الأفراد ، وتهدمت
الروابط بين الأسر ، وفسدت الصلات بين الأمم ، وصارت القوة لا العدالة

شريعة الحياة ، واندلعت نيران الحروب فتذوق حرها المحاربون والآمنون على السواء .

ولقد فتن بعض شبابنا بالألاء الحضارة الغربية ، ودعا دعوة منسكرة إلى أن تقطع كل صلة لنا بالعرب وبالحضارة العربية ، وبالمثل التي قررتها ؛ لأنه لا يعرف إلا النذر اليسير عن حقيقة العقلية العربية ، وعنه كنه أخلاقهم ومثلهم العليا وحضارتهم ، ولأنه رأى الغرب قويا بمادته غلاباً بآلته ، يستعمر الأمم التي نسيت ماضيها ومجدها ، والتي لم تجاره في علمه وتنسيقه وترتيبه ؛ ونسى أنه بعكوفه على نفايات الحضارة الأوروبية ، وقطعه كل صلة له بماضيه ، إنما يسعى للتهلكة ، وأنه يأخذ السموم التي فتكت بهذه الأمم ، وأودت بمجتمعاتهم . وأذهبت من قلوبهم الحمية ، فانحلت أخلاقهم ، وازدروا كل معاني النخوة والشرف وقوة الكفاح ، وداسوا الفضائل ، واستهانوا بمعاني الخير . ولقد قدمت لنا الحرب العالمية الماضية نماذج لهذا الانهيار الخلقى : فامة متوحشة لا تؤمن إلا بالبطش والقهر ، كأنها وحوش الغاب انطلقت من مغاورها تفتك بكل من يتصدى لها ، وأخرى فزعت ، وتملك الرعب أزمة فؤادها ، ولم تجد لها من أخلاقها عاصماً يدرأ عنها عادية الشر ، ولا حصناً تلجأ إليه إبان الحنة ، فحزت صاغرة قبل أن تلطم ، وآثرت أن تحتفظ بترائها المادى عن أن تجول جولات صادقات في ميدان الشرف والجهاد ، فكانت مثلاً زرياً للتدهور وتحلل الأخلاق . ونحن اليوم نرى العجب العجيب من صراع الغرب والمبادئ الفتاكة المنتشرة بين بنييه ، وضلاله في الوصول إلى السعادة ، ووسعيه الخبيث للقضاء على مدينته التي بناها على المادة .

أما نحن العرب فنملك ثروة روحية جلييلة تكرم في الإنسان معنى الإنسانية ، وترفع في عينه قيم الفضائل الجميلة ، وتوثق بين بني الإنسان رابطة من الأخوة الصادقة ، وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين الطبقات على أساس من الرضا والتعاون ، وتضع لأصول المشكلات حلولاً ترتكز على الحق لا على الهوى . وإن من العقوق لمجدنا وديننا ، وللإنسانية ألا نتقدم إلى الدنيا بهذه الثروة الروحية علماً تهتدى إلى سواء السبيل .

إن أقوم طريق نسلكه ، ونحن نرى هذه الفن الدامية هو أن تقتبس من علم الغرب ومدنيته ما يمكننا من أن نعيش في بلهنية ورفاهية ، ويساعدنا على درء العدوان ، وصد نزوات الطامعين المعتدين ؛ حتي نعيش أحراراً كراماً أمجاداً ، وأن نستعيد من ماضي العرب الجميل ، وإنسانيتهم الخيرة معاني الفضيلة والخير ، فلا تنسينا مدينة الغرب للمثل العليا التي يجب أن يهدف لها المجتمع الإنساني ، والتي كانت طابع العرب أيام تاريخهم الذهبي .

وتجد الأمة العربية اليوم ، وهي في طريق اليقظة العقلية والسياسية عوائق جمة تعترض سبيلها ، وتثبط عزمها ، وتحاول أن تثنيها عن هدفها ، بل حرباً مريرة قاسية ، تعتمد على الغدر والحيلة ، والكذب والنفاق ، والقوة والقهر ؛ لتخمد هذه الجذوة التي اشتعلت بعد خمود ، وتقف هذا التيار الذي تدفق بعد ركود ، وتزلزل عقيدتها في نفسها ، وتظهر العرب بمظهر الأمة المفككة المنحلة التي لا تصلح للوجود . حرباً يشنها الغرب الذي استمرأ منها الدعة والطمانينة إلى بطشه وعدوانه ، وقوته وسلطانه ، فضلأً أمداً غير صير يخذعها عن نفسها ، ويستنزف دماها ليسمن ويتختم . فكيف يتيح لها

اليوم أن تستكمل يقظتها ، وتقف على قدميها ، وتستعيد مجدها ؟

وحرراً يوقد أوارها اليهود الذين لفظتهم ديار الغرب بعد أن ضاقت بهم ذراعاً ، وسئمت مكرهم وجشعهم ونفاقهم ، وكفرانهم بالنعمة . ومكنت لهم من أرضنا يتخذون منها وطناً مزعوماً .

وحرراً يهيجها ذوو الأثرة منا ، الذين لا يراعون في أمتهم ضميراً ولا رحمة ، ولا ينظرون للخطر المحقق بها من كل صوب ، فيسعون إلى المجد الزائف ، والتملك البغيض ، بتقطيع أوصال هذه الأمة بعد أن التأمت ، والتمكين للأعداء بإذكاء نار الفرقة بين أبناء العروبة ؛ جرياً وراء شهوة عارمة لا تعرف للعقل سلطاناً ، ولا تقدر عواقب تلك البروة الطائشة .

ولعل من خير ما يقدم للأمة العربية اليوم هو بعض صفحات مشرقة مجيدة من تاريخها العظيم ، تفيض بالخير ، والسخاء ، والرحمة ، والعدل ، والشجاعة ، والرفق ، والبطولة ، والوفاء ؛ فتعرف نفسها على حقيقتها ، وتستمد منها القوة في كفاحها المرير مع عداتها الغادرين ، فتسير بخطى ثابتة صوب الهدف المنشود ؛ ولعل تلك الفضائل التي تكمن في قرارات نفوسنا ، والتي تحل بها أسلافنا تظهر مرة أخرى للوجود ، فيرى العالم وجهاً آخر للإنسانية ، غير ذلك الوجه البغيض الذي تسيطر عليه المادة ، ويتكلم بلغة الحديد والنار . هذا وشبابنا يسمع عن ذلك الماضي المجيد ، ولا يعرف كيف يصل إليه ، وكيف يتمثله ، وهو مطمور مغمور في ثنايا الكتب القديمة ، قد علاه غبار القرون ، وسجل بلغة تعلو عن مستواه وإدراكه ، وفي صورة موجزة حائلة اللون . وهيئات أن يبعث مثل ذلك الماضي في نفسه الإعجاب ، ويدفعه إلى التقليد والاحتذاء ، وهو على حالته تلك .

فإذا تقدمت اليوم إلى الشباب العربي بأحاديث القوة والفتوة والفروسية ،
والمثل العليا عند أسلافه الأجداد ، وأخذت هذه الصور الصغيرة الحائلة ،
وكبرتها ، وجلوحتها حتى تبدو واضحة السمات ، نضرة زاهية ، فإني ولا ريب
أحقق رغبة من رغباته ، وأضع بين يديه نماذج للإنسانية في أوج سموها
النفساني ؛ لتكون له قدوة ، وليؤمن إيماناً راسخاً بأنه من قوم لهم في المجد
والفضيلة باع طويل وقدم ثابتة .

ولعل بذلك أسهم في خدمة الأدب العربي ، فأعرض بعض صفحاته
عرضاً جديداً ، وألبس بعض صورته لباساً قشيباً ، وأزيل عنها صدأ الدهر ،
وحوادث الأيام ، محافظاً على سماتها وقسماتها الطبيعية الصحيحة دون تزيد
إلا ما يقتضيه سد الرق ، وإيضاح اللون ، ويتطلبه الفن .

ولعل بعض شبابنا الذين يهفون إلى استلهم الأدب العربي بمحبه ورزاياه
ونفائاته ، وسمومه ، ويعرضون عن استلهم الأدب العربي بعظمته وقوته
وكبريائه ووضوحه يرون أنهم حادوا عن الجادة ، وأنهم ظلموا الأدب العربي
لجهلهم بذخائره ونفائسه ، واغتروا بالأدب الغربي ، وهو نتاج بيئة غير بيئتنا ،
ومجتمع قد كثرت علله وأوصابه ، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ونخرت فيه
الآفات التي تصيب الأمم المترفة ، المتكالبة على المادة ، أدب ولده الاضطراب
النفسي ، والكبت ، والحرمان والضيق ، والظلمة — ظلمة الجو وظلمة الحياة —
فجاء سخفاً وهذياناً تمثل في تلك المدارس الأدبية الحديثة : من (واقعية)
تنحدر إلى تصوير أحط الغرائز الدنيا في الإنسان ، إلى (رمزية) مبهمه غامضة
لا يعرف المرء من ورائها فكرة أو معنى ، ولا تعنى بمجتمع أو إنسان ، إلى

(سريالية) مخرّفة تهذى بخزعבלات العقل الباطن ، وهو اجس اللاوعى ،
وتحتفل بأضغاث الأحلام ، وتنكر المنطق والعقل والشعور ، وأوضاع المجتمع
والدين والفضيلة .

ولما كان الحديث عن الفتوة العربية يذكّرنا بالفروسية الغربية إبان
القرون الوسطى رأيت أن أهد لهذه الصور الأدبية ، ونماذج الفتوة ببحث
تاريخي يوضح معنى الفتوة عند العرب فى جاهليتهم ، وكيف تغنى الشعراء
بأخلاق الفتيان الأماجد وفضائلهم ، وكيف أن هذا المجتمع البدائى كان فيه
من التراحم والتعاون ، والأخذ بيد الضعيف والمنكوب والمكروب ما تتضاءل
أمامه أرقى مجتمعاتنا التى طغت عليها المادية اليوم .

ثم كيف هذب الإسلام معانى الفتوة الجاهلية ، وأسبغ عليها من هديه
وروقه ، ثم كيف تطورت هذه الفتوة الإسلامية حتى صارت وقفاً على طبقة
خاصة من الناس ، لهم تقاليدهم وتعاليمهم وزيتهم .

ووازنت بين هذه الفتوة العربية ، وبين الفروسية الغربية ، واجتهدت
فى تعرف الصلة بينهما ، وإلى أى حد تأثر فرسان العرب ، بتقاليد
الفتوة العربية .

أما صور الفتوة العربية ذاتها ، فقد وجدت منها فى ثنايا كتب الأدب
والتاريخ أيضاً زائراً ، وحرث فى أيها أختار وأيها أدع . فإن تركت بعض
الصور الفتانة ، والنماذج الأخاذة ، والأمثلة القوية ؛ فذلك لأنى لا أستطيع
فى كتابى هذا استيعاب كل ما تحدث به الأدب والتاريخ عن أسلافنا
وفرسانهم وأبطالهم .

على أن أحاديث هؤلاء الفرسان وأخبارهم ، ونوادير فتوتهم كانت مبعثرة
في كتب شتى ، ولها روايات عدة ، فاجتهدت أن أجمع شتات هذه الأخبار
والأحاديث وأن أوّلف بينها حتى تخرج الصورة زاهية واضحة . ثم وضعتها
في إطار جديد يحببها للقراء ، ألا وهو الإطار القصصى .
هذا جهد المقل أقدمه لشباب العروبة ، أرجو أن يحقق ما أصبو إليه
والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

معنى الفتوة

الفتوة في اللغة من الفتاء وهو الشباب . والفتى في الأصل الشاب ، فالفتوة هي القوة ؛ لأن الشباب مصدرها عادة ، ولقد سموا الليل والنهار فتیان لقوتهما ، ومن أقوى من الليل والنهار في إذلال كل عزيز ، وإضعاف كل قوى ؟ ومن ذلك قول الشاعر :

مالبت الفتیان أن عصفا به ولكل قُفْلٍ يسراً مفتاحا
ومنه قول الآخر :

يا عزُّ هل لك في شيخ فتى أبداً وقد يكون شبابٌ غير فتیان
أى هل لك في شيخ قوى المنة ، سليم الجسم ، متين البنيان ، يفوق بقوته بعض الشباب ، ومن ذلك قول الآخر :

إذا عاش الفتى مائتين عاماً فقد ذهب اللذاذة والفتاء
واشتقاق الفتوة من الفتاء بمعنى الشباب تدل على أن الفتى لا بد أن يكون قوياً شجاعاً ، فيه عزم ومضاء ، وهذه صفات الشباب ، ويقول الشيخ المسنّ تَفَتَّيْتُ ، إذا تخلق بأخلاق الفتیان : من القوة الجسمية ، واحتمال المشاق ، والمهارة في الطعن بالرمح ، والضرب بالسيف ، قال الفندُ الزماني^(١) وقد طعن بالرمح طعنة أودت برجلين :

أيا طعنة ما شيخ كبير يَفَنُّ بالي^(٢)

(١) الفند الزماني : هو شهل بن شيان بن ربيعة بن زمان الحنفي من فرسان ربيعة وشعرائها المشهورين ، حضر حرب البسوس
(٢) اليفن : الشيخ الهرم .

تَقِيمُ الْمَأْتَمَ الْأَعْلَى عَلَى جَهْدٍ وَإِعْوَالٍ ^(١)

تَفْتَيْتُ بِهَا إِذْ كَرِهَ الشُّكَّةَ أَمْثَالِي ^(٢)

ولكن الفتوة تطورت إلى معانٍ أخرى غير القوة الجسمية ، فاستعملت بمعنى السخاء والكرم ، قال صاحب القاموس : الفتى : الشاب والسخي الكريم ، والفتوة : السخاء والكرم .

وفسرها صاحب الأساس بأنها الحرية والكرم ، والحرية تعنى الشجاعة ، والقوة وإباء الضيم .

وقال القشيري ^(٣) : « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره » . ونقل عن الفضيل أنه قال : « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » والحرث المحاسبي يقول : « الفتوة أن تُنْصَفَ وَلَا تُنْصَفَ » . وقال غيره : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » .

وهكذا استعملت الفتوة في القوة المعنوية قياساً على القوة الجسمية . فالحرية والكرم والسعي في أمور الناس ، وقضاء حاجتهم ، وإظهار النعمة وإسرار المحنة ، وأن ينصف المرء غيره ، وينكر نفسه ، كل هذه صفات الرجولة الكاملة . ولذلك قال القُتَيْبِيُّ ^(٤) : « ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث ، وإنما هو بمعنى الكامل الجُرُل من الرجال ، يدل ذلك قول الشاعر :

(١) المأتم الأعلى : أى لا يرجى منها شفاء ، وأراد بالأعلى أنه قتل رئيسين .

(٢) الشكة : ما بليس من السلاح .

(٣) راجع الرسالة القشيرية . (٤) لسان العرب .

إن الفتي حَمَالٌ كُلُّ مُلَمَّةٍ ليس الفتي بمنعَمِ الصبيان
ويؤيده قول عبد الرحمن بن حسان :

إن الفتي لفتى المكارم والعلا ليس الفتي بِمُعَمَّاجِ الصبيان^(١)
وقول شاعر الحماسة^(٢) :

فقلت لها لا تنكريني فقلاًما يسود الفتي حتى يشيب ويصلعا
والحق أن العرب تعنى بالفتوة : الشجاعة ، والإيثار ، والسخاء ، والوفاء ،
وكثير من الصفات الحميدة . والفتي عندهم هو السيد الذي نال السؤدد والشرف
بخلاله الكريمة ، وأفعاله العظيمة ، ويقال : هذا فتى الحى أى سيده ، والكامل
الجزل من رجاله ، قال ابن أهبان الفقهسى يرثى أخاه :

فتى الحى ، إن تلقاه فى الحى ، أو برى سوى الحى أوضمَّ الرجال المشاهدُ
إذا نازعَ القومَ الأحاديثَ لم يكن عَمِيًّا ، ولا رباً على من يقاعدُ^(٣)
طويلُ نجادِ السيف ، يصبح بطنه خَمِيصاً ، وجاديه على الزاد حامد^(٤)

أى أنه اتصف بالفتوة والرئاسة ، سواء كان فى الحى بين قومه ، أو خارج
الحى فى غير قومه ، أو فى محفل من المحافل ، ومشهد من المشاهد ، حيث يوجد
الأشراف والرؤساء ، فهو فى كل هذه الأماكن فتى ، أى سيداً .
ثم وضح صفاته بأنه متحدث غير عيبى اللسان ، وليس به كبير ، وهو

(١) المعجم : الذى لا يثبت على حال واحدة ، يكون مرة سخيماً وأخرى كزاً ،
وتارة مقدماً ، وأخرى جباناً ... الخ .

(٢) الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١١٧ .

(٣) أى ليس عيباً ولا متكبراً .

(٤) خميصاً جاعاً . وجاديه : طالب جوده

طويل القامة ، فارس ، يؤثر ضيفه على نفسه ، ويسكرمه حتى يحمد زاده ،
ويشكره على قرأه ، ويبيت هو جائعاً .

وقال آخر من شعراء الحماسة :

ألا لا فتي بعد ابن ناشرة الفتى ولا عُرفَ إلا قد تولى فأدبراً
أى ذهبت الفتوة والرئاسة بعد ابن ناشرة ، كما ذهب المعروف وأدبر .
وهم يدعون الفتى عند الشدائد ، وفي الملمات ؛ قال طرفة بن العبد :
إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى دُعيتُ فلم أكسل ولم أتبدل
وقد وصف طرفة نفسه ، وعدد سجاياه فى قوله بعد ذلك :

ولستُ بحلالِ التلاعِ مخافةً ولكن متى يسترفدِ القومُ أرُفدِ
فهو كريم ، لا يلجأ إلى مجارى الماء من رءوس الجبال ، خشية أن يراه
ضعيف ، ولكن ينزل إلى الوادى ويرفد كل من طلب رفده :

وإن تبغى فى حَلْمَةِ القومِ تلقى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد
أى أنه من ذوى رأى والمشورة ، ومن يطلب اللذة بشرب الخمر فى
الحوانيت ؛ ليسقى غيره كرماً .

وينعت نفسه بعد ذلك بأنه فارس شجاع ، يأبى الضيم ، ويجهد الأعداء :
وإن أدع فى الجلى أكن من حماها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد^(١)
إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتني منيعاً إذا بليت بقائمه يدي^(٢)

(١) الجلى : الأمر العظيم الجليل ، وأكن من حماها : أى ممن يدفع ويقاقل

(٢) ابتدر القوم : سارعوا . منيعاً : لا يوصل إليه . بليت بقائمه يدي : أى ظفرت به
يدي ، وتمكنت من قائم السيف ومقبضه .

ويذكرنا قول طرفة : « من فتى » يقول بشامة بن حزن النهشلى :
 لو كان فى الألف منا واحد فدعوا (من فارس ؟) خالهم إياه يعنوننا
 فهم يدعون الفارس فى الملمات والشدائد ، كما يدعون الفتى ؛ فكأن
 الفتى هو الفارس الشجاع ، وإن كان الفتى أعم معنى :
 ومن الكلمات القريبة من الفتوة المروءة ، وهى كلمة تداولها العرب كثيراً ،
 ولقد وضع البيرونى^(١) الفرق بين المروءة والفتوة بقوله : « المروءة تقتصر على
 الرجل فى نفسه وذويه وحاله ، والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره . والمرء لا يملك
 إلا نفسه ، وقديته التى لا يُنازع فيها أنها له ، فإذا احتل مغارم الناس ،
 وتحمل المشاق فى إراحتهم ، ولم يرض بما أحلَّ الله له ، وحرَّمه على من سواه ،
 فهو الفتى الذى اشتهر بالقدرة عليها ، وعُرف بالحلم ، والعفو ، والرزانة ،
 والاحتمال ، والتعظم بالتواضع ؛ ترقى إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها ،
 وسود باستحقاق لا عن خلود دار . »

ويؤيد قول البيرونى من أن الفتى لا يحتاج إلى النسب العريق فى وصوله
 إلى السيادة والشرف قول ابن هرمة :
 قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَقٌ ، وجيب قيصه مرقوع
 وقال البيرونى : « ولهذا حَدَّت الفتوة بأنها بشر مقبول ، ونائل مبذول ،
 وعفافٌ معروف ، وأذى مكفوف »
 إذا المرء لم ينهض بنفسه إلى العلا فليس العظام الباليات بمفخر

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ فى كتابه « الجواهر
 فى معرفة الجواهر » طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥ من ١٠ ، ١١

وربما أفرط الفتى فتجاوز إفراط إيثار الغير على الملك إلى بذل النفس
أنفة من تحمل العار ، أو دفعاً للظلم ، وحفظاً لحق الجوار ؛ إما بالبسالة
كالمذكورين في صعاليك العرب ، فمنهم الذين فدوا أضيافهم والمستجبرين
بهم بأنفسهم ، حتى إن فيهم من خرج به فعله إلى سخر أو جنون ، من
حماية الجراد النازل حول خبائه ، وقتاله دون صيدها . وإما بالكرم والسماحة
كحاتم الطائي الذي غرر بنفسه في هبة الرمح لخصمه ، وقد أشفى على الهلاك ،
وبلغت نفسه التراق ، فاحتال باستيهابه الرمح ، فاستنكف حاتم عن رده
ودفعه إليه ، وكعب بن مامة الإيادي بإيثار القرين بحصته من الماء المقسوم
بالخصي ؛ إذ قال : اسق أخاك النمرى ، فسقاها إياه ؛ حتى هلك هو عطشاً
يُجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من راح واغتدى لشرب صَبوح أو لشرب غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى

لضر عدو أو لنفع صديق

ومن هذا نرى أن الفتى أعم من الفارس ، وأن الفتوة كذلك أعم من
الفروسية ، وأعم من المروءة ؛ فقد يكون الفارس شجاعاً ولكنه غير كريم ،
أو يكون معتدياً ظالمياً ، أو نزقاً طائشاً ، أو خبياً غادراً ، وليس كذلك الفتى
عند العرب .

أما ذو المروءة فيتحلى بكثير من الصفات الحميدة ، ولكنه كما يقول
البيروني : « تقتصر المروءة على الرجل في نفسه ، وذويه وحاله » .

وعلق البيروني على قول علي بن الجهم :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التجميل
بقوله : « عني بالأول الفتوة ، وبالأخير المروءة » فالحر قد تزول عنه
النعمة ، لأنه أنفق ماله في سبيل سواه ، وآثر غيره بما ملكته يده ؛ حتى إن
فقيراً معدماً ، فلا عار عليه حينذاك ، ولكن العار أن تنخرل نفسه ويصل
إلى الابتذال ، بل عليه أن يظهر التعفف ، ويخفي الضيق فإن فعل ذلك فهو
من أهل المروءة .

وإن كانت المروءة قد أخذت أحياناً^(١) بعض معاني الفتوة كما في

قول بشار :

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع
وقال الجرجاني في التعريفات : المروءة هي قوة النفس ، مبدأ لصدور
الأفعال الجميلة عنها ، المستتبعة للمدح شرعاً وعقلاً وعرفاً .

وقال في التعريفات عن الفتوة : « الفتوة في اللغة الكرم والسخاء ،
وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة .
وهو يشير إلى معنى الفتوة عند المتصوفة ، وليست هي الفتوة عند العرب
في أول نشأتها كما سندكر فيما بعد عند تطور معنى الفتوة في الإسلام .

وقد رأى جولد تسهير في كتابه « المروءة والدين » : أن المروءة عند
أهل الجاهلية كانت تقابل الدين في الإسلام ، ثم قامت مقام مبدأ معنوي
تدور عليه الأخلاق الكريمة ، من حيث أنها كانت تجمع بين السخاء

(١) راجع بحثنا عن المروءة للدكتور بشر فارس في مباحث عربية ص ٦٣

والوفاء وحفظ الجوار ، والأخذ بالثأر^(١) .

فجولد تسهير يقرب معنى المروءة من معنى الفتوة ويجعلها شيئاً واحداً تقريباً ، وإن كانت لا تزال الفتوة على الرغم من هذا التقريب أعم . وتعريف قتيبه للفتى بأنه الكامل الجزل من الرجال هو ما أراده العرب من هذه الكلمة قال أبو البهاء في يزيد بن مزيد الشيباني يرثيه :

ممن الفتى فجعت به أخوانه يوم البقيع حوادث الأيام
سهل الفداء إذا حلت ببابه طلق اليدين مؤدب الخدام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما ذوو الأرحام
وقالت الخنساء ترثي صخرأ :

أطعمكم وحاملكم تركتم لدى غيرة منهدم رجاها
ليك عليك قومك للمعالي وللهيجاء إنك ما فتاها
وقد مدح دريد بن الصمة يزيد بن عبد المدان بقوله :

إذا قارعوا عنه لم يقرعوا وإن قدموه لكبش نطح
وإن حضر الناس لم يخزهم وإن وازنوه بقرن نجح
فذاك فتاها وذو فضلها وإن نابح بفخار نباح
وقال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كعدة :

إن الذي جمع الساحة والنجدة والحزم والقوى مجعاً
الأممى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
وأخلف المتلف المرزأ لم يمنع بضعف ولم يمت طبعاً

والحق أن الفتوة تعنى الشئائل الآتية :

الشرف ، والسعاء ، والشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والحلم ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والتواضع ، والعفو ، والرزانة ، وقوة الاحتمال .

وقد أخذت كلمة الفتوة معانى جديدة فى الإسلام ، وإن حافظت على المعنى العام لها فى الجاهلية ، قال ابن عربى فى الفتوحات المكية ^(١) : « الفتى ما بين الثامنة عشرة والأربعين من العمر ، ويتصف بالقوة ، والأخلاق الحميدة ، ويستخدم قوته فى خدمة الله ، ونصرة الضعيف ، وليس له عدو ، ولكن له حساد ومنافسون » .

وقال فى مكان آخر من الفتوحات المكية عند الكلام عن معرفة مقام الفتوة وأسراره :

إن الفتوة ما ينفك صاحبها مقدماً عند رب الناس والناس
إن الفتى من له الإيثار تحلية حيث كان فمحمول على الراس
ما إن تزلزله الأهوا بقوتها لكونه ثابتاً كالراسخ الراسى
لا حزن يحكمه ، لا خوف ، يشغله عن المكارم حال الحرب والبأس

فالفوتوة عند المتصوفة قد زادت عن معناها الأصلى عند العرب ، واستخدمت فى أغراض دينية ، وسرى فيما بعد كيف تطورت فى الإسلام إن شاء الله .

أما الفتى عند العرب فهو من كملت فيه صفات السيادة ، وأهله خلقه

(١) راجع الفصل ٤٢ من الفتوحات المكية عن الفتوة والفتيان .

لأن يكون زعيم قومه ، وملجأهم في كل ملة ، هو من أراد ذو الأصبع
العدواني من ابنه أسيّد أن يكون بوصاته له :

« ألنّ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودّوك ، وأكرم صغارهم ، كما
تكرم كبارهم بكرمك كبارهم ، ويكبرُ على مودتك صغارهم ، واسمح
بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم
ضعيفك ، وأسرع النهضة في الصريح ، فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وصنّ وجهك
عن مسألة أحدٍ شيئاً ، فبذلك يتمّ سؤددك »

الفتوة عند العرب

— ١ —

نشأة الفتوة

نشأت الفتوة عند العرب نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة ، كما تنبت الأزهار البرية العَبَقَةُ الشذا في مجرى السيل على سفح الجبل ؛ فالصحراء قد غرّضت على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حِوَالاً ، صارت لهم على مر السنين جِبلة وطبيعة وفطرة ، وصارت عنواناً لهم بين العالمين . ولا عجب فالصحراء فضاء متسع رحيب ، يملأ جوانب النفس خشية ورهبة ، وبحر من الرمال المختلفة الألوان لا ساحل له ، وجبال جرداء سامقة يرتد عنها البصر وهو حسير ، وصخور صماء عاتية ، وشمس قوية محرقة تصب شآبيب من شواظ يتلظى لهباً ، وريح زفوف ، وسيول متدفقة ، وماء عذب ، وظل كريم .

فهذه الطبيعة الخشنة قد انعكست على نفس العربي قوة وصرامة وجلداً ، لا يرهبها ، ولا تتضعع نفسه أمام جبروتها ، لا يخشى الليل ورهبتها ، ولا يفزع من السفر وشدته وقسوته ، وما هو إلا أن يعزم على أمر فلا يردّه عن غريمته شيء ، مهما عظم :

إذا همَّ همّاً لم يرَ الليل غُمَّةً عليه ولم تصعب عليه المراكب
جليدٌ كريم خيمه وطباعه على خير ما تبني عليه الضرائب^(١)

(١) الخيم : الطبيعة والجبلة ، والضرائب : الطبايع .

لم يكن العرب في البادية يسكنون القصور المحصنة ، أو البيوت المسورة ، ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون في بيوت من الشعر والوبر تهزها الرياح كلما هبت ، ويجرفها السيل إذا تدفق ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمى إلا ظهور خيولهم ، وإلا شجاعة قلوبهم ، وعِظَمُ نفوسهم .

يعيش العربي في خطر دائم في أحضان تلك الطبيعة القاسية ، تعصف الرياح فتسفي الرمال ، وتقوض بيته ، وتُكفي قدره ، وتطفى ناره ، ويهدر السيل فيجتاح داره ، وينفر إبله . وتبخل السماء فيشح زاده ، ويهزل نعمة ، ويهدده الجوع في حياته ، ويجوع الوحش فلا يجد أمامه إلا النعم والإنسان يسكن بلحمتها سعار بطنه .

ولذلك أرهفت حواس هذا العربي ، ونمت نمواً عظيماً ، ولا ريب في أن نماء الحواس وقوتها ، وتأديتها وظيفتها الطبيعية على خير وجه ، يزيد في قوة العقل وحسن تصرفه ؛ لأن الحواس هي الطريق الذي تدلف منه المعلومات إلى العقل ، فإذا كانت مرهفة قوية ، غير بليدة أو مضطربة ، كان ما يصل إلى العقل صحيحاً واضحاً ، فأدى عمله تاماً متقناً ، وصحت نظرته إلى الأشياء ، وحكمه على الأمور ، وتفسد ببلادة الحواس وانقباضها آلة العقل ، وتفسد بفساد العقل القدرة الإيجابية في الحياة ، وينقطع التصرف الإرادي الحكم ، وتضيع صورة العدل في وزن الأشياء واستثمارها .

ومن البدهي أن الحالة النفسية وليدة الحالة الحسية ، وأن اضطراب الحس مفض إلى اضطراب أعمال الجسم : من التنفس والهضم والتمثيل ، والانتظام الجنسي ، مما يسوق الاضطراب فيه إلى الهلاك والتحلل .

فسعة المجال في الصحراء أمام حواس الإنسان ضرورية لتربية هذه الحواس ، والحواس السليمة النامية تؤدي إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية أداء منتظماً لا اضطراب فيه ، كما تؤدي إلى وجود عقل سليم ، وحكم صحيح ، وحياة معتدلة .

لقد أفاد العرب من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة في البصر تميزوا بها عن سواهم ، وقوة في السمع كادت تبلغ درجة السكال ، وأما حاسة الشم فكانت موضع فخارهم ، والفضل في قوة هذه الحاسة عندهم يعود لتعرضهم المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل ، وفي ظلال الخيام التي التي لا تمنع الريح والنسيم عنهم .

إن ضيق المجال أمام الحواس لا يؤدي إلى إنهاك قوى الجسم وإضعافه فحسب ، بل يؤدي كذلك إلى التردى في مهواة الضعف العام في عصبه ومشاعره ومعقولاته ، بل وفي رزقه ، وينتهى به الأمر إلى الرضى بالذل ، وإلى العجز عن وقاية نفسه من الظلم^(١) .

صار العربي في صحرائه يشتم الخطر قبل قدومه ، ويعرف عن الطبيعة وأحوالها وتقلباتها ما لا يعرف كثير من الناس في حياتنا المتمدنة المتحضرة ، وهو لا يستسلم لهذه الطبيعة ، ويروح في نوم عميق ، وإلا صار فريسة لها أو لوحوش الفلاة .

ولقد علمته هذه الطبيعة الصبر والجلد والكفاح المر حتى صار كما يقول تأبط شراً^(٢) :

(١) راجع التصوف في نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ٨٢ وما بعدها .
(٢) هو ثابت أبو زهير من بني فهم ، اشتهر بسرعة عدوه وشدة فتكه ، وكان من الشعراء الصعاليك .

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بمومة ويمسى بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك^(١)
ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حد خلق صائك^(٢)
أو كما يقول أبو كبير الهذلي^(٣) بصف تأبط شرا :

فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعها طمور الأخيل^(٤)
لقد أكسبته الصحراء أخلاقاً فطرية عالية ، والفطرة في الإنسان هي الخير ،
وفي ذلك يقول « السيرتيل » : « من الجلى أن الناس في المجتمع البدائي يعيشون
في مستوى خلق عال ، وهذا شيء يسترعى الانتباه ، لأنه يبين ما يسمى الخلق
الفطري أو الخلق الطبيعي ، وفي هذا المجتمع لا نرى للديانات أى تأثير أخلاقي
قوى كما نراه في المجتمعات المتحضرة . فالحق الذي لا مرية فيه أن معاملة
بعضهم لبعض قلما تتأثر بأمر سماوى أو خوف من عقاب إلهي^(٥) » .

إن الفضيلة لا تتوقف على المعرفة ، وليست هي المعرفة كما يقول سقراط ،
ولكن الفضيلة الحققة هي العمل بها ، والحياة الفاضلة ذاتها ، حتى لقد دعا فلاسفة
القرن الماضي في أوروبا مجتمعاتهم الفاسدة التي لوثتها المدنية إلى أن يتخذوا
من « البدائي النبيل » نموذجاً في الأخلاق يحتذونه^(٦) .

(١) المومة : المفازة التي لأماء فيها ، والجحيش : المنفرد ، ويعرورى : أى يركب
ظهور المهالك .

(٢) الربيئة : الرقيب ، وسلة : مرة من سل السيف إذا جرده والأخلق : الأملس ،
والصائك : القاطع ، والمعنى : أن العين رقيب القلب ، فإذا كرهت العين شيئاً نبهت القلب فاستل السيف
(٣) هو عامر بن حليس أحد بني سعد بن هذيل وهو شاعر مخضرم صحابي .

(٤) نبذ له الحصاة : رماه بها ليعرف مقدار استغراقه في نومه ، وطمور الأخيل
أى ينثب كما ينثب الصقر

(٥) Anthropology. vol . 11. P. 135 . by Sir E.B.Tylor

(٦) نفس المرجع ص ١٣٦ .

إن الحياة في المجتمع البدائي ترينا بوضوح عجيب صدق النظرية المهمة التي يركز عليها علم الأخلاق ، وهي : أن السعادة والفضيلة يسيران معاً ، وفي الحق إن الفضيلة هي الطريق إلى السعادة^(١).

لقد خلعت الصحراء بقوانينها الصارمة على العربي خلق الفتوة ، والفتوة مجموعة من الفضائل النفسية صهرت في بوتقة الصحراء ، حتى صارت حلية نادرة الحبات ، تحلى بها هؤلاء العرب منذ عرفهم التاريخ . وسنبين في الفقرات التالية سمات الفتوة كما عرفها العرب ، وكيف كانت أثراً من آثار بيئتهم .

(١) نفس المرجع السابق

٢ — الشجاعة

عاش العربي في الصحراء وهو في جهاد مستمر ، وكفاح طويل مرير ، محافظةً منه على حياته () فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير ، وليس بها أنهار جارية ، أو وديان خصبة ممرعة ، أو حدائق غناء ، إلا في أمكنة قليلة تعتمد على الغيث ، وبعض العيون المتفجرة ، ولذلك اشتد حرصه على الماء ، وسعى في سبيله سعيًا متواصلًا لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيل دائم في فيافي واسعة ، يواجه مخاطرها في كل ثنية ، ويستقبل تغيرات الطبيعة أينما سار .

ومن يكُ مثلي ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح ليلبغ عذراً أو يصيب رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح ١ فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجاً تاماً ، وصار قلبه جنداً لا يرهب ، ولا يفرع ، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبدل ، لأنه إن كف عن السعي في سبيل الماء الذي هو قوام حياته هلك مسغبة وظماً . لذلك عظمت قوى الكفاح في العربي ، كما عظمت ثمرات هذه القوى في نفسه ، فصار من أصح أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهمقامة ، وأبينهم عافية ، وأكثرهم احتمالاً لما لا يُطاق من الشدائد والمشقات . وقد جعله هذا الصبر الذي فرضته عليه الصحراء عدلاً لعشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية ، بل عدلاً لمئات من هؤلاء الذين يقتلهم ظمأ ساعة ، أو جوع يوم ، أو ضربة شمس تصيبهم بالهلاك وتقضى عليهم .

وأول ما تتطلبه الشجاعة من صفات أن يكون الفتى قوى الجسم ، عظيم الصبر ، شديد الجلد ، وهل مثل السعى الدائم في سبيل الرزق والرحلة المستمرة في الهواء الطلق ، وتحت أشعة الشمس ، وتخطى الحزون ، وجوب القفار ، والركوب المستمر على ظهر الراحلة أو الجواد ، عوامل تصح بها الأجسام وتقوى؟ يعيش العربي في الصحراء تغمره الشمس بضوئها النافذ إلى قرار بدنه ، وناهيك بالشمس شفاءً من كل مرض ، وغذاء لكل جسد ، وشمس الصحراء زاهية قاسية تذيب رهوس الضباب ، ولكن العرب اعتادوها ولأءموا بين شدتها وحياتهم ، وعرفوا أثرها العظيم في صحة أبدانهم حتى لقد سئل أحد الأعراب « كيف البدو فيكم ؟ » فقال : « نأكل الشمس ونشرب الريح » وفي شدة أثر الشمس ووقع حرورها في الأجسام العربية يقول سويد الشكري

كم قطعنا دون سلمى مَهْمَهَا نازح الغور إذا الآل مع^(١)

في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع^(٢)

ولا جدال كذلك في أن هواء الصحراء هو أصح هواء يحيا فيه إنسان ، ولقد كان العربي يعيش دوماً في هذا الهواء ليلاً ونهاراً ، فخبأؤه تخفق فيه الرياح ، وهو في دأبه وكده في سبيل الحياة يستقبل الرياح أينما توجه ، والهواء للإنسان كالماء للسماك لا يستطيع العيش إلا به ، وإذا كان الهواء نقياً صافياً كان

(١) سويد بن أبي كاهل الشكري من شعراء ربيعة وهو مخضرم وكانت قصيدته هذه

التي مطلعها :

بسطت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما انقطع

تسمى اليتيمة . الآل : السراب .

(٢) الصقع : حرارة تصيب الرأس .

أنقى للدم ، وأجلب للقوة ، وأصح للجسم . وهل مثل هواء الصحراء التي لم تفسدها المدنية بمصانعها وزحمتها هواء ؟

لقد توفرت للعربي إذاً عوامل الصحة من شمس ساطعة ، وهواء نقي ، وعمل هو ، أو فرضت عليه بيئته عوامل أخرى ساعدته على تمام الصحة وكال القوة ، فجعل قوام غذائه اللبن ، واللبن هو الغذاء الكامل الذي يتضمن كل ما يتطلبه الجسم من العناصر الصالحة للتغذية ، وفي صورة يسهل على الجسم الاستفادة منها ، كما أنه لا يترك بعد هضمه فضلات تجهد الكلى أو تزيد حموضة الجسم^(١) ؛ وكان يطحن الحبوب بالرحى ، ويبقى معها عند صنع الخبز قشورها ونخالها ، وهذا الخبز هو أصح أنواع الخبز دون نزع .

ولم يكن العربي ممن يفرط في الطعام أو يفتن في طهيهِ أو يكثر من ألوانه ؛ لأن بيئته لم تكن تساعد على ذلك لو أراد ، والإفراط في الطعام ، وكثرة ألوانه ، والافتتان في طهيهِ مما يجلب الأدواء الكثيرة للأجسام .

ونحن نعاني في حياتنا المدنية اليوم كثيراً من الأمراض الفتاكة ؛ لأن أطعمتنا لا تسير على قانون الفطرة والبساطة ، ولأننا عنيينا بها أكثر مما يجب ؛ حتى تكون شهية لذيذة ، وإن لم تكن غنية بعناصرها المفيدة .

وفضلاً عن هذه العوامل الطبيعية التي عملت على تقوية جسده ، فقد استلزمت الصحراء منه أن يكون قوى البنية ، أيّداً شديد العضل مفتول الساعد ؛ لأن النزاع على المرعى والماء وهما قوام هذه الحياة ، كان على أشده في تلك البيئة التي طالما بخلت فيها السماء بمائها لم فكان يدفعه الحرص على الحياة

هو وقومه ، والفرار من الموت جوعاً وظماً إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا فضلاً من خير أو مرعى ؛ حتى لا تضار نعمهم فيهلكون بهلاكها . وقد يكونون عرضة لمن يغير عليهم طمعاً في مالهم ، إذا حزبه الضر ، وأهلب معدته الجوع ، وخشى الفناء والهلكة . وكانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العشب ؛ ليرعوا أنعامهم التي عليها بلاغهم في ربيهم وحمولهم ، وشبّعهم ، فتنازعوا على المرعى وتدافعوا على النجعة ، ونشبت بينهم دواعي الخلاف التي كثيراً ما تنتهي بالاحتكام للسيف ، والاحتكام للسيف يقتضى يداً قوية متينة التركيب ، وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزيراً ، وأصبح من دواعي فخارهم لكل هذه الأسباب الطبيعية والضرورية أن يكون الفتى :

فَتَيَّ قَدْ قَدْ السِّيفَ لَا مَتَضَائِلُ وَلَا رَهْلٌ لَبَّاتِهِ وَأَبَاجِلُهُ ^(١)
إِذَا جَدَّ عِنْدَ الْجَدِّ أَرْضَاكَ جَدُّهُ وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شَتَّ أَرْضَاكَ بَاطِلُهُ
يَسْرُكَ مَظْلُومًا وَيَرْضِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَهُوَ فَاعِلُهُ ^(٢)
والشجاعة تقتضى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتردد ولا يتلوم ، وإلا قضى عليه ترده ، وتقاعسه ، فهو يناجز فرساناً شجعاناً ، فلا بد أن يكون قوي الجنان نافذ الرأي ، ذا بصيرة في المآزق .

إِذَا هَمَّ لَمْ تَرُدَّ عَزِيمَةً هَمُّهُ وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ هَائِبًا
إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السِّيفِ صَاحِبًا

(١) الرهل : الاسترخاء ، واللبات : جلبة وهو المنحروم محل الفلادة ، والأبجل : جأجل وهو عرق غليظ يكون في الفخذ والساق .
(٢) أى يأخذ بيدك إذا كنت مظلوماً ويرضيك بمعاونته لك أو النصيحة إذا كنت ظالماً .

أو يكون كما وصفه لقيط بن يعمر الإباضى :

لا مُتَرَفًّا إِنْ رَخِيَ العِيشُ سَاعِدُهُ ولا إِذَا جَلَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعًا
لا يَطْعَمُ النَوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ حِشَاهُ يَقْطَعُ الضَّلْعَا
مُسَهِّدُ النَوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يروم منها على الأعداء مُطْلَعًا
ما انْفَكَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يكون مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا
فليس يَشْغَلُهُ مَالٌ يَثْمَرُهُ عنكم ولا ولد يَبْغَى بِهِ الرَّفْعَا
مُسْتَنْجِدًا يَتَحَدَّى النَّاسَ كُلَّهُم لو صَارَعُوهُ جَمِيعًا فِي الْوَعْيِ صَرَعَا
ثم إنه ذو حيلة ، إذ جدَّ الجدَّ رأيتَه يعتمد على قوة ساعده ، كما يعتمد
على نفاذ بصيرته ، وحسن تأتية للأُمور ، يعرف غايته ، ويتحقق من هدفه
دون تهور أو تبلد .

إِذَا المرءُ لم يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جَدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الْخُطْبُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مَبْصُرُ
فذاك قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حَوْلَ إِذَا سَدَّ مِنْهُ مَنَخْرُ جَاشِ مَنَخِرُ^(١)
إن الحياة فى الصحراء عودته أن يعتمد على نفسه فى الشدائد وأن يسأل
نفسه فى كل أمر : مانصيبى من العمل فيما عرض من الأمور ؟ ، فهو يلقي على
نفسه تبعة ثقيلة ، لا يتواكل أو ينتظر من سواه أن يبدأ العمل ، وإلا قضى عليه .
كل فتى يعتقد أنه المسئول الأول عن شئون نفسه وعشيرته وقبيلته فى الحرب ،
وفى الرفد وإكرام الضيف ، وتحمل الديات ، وفض الخصومات . وإذا بلغ
الأفراد فى مجتمع ما هذا القدر من الشعور بالتبعية زحرت حياة المجتمع بمجلائل

(١) قريع الدهر : المحرب للأُمور . الحول : البصير ذو الحيلة . وسد منه منخر :

أى إذا ضاقت عليه المسالك وجد له منفذاً آخر بحيلته .

الأعمال ، وتبارى الأفراد فى التجويد والإتيان لىتميز بعضهم عن بعض ؛ لأن مجرد العمل لم يعد ميزة . وهذه لعمرى هى الحياة الصحيحة التى تفضى إليها صحة الأبدان والحواس والعقول . وعلى العكس من ذلك المجتمعات الحضرية التى يتواكل فيها الأفراد ، وينتظرون من سواهم البدء ، وتنقلب الأعمال أمانى وآمالاً ، وأحلاماً وخيالات وأوهاماً .

وإذا ضاقت عليه السبل ، ولم يجد من الموت بُدّاً رأى من العار أن يفر ويولّى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعمد إلى حيلته ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، فلعلّ فى ذاك نجاته ، ؛ لأنه لا يدرى إذا هرب كم بقى له من العمر :

ولم ندر إن جِئنا من الموت جِيْصَةً كم العمر باقى والمدى متناول^(١)
إذا ما ابتدرنا مأزقاً فَرَجَتْ لَنَا بأيامنا بيض جلّتها الصياقل^(٢)

إنهم يفضلون الموت على العيشة الذليلة ، والرضا بالضميم كما قال المتلمس :

ألم تر أن المرء رهن منية صريع لعافى الطير ، أو سوف يُرْمَسُ
فلا تقبلن ضيماً مخافة ميته وموتن بها حراً وجلدك أملس
وما الناس إلا ما رأوا وتحذثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا
وفى البيت الأخير يتمثل قانون الحياة العربية ، فالناس فى ميزان الحق : أعمال صالحة يرونها من أنفسهم فيتحدثون عنها ، ويفخرون بها ، فإذا لم يستطيعوا العمل الذى يفخرون به ، ويتحدثون عنه بأن خضعوا ، وفقدوا وجلسوا للضميم فهذا هو العجز .

(١) جِئنا : حدثنا عن الموت

(٢) البيض : السيوف ، والصياقل : ج صقل وهو صانع السيف .

إن الحياة جهاد ، وصراع وجلاد . ومن يغشاها موطنًا نفسه على الفلج والغلبة في معمعتها أو الموت دون هدفه كان النُجح حليفه ، والقوز نصيبه ؛ لأن الإنسان إذا لم يحب الموت وهو في معترك الحياة آثر السلامة ، وتجنب مواطن الظفر ، وسار بلا إرادة تبعًا لتلك المواطن وتلمسها ؛ وخروج المرء عن إرادته يدعوه إلى الخضوع لإرادة غيره من الذين يلتبس إرضاءهم ليحيا . وهذا الضغط على النفس هو الذي يجعل للمرء نقابًا على وجهه فوق رغباته ، وينشئ له خزانة في أسفل عقله يلقى فيها بحطام آماله ، ويقبر بها أمانيه المكبوتة .

ولما كانت نفس العربي سليمة قوية تبعًا لسلامة جوارحه ، وصحة حواسه ، ولم تتعرض لما يفسد فطرتها كانت نفسًا خيرة ، واخير يأبى إلا الظهور والوضوح ؛ ولذلك نرى الفتى العربي ينفر من الضغط على نفسه ، لأن الخير الذي فيه لا يقبله ، وبذلك يأبى الضيم ؛ لأن الضيم في أية صورة من صورهِ نوع من الضغط^(١) ، وإبائه الضيم ونفوره من الذل جعله محبًا للموت ، فخير له أن يموت شجاعًا من أن يعيش ذليلاً جبانًا ، بلا إرادة ، وعند ما يأتي الموت لا يجد له أمنية في الحياة إلا قد قضاها فلا يأسى على شيء في هذه الدنيا ، ولا يحرص على البقاء ، وبهذا صار قويًا عزيزاً .

فإنى في الحرب الضروس موكلٌ بإقدام نفس ما أريد بقضاءها متى يأت هذا الموت لا تُلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

بل إنه يرى في إقدامه على الموت حياة ؛ لأنه سيذكر بالخير إن مات ،
أو ينتصر في المعركة إن عاش :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدماء^(١)
ويقول زيد الخيل :

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي له المكرمات واللهي والمآثر^(٢)
وقومى رهوس الناس ، والرأس قائد إذا الحربُ شَبَّتْها الأُكفُ المساعِرُ
فلست إذا ما الموت حوذِر ورَدُّه وأترع حوضاه وَجَمَعَ ناظِر^(٣)
بوقافةٍ يخشى الختوفَ تهيباً يُبَاعِدُنِي عنها من القَبِّ ضامِر^(٤)
ولكننى أغشى الختوف بصعدتى مجاهرةً إنَّ الكريمَ يُجَاهِرُ^(٥)
ويقول دريد بن الصمة :

أبي القتل إلا آلِ صِمةٍ إنهم أبوا غيره والقَدْرُ يجري إلى القَدْرُ
وتقول الخنساء :

نُهِنُ النفوسَ ، وبذل النفو سِ يوم الكريهة أبقى لها
إن بيع النفوس رخيصة في ميدان القتال دفاعاً عن العرض أودوداً عن الحرمات
هو أقصى ما تصل إليه النفس الإنسانية في شجاعتها ، وهو أكبر دليل على إيمان
ثابت بمصير النفس الإنسانية وتكريمها ، وفي ذلك يقول البرذع بن عدى :

(١) الأعقاب : ج عقب وهو مؤخر القدم ، والكُوم : ج كلم وهو الجرح .
(٢) الحقيقة : كل ما يدافع عنه . (٣) جمع ناظره : من الخوف .
(٤) القَب : إما وسط المعركة أو رئيس القوم ، وضامر : جواد مدرب ضامر
(٥) الصعدة : قناة الرمح .

وأجعل مالى دون عرضى إنه على الوجد والإعدام عرض ممنوع
وأصبر نفسى فى الكريهة إنه لدى كل جنب مستقر ومصرع
ويقول أبو قيس بن الأسلت الأوسى :

لا نألم القتل ويخزى به ال أعداء كليل الصاع بالصاع

ولا بدع إذا وصل العرب فى صحرائهم إلى هذه المنزلة من الشجاعة فإن
طبيعة الخصب والرخاء ، واعتدال المناخ ، ويسر الحياة تميمت فى النفس
الإنسانية حوافز الكفاح والنضال ، فتموت من وراء ذلك كثير من الفضائل ،
ويصبح انكباب الناس على ما تحت أقدامهم من لذات القوت ، ومتع النساء ،
وما يصحب التفرغ فى صيانة هذه اللذات والمتع من شهوة بناء القصور ، وغرس
الحدايق ، وصناعة التحف ، وزخرفة الأوانى عاملاً من عوامل الحرص على
الحياة ، وعدم الرغبة فى المغامرة والمخاطرة ، والجن عن منازلة الأبطال فى
ميادين القتال .

وليس كذلك العرب فى الصحراء ، فلا مجال للاكتناز والغنى المفرط ،
وليس ثمة قصور ودور وإنما هى أخبية تطوى ومتاع قليل . أضف إلى هذا
إيمانهم — من واقع الحياة — بأن الأجل محدود ، لا يغنى فيه حذر من قدر ،
ولا ينفعهم تقاعسهم فى ميدان القتال شيئاً . كل هذا جعلهم يتخذون من
الموت سبيلاً للحياة ، وملاً قلوبهم شجاعة فائقة واستهتاراً بالمخاطر . ولعل
عنترة قد عبر عن هذا المعنى أجمل تعبير وأتمه بقوله :

بكرت تخوفنى الختوف كأنتى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقتنى حياءك لا أباك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل
كانوا يقتتلون على الماء والمال والغنيمة ، والقتال على الماء والغنيمة قانون
الفطرة فى بقاء الأصلح ، وكانت العصبية القبلية شديدة بينهم ؛ حتى لا يذلوا ،
ويتخطفهم الناس من حولهم ، وتستباح حرماهم ، وينتهك حماهم ^(١) . ولقد
عبر عن هذا المعنى عمرو بن براقة بقوله :

ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعش ذا غنى أو تخترمه الحارم
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفأ حمياً تجتنبك المظالم

وكانت كل معركة تستتبع ثاراً ، وكل ثار يلد معركة ، والثار كان حق
الأبناء للآباء أو حق الآباء للأبناء ، أو المرء لعشيرته وذويه ، أو القبيلة
لأفرادها المدافعين عنها حتى لا تهان وتستذل وتستأصل .

ولولا الحروب على الثأر ما استرجع المهزوم مكانه من النصر بعد الهزيمة ،
وما شفى الموتور صدره من حفيظة الوتر ، وما أخذ الوافون بالود حقوق
الذاهبين من خلائهم وحلفائهم وإخوتهم ، فلا تذهب الجناية بدون
قصاص ^(٢) .

ولذلك كثرت حروبهم وتعددت أيامهم ، وفى الحروب مران على أعمال
الفتوة ، وإظهار مزايا الشجعان وحسن بلائهم . لقد كانوا يفرحون بالخطوب
والشدائد ؛ ففيها امتحان لشجاعتهم ، وبلاء لمقدرتهم على مقارعة الحوادث

وصلاحهم للبقاء والسيادة ، وتنويه بذكرهم بين قومهم وسواهم ، وفيها غزوة لهم
ولقبيلتهم ، فيهاها الأعداء ، ولا يطمعون فيها . وفي الخطوب مغنم عاجل ،
ومجد آجل ، فلا تعجب إذا سمعت شاعرهم يقول :

ما تعتريني من خطوب مُلْمَةٍ إِلَّا تَشْرَفْنِي وَتَعْظُمُ شَأْنِي
أَوْ مَا يَقُولُ الْآخَرُ :

وَإِذَا حُمِلْتُ عَلَى الْكَرِيهَةِ لَمْ أَقْلُ بَعْدَ الْعَزِيمَةِ لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ
كَانَ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ يَتَقَنَّمُ الْخُطُوبَ بِقَلْبٍ ثَبَتَ ، وَشَجَاعَةً بِالْفَاغَةِ الْمَدَى ،
وَاثِقًا مِنْ شَجَاعَتِهِ وَبَأْسِهِ وَدَرَبَتِهِ وَحَنَكَتِهِ فِي حُمَيَّا الْقِتَالِ ؛ إِنَّهُ يَبْغِي مِنْ
اِقْتِحَامِهِ الْمَكَارِهِ الْحَمْدَ وَالصِّيتَ ، وَالْبَقَاءَ فِي غَزَاةٍ وَحَرِيَّةٍ :

إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّمَتْ غَمْرَةٌ يَهَابُ حُمَيَّاها الْأَلْدُ الْمُدَاعِسُ ^(١)
لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرَ إِنِّي لَخَادِمٌ لَضَيْفٍ ، وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارَسٍ
وَإِنِّي لِأَشْرَى الْحَمْدِ أَبْغَى رَبَّاحِهِ وَأَتْرَكَ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعَسٍ
وَلَا يَبْغِي اِقْتِحَامَهُ الْخُطُوبَ وَحِبَهُ الْمَوْتَ تَهَوُّرًا وَطِيشًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِلَى
شَجَاعَتِهِ هَذِهِ حَذَرًا يَقْطَظُ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ ، لَا يَسْتَسْلِمُ لِسُلْطَانِ الْغَفْلَةِ ، وَإِذَا
أَنْهَكَهُ التَّعَبُ وَلَعِبَ بِخَفَوْنِهِ النَّوْمَ لَا يَخْضَعُ لَهُ خُضُوعٌ مَنْ يَتْرَكَ أَرْزَمَةَ أَمْرِهِ فِي
يَدِ الْمُقَادِيرِ وَالْفُرْصِ ، وَلَكِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُ بِحَذَرٍ ، وَيَهْبُثُ مِنْ سِنْتِهِ حِينَ يَجِدُ
الْجِدُّ سَوِيًّا قَوِيًّا :

وَإِذَا يَهْبُثُ مِنَ الْمَنَامِ رَأَيْتَهُ كَرْتُوبٍ كَعَبِ السَّاقِ لَيْسَ بِزُمْلٍ ^(٢)

(١) خَام : جين ، والغمرة : الشدة . والحما : الشدة كذلك ، والألد : الشديد
الخصومة . المداعس : من الدعس وهو الطعن .
(٢) الرتوب : القيام والانتصاب ، والزمل : الضيف .

ما إن يَمَسُّ الأرضَ إلا منكَبٌ منه ، وحرَفُ الساقِ طَيَّ المَحْمَلِ
 وإذا رميت به الفجَّاجَ رأيتَه يَهْوِي مخارمِها هُوِيَّ الأَجْدَلِ^(١)
 وإذا نظرت إلى أسرة وَجْهَه بَرَقَتْ كبرقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ
 صعبُ الكريهةِ لا يرامُ جنباهُ ماضى العزيمة كالْحَسامِ المِقْصَلِ
 يحمى الصَّحابَ إذا تكونُ كريهةٌ وإذا هُمُ نزلوا فمأوى العَيْلِ
 إذا هبَّ من نومه رأيتَ رتوبه وقيامه وانتصابه في استوائه وشدته مثل
 كعبِ الساقِ ، لا لين فيه ولا ضعف ، كأنه الرمحُ الردينى صلابه ومثانة . إنه
 ينام نومًا عجبا فيمسُ الأرضَ بأحدِ منكبيه وبحرفِ ساقه ، لا يستغرق في نومه
 أو يستلقى على ظهره ، ثم هو غير سمين بل تراه مطويا كأنه حمالةُ السيف ؛
 وإذا قذفت به في فجَّاجِ الأرضِ وطرقها الواسعة رأيتَه يَهْوِي وينقض على
 جبالها كأنه الصقرُ العتيد . وإذا نظرت إلى وجهه رأيتَه مشرقًا كأنه البرقُ
 الساطع ، لم تنل منه الصعابُ أو تكفكف من غربه الأسفار ، وهو في الحربِ
 صعبُ المراس شديدُ الوطأة ، لا ينال جنباه أحدُ لمناعته ، وهو ماضى العزيمة
 كالسيفِ القاطع ، وهو عمادُ أصحابه يومَ الوغى ، يذود عنهم لفرطِ شجاعته وقوةِ
 عزيمته ، ومثانة ساعده ، وخبرته بالحروب وتحملة التبعات ، وهو مأواهم إذا
 نزلوا ، يغدق عليهم من سيبِ يده ، وفضلِ كرمه .

ولم تكن البيئة الصحراوية وحدها هي التي أكسبتهم هذه الصفات
 الحميدة ، والشجاعة المثالية ، ولكن كان للأمهات العربيات فضل كبير في
 تنشئة أولادهن طلابَ مجد ، وأمثالاً عالية في الشجاعة ، فالمرأة كانت تدرك

(١) مخارم : > مخرم وهو منقطع أنف الجبل ، والأجدل : الصقر .

قيمة الشجاعة في هذه البيئة الوعرة ، وما يكتنفها وقيلتها من أخطار تهددها في كل حين ، وهي تدرك كذلك قيمة الفتى الشجاع عند القبيلة ، وأنها تنتظره ليزود عنها ، ويدراً كيد أعدائها ، ويكسب لها المجد والشرف ؛ فلا يُسبى نساؤها ويمتهن فتياتها ، ويستذل شيوخها ، ويهزم رجالها ، ولذلك كانت ترضعه مع لبنها صفات المجد ، وطلب السؤدد ، فينشأ والرجولة ملء إهابة والعزة تفيض من فؤاده ، والأنفة من الصغائر والصغار ترتسم على صفحات وجهه .

كانت المرأة العربية ترقص ولدها بأشعار ناصعة جميلة ، توحى له بالخير ، وتغريه بالجد . استمع إلى « شيماء » ترقص محمداً الكريم في بادية بني سعد :

يا ربنا أبق لنا محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً
ثم أراه سيّداً مُسَوّداً واكبت أعاديه معاً والخسداً
وأعطاه غنماً يدوم أبداً

واستمع إلى أم الفضل بنت الحارث ترقص ولدها عبد الله بن العباس :

ثكلتُ نفسي وثكلتُ بكرى إن لم يسد فِهماً وغير فِهم
بالحسب الوافي وبذل الوفى حتى يوارى في ضريح القبر

واستمع إلى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ترقص ولدها معاوية بقولها :

إن بُنيَ مغرِقٍ كريمٍ محببٌ في أهله حلیم
ليس بفحاش ولا لئيم ولا بطخور ولا سئوم^(١)
صخرُ بني فهرٍ به زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم^(٢)

(١) الطخور : الضعيف غير الجلد .

(٢) يخيم : ينجس . وصخر بني فهر : هو صخر بن حرب أبو سفيان والمعاوية .

وكانت « منقوسة » بنة زيد الخليل ترقص ولدها من دريد بن الصمة فتدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها في الفروسية والبطولة . وكانت ترى أن أباه « زيد الخليل » أكبر من أن يدركه ابنها من دريد بن الصمة ، فكانت ترقصه وتقول له :

أشبه أخى أو أشبهن أباك أما أبى فلن تنال ذاك
تقصر عن مناله يداك

وإذا كانت المرأة موقورة نشأت ولدها تنشئة طالب التأثير ، ولقنته منذ حدثته الأولى كيف ينتقم من أعدائه وأعداء أمه وعشيرته ، وهامى ذى « كنزة المنقرية » تغذى ولدها « شملة » أفويق الوتر والقصاص فى قولها :

فإن يك ظنى صادق وهو صادق بشملة يحبسهم بها محبساً أزلاً^(١)
فيا شملُ شمرٍ واطلب القوم بالذى أصبت ، ولا تقبل قصاصاً ولا عقلاً^(٢)

لم يكن هؤلاء النسوة يدللن أولادهن ذلك الدلال الذى يضعف شخصيتهم ويسىء إلى مستقبلهم ، بل كن يدفعن بهم إلى طريق الشرف ، والرئاسة ، واحتذاء آثار الأبطال ؛ ولذلك ظهر بين العرب كثير من الفتيان ذوى الشخصية القوية ، والنفوس المعدة لتسم ذروة المجد ، ولا أدل على ذلك من تلك الشخصيات العظيمة الباهرة التى اشتهرت فى الإسلام حين دانت للعرب دولٌ عتيقة ، وتطلب الحكم الجديد خبرة ومهارة ، وعقولاً نيرةً فتجلت تلك العبقریات الكامنة ، وظهرت على مسرح التاريخ متألفة على غير مثال

(١) أزلاً شديداً ، أى أنه سيحيط بالأعداء ، ويحصرهم ويثأر منهم .

(٢) أى لا يقبل الدية .

سبق في قيادة الجيوش ، والقضاء ، والخلافه ، والتنظيم المبكر . ولا شك أن هذا كله يرجع إلى النشأة الأولى ، وإلى الحياة التي تشربتها نفوسهم في الحداثة : حياة تجعل منهم شخصيات بارزة ، فكثرة الرعاية والتدليل للأطفال في حدائهم تخرج شخصيات ضعيفة ^(١) ، وهذا ما لم يفعله نساء العرب مع أولادهن .

ومما دعا إلى كثرة الشجعان بين العرب امتداح الرأي العام للشجاع القوى الذي يلي النداء زميلاً إذا دُعِيَ للنجدة أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه في محنة . وللرأي العام سلطان قوى يتأثر به الفرد وتتأثر به الجماعة . والعرب كانوا يمتدحون الشجاع ، ويهزءون بالجبان الهيابة الرعيد ، الذي يخيم عن الذود عن المحارم ، وينكص على عقبيه في حومة الوغى .

إذا فكر شخص ما في نفعه الخاص أو نفع جاره القريب دفعه الرأي العام ، والحرص على مصلحة المجموع إلى أن يبعد هذه المنفعة الخاصة ، وأن يضحي بماله أو بنفسه في سبيل الجميع ، إن القبيلة تستطيع مجتمعة أن تسحق الخسيس النذل الجبان ، وأن ترفع إلى أوج الشهرة والفخر هذا الذي غامر بحياته في سبيلها ^(٢) ، فأى فتى يحجم إذا كان لابد من الأقدام إلا من تبدل حسه ، وفسدت نفسه ، والعرب كانوا على النقيض من ذلك تهيبهم البيئة وتعددهم الأمهات ، ويدفعهم الرأي العام لأن يكونوا نماذج خيالية في الشجاعة والاستهتار بالموت .

لقد اعتنى العرب — كما رأينا — بأجسامهم ، فاكتملت قوتهم ، وعظم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, P. 237.

(2) Anthropology. by Sir E. B. Tylor. Kt. V. II. P. 137.

احتمالهم للخطوب والشدائد ، وتعودوا خوض الغمرات والحن ، واستهانوا بالحرب والموت . وقد تطلبت منهم الحروب الكثيرة التي شبت بينهم أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال . وأول هذه العدد — بعد القوة الجسمية — جوادٌ أصيلٌ ، يعرف كيف يصبر في المعركة ، والسيوف تقعع وتلمع من حوله ، والسهام تصب عليه ، ويعرف كيف يقدم ، ويشق حجب الغبار ، ويكر بصاحبه ، لا يجفل أو يكبو أو يرتد عن المعركة .

شديد مجامع الكتفين طِرْفٌ به أترُ الأسنة كالعلوب^(١)

ولهذا اعتزوا بالخييل ، وعرفوا لها منزلتها ، وعدوها بمثابة أولادهم ، وكان يهنيء بعضهم بعضاً إذا ولدت فرس ، ويحتفلون بمقدم المهر المولود احتفالاً يدل على عظيم مكانتها في قلوبهم ، فحينما تضع الفرس وليدها تجتمع الأسرة حولها ، وتستقبله بالصياح والتهليل وإمارات الفرح ؛ لأنه هبة من الله وبركة منه ، ثم يأخذه أحد أفراد الأسرة بين ذراعيه ، ويسير به مدة في موكب صاخب . وبهذه الطريقة يتعود المهر منذ نشأته الأولى ألا يخاف شيئاً ، وأن يكون هادئاً وسط الميدان وقعقة السلاح وجلبة الجيوش ، ثم يعود به إلى أمه ، وهنا يقول رب الأسرة اللهم اجعل الوليد مصدر سعادة وبركة وصحة لنا ، فيؤمن أفراد الأسرة على دعائه^(٢) .

ولقد فضلها بعضهم على أولاده ، يجوعون ولا تجوع . ولا بدع فهي التي تحمي الأسرة ، وتجلب لها الرزق ، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله .

(١) البيت لضبعة العبسي . الطرف : الكريم من الخيل ، والعلوب ، تلم السيف .

(٢) Général Daumas. Les chevaux du Sahara. P. 91.

مفداة مكرمة علينا —————
يجمع لها العيال ولا تجاع^(١)
ومما يدل على إعزازهم لخيولهم الأصيلة أنهم كانوا يضمنون بها أن يختلط
نسبها بغير الأنثا المعركة في النسب ، بل يختارون لها إناثاً مشهورة معروفة
بنجابتها .

وإن اختيار أنثى غير منسبة لجواد أصيل كتزويج رجل أبيض شريف
من زنجية دميمة^(٢) .

ولا عجب فأنخيل من أقوى عدد العربى وسط الصحراء ، وهى التى
تجلب لهم الخير .

الخير ما طلعت شمس وما غربت معلق بنواضى الخيل معقود

وهى معاقلم التى يلجئون إليها إذا جد الجد ، كما قال لبيد :

معاقلم التى نأوى إليها ————— بنات الأعوجية والسيوف^(٣)

ولذلك قال أخو بنى عامر يحذر قومه من أمهلم لخيولهم ، وعدم عنايتهم
بترويضها ، وإعدادها فى كل آونة لخوض غمرات القتال :

بنى عامر : ماذا أرى الخيل أصبحت بطاناً ، وبعض الضر للخيال أمثل

بنى عامر إن الخيول وقاية لأنفسكم والموت وقت مؤجل

أهينوا لها ما تكرمون وباشروا صياتها ، والصون للخيال أمثل

(١) البيت لعبيدة بن ربيعة التميمى وقد طلب منه أحد الملوك فرسه (سكاب)

فنعها منه وقال قصيدته المشهورة :

أبيت اللعن إن (سكاب) علق نفيس لا يعار ولا يساع

(٢) Delard, L' Art équestre 1859

(٣) الأعوجية : نسبة إلى أعوج جواد أصيل مشهور عند العرب .

متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل
ومما يدل على عنايتهم بالخليل ، وإعزازهم لها تمييزها بأسماء ، كأنها أناس
عاقلة ولا سيما العتاق منها ، وقد كان لزيد الخيل ستة جياد أشاد بها في شعره
وهي : الهصّال ، والكُميتُ ، والورد ، وكامل ، ودؤول ، ولاحق . ومن
الخيول المشهورة أعوج ، والوجيه ، وداحس ، والغبراء ، والنعامه وغيرها ،
وقد ألف أكثر من كتاب في الخيول المنسبة المشهورة ، وكانت كتب الخيل
من أول ما ألف في العربية ^(١) .

وقد بلغ من معزتهم لها أنهم كانوا يذودون عنها في حومة الوغى ؛ لأنها
تخوض بهم المعركة ، فإذا أصابها شيء ضعف الفارس ، وقلت مناعته ، ولذا
وجب عليه حمايتها .

أقيه بنفسى في الحروب وأتقى بهاديه إني للخليل وصول ^(٢)
فهذا الفارس يرى في الجواد خيلاً له ، وأى خليل أصدق من هذا الذى
يرافقه والموت دان ، والسيوف تقطر منها المنايا ، ويصبر معه على السراء ،
وينجيه من البأساء ، ويتبادل وإياه المنفعة على حد قول ضبيعة العبسى :
يقينى باللبان ومنكّيه وأحميه بمطرّد الكعوب ^(٣)
وأدفيه إذا هبت شمالٌ بليلٌ حَرَجَفٌ عند الغروب ^(٤)

(١) راجع كتاب نخبة عقد الأجياد فى الصافات الجياد تأليف محمد باشا نجل الأمير
عبد القادر الجزائرى ، وراجع كذلك مشاهير الجياد فى الجاهلية والإسلام لأحمد زكى باشا
وراجع بلوغ الأرب للألوسى الجزء الثانى ، والعقد الفريد ، والأغانى وغيرها .
(٢) هادى الفرس : صدره وعنقه .

(٣) اللبان : الصدر ، ومطرّد الكعوب : الرمح .

(٤) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب ، والبليل . المبلولة من الندى .

أقول آخر :

أتقى دونه المنيا بنفسي وهو يغشى بنا صدور العوالى
فإذا مت كان ذاك ترائى وسخالا محودة من سخالى^(١)

وكان الجواد يخوض المعمة كما يخوضها الفارس ، ويصبر على حرها ، إذا
كان أصيل العرق . يُشخَن بالجراح فلا ينفر ، أو يلين ، كما وصفه
عنتره بقوله :

إذ لا أزال على رحالة ساج نهدي ، تعاورة الكماة مُكَلِّم^(٢)
ما زلت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بكرة وتحمحم^(٣)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكن لو علم الكلام مكلمى

بل كانوا يعودون الخيل أن تطأ القتل ، وتجهز عليه ، مثل فرس زيد
الخيال الذى ظلع فى أثناء المعركة فأخذه بنو الصيِّداء فصلح عندهم فناشدهم زيد
الخيال أن يردوه وقال لهم :

يا بنى الصيِّداء ردوا فرسى إنما يفعل هذا بالذليل
لا تُذيلوه فإنى لم أكن يا بنى الصيِّدا لمهرى بالمذيل^(٤)
عودوه كالذى عودته دلج الليل وإطاء القتل^(٥)

(١) السخال : ج سخلة وهى ولد الشاة .

(٢) الرحالة : سرج من جلد أنشاة . نهدي : غليظ ، تعاورة : هذا يطعنه مرة ، وذاك
أخرى ، والكماة : ج كمي وهو التام السلاح . ومكلم : به كلوم وجروح كثيرة .

(٣) ازور : مال ، ولبانه : صدره . (٤) أذاله : أهانه ولم يحسن القيام عليه .

(٥) انظر مهذب الأغاني ج ٢ ص ٧٩ .

ويقول زيد الخيل واصفاً إحدى غاراته على بني فزارة ، ومشيراً إلى ما قام به جواده في المعركة :

فما زلت أرميهم بعرّة وجهه وبالسيف حتى كلّّ تمّتي وبلّدا
إذا شكّ أطرافُ العوالى لبّانه أقدمه حتى يرى الموت أسودا
كانت الخيل جنةً الفرسان في حومة الوغى ، يعدون بها ويكفرون ،
وتحميهم من طعنات الرماح ، وحده الطّبي . وإذا اشتدت المعركة وحى
وطيسها ، وضاق المعتزك نزلوا عن الخيول ، وهم لا ينزلون عنها إلّا إذا كانوا
شجعاناً واثقين من قوتهم وفتوتهم ، وخبرتهم باستعمال السيوف ، فلا ينزل
إلّا أولو البأس والنجدة والشدة . استمع إلى ربيعة بن مقروم يصف فرسه في
المعركة ، وكيف نزل عنه حين دُعى للنزول :

وإذا جرى منه الحميم رأيته يهوى بفارسه هوىّ الأجدل^(١)
وإذا تعلل بالسياط جيادها أعطاك ثائبه ولم يتعلل^(٢)
ودعوا نزال فكنتُ أوّل نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
فهم لشجاعتهم لا يعتصمون بظهور الخيول ، بل حالمهم في القتال على الخيل
كحالمهم بدونها ، ومن أنس في نفسه الشجاعة والمقدرة على القتال وهو راجل
نزل ، ومن رأى أنه في مأمن على ظهر جواده ، وأنه إن نزل لن يكون
مفلجاً اعتصم به ، ولذلك كان من دواعي فخرهم أن ينزلوا عن الخيل حين
تشتد المعركة ، ويلتحم الفريقان ، ويضيق المجال أمام الجياد حتى لا تستطيع

(١) الحميم : العرق ، وهو أيضاً الماء الحار . الأجدل : الصقر .

(٢) إذا كانت بعض الخيول تحتاج لأن تضرب بالسياط فجواده لأصالته يعطيه خير

ما عنده من العدو دون حاجة إلى تعلقة أو ضرب أو حت .

العدو ، وفي هذا يفتخر المهلهل بقوله :

لم يُطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا

ومدح النابغة بنى غسان بقوله :

إذا استنزوا عنهم للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب^(١)

هكذا كانت الخيل عند العرب أصيلةً مُعَرِّقةً ، متخيرةً ، قويةً ، متينة التركيب ، تلائم الفتي القوى الصُّلب ، الذي أعد نفسه لمحيا الحروب وأوارها :

والحربُ لا يبقَى لها محمها التَّخيلُ والمِراحُ

إلاَّ الفتي الصَّبَّارُ في الد جدات والفرسُ الوقاح^(٢)

والكر بعد الفر إذ كره التَّقدم والنَّطاحُ

ولذلك كانوا ينشئون الخيول تنشئة خاصة :

تَمِيمُ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمِلْ خَلْقَهُ فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ^(٣)

ويحتاج الفتي لاستكمال عدة الغلبة والظفر بعد قوته الجسمية ، ومرانه على احتمال المشاق ، وخوض المكاره ، وبعد جواده الفاره المعرق السباق ... إلى شِكَّة تامة يعدها للنائبات : سيف عَضْبٌ ، ورمح لَدْنٌ ، ودرعٌ سابغة ، وبيضة تلمع ، كما أعدَّ عبد القيس بن خُفَّاف البرُّجُمي عدته حين قال :

وأصبحتُ أعددت للنائباً ت عرضاً بريئاً وعَضْباً صقيلاً^(٤)

(١) أرقلوا : أسرعوا . والمصاعب : ج مصعب وهو الفحل من الإبل .

(٢) الوقاح : الشديد الخافر . (٣) فلوناه : فطمناه .

(٤) العضب : السيف القاطع ، وصقيلاً : مصقولاً لا معاً مجلواً .

ووقعَ لسانٍ كحدِّ السَّنانِ ورمحاً طویل القناة عَسُولا
وسابغة من جیاد الدَّرو ع تسمع للسيف فيها صلیلا
کمن الغدير زهته الدَّبور یجرُّ المدجَّج منها الفضولا
وقد یزید فی عدته القوس والسهم لیرمی بها ، ولیکون کامل الشَّکة
محتاطاً لكل ما یطرأ علیه مثل حُسَّیل بن سُجَّیح الضَّبِّي حین أعد نفسه :
بمطرَدٍ لَدُنِ صحاحِ کعوبه وذی رونق عَضْب یقْد القوانسا
وبیضاء من نسج ابن داود نَثرةً تخیرُها یوم اللقاء الملائسا
وحِرمیة منسوبةً وسلاجِم خِفافِ ترى عن حدها السَّمَّ قالسا
فعدته رمح مستقیم لدن یمتز فی یده ، صحاح کعوبه ، وسيف له رونق
وماء ، قاطع بتار یقْد أعلی الخوذات ، ودرعٌ بیضاء عریقة فی القدم من
نسج سلیمان بن داود محكمة النسج حتی ترد السهم والطَّی ، وقد تخیرها یوم اللقاء
مَلْبَسَه ؛ ثم قوس متخذة من شجر الحَرِم فهي متینة نادرة ، وهي كذلك
منسوبة معروفة الأصل ، وسهم طوال ، خفاف ، تقذف السَّمَّ ، كما وصفها
سويد الیشکری بقوله :

وارتمینا والأعادی شُهَدُ بنبالٍ ذات سم قد تقع
هذه كانت شِکَّة الفارس وعدَّته كما قال زید الخیل :

یومَ لا مال للمحارب فی الحر ب سوی نصر أَسْمَرَ عَسَّالٍ^(١)
ولجامٍ فی رأسٍ أجردَ کالجذ ع طوالٍ وأبيضَ قَصَّالٍ^(٢)

(١) الأسمر : الرمح . العسال : الذی یمتز یصفه بأنه لدن حتی لا ینقصف .

(٢) أجرد : قصیر الشعر وهي من صفات الجودة فی الخیل . قصال : قاطع من

صفات السیف .

وَدِلَاصٍ كَالنَّهْيِ ذَاتَ فَضُولٍ ذَاكَ فِي حَلْبَةِ الْحَوَادِثُ مَالِي^(١)

أَوْ كَمَا قَالَ مَالِكُ بْنُ كَعْبٍ الْخَزْرَجِيُّ الْأَزْدِيُّ يَصِفُ عُدَّتَهُ :

عَلَى فُضْفَاضَةٍ كَالنَّهْيِ سَابِغَةٌ وَصَارُمٌ مِثْلُ لَوْنِ الْمَلْحِ مُصْقُولٌ

وَلَدَنَةٌ فِي يَدٍ سَمَرَاءُ تَقْلِبُهَا بِعَامِلٍ كَشَهَابِ النَّارِ مُوَصُولٌ

أَوْ عِدَّةُ عَمْرُو بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَعْدَدْتُ لِلْحَدِثَانِ سَابِغَةً وَعَدَاءٌ عِلْنَدِي^(٢)

نَهْدًا وَذَا شُطْبٍ يَقْدُ الدُّ الْبَيْضَ وَالْأَبْدَانُ قَدًّا^(٣)

وَلَعَلَّكَ تَتَخِيلُ فَتَيَانَ الْعَرَبِ وَهُمْ فِي سِلَاحِهِمْ هَذَا :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَانَهُمْ فِي الْبَيْضِ وَالْحَلْقِ الدِّلَاصِ نَجُومٌ

وَقَدْ يَطُولُ لِبَسَهُمْ لِهَذِهِ الْعِدَّةِ ، فَتَصْدَأُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ ، وَقَدْ تَكُونُ لَهَا

رَاحَةٌ كَرِيهَةٌ كَمَا وَصَفَهُمُ النَّابِغَةُ بِقَوْلِهِ :

سَهَكِينَ مِنْ صَدَأِ الْحَدِيدِ كَانَهُمْ تَحْتَ السَّنَوْرِ جَنَّةُ الْبَقَارِ^(٤)

وَالسَّهْكَ هِيَ الرَّاحَةُ الْكَرِيهَةُ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْعَرَقِ بِالْحَدِيدِ

وَصَدَأُهُ ، وَالسَّنَوْرُ السِّلَاحُ التَّامُ . فَكَأَنَّهُمْ بِرَأْسِهِمْ هَذِهِ ، وَسِلَاحُهُمُ الْكَامِلُ

جَنَّةُ وَادِي الْبَقَارِ .

وَكَانَ الْعَرَبُ عَامَةً يَعْنُونَ بِالسِّلَاحِ ، وَيَحْبُونَ اقْتِنَاءَهُ ، وَيَفْتَنُونَ فِي

اخْتِيَارِهِ . وَلَا عَجَبُ فَإِنَّهُمْ فِي بَيْئَةِ تَقْدَرُ السِّلَاحَ وَمَنْفَعَتَهُ ، فَفَضْلًا عَنْ أَنَّهُ

(١) الدِّلَاصُ : الدرع المساء ، والنهْيُ : الجدول . ذَاتَ فَضُولٍ : سَابِغَةٌ .

(٢) عِلْنَدِي : غليظ شديد يصف جواده .

(٣) نَهْدًا : ضخمًا طويلًا . الْبَيْضُ : الخوذة ، وَالْأَبْدَانُ : الدروع .

(٤) الْبَقَارُ : وادى اشتهر بأن الجن تسكنه .

عدتهم في الحروب ، فإنه جدُّ ضرورى لهم في الصيد ، وللصيد في جزيرة العرب منزلته فكثيراً ما يحتاجونه لغذائهم ، بل إن منهم من يعتمد عليه في معيشتة : يصطادون الظباء وحمير الوحش ، والوعول البرية ، وبقر الوحش وغيرها .

ومما يدل على عظيم مكانة السلاح عندهم أنهم يقرنونها بأحب شيء لديهم وهو النساء ترى ذلك في تشبيهاتهم ، فالقوس إذا رنت وخرج عنها السهم ذكرتهم بالنسكلى المعولة كما يقول الشنفرى :

إذا زَلَّ عنها السَّهم رنَّتْ كأنها مِرْزَاةٌ تُكَلِّى تَرَبُّهُ وتُعَوِّلُ
ونظرات المحبوبة تُصمى كما تصمى السهام ، والرمح في لدونه وسمرة يشبه المحبوبة في عودها . حتى وصفوا المحبوبة بأن قدَّها سَمَهْرِيٌّ ، والسَمَهْرِي هو الرمح نسبة إلى سَمهر صانع الرَّماح .

أما السيوف فإذا لمعت فإنها تذكرهم بابتسامة الحبيبة كما قال عنتره :
ولقد ذكركِ والرمَّاح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثعرك المتبسّم
ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على سواها ، ويعدونها أفضل أسلحتهم :

ولو سُئِلْتُ عَنَّا جَنُوبَ خَلْبَرْت عَشِيَّة سالت عَقْرَاءَ بها الدم (١)
عَشِيَّة لَا تَغْنَى الرَّماح مَكَانَهَا وَلَا النُّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفِي المصمّم (٢)
وفى ذاك يقول عنتره :

(١) عَقْرَاء : منزل من أرض اليمامة قريب من قرقر .
(٢) المشرقي : الأصح أنه نسبة إلى مشارف الشام وهى قرى قريبة من الريف الشامى واحدها مشرف مثل خير ودومة الجندل .

أكر على الفوارس يوم حرب ولا أخشى المهندة الرقاقا
وتطربني سيوف الهند حتى أهيهم إلى مضاربها اشتياقا
ولقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن السلاح ، فقال :
يسأل أمير المؤمنين عما بدله . قال : ما تقول في الترس ؟ قال : هو الجن ،
وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانك
فانقص ، قال : فالنبل ؟ قال : منايا تخطى وتصيب . قال : فما تقول في
الدرع ؟ قال : مثقلة للراجل ، مشغلة للفارس ، وإنها لحصن حصين ، قال :
فما تقول في السيف ؟ قال : هناك لا أم لك . فضر به عمر بالدرة ، وقال : بل
لا أم لك ^(١) .

ومما يدل على محبتهم للسيف كثرة الأسماء الدالة عليه ، حتى قاربت
المائة ، وكانت هذه الأسماء صفات ، والصفات تكثر للشيء حين تزيد
العناية به ، والتغنى بمحامده وآثاره ، ولا عجب فكثيراً ما احتكموا للسيف في
خصوماتهم كما قال الشميذر الحارثي :

ولكنَّ حكم السيف فيكم مسلطٌ فرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
ولقد بالغوا في امتداح سيوفهم ، فوصفوها بالحدة ، وقوة المضاء والقطع ،
قال النابغة :

فيهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم يبيض رِقاق المضارب ^(٢)
يطير فضاءً بينها كلُّ قونسٍ ويتبعها منهم فراش الحواجب ^(٣)

(١) العقد الفريد ص ٥٠ . (٢) البيض : السيوف .

(٣) فضاءً : ما انفض وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التي توضع على الرأس . من
الفلوذ ونحوه . وفراش الحواجب : العظام الرقيقة التي تكون في أسفل الجمجمة فوق الحنك
والخلق . والضمير في يتبعها يعود على (كل قونس) .

فالسيف لحدتها ، وقوة ضرباتهم بها تطير كل بيضة من الفولاذ قطعاً ،
و بعد أن تطيح بالخذوة تطير العظام الرقيقة للجمجمة ، وليس ذلك فحسب ،
بل إنها :

تَقْدُ السَّلَوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسِجُهُ وتوقد في الصُّفَّاح نَارَ الحِجَابِ (١)

فهذه السيف لمضائها ، وشدة الضرب بها تقطع الدروع المضاعفة
النسيج ، ثم تنفذ من بدن العدو ، حتى تصل إلى الأرض فتقذح الشرر من
الحجارة العراض .

على أن مثل هذه القوة التي مكنت الفارس العربي من أن يقدر بحد
سيفه درع خصمه وينفذ إلى بدنه حتى تصل ضربته إلى الأرض ، وتقذح
بها الشرر قد ادعى مثلها لشارلمان « فقد قَدَّ الفارس وفرسه بضربة من حد
سيفه ، مع أنه كان لابساً درعاً يغطي كل جسمه من قمة رأسه إلى أخمص
قدميه (٢) » .

وكان الفتي العربي إذا رأى أن خصمه قد حاد عن طريقه ، وتجنب
ظُبة سيفه ، هجم عليه حتى يصل إليه ، وهذا منتهى الشجاعة والبأس . استمع
إلى شاعرهم يقول :

إذا الكُماة تنحَوْا أن يُصِيبَهُمْ حَدُّ الظُّبَاةِ وصلناها بأيدينا
ونركبُ الكُرَّةَ أحياناً فيفرجه عنا الحفاظ وأسيافُ تواتينا

(١) السالوقي: الدرع نسبة إلى سلوق من ساحل أنطاكية بالشام ، والدرع مؤنثة
وقد تذكر كما هنا . والصفاح : الحجارة العراض . والحجاب : ذئب له شعاع بالليل .

(٢) Chateaubriand, Etudes Historiques, étude Sixième : Moeurs (١)
des barbares.

وإلى الأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي :

وإن قَصُرَتْ أسيافُنَا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وفي الحق إن الفتي العربي كان في شجاعته ، واستهتاره بالموت منقطع النظر ، لو رأيته وقد حمى الوطيس وهو يحول ويصول ، ويقتحم غمرات الموت ، ويتحدى أسباب المنيّة في جرأة وقوة لحسبته من الجن .

فإنك لو رأيت الخيل تعدو عوايس يتخذن النّقع ذِيلاً

رأيت على متون الخيل جنّاً تفيّد مغانماً وتقيّد نَيْلاً

أو كما قال النابغة :

بكلِّ مُجَرَّبٍ كالليث يسمو على أوصال ذِيَالٍ رِفَنٍ^(١)

وجُرْدٍ كالقِداحِ مُسَوِّمَاتٍ عليها معشر أشباه جنٍ^(٢)

أو لحسبته أسداً يذافع عن أشباله وعرينه ، أو بحراً متدفقاً ، أو سيلاً جارفاً على حد قول عوف بن عطية بن الخرج :

ألم تر أننا مرْدَى حروب نَسِيلُ كأننا دُفَاعُ بَحْرٍ^(٣)

ونلبس للعدو جُلُوداً لود أسد إذا نلقاهم وجلود نمر

أو قول خدّاش بن زهير بن ربيعة :

فعاثنا الكُئمة وعاثقونا عراك النمر واجهت الأسود

كان الفتي إذا قويت مُنته ، وكلت عُدتّه ، ولبيّ نداء الواجب في ميدان

(١) الأوصال : ج وصل وهي المفاصل . وذيال : كثير شعر الذيل ، ورفن : طويل الذيل .

(٢) الجرد : الخيل القصيرة الشعر في جسدها وهو من علامة العتق . شبه الخيل الناضرة بالسهم ، ومسومات : معلمات ، لما دراية بالحرب .

(٣) مرْدَى حروب : تقذف بأنفسنا في أتونها المشتعل .

الوغي ، لا يحسب للحياة حساباً ، ويعد من الشرف البالغ ، أن يقتل دون عرضه ، وحسبه ، وحماءه . ولذلك فهو يتأتل غير مفكر في الموت ، لأنه شيء طبيعي في الحرب .

فما في تساقى الموت في الحرب سبباً على شاربيه فاسقنى منه واشربا وهذه ظاهرة في الشعوب القوية التي تصمد لبلاء الدهر ، وتصهرها الحوادث في بوتقتها ، وتعدّها الأيام للسيادة والشرف . كان العرب يقاتلون تدفعهم حمية شديدة وقلوب جريئة ، وتؤيدهم مهارة فائقة ، ودربة تامة ، وسيوف إذ هزوها لم تكب ، وإذا ضربوا بها لم تنب ، وتعدو بهم جياد معلّمة ، وخيول مطهّمة ، ولا تراهم يبكون على من قتل فيهم إبان المعركة قتلة الشرف ، مع عظم الفجيعة ؛ لأنه أدى ما تفرضه عليه طبيعة الحياة .

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات ييكونا وكان بعض الفتيان لفرط اعتدادهم بأنفسهم ، ووثوقهم من شجاعتهم ، مع كثرة عداتهم ، وطلاب الوتر منهم ، يميزون أنفسهم بشارات وعلامات تدل عليهم في حومة القتال ، يتحدون عداتهم ، ومن يريدون أخذ الثأر منهم ، فكأنهم يقولون لهم : ها نحن أولاء إذا استطعتم معنا صبراً ، أو نلتم منا وتراً ، أو كانت لديكم الشجاعة لقتلنا . استمع إلى طريف بن تميم يقول :

أو كلما وردت عكاظ قبيلةً بعثوا إلى عريفهم يتوسّم
فتوسموني إني أنا ذاكم شاكّ سلاحى في الحوادث معلّم
تحتى الأغرّ وفوق جلدى نثرة زُغف ترد السيف وهو مُثلم^(١)

أو إلى الحُصَيْن بن الحَمام المُرِّي يقول :

فَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمًا
وَلَكِنْ خَذُونِي أَيَّ يَوْمٍ قَدَرْتُمْ عَلَىٰ فَجَزُوا الرَّأْسَ أَنْ أَتَكَلَّمَا
بِأَيَّةِ أَنِي قَدْ فَجَعْتُ بِفَارِسٍ إِذَا عَرَدَ الْأَقْوَامُ أَقْبَلَ مُعَلِّمًا^(١)

وكانت بعض القبائل تميز نفسها في الحرب بزي خاص ، أو إشارة معينة لتعرف من بين حلفائها ؛ اعتداداً منها بقوتها و بلائها ، وثقتها بالنصر ، يدل على هذا قول عمرو بن كَثُوم :

عَلَىٰ آثَارِنَا بِيضُ حَسَانٍ نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهْوِنَا
أَخَذْنِ عَلَىٰ بَعُولَتَيْنِ عَهْدًا إِذَا لَاقُوا كِتَابَ مُعَلِّمِنَا
لَيْسَتَلْبَنَ أَفْرَاسًا وَبِيضًا وَأَسْرَىٰ فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّنَيْنَا

ويدل على ذلك ما روى عن يوم النِّتَاءِ^(٢) الذي هزمت فيه قبائل غطفان بنى عامر . ومن حديث هذا اليوم أن بنى عامراً خرجوا يريدون غطفان ؛ أخذاً بتره قديمة ، فأصابوا من نعم عبس وذبيان ما أرضاهم ، ثم عادوا إلى ديارهم ففضلوا سبيلهم ، في وادي النِّتَاءِ ، وأرسلوا رجلاً إلى قنة الجبل عله يكشف لهم عن مسلك يهتدون به إلى ديارهم ، فرأى فوارس يحثون خيولهم صوب بنى عامر ، فأخبر قومه بذلك ، فقالوا صفهم ، فقال : أرى قوماً كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم ، قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوماً بيضا جَعَادًا^(٣) ، كأن عليهم ثياباً حمراً ، قالوا : تلك أشجع . قال وأرى

(١) عرد الأقوام : خاموا وجنوا عن المعركة وهربوا .

(٢) أنظر خير هذا اليوم في العقد الفريد ج ٣ ، وفي ابن الأثير ج ١ ص ٣٩٥ وفي

الأغانى ج ١٠ ص ٣١٣ .

(٣) الجعد : الخفيف من الرجال ، وقيل الشديد .

قوماً نسوراً ، قد علوا خيولهم آخذين بعوامل^(١) رماحهم يحجرونها : قالوا : تلك عبس^(٢) أتاكم الموت الزؤام^(٣) .

وعلى الرغم من تلك الشجاعة الفائقة البالغة حد التهور ، ومن الاستبسال في القتال والحرص على الموت ، والقوة العارمة التي كانت تحرك سيوفهم ، وتدفع رماحهم ، والمهارة والدربة والخبرة في تفويق السهام والرمي عن القوس ، فإن هؤلاء الفتيان الذين نبتوا على أديم الصحراء ، وتضوعت فضائلهم كما تضوع الخزامى كانوا على شمائل في الحرب تنم عن إنسانية متأصلة ، وعن قدرة عقلية غالبة ، تمكنهم من كفكفة نزواتهم ، والحد من شرتهم ، وعدم الاسترسال في الانتقام أو الأخذ بالثأر تلبية لنداء العقل ، أو العاطفة النبيلة ، أو عملاً بالتقاليد الحربية المتوارثة ، وهي تقاليد شريفة ، تدل على أريحية ورجاحة بصيرة .

كان العرب لا يقتلون عيون الأعداء وجواسيسهم ، بل يطلقون سراحهم إذا أسروهم لينبئوا عدوهم بمبلغ قوتهم واستعدادهم ، وهم يصدرون في هذا عما كمن في قلوبهم من جرأة وتحد ، ولأن طبعهم يأبى القتل كما يأبى إلا المجاهرة بالعداوة :

ودسؤا فارساً منهم عشاء فلم تغدر بفارسهم لدينا
بل منهم من كان يستنكف أن يطعن خصمه المدبر عنه ، المنهزم دونه ؛
شجاعة منه وكرم نفس .

(١) عامل الرمح وعاملته : صدر دون السنان .

(٢) فزارة وأشجع وعبس : قبائل من غطفان . (٣) الزؤام : الكريه .

مَحْرَمَةٌ أَ كَفَالُ خَيْلِي عَلَى الْقَنَا وَدَامِيَّةٌ لِبَنَاتِهَا وَنَحُورُهَا
حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مَدْبَرٍ وَتَنْدَقُ مِنْهَا فِي الصُّدُورِ صُدُورُهَا

بل منهم من بكى على خصمه بعد مصرعه ، كما بكى قيس بن زهير على
حذيفة بن بدر في حروب داحس والغبراء في قوله :

تَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتٌ عَلَى جَفَرِ الْمُبَايَاةِ لَا يَرِيْمُ
وَلَوْلَا ظَلَمُهُ لَظَلَّتْ أَبْكَى عَلَيْهِ الدَّهْرَ مَا طَلَعَ النُّجُومُ
وَفِي قَوْلِهِ :

شَفِيتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ وَسَيِّفِي مِنْ حَذِيفَةَ قَدْ شَفَانِي
شَفِيتُ بِقَتْلِهِمْ لَغْلِيلَ صَدْرِي وَلَكِنِّي قَطَعْتُ بِهِمْ بَنَانِي
بل كانوا ينصفون أعداءهم ، ويعترفون بقوتهم وجلدهم وصبرهم ،
وإثخانهم فيهم ، ويعاملونهم بعد المعركة معاملة الند الكريم للند الكريم ،
ويعلمون أن الحرب سجال ، يوم ينتصرون فيه ، وآخر يكبو فيه جدُّهم .
استمع لقول العباس بن مرداس السلمي ينصف أعداءه :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصَبِّحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسًا^(١)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحَ الْمَدَاعِيسَ^(٢)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحِ نَكْرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلَّا عَوَابِسًا^(٣)

(١) مصباحاً : يغار عليهم وقت الصبح ، وهو وقت لا يكونون فيه مستعدين للقتال .

(٢) المذاكي : ج مذك وهي الخيل النامة السن ، والكاملة القوة : والمداعس :
من الدعس وهو الطعن أى أثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدور الخيل والرماح للدعس .

(٣) لانكتفى بأن نصرع منهم واحدا ، بل نكر عليهم بخيولنا ، فترجع تلك الخيول
عابسة الوجوه لما لاقَت من العنت والشدة من خصومنا .

أو قول عبد الشارق الجهني :

فلما لم ندع قوساً ومهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
شدنا شدةً فقتلتُ منهم ثلاثة فتية وقتلت قسناً
وشدوا شدةً أخرى فجروا بأرجل مثلهم ، ورموا جُوبنا
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينبا
فآبوا بالرّماح مكسّرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا

وكان الفتى إذا وعد عدوه المهزم وعداً وفى به له ، كأن يكف عنه حتى
يشرب ، أو حتى يتناول رمحاً أو سيفه . فلا تغلبه شهوة النصر لضرب
الضعيف ، أو الأغزل ، بل يعد ذلك ندالة وخسّةً ، وزرابة بشجاعته . وهالك
مثلاً نكتفى به يدل على وفائهم ، وتحكمهم فى عواطفهم :

حنق عمرو بن الإطنابة ملك الحجاز على الحارث بن ظالم المرى لقتله خالداً
ابن جعفر الكلابى وهو نأثم انتقاماً لمقتل زهير بن جذيمة سيد عبس ، وقال
عمرو بن الإطنابة يتوعد الحارث بن ظالم :

أبلغ الحارث بن ظالم الرّع سديد والناذر الذنور علياً
إنما يَقْتُلُ النِّيامَ ولا ية تُل يقظانَ ذا سلاح كميّاً
ومعى شِكَّتِي : مَعَابِلَ كالج ر وأعددت صارماً مشرفياً^(١)
لو هبطت البلاد أنسيئتكَ القة لَ كما يُنسى النسيُّ النَّسيّاً

فلما بلغ الحارث شعره ازداد حنقاً وغيظاً ، فسار حتى أتى ديار بنى الخزرج ،
ثم دنا من قبة عمرو بن الإطنابة ، ونادى أيها الملك أغثنى فإنى جار مكثور^(٢) ،

(١) المعابل : ح معلقة وهى فصل عريس طويل يجعل فى السهم .

(٢) مكثور : مغلوب .

وخذ سلاحك ، فأجابه وخرج معه ، حتى إذا برز له عطف عليه الحارث ، وقال أنا أبولبي — معرفاً بنفسه — فاعتركا ملياً من الليل ، وخشى عمرو أن يقتله الحارث ، فقال له : يا حارث ، إني شيخ كبير ، وإني تعتريني سنة ، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى الغد ، فقال : هيهات ! ومن لي به في غد ؟ فتجاولا ساعة ، ثم ألقى عمرو الرمح من يده ، وقال : يا حارث ! ألم أخبرك أن النعاس يغلبني ، قد سقط رمحي فاكفف . فكفف ، ثم قال عمرو : أنظرني إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعني آخذ رمحي . قال : خذه . قال : أخشى أن تعجلني عفه ، أو تفتك بي إذا أردت أخذه . قال : وذمة ظالم لا أعجلتك ، ولا قاتلتك ، ولا فتكت بك حتى تأخذه . قال : وذمة الإطنابة لا آخذه ، ولا أقاتلك . فانصرف الحارث إلى قومه . وقال يرد على شعره :

بلغتنا مقالة المـ عمرو فأنفنا وكان ذاك بدياً
قد هممنا بقتله إذ برزنا ولقيناه ذا سلاح كميـ
غير ما نأثم تعلل بالحلـ م مُعِداً بكفه مشرفيا
فمننا عليه بعد عـ لو بوفاء ، وكنتُ قدماً وفيّاً^(١)

(هذه هي الشجاعة العربية التي تحلى بها فتيانهم ، وكانت من أبرز صفاتهم : شجاعة فيها قوة ، وتحد للمنية ، وفيها دربة وتفوق في استعمال الأسلحة المختلفة ، وفيها إنسانية وكرم وإنصاف للأعداء ، ووفاء للوعد .

وقد ظلت هذه الفضيلة السامية ميزة للجنس العربي في شتى الأقطار التي نزع إليها بعد الفتح الإسلامي . ولم يفقدها إلا بعد أن تضافرت عوامل عدة على إضعافه وإفساد نفسيته ، وبعُدَ عهده بالصحراء البيئة الطبيعية له .

(٢) الكرم

ومن أبرز الصفات التي يتحلى بها الفتى الكرم . بل إن كثيراً ممن عرفوا الفتى عند العرب قالوا : إنه الشاب السخى الكريم ، والفتوة هي الشباب والكرم .

(والكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء ، ونمت نمواً طبيعياً ، واحتلت منزلة سامية في نفوس العرب) وهو على ثلاثة أنواع : كرم اليد ، وكرم القلب ، وكرم العقل .

١ - كرم اليد

وهو من الصفات التي ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة ، وذلك لأن الحياة في الصحراء — كما ذكرنا آنفاً — فيها قسوة عظيمة على قاطنيها ؛ فكثيراً ما تشح السماء ، وتجذب الأرض ، ويلوح شبح الفاقة والجوع في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإن لم يتقدم من عنده فضل من غنى أوزاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجذبة هلكوا جوعاً ومسغبة.

فعظم العرب الكرم ؛ لأنهم جميعاً معرضون لمثل تلك الحن التي تصيبهم بين آونة وأخرى ، والتي لا يجدون لها حيلة إلا بتقدم ذوى اليسار والجود لإغااثهم . فسكانهم بتعظيمهم الكرم ، وتقديمهم الأسخياء للرئاسة إنما يدافعون عن كياناتهم وحياتهم بها

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية ، والحرية الخلقية هي إرادة المرء

الإعطاء أكثر من الأخذ وهي العناية والتفكير في حياة غيرك من الناس^(١) . ولا شك أن الذي يعطى أكثر مما يأخذ ويعنى بشئون سواه ، ويفكر في أمرهم وحياتهم ليرأب ما بها من صدع ، ويسد ما بها من ثلمات ، ويخفف ما هي عليه من بؤس وما تعانيه من ألم ، هو المرشح الذي تقدمت به صفاته للرئاسة ، فليس الرئيس سيداً يأمر وينهى ويتحكم ويتملك ، ولكن الرئيس الحق هو الذي يحسن القيام على شئون مرءوسيه ولذلك شاع بين العرب هذا المثل المشهور « سيد القوم خادمهم » .

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويل
أزجو أن تسود ولن تعنى وكيف يسود ذو الدعة البخيل

فالرئيس إذاً يجب أن يكون قتيّ حراً كريماً . وقد مر بنا تعريف صاحب الأساس للفتوة بأنها الحرية والسخاء . ولعله عنى تلك الحرية الخلقية التي وضناها . فالبيئة الصحراوية المجربة هي التي رشحت الكرماء للسيادة والرئاسة . ثم إن الصحراء العربية مترامية الأطراف ، والسفر فيها شاق عسير ، ودروبها مضلة ، ومهما تزود المسافر في طريقه ، فهو عرضة لأن ينفذ زاده من طعام وماء ، فإذا صُدت في وجهه أحياء العرب التي يأوى إليها هلك في هذه الغيابة ، وانقطع به السبيل .

وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاد زادهم ، أو ضلوا طريقهم وتقطعت بهم السبل ، تعطلت الحياة في الصحراء ، وكسدت التجارة ، وزاد الناس ضيقاً في معيشتهم ؛ لأن كثيراً من ملبسهم ومأكلهم

(1) Anthropology . by R. R. marett, P. 241.

وزيتهم ، وآلات قتالهم يجلبها التجار من خارج الجزيرة ، كما أن فضل ما ينتجونه من وبر وتمر وغيرها يباع في البلدان المجاورة . فمن مصلحتهم العامة تيسير السبل على هؤلاء الذين يعبرون الصحراء فرادى وجماعات ، حتى لا يهلكوا جوعاً . ولقد عبرت غنية بنت غفيف أم حاتم الطائي في ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ، وهو أنها ذاقَت الجوع مرة فألت على نفسها ألاّ ترد بعد اليوم جائعاً بقولها :

لعمرك قدماً عضنى الجوع عضه فأليت ألاّ أمنع الدهرَ جائعاً
فقلوا لهذا اللأيمى اليوم أعفى وإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابع

هذا وقد كثرت الحروب بين العرب في سبيل العيش ، فاختلفوا على المرعى والماء ، وزادت حرارة الصحراء في حدة انفعالهم ، واستجابتهم لدواعى القتال ؛ ولذلك تراهم مغيرين أو مُغاراً عليهم . وفي الغارات تتعرض نعمهم للنهب ، فيفقدون بذلك المورد الذى يقوم بأودهم ، وينكبون في مقومات حياتهم . فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين .

ويظهر فضل الأسخياء من ذوى اليسار عند طول الحرب ، واشتداد الضائقة بالمتحاربين حتى يملأوا القتال ، ولا يدفعهم إلى الاستمرار فيها سوى اللجاج والعناد ، هنالك يتقدم أجواد الحى وعقلاؤهم فيصلحون ذات البين ، ويتحملون ديات القتلى بالغة ما بلغت حتى يرضى الفريقان ، وتحقن الدماء ، ويصلح حال القبيلتين بعد أن أفسدتها الحرب .

كل هذه الأسباب جعلت العرب يشيدون بالكرمء ، ويخلعون عليهم برود الحمد والثناء موشاةً مفوفة ، وصار مما يعمل له الفتى العربى أن يكتسب

هذا الحمد وهذا الثناء .

لقد كان الكرم أول الأمر قانوناً فرضته طبيعة الصحراء . ثم صار سجية متأصلة فيهم . وفضيلة من الفضائل السامية التي تصدر عن تفكير سليم ، وتوضع في موضعها المناسب . قال : أكرم بن صيفى فى حكمه :

« خير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان بعد المقدرة »

فليس كرمهم سفهاً وخرقاً ، أو إسرافاً ، وإنما هو البذل فى الوقت الملائم للشخص المحتاج إليه ، فى الظرف الملائم . وهذه هى الفضيلة التامة ، وهى وسط بين تقيصتين كما عرفها أرسطو ، فالكرم وسط بين البخل والإسراف ، ولا تكون فضيلة إلا إذا صدرت عن تفكير واختيار ووضعت فى موضعها الملائم لها ^(١) .

(لقد كان الكرماء يحدون ، وكان المعتفون والضيغان يثنون عليهم ، ويسجلون هذا الكرم فى أشعارهم) وأهون بزاد يقدم للمحتاجين والعائنين ومن انقطع بهم السبيل ، أو نكبهم الدهر بعد ميسرة ، أو أصابتهم محنة السماء وجذب الأرض إذا كان جزاؤه مدحاً يخلد الذكر ، ويرفع الاسم ، ويذيع الشهرة ، ويعلى فى المنزلة ، ويبوى صاحبه ذروة الشرف والرئاسة ، على حد قول شاعرهم :

فأوسعنى حمداً وأوسعته قرى وأرخص بحمدي كان كاسبه الأكل
ومن الطبيعى أن البخيل الذى يرد قاصده ، وهو ان يلجأ إليه إلا مضطراً ،

لن يسلم من لسانه وسيكون بخله أحدى تشيع بين العرب ، فيعرفون أنه خرج على القانون الفطرى الذى فيه نجاتهم وحياتهم . ولذلك كانوا يتقون هذا الذم ما استطاعوا إليه سبيلا حتى وإن باتوا على الطوى ، وقدموا آخر ما عندهم لضيئفهم ، كما قال أحدهم :

وعِراضى أبقي ما ادّخرتُ ذخيرةً وبطنى أطويه كطىّ ردائياً
أو كما قال عمرو بن الأهتم

وكلُّ كريم يتقى الذم بالقرى وللحق بين الصالحين طريقُ
لعمرك ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق
وليس المال فى ذاته غرضاً يهدفون إليه إذا لم يُعن صاحبه على الكرم ، وإغاثة الملهوف ، وكسب الحمد ، وإبقاء المذمة ، وحماية العرض من أن يلوكه الناس حين يصفونه بالبخل والكراسة . كما قال حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولستُ للعرض إن أودى بمحتال^(١)
أو كما قال الآخر :

أجلَّك قومٌ حيث صرتَ إلى الغنى وكل غنى فى القلوب جليلٌ
وليس الغنى إلا غنى زَيْن الفتى عشية يقرى أو غداة ينيل
وكثيراً ما لامهم نساؤهم على إسرافهم فى الكرم ، ويؤتمهم فى حاجة إلى ما يبذلونه للضيوف ، ولقد ردَّ هؤلاء الأسخياء على نساءهم بأن هلاك المال فى

(١) أودى : ذهب ، أى هو يستطيع استرجاع المال بالجد والسكد ، ولكنه

لا يسترجع العرض ، إذا طعن فيه وشاع بين الناس بخله .

سبيل الضيف — وإن هلك العيال — مفخرة تخذ الإنسان . أما البخل والشح وكزازة اليد فعارٌ أى عار . وليس المال بمُخلدٍ صاحبه إذا هو شحَّ به .
ألا بَكَرْتُ مِىَّ عَلَى تَلُومِى تقول ألا أَهْلَكْتَ مِنْ أَنْتَ عَائِلَهُ
ذَرِىنِ فَإِنَّ الْبَخْلَ لَا يُخْلِدُ الْفَتَى وَلَا يُهْلِكُ الْمَعْرُوفُ مِنْ هُوَ فَاعِلُهُ
ويقول آخر لأمه ، وقد عاتبته على جوده :

أَرِىنِ جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَعْنَى أَرِى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلاً مُخْلِداً
ويقول ثالث ، وقد غذاه أهله على كرمه :

بَكَرَ الْعَوَازِلَ بِالسَّوَادِ يَلْعَنَى جَهْلًا يَقْلُنْ : أَلَا تَرَى مَا تَصْنَعُ
أَفْنَيْتَ مَالَكَ فِي السَّفَاهِ وَإِنَّمَا أَمْرُ السَّفَاهَةِ مَا أَمْرُكَ أَجْمَعُ
إلى أن يقول :

لَتَنْوِبَ نَائِبَةٌ فَتَعْلَمَ أَنِّى مِمَّنْ يُغَرُّ عَلَى الثَّنَاءِ فَيُخْدَعُ
إِنِّى مُقَسِّمٌ مَا مَلَكَتُ لِفَاعِلٍ أَجْراً لآخِرَةٍ وَدُنْيَا تَتَفَعُّ

ومن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع قول قيس بن الحطيم ، وقد بين أن الحرص لا يغنى الإنسان ، بل إن الجود قد يكون سبيلاً للغنى ، فينمو المال ويزداد ، وإن الغنى غنى النفس وإن كان صاحبها فقيراً ، وأن فقر النفس شقاء لصاحبه ولو كان ثرياً :

وَلَا يُعْطَى الْحَرِيسُ غِنًى لِحَرَصٍ وَقَدْ يَنْمَى عَلَى الْجُودِ الثَّرَاءُ
غِنًى النَّفْسِ مَا عَمَّرَتْ غِنًى وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمَّرَتْ شَقَاءُ
وَلَيْسَ بِنَافِعِ ذَا الْبَخْلِ مَالٌ وَلَا مُزْرٍ بِصَاحِبِهِ السَّخَاءُ

ولقد كانوا يجودون لأنهم يلتذون بالجود ، وصنع المعروف ، ويرون فى

الكرم لذة لذاته ، بغض النظر عن الثناء والحمد والذكر الحسن ، وذلك
— طبعاً — حين يصير الكرم عادة وجبلة لا يستطيع صاحبه إلا أن يكون
كريماً ، على حد قول حاتم الطائي :

وقائلةً أهلكت بالجود مالنا ونفسك حتى ضرت نفسك جودها
فقلتُ دعيني إنما تلك عادتي لكل كريم عادةٌ يستعيدها
أو على حد قول الآخر :

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فخالو ، وأمّا وجهه فجميل

(ولا ريب أن شعور العربي باللذة والسعادة حين يعطى ، أو يقرى ضيفه ،
ويزيل مابه من وحشة ، ويطرد ما ألم به من مسغبة وجهد ، يدل على أن عادة
الكرم قد تأصلت في نفسه ، وأنه لا يجود أداءً لواجب ، أو إطاعة لقانون ،
أو خوفاً من قدح ، أو طمعاً في محمداً ، وإنما يجود لأن الجود يشبع في نفسه
رغبة ، ويدخل عليها مسرة . وهذه هي الغاية القصوى في تربية الفضيلة ،
وناهيك بالكرم فضيلة اجتماعية ، تحتال الشرائع والقوانين على حمل الناس
عليها ، وتعويدهم إياها ، تارة بالزكاة ، وأخرى بالضرائب حرصاً على منفعة
الجموع ، وإيجاد مجتمع يسوده الرضا والهناء ، حين يشعر الفقير أنه موضع
عناية الثرى ، وأنه يدفع بعض ماله ليواسيه ويبره ، ويداويه ويعلمه ، وحين
يشعر الغنى أنه أدى بعض ما يجب عليه نحو أخيه في الإنسانية والوطن .
وكثيراً ما احتال الأغنياء على التهرب من دفع الزكاة أو الضريبة ؛ لأن
نفوسهم لم تعمر بعد بهذه الأخوة الإنسانية ، ولم ترتق فيهم النزعة الدينية
أو الوطنية .

أما هذا العربي ربيب الصحراء فقد وصل إلى ما تطمح إليه اليوم أرقى المجتمعات البشرية ، وتجده هدفًا عزيز المنال في ذلك العالم المادى ، على الرغم من سطوة القانون وعزته . لقد كان لبعض هؤلاء الأجواد من العرب فلسفة خاصة في الكرم يردون بها على من يلومهم ويصدرون عنها في كل أعمالهم ، فهم يجودون عن فكرة وعقيدة ؛ هذه الفكرة هي أن الرجل إذا كزّت يده في حياته ، واكتنز المال ، فلن يأخذه معه في قبره منه شيئًا ، بل سيذهب إلى القبر صفر الكف ، وأن ماله سيقسمه وارثوه من بعده ، وقد يسعى أحد ورثته لاكتساب الحمد بالبذل والعطاء ، بينما هو لم يكسب في حياته إلا المذمة ، وإهانة العرض ، فهو يشقى في جمع المال ؛ لينال غيره الشرف وحسن الأحدثه وذلك نهاية الحق في نظرهم .

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة غير بعيدة الغور ، بل هي مما يصل إليه كل إنسان بالغًا ما بلغ من العلم ، إلا أن جمهرة الناس لا يهتمون بها ، وتغلبهم على تصرف شئونهم في الحياة أمور أخرى ، تنسيهم في غمرة المعترك الدنيوى وجهادهم فيه ساعة الموت ، ومصيرهم بعد الفناء وترك الدنيا ، فلا يزدادون إلا كرازة . ومنهم من يفتن لهذه الفكرة ولكن يكون لها في نفسه أثر عكسى ، فيكسب على اللذات المهلكة ، ويبعث ماله ذات اليمين وذات الشمال ، كما فعل طرفة بن العبد حيث يقول :

وما زال تشرابى الخمرَ ولذتى ويبيعى وإفناقى طريفى ومُتَلَدَى
إلى أن تحامتنى العشيرة كُلُّها وأُفِرِدْتُ إفرادَ البعير المعبَدِ^(١)

ألا أيُّ هذا اللائمي أحضرُ الوغى وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مُخلدى
فإن كنتَ لا تَسطيعُ دفعَ منيتي فدعني أبادرُها بما ملكتَ يدي
أما منطقُ الأجواد من فتیان العرب فهو المنطق السليم ، وهو خير ما يدل
على رقيهم الخلقى ، ونظرتهم الصائبة في الحياة . استمع إلى حاتم الطائي يقرر
هذه الفكرة في وضوح وقوة :

ففنفسك أكرمها فإنك إن تهُنْ عليكَ فلن تلقى مدى الدهر مُكرِما
أهنُ للذى تهوى التلادَ فإنه إذا متَّ كان المالُ نهْباً مُقسِما
ولا تشقینْ فيه فيسعدَ وارثُ به حين تغشى أغبر الجوف مظاما
يقسمه غنما ويشرى كرامة وقد صرّت في خط من الأرض أعظما
قليلاً به ما يحمَدُكَ وارث إذا نال مما كنتَ تجمع مغنا

وقد كرر هذا المعنى في غير هذه القصيدة بقوله :

أماوى لا يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
أماوى إن يُصبح صدای بفقرةٍ من الأرض لا ماءً لدى ولا خمرُ
ترى أن ما أنفقتُ لم يك ضررى وأن يدي مما بخلتُ به صفرُ
هذا وقد بلغ العرب في الكرم غاية لم تصل إليها أمة من الأمم قديماً
وحديثاً ، فإذا أعطوا أعطوا على البديهة ، واسرعوا في البذل بدون تلوم ،
أو تسويف ، أو بذل وعود ، ولو لم يعرفوا السائل ، ويحتقرون ما منحوا
ولو استكثره طالب الرِّفد ، وفي ذاك يقول شاعرهم مادحاً فتى من هؤلاء
الأسخياء :

قد كنتَ تعطينى الجزيلَ بداهةً وأنتَ لما استكثرْتُ من ذاك حاقِر

ويقول زهير بن عروة المازني :

فنعمَ بنو العم والأقربون لدى حُطْمَةِ الزمنِ المُمَحَّلِ^(١)
ونعمَ المواسون في النأبأ ت للجار والمُعْتَفَى المُرْمِلِ^(٢)
ونعمَ الحماةُ الكفأةُ العَظِيمَ إذا غائِظَ الأمرُ لم يُحَلَّلِ
ميامينُ صُبْرٍ لدى العضلات على موجِعِ الحدثِ المعضَلِ
مبازيلُ عَفْواً جَزِيلَ العطاء إذا فضلةُ الزادِ لم تُبَدَّلِ
هم سبقوا يومَ جرى الكرام ذوى السبقِ في الزمنِ الأوَّلِ

بل كنت ترى أحدهم يَبْشُ وَيُسَرُّ ، ويتهلل وجهه إذا جاءه من يطلب
منه حاجة ، كأنما هو الذي أصابه المعروف ، لا الذي أعطاه ، على حد قول
زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان المُرِّي :

وأبيضَ فياضٍ يده غمامةً على مُعْتَفِيهِ ما تَغِبُّ فواضله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أو قول الآخر :

وإنك لا تدري إذا جاء سائل أنت بما تعطيه أم هو أسعد
ولعل مبعث هذه المسرة ، أن الفتى العربي يشعر — حين يقصد الناس
رفده — أنه صار ركنًا مكينًا من أركان المجتمع في القبيلة ، أو في أحياء العرب ،
يلجأ إليه المرملون والضعفاء وطلاب الحاجات ، وأنه سائر في طريق المجد الذي
يوصله إلى سيادة قومه ورئاستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها

(١) حطمة بفتح الحاء وضمة هاء وسكون العاء : السنة الشديدة .

(٢) المعتقى : طالب العطاء ، والمرمِل : من لا زاد عنده .

ما وسعه جهده وماله بالبذل وإرضاء الناس ، فيحمل الكَلَّ ، ويغيث الملهوف ويفك العاني ، ويطعم الفقير ، وينتصف للمظوم . ذلك لأن السيادة لم تكن مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ، لما امتاز به الرئيس من صفات دفعت به إلى الصدارة في مجتمعه هذا . ومن أقوى هذه الصفات الكرم ، لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة الوالد الذي يحنو عليهم ، ويرعى شئونهم .

فلهذا كله كانوا يرحبون بالضيف ، ويسعدون للقياء . كانوا يبشون للضيف أحياناً وهم يعلمون جدَّ العلم أنهم في ضيق وعُسر ، وأن ليس في استطاعتهم تقديم ما يتكافأ مع أريحياتهم ، ولكن البشر والايُناس في عرفهم يُذهب الوحشة ، بل هو بعض القرى ، لأن الأمر ليس زاداً يؤكل فحسب ، وإنما هو إشعار الضيف في هذه البادية الواسعة بأنه نزل بين أهله . وقد يكون أهله في ميسرة فيقدمون له طعاماً طيباً ، وقد يكونون في معسرة فيقدمون له ما عندهم ، وقد قال حاتم طيء في هذا :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويُخَصِّبُ عندي والحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب
وتراهم في غاية الأسف والهم والألم إذا نزل بهم ضيف ، وليس عندهم ما يقدمونه له ؛ ولعل حادث الخطيئة مع ضيفه الذي سجله في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مُرْمِلٍ ببذاء لم يعرف بها ساكن رسماً
أبلغ دليل على تأصل الكرم فيهم ، فمع أن الخطيئة وأولاده لم يذوقوا

طعاماً منذ ثلاث ليال ، ولم يعرفوا للبرّ مذ خلقوا طعاماً ، وقد عصب بطنه من الجوع ، وهو يبیداء موحشة ليس بها أنيس ، فإنه حين رأى شبح الضيف من بعيد كثر همّه وحزنه ، ولم يعد يفكر في نفسه وأولاده ، وكيف يحتال لهم ، بل أخذ يفكر في ضيفه هذا ، ويناجي ربّه علّه يرزقه بما يقرى به ضيفه :

رأى شبحاً وسط الظلام فراه فلمّا رأى ضيفاً تشرّ واهتما
وقال : هيا ربّاه ضيفٌ ولا قريّ بحقك لا تحرمه تاليلة اللحماء
بل أعجب من موقف الخطيئة موقف ابنه على حداثة سنه ، وما به من سغب ونصب حيث قال :

وقال ابنه لمّا رآه بحيرة أيا أبتى اذبحني ويسّر له طعاماً
ولا تعتذر بالعدم علّ الذي ترى يظن لنا مالاً فيوسعنا ذماً
ولقد تعجب بعد هذا لموقف الخطيئة ، فإنه همّ بذبح ابنه إكراماً لضيفه لولا أن رأى قطعاً من الأتن الوحشية عن بعد كأنما أرسلتها العناية الإلهية فداءً للصبي الكريم :

فروى قليلاً ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
وبينا هما عنت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسجلها نظماً^(١)
فانظر إلى أي حد بلغوا في العناية بالضيف ، وتقديمه على الأهل والولد ، وذلك لأنه لا يأتيهم إلا وهو محتاج قد عضه الجوع ، واشتد به السغب ، وانقطعت به السيل ، وأولادهم وأهلهم يقدرّون ما هم فيه من ضنك وضيق

يد ، ولكن هذا الغريب لا يعرف أمرهم على حقيقته ، وقد يظن بهم كزاة فيوسعهم ذماً ، لأنهم انتهكوا قانون الصحراء ، وواجب الرّفد والضيافة .

وقصة^(١) حاتم الطائي مع أولاده الذين تركهم ينانون ، وهم يتضاغون من الجوع ، وحديثه مع امرأته يعلّ لها كي تنام ، ثم مجيء جارتها تشكوه ما وصلت إليه وأولادها من المسبغة ، وذبحه فرسه ، وإطعامه الحى جميعاً ، مع معزته لفرسه ، واحتياجه إليها ؛ إكراماً لهذه الجارة وأولادها ، وتركه بنيه وزوجته بدون طعام ، بل تركه نفسه ، وعدم مسّه شيئاً مما قدمه للحى — لدليل على هذا الإيثار العجيب الذى لا نرى له ضرباً إلا بين هؤلاء العرب الذين عاشوا فى الصحراء ، فعلمتهم كيف يمتتون غرائز الأثرة ، وحب التملك ، وحب البقاء .

ولا ريب أن مجتمعات تسوده هذه الروح ، ويوجد فيه أمثال هؤلاء الكرماء الذين يقدرّون واجب الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، ويمدون المعوزين والمحتاجين والمعدمين يد المساعدة بدافع نفسانى ، ووازع إنسانى ، ويصدرون عن طبيعة خيرة ، ونفوس تأصل فيها النبيل ، هو مجتمع جدير بأن يسود ، ولقد قيل : « إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقة والعوز . شكا المحتاجون أمرهم لذوى اليسار والسعة فطارده هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلاً من سهام كرمهم حتى ركع أمامهم طالباً الرحمة ، وردوه على عقبه ، بعد أن كسوه بالذهب والحريز ، واستلوا من صدره البغضاء والحسد ، فصار لسانه يلهج بالمديح المستطاب ، والثناء والعطر^(٢) » .

(١) القصة فى العقد الفريد > ١ .

كان الأجواد الموسرون إذا أعطوا أعطوا غَدًا لا يُعَدُّون ، ولا ينظرون للمستقبل ولا يفكرون في العواقب ، فلا ييقون على ما بأيديهم . استمع إلى النابغة الجعدي يمدح فتى كريماً :

فتى كملت خيراتهُ غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
واستمع إلى آخر كلما أثرى جاد بماله ، ثم هو يشكو من أن ماله يقصر
عن نداءه .

إني وإن لم يَنْلُ مالي مدى خلقي فياضُ ما ملكْتُ كفاي من مال
لا أحبس المالُ إلا ريثَ أَتْلُفُهُ ولا تغيرني حالٌ إلى حال
واستمع إلى آخر يمدح فتى كريماً كلما أثرى تَخَرَّقَ ، وأتلف ماله في الجود
حتىَّ إن هو استغنى تَخَرَّقَ في الغنى وإن قلَّ مالٌ لم يضع متنة الفقرُ
بل إن أحدهم يطلب المال حتى ينفقه في سبيل الكرم ، ويكتسب به
حسن الأحدثه :

كريمٌ رأى الإقتار عاراً فلم يزل أخا طلب المال حتى تمولا
قلما أفادَ المالَ عاد بفضلِهِ على كل من يرجو جداه مؤملاً
وقال الآخر :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم البخيلُ
وليس معنى هذا أن كل الكرماء كانوا من ذوى الغنى واليسار ، ولكن
الكريم عندهم هو الذى يجود ، وما عنده قليل ، ويسخو بكل ما يملك وهو
في أشد الحاجة إليه . وهذا أكبر دليل على تأصل صفة الكرم في نفسه ؛ إذ
تتنازعها غريزتان قويتان ، حب البقاء وحب التملك ، وهو بانتصار كرمه على

هاتين الغريزتين العاتيتين اللتين لهما أكبر الأثر في حياة الإنسانية ، يبرهن على سمو نفس ، وقوة عزيمة ، وعلى أنه رجل فضيلة من الطراز الأول . ولهذا ضربوا المثل بكرم هؤلاء العرب الجفأة في صحرائهم ، وتضاءلت فعّال الخلفاء والموسرين فيما بعد أمام كرمهم ؛ لأنهم كانوا يجودون والزاد قليل ، والمال معدوم ، وليسوا بأرباب سلطان وصولجان ، ولقد قال أحدهم :

جُهد المقلّ إذا أعطاك نائله ومكث في الغنى سيّان في الجود

لا ، بل إن جهد المقل في نظر المنصفين خير من مكث الغنى ؛ لأن الأخير إنما يعطى من فضل ماله ، يعطى وهو يعلم أنه لن يموت مَسْغَبَةً وجوعاً ؟ ولهذا قال المتنع الكندى فأجاد :

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليل
وقال آخر :

سأقدح من قدرى نصيباً لجارتى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى^(١)
إذا أنت لم تُشرك رفيقك في الذى يكون قليلاً لم تشاركه في الفضل

ومن سمات كرمهم أنهم لا يمتنون به ، ولا يذكرون صنيعهم ، ولا يفخمون به ، بل يحقرونه ، وهم يعلمون أن المن يبطل جميل ما فعلوا ، ويشوه الخير الذى قدموا ، ومن أمثالهم : « أحي معروفك بإماتة ذكره ، وعظمه بالتصغير له^(٢) » ولا يلتبس عليك ما تسمع من فخارهم بكرمهم ، وعدم منهم على من أكرموه ،

(١) سأقدح : سأغرف وأعطى بالقدح . والكفاف : ما يكف الإنسان عن السؤال ويكون على قدر الحاجة لا يزيد ولا ينقص .

(٢) العقد الفريد ص ٦٥ ج ١ .

فهم يفتخرون بالكرم من حيث هو صفة ، ولكنك لا تسمع منهم أبداً أنهم
أكرموا فلاناً ، أو قدموا يد المساعدة لفلان ، بل يدعون فعلهم يعلن عن
نفسه ، ويتغنى به ضيوفهم ، وأسرى أياديهم . يفتخرون بالكرم عامة ليحثوا
غيرهم على مكارم الأخلاق .

ولولا خلال سبها الشعر ما درى بناءة العلامن أين تؤتى المكارم
وليبرهنوا على أنهم سادة ، ولكن لا يفسدون صالح أعمالهم بذكر
حوادث معينة :

المنعمون وما منوا على أحد يوماً بنعمى ولو منوا لما مانوا^(١)

وقال ربيعة بن مقروم يمدح مسعود بن سالم بن أبي سلمى :

وقد سمعتُ يقومُ يُحمدون فلم أسمع بمثلك لا حلماً ولا جوداً
ولا عفافاً ولا صبراً لناثبة وما أنبى عنك الباطل البيدا
لا حلمك الحلمَ موجودٌ عليه ولا يُلفى عطاؤك فى الأقوام منكودا

وقال الخطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا وقال ذو الإصبع العدواني :

إنى لعُمرُك ما بابى بذى غلقى ولا لسانى على الأدنى بمنطلق
على الصديق ، ولا خيرى بمننون بالمنكرات ولا فتكى بمأمون
ولا ألين لمن لا يبتغى لىنى لا تخرج النفس منى غير مُغضبة

ولقد قالوا : « للمعروف خصال ثلاث : تعجيله ، وتيسيره ، وتستيره ،
فمن أخل بواحدة فقد بنحس المعروف حقه ، وسقط عنه شكره ^(١) » .

وعلى من يمنون ، وهم في كثير من الأحيان لا يعرفون الطارق الغريب ،
الذي يدلّف إلى أبياتهم طالباً الرّفد ، لا يعرفون له اسماً ولا نسباً ؟ وكيف يمنون
وهم مُعرّضون لأن يكونوا في مثل موقفه هذا يوماً من الأيام ، حين تجذب
الأرض ، أو تطوح بهم الفياق والقفار إبان الرّحلة ؟ :

وَمُسْتَبِحٌ بَاتَ الصَّدَى يَسْتَتِيهِهُ إلى كل صوت ، فهو في الرحل جائح ^(٢)
فَقَلَّتْ لِأَهْلِي : مَا بُغَامِ مَطِيَّةٍ وسار أضافته الكلاب النواج ؟ ^(٣)
فَقَالُوا : غَرِيبٌ طَارِقٌ طَوَّحَتْ بِهِ متون الفياق والخطوب الطوارح

وهو يضيفهم ولا يعرفهم ، ويدعونه أباهم ، وليس بينه وبينهم نسب ،
ولا يحاول أن يعرفهم ، وإنما هو يؤدي الواجب بشهامة وأريحية ؛ لأنه
لا ينتظر شكراً على كرمه ، أو لا ينتظر منهم في مستقبل الأيام جزاء . وإن
كانوا سيحفظون له هذه اليد ، وسيتغنون بسخائه . وفي ذلك يقول مُرَّةُ
ابن محكان التميمي السّعدى :

أَدْعَى أَبَاهُمْ ، وَلَمْ أَقْرِفْ بِأَمِهِمْ وقد عَمَرْتُ وَلَمْ أَعْرِفْ لَهُمْ نَسَبًا

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المستنبح : من يطلب نباح الكلب ليستهدى به في طريقه ، ويستتبه : من تاه
يتيه إذا ضل . والجائح : المائل .

(٣) البغام : مد الصوت بالحنين ، وأضافته الكلاب : جاوبته على نباحه بنباح مثله
تدعوه لأن يقدم .

ويقول آخر :

حَضَاتُ لَهُ نَارِي ، فَأُبْصِرُ ضَوْءَهَا وَمَا كَادَ لَوْلَا حَضَاتُ النَّارِ يُبْصِرُ^(١)
دَعْتَهُ بِغَيْرِ اسْمٍ هَلُمَّ إِلَى الْقَرْيِ فَأَسْرَى يَبُوعُ الْأَرْضَ وَالنَّارُ تَرْهَرُ^(٢)

* * *

ومن مظاهر هذه الكرم :

١ — أنهم كانوا يتلطفون مع الضيف ، ويهشون له وييشون ، وينزلونه منزلة عيالهم وأولادهم ، وناهيك بما للعيال والأولاد من منزلة في القلوب ، وقد قالوا فيهم :

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنُنَا ——— أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

استمع إلى جابر بن حيان يقول :

وَمَا وَجَدَ الْأَضْيَافُ فِيمَا يَنْوِبُهُمْ لَهُمْ عِنْدَ عِلَالَتِ الزَّمَانِ أَبًا مِثْلِي

أَوْ اسْتَمَعَ إِلَى الْخَطِيئَةِ ، وَهُوَ مِنْهُ خَشُونَةٌ وَبِدَاوَةٌ ، وَجَفَاءُ طَبْعٍ :

فَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبًا لَضَيْفِهِمْ وَالْأُمُّ مِنْ بَشَرِهَا أُمًّا

بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فأَنزلوا أنفسهم من الضيف منزلة العبد من

السيد يتعب نفسه ويجهدها في سبيل راحته ، والقيام بشئونه ، كما قال حاتم :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِمَّةٌ لِي غَيْرُهَا تُشَبِّهُ الْعَبْدَا

ينزل الضيف فلا يسئلونه : من هو ؟ ومن أي البلاد أتى ؟ ولكن

يسرعون لإغائته ، والقيام بحقه ، ويشعرونه من أول وهلة أنه بين أهله ، كان

(١) حَضَاتُ النَّارِ : رفعتها ليتهدي بها .

(٢) يَبُوعُ الْأَرْضِ : يقطعها في خطوات سريعة .

بعيداً عنهم فقدم بعد غيبة ، وعلى طول اشتياق ، من كثرة إيناسهم ، ولطف
ترحابهم ، كما قال النمرى :

وداعٍ دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل أهوال السرى وتقاتله
فلما سمعت الصوت ناديتُ نحوه بصوتٍ كريم الجددُ حلواً شمائله
فأبرزت نارى ، ثم أثقتُ ضوءها وأخرجت كلبى ، وهو فى البيت داخله
وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً رشدت ، ولم أقعد إليه أسائله

ولعلك تشعر بالسبب الذى حداهم للترحيب بمثل هؤلاء الضيوف ،
والإسراع فى نجدتهم من قول الشاعر : « كأنما يقاتل أهوال السرى وتقاتله »
فقد كان صوت الطارق ضعيفاً خافتاً ينبىء عن جهد وكلال ، وكأنه خارج من
معركة عنيفة ، يقاتل فيها الليل ووحشته ، وبرده ، وضلال الطريق ، ووحوش
الفلاة ، ويقاتل فيها تعب الرحلة والإنجاد والאתهام فى البیداء . ولذلك كله
وجب على من سمع نداه أن ينقذه ، ويقدم له ما يدخل الطمأنينة على قلبه ،
ويزيل وحشته ؛ ومن عدم المروءة أن يعوقه عن الراحة بالجلوس إليه يسأله .

٢ — ومن مظاهر هذا الكرم أن العرب كانوا لا يبخلون على الضيف
بأعز شئ لديهم ، بل يعمدون إلى أسمن ناقة ، وأكبرها لحماً ، وأكثرها
شحمًا ، وينحرونها له .

فأعضضته الطوئلى سنماً وخيرها بلاء ، وخير الخير ما يُتخير
فقد جعل هذا الفتى الكريم سيفه يعض أطول نوقه سنماً ، وخيرها
بلاء ، وأحسنها نعمة ؛ ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة الأولاد ، غزيرة
اللبن ، سريعة السير .

ويقول مُضَرَّسُ الرُّبْعِي :

وإني لأدعو الضيف بالضيء بعدما كسى الأرض نضاح الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقّه ومثلان عندى قربه وتباعده
أبيت أعشيه السَّدِيفَ وإننى بما نال حتى يترك الحى حامده

إنه يسعى فى سبيل الضيف ، ويحتذبه بناره ، التى يوقدها على الربوات ،
ليبتدى بها الضال ، ويأنس بها السَّارى ، فى وقت أمحلت فيه الأرض ،
وغطاها الجليد ، ما بين نضاح ، ينزل رذاذاً لبرودة الهواء ، وجامد متماسك .
إنه يدعوه ليكرمه ، لأن الكرامة من حق هذا السَّارى فى البیداء ، والليل
مظلم ، والريح قر ، تَقِفُ منها الأعضاء وتيس ، فهو أشد ما يكون حاجة إلى
نار تدفئه ، وطعام يغذيه ، وجليس يذهب وحشته ، وهو يقدم له السدیف
— أى شحم السنام — وهو أطيب شىء فى الناقة ، وإن اقترح الضيف شيئاً
أعده له ؛ حتى يترك الحى ولسانه يلهج بالحمد ، ويتغنى بالثناء ، سواء كان هذا
الضيف من ذوى قرباه ، أو ممن طوحت به الفلوات لا يدينه منه نسب
أو جوار .

٣ — ولما كان كثير من العرب كرماء ، ولقاؤهم حسناً ، سعى الأَجواد
منهم فى أن يتميزوا عن سواهم بجلب الضيفان ، لا ينتظرون حتى يطرق بيوتهم
طارق ، أو يناديهم غريب ، ويطلب رفدhem ابن سبيل ، بل يعملون على أن
يدعوا هؤلاء الضيوف بشتى الوسائل :

(١) فمن نار تُشَبُّ على الرُّبَى والجبال ليلاً ؛ ليعلم من تقطعت به
السبل ، أو نفذ زاده أن ثمة قِرىً وناراً ، وجليساً أنيساً ، ومبيتاً طيباً :

له نارٌ تَشَبُّ على يَفِاعٍ إذا النيرانُ أَكْسَبَت القِناعا
ولم يك أ كثر الفتيان مالا ولكن كان أرحبهم ذِراعا
وهذا حاتم طيء يأمر غلامه يساراً أن يوقد النار على يَفِاعٍ من الأرض
في الليلة الباردة ، الشديدة الريح ، فإن جلبت النار ضعيفاً فيسار حُرٌّ ؛ لفرح
حاتم بضيفه :

أوقدْ فإن الليلَ ليلٌ قُرٌّ والريح يا وَاقد ريح صِرٌّ^(١)
عَلَّ يرى ناركَ من يَمُرُّ إن جلبت ضعيفاً فأنت حُرٌّ
وقد مرَّ بنا غير مثل على هذه الوسيلة التي يحبون بها الضيوف .

(ب) ومن كلب يعودونه أن ينبح للضيفان ؛ حتى يهتدوا بصوته ، فإذا
أقبلوا هَشَّ الكلبُ لهم وبَشَّ ، وتلقاهم عن بُعدٍ بالترحاب . ولقد كانوا
يقلدون صوت الكلب ، فإذا ردَّ عليهم تبعوا صوته وهم في ظلمة الليل
الدامس حتى يصلوا إلى بيوت الحى فيجدون القرى :

وَمُسْتَنِيحٌ تَسْتَكْشِطُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ لِيَسْقُطَ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوبِ مُعْصِمٌ^(٢)

عَوَى في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب ، أو ليفزع نُومٌ^(٣)

فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له عند إتيان المهيئين مطعمٌ^(٤)

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجمٌ

كانت هذه الكلاب تألف الضيوف ، فلا تزعجها ، بل تتود لها ، ولم

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .

(٢) مستنبح : يطلب نباح الكلاب بتقليد أصواتها . تستكشط الريح ثوبه : تحاول
نزع ثوبه لشدها .

(٣) اعتسف الطريق : ضل .

(٤) المهيئين : الأضياف الذين يهب القوم للقاءهم

يكن أصحابها بأقل منها حباً لهؤلاء الضيوف ، فلا يسألون من هم ، وإنما يرحبون بهم أجمل ترحاب :

يُغشَوْنَ حتى ما تهزُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
وقال آخر :

ومستنجح تهوى مساقطُ رأسه إلى كل شخص فهو للسمع أصور^(١)
حبيبٌ إلى كلب الكريم مناخه بغيضٌ إلى الكوماء ، والكلب أبصر
إن الكلب يحب نزول الضيف ؛ لأنه سينال من فضل طعامه ، وأما
الناقة الكوماء ، العظيمة السنم ، فتبغض نزول الضيف ؛ لأنها ستُنَحَّرُ له ،
والكلب أبصر منها وأهدى سبيلاً .

وقد كانوا يعزّون هذه الكلاب ؛ لأدائها هذه المهمة الشريفة لديهم ،
الأثيرة عندهم ، وهي هداية الضيوف . استمع لرجل يوصي بكلبه ، ويطلب
أن يكرم بعد وفاته :

أوصيك خيراً به ، فإن له خلائقاً لا أزال أحمدُها
يدلُّ ضيفي علىّ في غسق الليل إذا النار نام موقدها
ح — ومن ذلك أنهم إذا صنعوا زاداً أو طعاماً تلمسوا من يشاركهم فيه
على حد قول حاتم لامرأته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتسي له أكيلاً فإنني لست آكله وحدي
أخا طارقاً ، أو جار بيت فإنني أخاف مذمّات الأحاديث من بعدى

(٤) المساقط : ج مسقط أى السقوط ، يعنى يميل رأسه إلى كل شخص يقدره إنساناً
ليلتجئ إليه لأنه ضل الطريق . والأصور : المائل

(د) وكانوا يتعرضون للضيوف ، بأن ينصبوا خيامهم على قارعة الطريق ليراها الراح والعاذي ، ويطرقها بيسر كل عابر إن شاء ، كما قال طرفة بن العبد :
ولست بحلال التلاع مخافةً ولسكن متى يسترفد القوم أرفد
أو كما قال غيره :

أغشى الطريق بقبتي ورواقها وأحلّ في نشز الرّبي فأقيم
إن امرءاً جعل الطريق لبيته طنباً ، وأنكر حقّه للئيم^(١)

فهو يضرب قبته على الطريق لينغشاها ذوو الحاجات ، وطلاب الضيافة ، وإن كان يقيم في نشز من الأرض ، لأنه أطيب هواء وأصح للبدن ، ومن يتخذ الطريق موضعاً يضرب فيه خيمته ، ولا يؤدي حقّه من قرى الأضياف فهو لئيم ، لأن الناس سيقصدونه ، فإذا ردّهم عرّضهم للخزى ؛ وذلك منتهى اللؤم ، إذ تظاهر بالكرم ، وعمل عمل الكرماء ، وهو ليس منهم .

(هـ) ومن العرب من كان ينصب الجفان الواسعة في عرض الطريق ، ويملؤها طعاماً طيباً ، ليأكل منها الناس . وكان عبد الله بن جدعان التيمي يفعل ذلك ، وفي القاموس : « وربما كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم طعامه » ، وكانت لعبد الله هذا جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها يوماً صبي فغرق ومات^(٢) .

(١) النشز : المرتفع من الأرض ، والطنب : جبل البيت ، أي جعل الطريق مكان جبل البيت .

(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٨٩ .

وفي غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جُدعان صَكَّةَ عُمَيَّ » ^(١) ، يعنى فى
الهجرة ، وكان ابن جُدعان هذا يملأ جفنته ، ويدعو إليها الناس ، ليطلعوا
منها ، وقد مدحه أمية بن أبى الصلت بقوله :

له داع بمكة مُشْمَعِلٌ وآخر فوق دارته ينادى
إلى رُدُحٍ من الشَّيزى ملاء لُبَابَ البُرِّ يلبكُ بالشَّهاد ^(٢)

وقد لا ينتظرون من يأتى ملياً دعوتهم إلى هذه الجفان العظيمة التى
يضعونها على قارعة الطريق ، بل علموا أن بعض الناس متعفف ، يطوى بطنه
على الجوع طى الرءاء ، ويعصب عليها حجرا ، ويقع فى بيته لا يشارك الناس
فى الولائم العامة ، فيذهب الأجواد إليه ، ويجدونهُ مُرْمِلاً ^(٣) ، معدماً ،
فيخفون بجودهم حزنه ، ويفرجون ضيقه .

استمع إلى الهذيل بن مشجعة كيف يسعى إلى هذا الذى آثر أن يلزم
خباءه ، فيقتسم معه زاده ، وفى السنة المجذبة ، التى تهلك الحرث والنسل
يخلط إبله الصحيحة بإبل غيره الجربى ؛ كرمًا منه وأريحية :
ومتى أجته فى الشدائد مُرْمِلاً ألقى الذى فى مزودى بوعائه ^(٤)

(١) سميت الهجرة صكة عُمى كما روى أبو حنيفة فى الأنواء نسبة إلى رجل من
عدوان اسمه « عُمى » وكان فقيه العرب فى الجاهلية ، قدم مع قومه حاجاً فى وقت شديد
الحر ، فقال لهم من أتى مكة غداً فى الظهيرة كان له أجر حجتين فصكوا الإبل .

(٢) المشعل : النشيط ، والردح الواسعة ، والشيزى : خشب كانت تصنع منه
الجفان والشهاد : العسل .

(٣) المرمى : الذى قد نفذ زاده .

(٤) المزود . وعاء الزاد .

وإذا تتبعنا الجلائفُ ما لنا خلطت صحبتنا إلى جربائه^(١)
واستمع كذلك إلى زُرعة بن عمرو يقول :

وأرملة تنوء على يديها من الضراء أو قصص الهزال^(٢)
خلطتُ بغيها سَمَى فأضحت شريكة من يُعدُّ من العيال^(٣)

إن الرجولة الحقّة ، والمروءة الكاملة ، وتأصل السخاء في نفوس فتيانهم
وأجوادهم كانت تدعو أحدهم إلى إثارة غيره بما يملك ، ولو كان في ذلك ضره ،
وما أحسن أبيات عروة بن الورد العبسي التي يقول فيها :

أتهزأ مني أن سمئت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد^(٤)
وإني امرؤ عافى إنائي شرّكة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد^(٥)
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٦)

فهو لفرط جوده يؤثر غيره على نفسه ، وقد أجهده القيام بحق سواه ،
ومراعاة شئون الناس وإطعامهم ؛ حتى إنه ليقسم جسمه في جسوم كثيرة ،

(١) الجلائف : جـ جليفة وهي السنة المخدبة الشديدة . وكانت الإبل تجرب لجوعها
وإذا جربت لا تلد ، ولا تدر لبناً فيجوع صاحبها .

(٢) تنوء : تنهض بجهد ، وتعتمد على يديها من الضر الذي لحقها أو دنو الموت منها .

(٣) الفث : المهزول .

(٤) شحوب الحق : لأن الحق وتوفر الهمة في إقامته وأداء الحقوق هو السبب في
شحوب جسمه وهزاله : إذ يجوع ليطعم سواه .

(٥) العافى : طالب المعروف ، شركة : خلق كثير : أي أنا امرؤ يقصد أنائي خلق
كثير للطعام ، أما أنت فلا يقصد إنائك أحد بل تأكل وحده .

(٦) أقسم جسمي : أي قوت جسمي . والقراح : الماء الذي لا يخالطه غيره . والماء
البارد كناية عن زمن الشتاء الذي تمس فيه الحاجة إلى الطعام .

ويكتفى بحسو الماء القراح دون الغذاء إبان الشتاء ، مع أن الجسم في حاجة إلى ما يدفئه ؛ لأنه أعطى طعامه لغيره . فأى نفس كانت نفس عروة ! ولا بدع إذا قال عبد الملك بن مروان ^(١) ما كنت أحب أن أحداً من العرب ولدني إلا عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات .

ومن أعجب ما روى عن جودهم قصة كعب بن مامة ^(٢) الإيادي ، وقد كان في سفر مع رفقة له ، فضلوا الطريق ، ولم يبق معهم إلا قليل من الماء فصاروا يتقاسمون به بالحصاة ، يضعونها في الإناء ويصبون فوقها من الماء ما يغطيها حتى يعدلوا في قسمتهم ، فلما أراد كعب أن يشرب نصيبه رأى رقيقاً له في السفر من التمر بن قاسط يحدّد إليه النظر كأنه يشتهي ما بيد كعب من الماء ، وقد عرف فيه الجود المفرط والسخاء لدرجة الإيثار ، فقال كعب لمن يقسم الماء : أعط أخاك التمرى ، ومضى يومه هذا بدون شرب ، يفتك به الظأ ، ويشوى حشاه ، فلما كان اليوم الثاني ، وأراد أن يشرب نصيبه ، فعل التمرى معه فعلته من أمس ، فأثره كعب على نفسه ، وقال لمن يقسم الماء : أعط أخاك التمرى ؛ ولما أراد القوم الرحيل عجز كعب عن القيام معهم ؛ إذ أضر به العطش وأقعده ، فقالوا : « يا كعب : قد قرب الماء ، فرد معنا فإنك ورّاد » ، ولكنه لم يستطع الجواب ، فعملوا أنه يجود بروحه في سبيل غيره ؛ حتى ضرب به المثل في الإيثار والجود ، فقال الشاعر :

كعبٌ وحاتم اللذان تقسّما خطط العلى من طارف وتلبد

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٦ .

(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٨١ العقد الفريد ج ١ ص ٨٣ .

هذا الذى خلف السحاب ومات ذا فى الجهد مِيتَةً خِصْرِمٍ صَنِيدٍ^(١)
 إِنَّ لَا يَكُنْ فِيهَا الشَّهِيدُ ، قُومُهُ لَا يَسْمَحُونَ بِهِ بِأَلْفِ شَهِيدٍ
 وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

وما كعب بن مامة وابن سُعدى بأجود منك يا عمرُ الجوادا
 وفى مثل كعب هذا يصدق قول الشاعر :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
 و — ومن ذلك أن أثرياء العرب فى الجاهلية إذا رأوا قومهم قد مسهم
 الضر من شدة القحط ، وبرد الشتاء ، وندرة اللبن واللحم ، عمدوا إلى لعب
 الميسر بالقداج على جزور ، ومن ربح منهم جعل أجزاء الجزور طعاماً لذوى
 الحاجة وأهل المسكنة . ولذلك افتخروا بالمشاركة فى الميسر ؛ لأنه وسيلة من
 وسائل الكرم ، وإطعام ذوى المسغبة ، ومن عضهم الفقر ، ونكأهم الزمان .
 ومن لا يُسهم فى هذا دُمٌّ ، وكانوا يُسمونه بَرَمًا ، وفى ذلك يقول متمم بن نويرة
 يرثى أخاه مالكا :

وَلَا بَرَمًا تَهْدَى النِّسَاءُ لِعِرْسِهِ إِذَا الْقِشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعَّقَا^(٢)
 ويقول النابغة الذبياني مفتخرًا :
 هَلَّا سَأَلْتُ بَنِي ذِيانَ مَا حَسْبِي إِذَا الدِّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرَمَا^(٣)

(١) الخُصْرِمُ : الكثير من كل شيء ، والجواد : المعطاء والسيد المحول ، والصنديد :
 الشجاع أو الشريف الكريم .

(٢) القشع : الجلد اليابس ، وتقعقع : صوت من شدة الريح فى الشتاء .

(٣) خص الأشمط بالذكر لأنه أجزع للبرد من الشاب ، ولو جعله شاباً لكان
 أبلغ فى التعبير عن شدة البرد وأجود فى المعنى ، يقول : إنه لا يستخس نفسه فيتحنى عن الميسر
 وفيه إطعام الفقراء .

وهبت الريح من تلقاء ذى أرل تزجى مع الليل من صُرَّادها صِرَما^(١)
إني أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسوا الجفنة الأَدَمَا^(٢)

ويقول العرنس فى قوم من العرب :

هَيْنُونُ لَيْنُونُ أيسارُ ذوو كرم سواس مكرمة أبناء أيسار^(٣)

ويقول ليبد فى معلقته :

وجزورِ أيسار دعوتُ لحفنها بمغاليق متشابه أجسامها^(٤)
أدعو بهن لعقر أو مَظفل بُذِلت لجيران الجميع لحامها^(٥)
فالضيف والجارُ الجنب كَأَنما هَبَطَا تَبَالَةً مُحْضِبًا أهضامها^(٦)

ويقول آخر :

وإذا تعذَّرت السَّواعد والتوت جالَ المُقدَّى وَسَطُهَا المضبُّوحُ^(٧)

(١) الصرَّاد : شدة البرد أو السحاب لا ماء فيه ، وأرل : جبل ببلاد غطفان .
(٢) الأيسار : جيسر وهم المتقامرون ، والياسر : الضارب بالقداح . يقول : إن
نقص المتقامرون أخذت ما بقى منهم فتممتهم ، ومثنى الأيادى : أى أعطيهم نصيبين .
(٣) العرنس : أحد بنى بكر بن كلاب ، وسواس مكرمة : أى يروضون المكارم
ويلون أمرها .

(٤) لحفنها : لنحرها ، والمغاليق : القداح . ومتشابه أجسامها : كلها على قدر واحد .
(٥) بهن : أى بهذه المغاليق والقداح . والعقر : الناقة التى لا تلد ، والمظفل :
ذات الولد والعقر أسمن والمظفل أغلى ، واللحام : ج لحم .
(٦) الضيف : النازل غير المقيم ، والجار الجنب : أى الجار الذى لجأ إليهم
ومنزله بجوارهم ، وتباله اسم موضع كثير الخصب باليمن : والهضم : الطمئن من الأرض
والجمع الأهضام والهضوم .

(٧) السواعد مجازى اللين فى الضرع ، إذا تعذر اللين لشدة القحط جال المقدى
يعنى القحح ، والمضبوح : الذى ضبيع من أثر النار ؛ لأنه يقوم بها .

أغلى به رخو الإزار مُعَذَّلٌ ففدا يمار له دمٌ مسفوح^(١)
ويقول متم بن نويرة :

إذا ابتدر القومُ القداحَ وأوقدتْ لهم نارُ أيسار كفى من تَضَجَّعا^(٢)
ويقول الغنوى :

إذا شهد الأيسارُ أو غاب بعضهم كفى الحى وضاحُ الجبين أريب^(٣)

هذا بعض ما عساه يقال في كرم اليد لدى عرب الجاهلية ، وكرم اليد أوضح صفات الفتوة ، وأكبر دليل على كفاءة الكريم لسيادة قومه وتزعمهم فهو يغيثهم إذا نكأهم الزمان . كأنه سيب الساء ، ويميلون عليه إذا دارت برءوسهم حوادث الأيام ، فأفقدتهم توازنهم ، كأنه الحصن الركين ؛ وهو يحنو عليهم في شفقة ورقة وحذب كما يحنو الأب الرحيم على فلذات كبده ، والله در من قال يصف أخاه الفتى الكريم .

وكان أخى زعيمَ بنى حَيٍّ وكل قبيلة لهم زعيم
وكنت إذا الشدائد أرهقتنى يقوم بها وأقعد لا أقوم

(١) أغلى : أخذ به سهماً كثيرة لكثرة فوزه ولذلك سمي المفدى لما يتكرر له من الفوز ، ورخو الإزار : كناية عن الفتى لأن لإزاره فضلة يجرها ، ومعذل أى يعذل كثيراً على الإتفاق . ففدا : أى القدح يمار له دم الناقة التى قامر عليها .

(٢) من تَضَجَّع من الفتيان ولم يأخذ ما بقى ، أخذ هو ما بقى حتى يتممهم ، والتضجع : التسكسل والإعراض عن العمل .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٧١ و ج ٣ ص ٥٥ وكتاب الميسر والقداح لابن قتيبة ص ٥٦ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٨٢ .

وهالك ما يقوله الخطيئة في ابن حصن :

فدَى لابن حصن ما أريحُ فإنه ثمالُ اليتامى عصمةُ في الممالك

واستمع إلى عبد المسيح يصف ابن كلال :

نميلُ على جوانبه كأنَّا نميل إذا نميل على أئينا

قلبه لنخبرُ حالتيه — فنخبر منهما كرماً ولينا

وإذا كان الكرم سمة واضحة من سمات الفتوة فقلما يكون الكريم غير شجاع ، إذ الشجاعة والكرم متلازمان فالشجاع يقدم على الخطر مضحياً بقوة بل بنفسه ، والكريم يضحي بماله ، والنفس والمال أغلى ما يحرص عليه الإنسان . وكثيراً ما تغنى الشعراء بهاتين الخلتين مجتمعتين ، كما قال عنقرة :

وَلَمُوتٌ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ إِذَا لَمْ يَثْبُثْ لِلْأَمْرِ إِلَّا بِقَائِدٍ

فَعَالَجَ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ وَلَا تَكُنْ هَبِيتَ الْفُؤَادِ هَمُّهُ لِلْوَسَائِدِ ^(١)

كُفَى حَاجَةَ الْأَضْيَافِ حَتَّى يُرِيحَهَا عَنْ الْحَيِّ مَنَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَاجِدٍ ^(٢)

تَرَاهُ بِتَفْرِيجِ الْأُمُورِ وَلَفَّهَا لَمَّا نَالَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرَ زَاهِدٍ

وَلَيْسَ أَخُونَا عِنْدَ شَرٍّ يَخَافُهُ وَلَا عِنْدَ خَيْرٍ إِنْ رَجَاهُ بَوَاحِدٍ

إِذَا قِيلَ مَنْ لِّلْمَعْضَلَاتِ أَجَابَهُ عِظَامُ اللَّهِى مَنَاطُوَالِ السَّوَادِ ^(٣)

(١) الهبیت الفؤاد : الضعیف .

(٢) أروع : كريم .

(٣) اللهی : أجزل العطايا وطوال السواعد : كناية عن الكرم .

فعنتره يرى أن الفتى يجب أن يهيب إلى الخير ملبياً نداءه من تلقاء نفسه
لا أن يقوده قائد فإذا كان في حاجة إلى قائد يقوده للخير ، أو يدفعه إليه دفعاً
فأولى له أن يموت .

وينصح عنتره الفتیان بمعالجة الأمور العظيمة ، حتى يتمرسوا بالحياة ،
وتعلو همهم ، ويخطون في سبيل الشرف والسيادة خطوات تقر بهم من
الذروة ، ويحذرهم من الخمول ، والاستكانة إلى اللهو ، والجلوس لدى النساء .
وأخذ يصف كيف يقوم الفتى الحق بشئون قومه ، فهو يتعهد ضيفان
الحى ، ويفرج الكرب ويهرع المعضلات ، ويساعده فى الشر والخير رجال
قبيلته ، فكلهم سيد شريف حتى إذا قيل : من للأمر الجسيمة والشدائد ،
والسنوات المجدة ؟ لى النداء رجال عظام العطايا تندى أ كفههم بالخير .
واستمع إلى آخر يصف الكرم والشجاعة معاً : (١)

يلقى السيوف بوجهه وبنحره و يقيمُ هامته مقام المغفر (٢)
ويقول للطرف اضطبر لشبا القنا فقترت ركن الجد إن لم تعقر (٣)
وإذا تأمل شخص ضيف مقبل متسربل أثواب عيش أغبر
أوما إلى الكوماء هذا طارق نحرتنى الأعداء إن لم تنحرى (٤)

وهاك آخر يصف فتى كريماً شجاعاً :

كريمٌ يَغُضُّ الطرفَ فضلُ حيائه ويدنو وأطرافُ الرماح دوانى

(١) أمالى ج ١ ص ٤٣ . (٢) المغفر : الخوذة .

(٣) الطرف : الجواد . (٤) الكوماء : الناقة السمينة .

وكالسيف إن لا ينته لان منته وحده إن خاشته خشنان
وقد أبدع سلمى بن ربيعة إذ وصف نفسه بصفات الفتوة مجتمعة في
قوله^(١) يخاطب امرأته :

تربت يدك وهل رأيت اقومه مثل على يسرى وحين تعلت^(٢)
رجلا إذا ما النائبات غشينه أ كفى لمضليعة وإن هي جلت^(٣)
ومناخ نازلة كفيت ، وفارس نهلت قناتي من مطاه وعلت^(٤)
وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت هزم القدور فملت^(٥)
دارت بأرزاق العفاة مغالق بيدى من قمع العشار الجلة^(٦)
ولقد رأبت ثأى العشيرة بينها وكفيت جانبها اللتيا والتي^(٧)
وصفحت عن ذى جهلها ورفدتها نصحى ولم تصب العشيرة زلتى
وكفيت مولاي الأجم جريرتى وحبست ساعتي على ذى الخلعة^(٨)

(١) أمالى ج ١ ص ٨١ .

(٢) تربت يدك : صارت فى التراب أى خسرت ، وحين تعلت : حين فقرى .

(٣) مضلعة : أمر شديد تضلع صاحبها أى تميله الوقوع . وجلت : عظمت .

(٤) مطاه : ظهره ، والتهل : الشرب للمرة الأولى ، والعلل الشرب للمرة الثانية .

(٥) هزم القدور : صوت غليانها .

(٦) العفاة : طلاب العطاء ، والمغالق . سهام الميسر سميت بها لأن بها يغلق الخطر

وهو السبق الذى يراهن عليه ، والقمع : الأسنمة واحدها قعة ، والعشار : ج عشراء وهى
التي أتت عليها عشرة أشهر من حملها ، والجللة الكثيرة .

(٧) الثأى : الفساد ، ورأبت : أصلحت .

(٨) الأجم : الذى لا رمح معه ، والخلعة : الحاجة .

ومثله قول رجل من بنى فزارة :

لا يُبعد الله قوماً إن سألتهمُ
أعطوا وإن قلتُ يا قوم انصروا
وإن أصابتهم نعامٌ سابعة
لم يَبْطروها وإن فاتتهم صبروا
الكاسرون عظاماً لا جُبورَ لها
والجابرون فأعلى الناس من جبروا
وكذلك قول الشَّماخ بن ضرار .

وأشعث قد قدَّ السَّفارُ قيصَه
يجر شواء بالعصا غير مُنْضَج
دعوتُ إلى ما نابني فأجابني
كريمٌ من الفتيان غير مُزَلَج^(١)
فتي يملأ الشيزى ويُرَوى سنانَه
ويضرب في رأس الكميِّ المدجج
فتي ليسَ بالراضى بأدنى معيشة
ولا في بيوت الحى بالمتولج^(٢)

وما أحسن قول الخطيئة في الفتيان الكرماء الشجعان :

أولئك آباء الغريب وغاثة الصد
ريخ ومأوى المرملين الدراق^(٣)
هذا وأما فيض زاهر من أقوال الشعراء الذين مدحوا الفتيان الأجداد
بالشجاعة والكرم معاً ، ولست بمستطيع في هذا المقام تسجيل كل ما قيل ،
وحسبى ما اخترته هنا لأستدل به على أن الفتى ، وهو السكامل الجزل من
الرجال كما ذكرنا آنفاً يجب أن تتوفر فيه من خلال الفتوة الكثيرة خلتان
شريفان هما الشجاعة وكرم اليد .

(١) المنزج : الناقس المروءة .

(٢) المتولج : الذى يدخل البيوت ويلزمها .

(٣) المرمل : الفقير ، والدراق : الصغار .

٢ — كرم القلب

عرفنا الفتى العربى فيما سلف من هذا الكتاب شجاعاً ، سمحاً ، كريم اليد . ولكنه لا يتحلى بهذه الخلال الكريمة فحسب ، بل يجب أن يتصف بالحلم ، وكرم القلب ، وسعة الصدر ؛ ليكون فتى قومه .

وكرم القلب صفة مميزة لكبار الرجال ، الذين تصغر في عيونهم الحوادث مهما جل شأنها ، وعظم خطرهما لدى الدهماء ، وهو دليل ناصع على أن كريم القلب قد بلغ في مدارج الإنسانية مرتبة عالية ؛ لأن الغضب ، وشدة الانفعال وحدة الطبع ، والثورة الجارحة التى لا يسيرها عقل ، ولا يضبطها تفكير تنزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان الذى تسيطر عليه القوة الغضبية ، والغرائز الدنيا .

إن تحكم الإنسان فى عاطفته ، وقهر نفسه — وما أصعب قهرها — يتطلب إرادة صارمة ، وعزيمة قوية صلبة ، ومراناً طويلاً مريراً على كبج جماع شهواته ، وهذه فتوة وبأس لا يصل إليهما إلا ذوو النفوس العالية التى تنأى بمنزلتها عن دنيا الدهماء ، وتتطلع إلى الشرف والسؤدد . ولذلك جعل الحلم من أهم الشروط التى يجب أن يتصف بها رئيس القبيلة ، وصار من الأمثال العربية الخالدة : « آلة الرياسة سعة الصدر » . وذلك لأن رئيس القبيلة أب لأفرادها ، ويجب أن ينظر إلى أمثالم وأخطأهم نظرة الأب إلى أخطاء أبنائه ؛ ولأنه قاض يفصل فى مشكلاتهم ، ولو كان سريع الانفعال ، ضيق الصدر ، حاد الطبع ، جاءت أحكامه غير متزنة ولا عادلة .

قال^(١) معاوية بن أبي سفيان لعِرابَة بن أوس بن حارثة الأنصاري :
بأي شيء سدت قومك يا عِرابَة .

قال : بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه .

قال : وكيف كان ؟

فأنشده :

وأصبحتُ في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يُرضى ما يقول ويُعرفُ
وذاك لأنى لا أعادى سَرَاتهم ولا عن أخى ضَرَّائهم أتنكفُ
وإنى لأعطى سائلى ولربما أكلفُ ما لا أستطيعُ فأكلفُ
وإنى لمذمومٌ إذا قيل حاتم نبا نبوةً . إن الكريم يُعنفُ
وعِرابَة الأوسى هذا هو الذى قيل فيه :

إذا مارايةٌ رُفعت لمجد تلقّاها عِرابَة باليمين

إن الحليم كريم القلب ، لأنه يبذل رِقَّتَه ، وعفوه ، ويظهر احتمالا
للشدائد في وقت ينتظر منه الغلظة ، والانتقام ؛ ولأنه يضحي بشهوة نفسه ،
ورغبتها العارمة على مذهب السيادة والشرف .

استمع إلى معن بن أوس كيف يغالب شهوة نفسه ، ويكظم غيظه ،
ويحلم حين الشدة ، ويصفح حين الإساءة^(٢) :

وذى رَحَمٍ قَلَمْتُ أظفار ضِغْنِه بحلمى عنه وهو ليس له حِلْمٌ

فإن أعفُ عنه أغضِ عيناً على القذى
فما زلتُ في ليني له وتعطفى
وخفض له مني الجناح تألفاً
وصبرى على أشياء منه تُرينى
لأستل منه الضغن حتى استلته
وقد كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الجرمُ

ومعن بن أوس هذا هو القائل ^(٢) ، من قصيدة له يعاتب بها صديقاً
أساء ، ويحذره عاقبة جهله وسفاهه :

وإني على أشياء منك تريئني
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني
وفي الناس إن رثتُ حباً لك واصلُ
وفي الأرض عن دار القلي متحولُ ^(٣)

فأى قلب كريم قلبُ معن بن أوس الذي يصفح عن السيئة ويغضى
عن الخطيئة ، ويلين لخشونة صاحبه حتى يستل منه الضغن ، ويغسل بماء
حلمه وضر فؤاده ، ويعيده إليه مخلصاً !!

استمع إلى شاعر آخر يصف قوماً بالحلم ، وتأمل تلك الاخلال الحميدة التي
كسأهم بها الحلم :

تحلهم للحلم ضماً عن الحنا
وخُرساً عن الفحشاء عند التهاثر

(١) الخامسة ج ٢ ص ٩ . (٢) أى مهد إليك الجميل .

(٣) القلي : الهجران .

ومرضى إذا لاقوا حياءً وعِفَّةً وعند الحروب كالليوث الخوادر^(١)
لهم ذل إنصاف ، ولين تواضع بهم ولهم ذلت رقاب المعاشر
كأن بهم وُضماً يخافون عاره وما وصمهم إلا اتقاء المعابر
يترفعون عن سماع الفحشاء وعن النطق بها إذا ما تهاثر الناس في الخصومات
أنفة منهم ، وبعداً عن الصغار والنزول إلى ساحة البذاءة ، وإذا لقيتهم خلت
أنهم مرضى حياءً منهم وعِفَّة ، وليناً ، ولكنهم في الحروب أسود أجام شجاعة
وجرأة . فيهم ذلة المنصفين الذين يعطون الناس حقوقهم ولا يتكبرون عليهم ،
وفيهم لين المتواضعين . وبذلك كله سادوا وذلت لهم رقاب معاشرهم . ولترفعهم
عن السَّغَّة ، وعِفَّة ألسنتهم ، وعدم بذاتهم تحسب أن بهم عيباً يخافون أن
يعيرهم الناس به إذا اشتبكوا معهم في خصومة وجدال ، وما عيبهم إلا خوف
ما يشينهم ، ويخدش كرامتهم .
وفي هذا يقول شاعر آخر :

أحلام عاد لا يخاف جليسههم إذا نطقوا العوراء غربَ لسان
إذا حدَّثوا لم تخش سوء استماعهم وإن حدَّثوا أدَّوا بحسن بيان
ولا تحسب الحلم عند فتیان العرب ضعفاً ، فالحلم عندهم لم يبلغ ما دعت
إليه تعاليم المسيحية التي تقول : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك
الأيسر » ؛ لأن مثل هذا يُعدَّ ضعفاً ، وحاشا للعربي أن يوصف بالضعف .
إن الحلم عند العرب لا يسمَّى حلماً إلا إذا كان صاحبه قادراً على الإساءة ،

فكظم غيظه ، وردع نفسه ، وقابل العدوان بسعة الصدر ، وعفا عن أساء
إليه ، ولذلك قيل في أمثالهم : « العفو عند المقدرة » .

وفي هذا يقول المهلهل بن ربيعة^(١) في إحدى مرثياته لأخيه كليب :
وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يخير ومن يجار
إنه حلم المقتدرين الأقوياء ، لاحلم الضعفاء الجبناء ، الذي عبّر عنه المتنبي
فيما بعد بقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجةً لاجئٍ إليها اللثام
إنه الحلم الصحيح ، وكرم القلب ، الذي يملك صاحبه البذل ، والذي
يقول فيه الشاعر :

يكف أذاه بعد ما بذل عُرْفِهِ ويحلم حلمًا لا يُذَمُّ ولا يُزَرَى
وأى حلم أنبل وأعظم من حلم ذلك العربي الذي قتل أخوه ابنًا له ،
فقدّم إليه أسيرًا مقيداً ؛ ليقصص منه ، فنظر إليه ، ثم فكر في أمره وأصدر
حكمه الكريم الذي أدّى إليه قلب سمح ، وطبيعة خيرة ، وبصيرة نافذة ،
ونفسٌ ذلت شهواتها ، وعُبدت أهواؤها :

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً إحدى يديّ أصابتنى ولم تُرد
كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذاولدى

(١) شعراء النصرانية ج ٢ ص ١٦٣ .

ليس من اليسير أن يعفو المرء عن قاتل ولده الحبيب . وفلذة كبده ، ومخلّد ذكره بعد موته ، ووارث ماله وأمله المرجّى في هذه الحياة ، بالغة ما بلغت قرابته منه ، ولكنها النفوس الأبية الكبيرة ، التي ترى الأشياء بعين الحكمة والعقل ، لا بعين العاطفة والهوى . إن هذا الرجل لو قتل أخاه قصاصاً منه لمقتل ولده يكون قد خسر خسارتين ، وفقد رجلين . ولن يسترد ولده بقتل أخيه ، ولكنه سيفقد به عضداً ، وقوة تعينه على نوائب الزمان . وصفحه عنه سيجعله أسير معروفه ، وعبد إحسانه وسيزيده عناية بشئونه ، وإقبالاً على خدمته . هذه هي البصيرة النافذة ، لا العاطفة الطائشة ، وهذا هو الحلم الصحيح . ولقد وصف هذا الحلم وذاك العفو العظيم الحارث بن وعلّة الجرمي حين قال :

قومي هُم قتلوا أميمَ أخي فإذا رميتُ يُصيبني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفونَ جَلالاً ولئن سطوتُ لأوهنَ عظمي

ومن الحكم المشهورة لدى العرب منذ الجاهلية قولهم : « إذا ملكك فأسجح » والإسجاح : حسن العفو . وترى هذا واضحاً جداً الوضوح في ميدان القتال ، وعند الأخذ بالثأر فهو لاء الذين يستطيعون أن يأخذوا السن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف ، وأن يثأروا لأنفسهم ممن وترهم ، وأن يصلوا ويجولوا في ميدان الوغى ، يتغلبون على أنفسهم ، ويعفون عن أعدائهم في ساعة النصر .

كم من قرنين اشتد بينهما القتال ، وحى وطيسه ، فإذا انكسر رمح أحدهما أو نبا سيفه ، أو كبا جواده ، وظل الآخر في قوته وعدته ، لا ترى

القوى يعتمد إلى انتهاز هذه الفرصة التي جاء بها القدر ، أو التي أوجدها هو ، فيقتل غريمه وهو أعزل من السلاح . بل ينتظر حتى يسترد سلاحه ليكون النصر أتم ، ولتكون غلبته لغريمه ثمرة شجاعته وقوته وخبرته بفنون القتال .

لقد تمكن دريد بن الصمة من ربيعة بن مُكَدَّم ، ووجد رحمه قد انكسر غبَّ معركة حامية قتل فيها ربيعة ثلاثة من خيرة فرسان دريد ، ومع ذلك قال له دريد حين رآه بدون سلاح : « مِثْلُكَ لَا يُقْتَلُ ^(١) » ، ولا أرى معك رُمحاً ، والخيول ثائرة بأصحابها ، فدوّنك هذا الرمح ، فإني منصرف إلى إلى أصحابي فمبیطهم عنك » .

ولقد مرت بنا حادثة الحارث بن ظالم المرّي مع عمرو بن الإطنابة ^(٢) ، وكيف أنهما بعد أن تجاولا ساعة ألقى عمرو رُمحه ، وقال يا حارث ألم أخبرك أن النعاس يغلبني ، قد سقط رُمحي فاكفف ، فكفف ، ثم قال عمرو : أنظرنى إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعنى آخذ رُمحى ، قال خذه ، قال : أخشى أن تُعجلنى عنه ، أو تفتك بى إذا أردت أخذه ، قال : وذمة ظالم لا أمجلك ، ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال : وذمة الإطنابة لا أخذه ، ولا أقاتلك ، فانصرف الحارث إلى قومه ، وأنشد شعراً قال فيه :

قد هممنا بقتله إذ برزنا ولقيناها ذا سلاح كميّا
غير ما نأثم تعلل بالحلّا ثم مُعدّاً بكفه مشرفيّا
فمننا عليه بعد علو بوفاء وكنت قديماً وفيّا

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) مذهب الأغاني ج ١ ص ١٣٠ . وراجع ص ٥٧ من هذا الكتاب .

وكم من رجل طُلَّ دمه وهام على وجهه في الفياض خوفاً من عُذاته ، حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، وتمكن أعداؤه منه وظنَّ أنه قد حان حِينُهُ ، وألاً منجاة له من الموت ، وهبوه الحياة كرمًا منهم وأريحية قلب . وحادثة بشر بن أبي حازم مع أوس بن حارثة بن لأم الطائي مشهورة في كتب الأدب ^(١) وذلك أن بشرًا أغراه أناس على هجاء أوس — وكان أوس من أجواد العرب الذين يضرب بهم المثل ، من ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز .

وما كعبُ بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا
وابن سعدى هو أوس بن حارثة . فلما هجا بشر أوساً ، أقسم أوس إن تمكن منه ليحرقنه ، وكان بشر قد أخذ على هجائه أوساً مائة من الإبل ، فأغار أوس عليها واكتسحها . وهرب بشر ، وصار لا يستحير أحداً إلا قال له : قد أجرتك إلا من أوس ^{بن} حارثة . ثم تمكن منه ^{بشر} ، ودخل على أمه سعدى ، وقال لها : لقد أتينا ببشر الهاجى لك ولى ، قالت : أو تطيعنى ؟ قال : نعم ؟ قالت أرى أن ترد عليه ماله ، وتغفو عنه ، وتحبوه ، وافعل مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ، فخرج فقال : إن أمي سعدى التى كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا ، فقال لاجرم ، والله لامدحت حتى أموت أحداً غيرك وفيه يقول :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطئ الثرى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

وهناك عشرات الأمثلة التي تثبت تأصل هذه الصفة الكريمة في نفوس
فتيان العرب ، ونبل معاملتهم لأعدائهم ، وأقربهم في ميدان القتال ، وعند
الظفر بهم ، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه التقاليد الشريفة قد ظهرت في كل
مجتمع عربي بعد سيادة الإسلام وانتشاره ، وأنها كانت الدرس السامى الذى
تلقنه فرسان أوروبا إبان العصور الوسطى من فتيان الصحراء العربية .

هكذا كان الحلم عند العربى ، وهكذا كان كرم قلبه ، ولكن ليس
معنى هذا أنه كان يصبر على الإهانة ، ويغضى على الضيم والمذلة ، ويقبل
في خضوع أن يطأطأ رأسه لأعدائه . إن الحليم يتصف بسعة الصدر ، وينظر
إلى الأمور نظرة حكيمة ، يقدر فيها العواقب . ولكن إذا أهين ثار ، وغضب
غضبة شديدة لكرامته وقد اشتهر من أمثال العرب قولهم : « اتقوا غضب
الحليم » ، وذلك لأنه لا يغضب إلا للأمر الجليل ، وهو قادر على أن يثار لشرفه
المهان ، وكرامته المخدوشة ، استمع إلى فتى من هؤلاء الذين عُرفوا بكرم القلب ،
وسعة الصدر ، كيف يحذر هؤلاء الذين غرهم حامله شديد غضبه ^(١) .

مابال من أسعى لأجبرَ عظمه حفاظاً وينوى من سفاهته كسرى
أعود على ذى الذنب والجهل منهم بحلمى ولو عاقبتُ غرقهم بحرى
أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً وما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر ^(٢)
أظن صروف الدهر والجهل منهم ستحملهم منى على مركبٍ وغر

(١) هذا الشعر لابن أذينة الثقفى راجع الأمالى ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) الضرع : الصغير من كل شيء أو الصغير السن الضعيف . الغمر : من لم يجربه

ألم تعلموا أنى تخاف عرامتى وأن قناتى لاتلين على الكسر^(١)

إن أشد ما كان يخشاه الفتى العربى هو أن يوصف بالذلة والضعفة ، ولا شك أنه يشور ثورة حادة إذا ظن أنه أهين ، وكيف يقبل الإهانة ، وهو الشجاع ، الذى لا يهاب المنايا ؟ وهو الجواد الذى يضحي بأمن شئ لديه فى سبيل شرفه وعرضه ، إنه كان يضع الحلم حيث يجب أن يوضع كما قال الشريف الرضى :
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكننى للحلم أدنى وأقرب

يحلم مع قومه ، ولا سيما سفهاؤهم ، ويحلم مع عشيرته الأقربين ؛ لأنه رئيسهم ، ولأنه إذا عاقبهم على جهلهم خسرهم ، وإنما كان يدارى هؤلاء وهؤلاء ، ويدارى طيشهم بحلمه ، ويزقهم بسعة صدره ، ولأنه يعلم أنهم لا يقصدون امتهان كرامته ، ولا خدش شرفه ؛ لأن كرامته من كرامتهم ، وشرفه من شرفهم ، تقضى بذلك تقاليد القبيلة وعرفها السائد .

ويشور حين يجب أن يشور ؛ حين يرى من المذلة والعار أن يغضى على المهانة ، ويصبر على الإذلال ، ويرضى بالضم .

ولا يقيم على ضميم يراد به إلا الأذلان غير الحى والودئ
إنه كان حكماً فى تصرفه ، وقد صدق فيه قول الشاعر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلأ مخر كوضع السيف فى موضع الندى
وإن تصرفه مع هؤلاء الذين يزدرونه ويحقرونه ، ويريدون إذلاله لهو تصرف

عادل جميل ، وفي ذلك يقول أرسطو : « عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ؛ لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة ، وكل ما هو عدل فهو جميل ، والشجعان لا يرضون الهزيمة ^(١) » .

ولقد ثار عمرو بن كلثوم ، وهو ضيف الملك عمرو بن هند ملك الحيرة حين سمع أمه تصيح قائلة : واذلاه ! يالتغلب ! فغلى الدم في عروقه وأخذته الحمية ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند ، وقال معلقته المشهورة التي يشير فيها إلى هذه الحادثة بقوله :

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقييلكم فيها قطينا؟ ^(٢)
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا وأوعدنا رويداً متى كنا لأملك مقتونينا؟ ^(٣)
فإن قناتنا ياعمرو أعيت على الأعداد قبلك أن تلينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً أيننا أن نقر الذل فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا ^(٤)
ويقول عنتره في العزة :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الخنظل

(١) الخطابة لأرسطو ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة ص ١٧٣

(٢) القيل : هنا الخدم والعبيد ، والفطيلين : المتجاورون .

(٣) مقتوى : خادم ، وهي كلمة حميرية .

(٤) الجهل : السفاهة والطيش .

ماء الحية ————— اة بذلة كجهم وجهم بالعز أكرم منزل
وأني له أن يقبل الذلة والمهانة ، وهو الأبى الشجاع الذى اتخذ شعاره قول
عمرو بن براقه :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
ولا تظن أن العرب جميعاً يتحلون بهذه الخلقة الحميدة ، خلقة الحلم وسعة
الصدر ، وكرم القلب . كلا ! فإن الحلم كان نادراً ، والحلماء قليلون وإلا
لما كان الحليم مقدماً على الناس ، يرأسهم ، ويتزعمهم ، ويفصل فى شئونهم ،
وكيف يكون الحلم حلية جمهرة العرب ، وهم فى بيئة صحراوية مجدبة يشتد
فيها أوار الشمس ، وتقل فيها الخيرات ، فيزيد ذلك فى سرعة انفعالهم ،
وحدة طباعهم ، وضيق صدورهم ؟ زد على ذلك أن هذه الحياة عودتهم كثيراً
من الحرية التى أساء بعضهم غايتها ؛ واعتقد كل امرئ فى نفسه السمو والسعادة
والقوة فكان ذلك مدعاة لطيشه وسفهه . ولذا كان من سمات الشرف ،
ومؤهلات الرياسة أن يتصف الفتى بالحلم ، بين قوم سريعى الغضب ، حادى
الطباع ؛ وبذلك تميز الفتيان عن سواهم من عامة العرب بتسامح الأقوياء ،
وعفو المقتدرين ، وأناة المتبصرين ، وكرم الأعزّة ، وصفح الأبّة النبلاء ،
لا يعرفون الضغن ، ولا يستقر فى قلوبهم السمحة : « وليس رئيس القوم من
يحمل الضغناً » ، ولا يفقدون التزامهم ، إذا طاشت أحلام سواهم ، ولذلك
بوئوا منزلة سامية فى المجتمع العربى . وتغنى الشعراء بصفحهم الجليل ، وردّته
ألسنه الزمن .

٣ — كرم العقل

كرم العقل هو سماحته ، ومرونته ، وتقبله للحقائق ، وعدم كبرازته وتعصبه ، ونفوره من الأوهام والخرافات ، وإدراكه لما حوله إدراكاً صحيحاً لا يشوبه شك ، أو يخمره غموض .

والفتى العربى قد نشأ على أديم الصحراء ، ذلك البساط الطبيعى الفسيح الظاهر المعالم ، الذى يمتد فيه البصر ، مسافات شاسعة ، فلا يقف فى سبيله عائق ، يُلغى ضوء غامر قوى ، يحل كل شئ أمامه فىرى الطبيعة قوية بيّنة باهرة . ومثل هذه البيئة الرّحبة تنمو فيها الحرية وتسمق دوحتهما ، والرجل الحريابى أن يتقيد عقله بقيود ، أو أن يُحدّ فكره بحدود ، وفى ذلك يقول دوزى : « سعة العقل ورحابته قديمة عند العرب ؛ لأنهم أمة تعشق الحرية ، ومن العسير عليهم أن يقبلوا التحكم فى عقائدهم » ^(١).

وقد قال مرشد بن عبد القلال ملك اليمن . « إني أحكم على الأجساد لا الآراء ، وأطلب من رعيى أن تطيع حكومتى ، أما عقيدتهم فمتركة لحكم الله » ^(٢).

ولهذه الحرية لم يعرف العرب فى دياناتهم الجاهلية نظام الكهنوت ، والعبودية للهيكل ورجاله ، يتحكمون فى عقائدهم ، وسائر شؤونهم الدينية والدنيوية ، ويتوسطون بينهم وبين آلهتهم ، ويفرضون عليهم الجزية والطاعة

(1) wacyf Ghali . Tradition Chervaleresque des Arabes . P 248.

(2) Caussain de Perceval , T . I . P.111 .

العمياء ويمنحونهم الغفران إن أرادوا ، أو يطردونهم من رحمة الله إن سخطوا .
وأنى للعربي أن يقبل هذا أو مثله وقد ألقت نفسه الفضاء الفسيح ، وامتلأ
فؤاده بهذا الإحساس القوي الطبيعي بأنه حر طليق لا تقيده أرض ، ولا
تعرق تفكيره تلك القيود والعوائق التي تحد من حريته الشخصية ؟ !

ولما كان هذا الفتى العربي يعيش في كنف الطبيعة ، وتحتضنه صباح مساء ،
لا يهرب منها بين جذر كثيفة ، وفرش وثيرة ، وقصور ضخمة ، وإنما تتلقاه
بين ذراعيها إذا أصبح كادحاً في سبيل رزقه ، وإذا أمسى سامراً مع خِلانته ،
وتطل عليه من علّ بشمسها الوهاجة نهاراً ، ونجومها المتلألئة ليلاً ، يراها
وهو على ظهر ناقته أو في خبائه . ويسمع دوى الرعد وقصفه ، وزججرة الريح ،
ويصطلى بوقدة الهاجرة ، وزمير الشتاء ؛ صار الفتى العربي منذ حداثته
وهو بعد غرض لين العود صديقاً لهذه الطبيعة التي ألها في حالي خيرها ورضاها ،
وشرها وسخطها ، ونجم عن ذلك كما ذكرت في غير هذا الكتاب ^(١) « إلغاء العقل
الباطن عند هذا العربي ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة في عقله الواعي ،
ولم تدع له الطبيعة بضوئها الشديد نهاراً ، ونورها الباهر ليلاً أن يختزن في
نفسه سرّاً ، أو أن تكون ثمة هاوية في عقله تتساقط فيها الرغبات التي
لا تحقق ؛ لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم جدّ العلم ، وبكل وضوح
لماذا لم يحققها .

وبإلغاء العقل الباطن صارت كل أفكار العربي بين يديه ظاهرة جليلة ،

وصارت وجهة نفسه وجهة يقين لا شك ، وبذلك ألغيت الوساطة في الشعور والتفكير والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلمسه في الشعر الجاهلي ، وفي التفكير العربي من صفاء الفكرة ووضوحها ، والقصد إلى الهدف دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن أقصر طريق .

وهذا هو السر في أن العربي كريم العقل ، سمح النفس ، يتناول حقائق الحياة في أوجز الصور وأقومها ، ولعل من أسباب ذلك أنه نشأ نشأة طبيعية . بسطت في قوة جسمه ، وصيرته صحيح الحواس ، تام البناء والتركيب . ونعلم أن العقل يسترفد معلوماته من الحواس ، فإذا كانت الحواس صحيحة كاملة النمو لم يصل إلى العقل إلا الصحيح التام من المعلومات — بغض النظر عن قيمة هذه المعلومات — ولهذا كان عقل الفتى العربي سليما ، وحكمه على الأشياء صحيحا . ولقد اشتهرت عندهم الحكمة القائلة « العقل السليم في الجسم السليم » . وتقول بنت الخس معبرة عن رأى العرب في العقل وأخلاق الفتیان ، كما أفهمته إياها الصحراء :

أشدُّ وجوه القول عند ذوى الحجا	مقالة ذى لبٍ يقول فيوجز
وأفضلُ غنمٍ يستفاد ويُبتغى	ذخيرة عقلٍ يحتموها ويحرزُ
وخيرُ خلال المرء صدق لسانه	وللصدق فضلٌ يستبين ويبرزُ
وإنجازك الموعودَ من سبب الغنى	فكن موفيا بالوعد تعطى وتُنجز
إذا المرء لم يَسْطع سياسة نفسه	فإن به عن غيرها هو أعجز

ويقول شاعر آخر :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها إذا لم يزن حسن الجسوم عقولُ
ومن الأسباب التي جعلت عقل العربي سمحاً منبسطاً ، لا كزارة فيه
ولا تعقيد ، أن المجتمع العربي خلا من تلك الفروق الاجتماعية ، ونظام الطبقات
فليس ثمة أغنياء قد أبطروهم الغنى ، وأعمى بصائرهم ، وظنوا أنهم بالمال يشترون
من دونهم من عباد الله ، الذين يعملون في مصانعهم أو أرضهم . وليس ثمة
فقراء قد أذلهم الفقر ، وضعضع نفوسهم ، وأمات فيها العزة ، وجعلها تتطلب
المال ولو من أحسن الطرق وأوضعها . بل إن العرب كانوا في ميدان الحياة
الاجتماعية سواء ، الفقير والغنى ؛ لأنهم جميعاً يسكنون الخيام لا القصور
الشاهقة ، ويتوسدون الرمال لا الحشايا اللينة ، والسيادة فيهم ليس مردها إلى
الغنى والثروة ، وإنما تُنال بالفضائل ، وحب أفراد القبيلة ورعاية مصالحهم ،
ومواساة حزينهم ، والدفاع عن ضعيفهم ، وفك عانيهم وأسيرهم ، والجود على
معدمهم ، والحلم على سفهائهم ، والمطالبة بتاراتهم ، وتحمل ديانتهم . والسيادة
ليست السيطرة بالقهر والغلبة ، وإنما امتلاك القلوب بالرفق والفضيلة . وشتان
بين مجتمع هذا شأنه ، ومجتمع آخر لا يعرف إلا السيطرة : سيطرة القوة والمال
والجاه ، وعبودية الفقر والسخرة .

إن العربي الفقير إذا ضاقت عليه الأرض ، وقُتِرَ عليه رزقه ، لا يبرم ،
ولا ييأس ، بل يرمى نفسه في فخاجها العريضة ولسان حاله يقول .
إذا ما ضاق رزقك في بلاد ترحل طالباً أرضاً سواها
فرزق الله في الدنيا فسيح وأرض الله متسع فضاها

وقد ذكرنا في كرم اليد كيف أن العرب جميعاً تعاونوا على قتل الفقر بينهم ، وكان من أهم صفات السيد الشريف سخاء اليد والجلود بما لديه ولو كان آخر زاده ؛ ولهذا كله لم تتخلف في نفس أى عربي نزعات مكبوتة ، وآمال ميتة ، تفسد عليه تفكيره في وحدته ، وتذهب صفاء عقله ، بل قبل الحياة على غلاتها ، بسرائها وضرائها . إذ أنه أدرك من طبيعة بلاده أن هذه الثروة التي نالها سواء قد تزول حين تضن السماء بمائها ، وتجذب الأرض ويصوِّح النبات . وأنه قد يرحل إلى غير موطنه فيصيب أرضاً خصبة ، وثرء عريضاً .

إن العربي في حياته كلها كان ينظر إلى الأمور نظرة واقعية ولم يلجأ إلى إلى ذلك الضرب من الحياة الذي صورته المشاعر الفرقة ، والنفوس القلقة . لأنه لم يشعر بالحرمان ، ومن ثم لم تكن أوهام وأحلام ، وإنما هي الحقيقة يفتنون بها ، ويسعون جهدهم لإدراكها .

وربما قيل : وكيف توفق بين هذه الساحة في العقل ، وعبادة العرب للأوثان والأصنام ، وهي لا تدرك ولا تغنى عنهم شيئاً ؟

إن العرب لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة ، ولقد وصلوا في قرارة نفوسهم إلى معرفة خالق الوجود ، ووحدانيته فآمنوا به ، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحياناً عن طريق الأصنام ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلي التام ، ولم يكن حظهم من المعرفة كبيراً . وإذا سئلوا عن هذه الأصنام : أهي آلهة ؟ أنكروا في قوة عقيدة ألوهيتها ، واعترفوا بالله وقالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . ولقد سخر كثير منهم بهذه

الأصنام كما سخر امرؤ القيس بصنمه ذى الخُلصة حينما استخاره واستقسم لديه بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك فقال :

لو كنت ياذا الخُلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداة زورا

وحطم الصنم^(١) .

ولقد أقبل رجل من بنى مِلكان يابل له مؤبلة يقفها على صنم القبيلة «سعد» ابتغاء بركته فيما يزعم ، فلما أدناها منه ورأته ، وكان يُهراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهبت فى كل وجه ، فغضب الرجل وتناول حجراً رمى به الصنم وقال : « لا بارك الله فيك إلها نفرت إيلي » ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى (سعد) ليجمع شملنا فشتتنا (سعد) فلا نحن من سعد

وهل (سعد) الا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعوا لى ولا رُشد^(٢)

ولما رأى عمرو بن الجوح وهو أحد سادات بنى سلمة وأشرافهم أن صنمه الذى يتقرب إليه قد ألقى فى موطن القذارة قال :

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن

أف للملك آله مُستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن^(٣)

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

(٣) مستدن : من السدانة وهى خدمة البيت وتعظيمه .

الحمد لله العلى ذى المن الواهب الرزاق ديان الدين^(١)
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مُرْتَهَن^(٢)

ولما رأى غيره أن صنمه تبول عليه الثعالب قال : « لقد هان من بالت عليه الثعالب » .

وكل هذا يدل على أن العربى لم يكن ينظر إلى هذه الأصنام نظرة جد ،
وأنها آلهة بحق ، بل إذا رأى منها ما لا يستجيب له عقله أنكرها سريعاً ،
ورجع إلى فطرته الصحيحة ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه ، أنها لا تضر ولا تنفع ،
وليس لها من أمر الكون وخلقه وتديره شئ : « ولئن سألتهم من خلق
السّموات والأرض ليقولنَّ الله » ، « قل من يرزقكم من السماء والأرض ،
أمَّن يملك السَّمْع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من
الحى ، ومن يُدَبِّرُ الأمر فسيقولون الله » .

على أن العربى لم يخترع هذه الأصنام ، وإنما جلبت له من خارج البلاد
العربية جلبها الحى بن حارثة بن عامر الأزدي من البلقاء بالشام حيث اليهود
والنبط وغيرهم فى قصة معروفة^(٣) . فهى طائفة عليه ، لم تتأصل عبادتها فى
نفسه ، ويقدها ذلك التقديس الذى جرى عليه بعض الأمم لآلهتهم مثل
الأشوريين والإغريق والمصريين القدماء ، وبنوا لها الهيكل والمعابد ، ووضعوا
لعبادتها النظم والقوانين ، وتعددت طبقات رجال الدين والكهنوت . ولكنه

(١) الدين : جدنة وهى العادة .

(٢) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠١ والأصنام لابن الكلبي .

كان يتقرب إليها في بساطة ، ويتركها في بساطة ، وإذا قلت : ألم يكن العرب يعتقدون في الجن ، وأنها تتراعى لهم ، وتتحدث إليهم ، وتلهم شعراءهم القول البليغ ؟ أو لم يكونوا يعتقدون في الغيلان والأشباح ؟ أو هذه صفة العقول الراجحة الصافية التي لا تؤمن بالخرافات والأوهام ؟

كان العربي في بيدائه دائب الحركة والسعى في طلب الرزق ، وليست الصحراء العربية كلها واضحة السبل بينة المحجة ، ولذلك قد يضل في أرجائها بعض من عُنى عليه طريقه ، وغمَّ سبيله ، وهو في تيهه هذا يستحضر معنين ، لامعدى له ولطبيعته البشرية السليمة من أن يستحضرها وهو رابط الجأش ثابت الجنان ؛ وهذان المعنيان هما : الهلاك ، والوحشة . أما الهلاك فيأتى من نفاد الزاد وكثرة التعب ، وقسوة الهجرة ، وكان من الهلاك عند العرب اسم « الغول » الذى يغتال النفوس ويهلكها ، وأما الوحشة فنشأ منها بينهم اسم « الجن » وهو « سراب النفس » الذى يتطلع إليه العربي ، وقد « أجنته » الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها ، وكادت تستتر عنه وتخفى معالمها فهلكه .

فهو يرى هذا السراب رجلاً مثله على مرأى منه ، فيتجه إليه في مثل الشوق الذى يستشعره نحو أهله كلما أشرفت نفسه على الهلاك ، فيرى أعرايياً جالساً أمام خباء ، وبجواره قلوص . وهو مهيب السمات ، جليد القلب ، فهو يسلم عليه ، ويسأله شربة ماء أو لبن ، ثم يستزيد من حديثه ، فينشده الشعر ، ويسترويه الأخبار ، ليكون في ذلك ما يبدد وحشته . حتى إذا ما قضى هذا التائه وطراً من ذهاب الوحشة عنه مع عربى مثله ، عاد فبدا له أن ما رآه على الأفق إنما كان سراب نفسه . كسراب الماء في الصحراء ، يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وهكذا يعرف العربي أن مالم يجده شيئاً من هذا الرجل الذى استنشده الشعر فى متاهات الصحراء إنما هو « الجن » الذى يظهر للتائهين ، عند ما تجهل الطبيعة على أصفائها . لقد سُمى العرب هذا السراب جناً ؛ لأنه لا يلوح لهم إلا إذا أجنبهم البیداء فى بعض مجاهلها ، وسترتهم عن معالمها المأمونة . وليس أدل على ذلك من تخصيص العرب أما كن يظهر فيها الجن ، فلا يظهر الجن فى كل مكان بالجزيرة ، وإنما يظهر فى المتاهات والأودية الموحشة مثل وادى « عبقر » و « أبرق الحنان » و « البقار^(١) » الذى يقول فيه النابغة الذبياني واصفاً جنداً مدججين بالسلاح ، قد اختلط صداً السلاح بعرق أجسامهم ، فانبعث منهم رائحة خاصة :

سَهَكِينَ مِنْ صَدَا الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ السَّنَوْرِ جِنَّةُ الْبَقَارِ^(٢)
وتمتاز الجن العربية فى أخبار العرب بأنها نموذج للعربي الكريم ، فهى مؤسسة غير مؤذية ، بل هى فى الغالب مصدر نعمة ، إذ كثيراً ما شعر التائهون كأنما الجن توحى إليهم معرفة الطريق الذى أضلوه . كما أن الجن العربية تحفظ الجيد من أشعار العرب بالقدر الذى يحفظه بالطبع من يراها منهم . وهذه المزايا الإنسانية النادرة فى الجن العربية علامة من علامات الألفة القوية بين العرب ، وعناصر الطبيعة العظيمة المحيطة بهم . وهى آية من آيات التكافؤ فى المستوى الحيوى بينهم وبينها ، بحيث انعكست صورهم على آفاقها بهذا

(١) راجع فصلاً ممتعاً فى هذا الموضوع للاستاذ أحمد صبرى شويتمان فى كتاب التصوف فى نظر الإسلام ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) السهكة : الرائحة الكريهة . السنور : السلاح النام .

الخير والجلال . ولا عجب بعد ذلك أن يشتقوا « العبقرية » عندهم من مرأى وادى الجن فى « عبقر »^(١) .

ونستطيع أن نتصور هذا العربى فى هذه المضلة وقد تقطعت به السبل ، وخشى على نفسه الهلاك ، وتجسمت له مخاوفه غولاً يريد أن يفتك به ، وما غوله فى الحقيقة إلا الظمأ الذى يشوى حشاه ، والجوع الذى يفرى أمعاءه ، ووقدة الهاجرة التى تصب على رأسه أتوناً مستعراً من حرارة الشمس ، والوحدة القاتلة التى تزيد فى وحشته ، فهو يتلمس الخلاص منها ، ويتراءى له على صفحة الأفق ذلك الرئى من الجن الذى صنعتة أمانيه ، ليأنس به ، ويهتدى فى سبيله ، ويتزود من قراه .

وهذا التصور أمر طبيعى ، وإن لم يتخيل العربى التأنه فى هذه المضلات الموحشة ، والأودية المتقطعة ما تخيله من الجن والغيلان ، لم يكن سليم العقل معافى الحواس ، بل معتوهاً لا يدرك كنهه الخطر المحقق به .

أما الجن الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فعلمهم عند رب العالمين ، ولا نتعرض لهم فى بحثنا هذا .

ولعلك أدركت من كل ما تقدم أن الفتى العربى ربيب الصحراء ، له عقل واقعى مرهن ، لا يعرف الأوهام والترهات والخرافات والأساطير ، والفلسفات المعقدة التى ولدتها الفروق الاجتماعية الواسعة بين مختلف الطبقات فى المجتمعات الأخرى ، فترأت فى هواجس الطبقات الفقيرة آلاماً مبرحة ، وأحلاماً مفزعة ، وعقداً عسيرة الحل ، وأخذ الكتاب والفلاسفة كل يقدم

(١) أحمد صبرى شويخان ص ٣١٥ .

ما يظنه حلاً لهذه المشكلات ، في قصة تارة ، وفي نظرية فلسفية أخرى .
 — والفتى العربى ذو العقل الكريم تزيده الحن والشدائد قوة ، فلا يعرف
 الجزع واليأس كما يعرفهما سواه على حد قول جرّاء بن ضرار :
 إذا رنقت أخلاق قوم مصيبةً تصنّى لها أخلاقهم وتطيب
 أو على حد قول إبراهيم بن كنيف النّبّهاني :

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ وليسَ على ريب الزَّمانَ مُعَوَّلُ
 فلو كان يُغْنَى أن يُرى المرءَ جازعاً لحادثةٍ أو كان يغنى التَّذَلُّ
 لكان التعزى عند كل مصيبةٍ ونائبةٍ بالحرِّ أولى وأجمل
 فكيف وكلُّ ليس يعدو حمامه وما لامرئٍ عما قضى الله مَزَحَلُ
 فإن تكن الأيامُ فينا تبدلتُ ببؤسٍ ونُعمي والحوادثُ تَفْعَلُ
 فما لينتُ منا قناةً صليبةً ولا ذللتنا لتي ليس تجملُ
 ولكن رحلناها نفوساً كريمةً تُحْمَلُ ما لا استطاع فتحملُ^(١)
 وقينا بحسن الصَّبْرِ منا نفوسنا فصحتُ لنا الأعراض والناسُ هَزَلُ

إن هذا الفتى العربى الذى وصف آنفاً بالشجاعة ، وكرم اليد والقلب وكرم
 العقل ، قد تجلّت مواهبه هذه فى أوج عظمتها حين جاء الإسلام ، وسترى
 هذه الخلال متألفة فى كل مكان حلَّ به ؛ إذ لم تفارقه ماحلته به البادية من
 مزايأ أينما ارتحل ، ولا سيما تلك النظرة الواقعية إلى مشكلات المجتمع .

(١) أى رحلنا لها نفوسنا الكريمة ورحلناها ما لا استطاع حملها .

٣ — الوفاء بالوعد

من أجل ما يتجلى به الفتى العربى الوفاء بالوعد ، بل إن الوفاء بالوعد شرط لا مناص منه للفتيان . وذلك لأن الصراحة لازمة للقوة والشجاعة ، فالشجاع هو الصريح الذى لا يخشى أحداً أو شيئاً . هو الذى يصارح الناس برأيه ، وهو الذى يثبت عليه لا يتزعزع ، ويدافع عنه باليد والسلاح ، ويقول كورنى الكاتب الفرنسى الشهير : « الرجل الشجاع هو الذى يحافظ على كلمته » ^(١) .

وكثيراً ما يكون فى الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحة المرء الخاصة ، فليس من الفضيلة أن تفى بشئ لك فيه منفعة ، وفى إنجازه فائدة تعود عليك . بل إن الوفاء بالوعد يتطلب عادة أن يضحي المرء بوجهة نظره الخاصة ، أو بمصلحته الذاتية فى سبيل سواه .

فالوفاء بالوعد مبنى على الشجاعة ، وعدم الأثرة والمنفعة ، والتضحية . وهذه الصفات تتفق مع ماسبق أن وضحناه من سمات الفتیان ومزايهم .

الوفاء بالوعد يخرج الإنسان من الوحشية إلى الحضارة ، فلا تعود القوة الغاشمة هى القانون والواجب ، ولا تعود المصلحة الخاصة هى القائد الذى يوجه أعمال الإنسان فى حياته . وحينما يسود الوفاء بالوعد فى مجتمع ما يسود الحياة الثقة والطمأنينة والإيمان : الثقة فى الكلمة تعطى ، وفى التوقيع يكتب ، وفى المعاهدات تمهر .

إذا أعطى المراء وعداً ، وكان رجلاً جزلاً كامل الرجولة — كما كان فتیان العرب — فليس له أن يرجع فيه أو يخذ عنه ، أو يناقشه مرة أخرى ، بل قانون الفتوة يحتم عليه أن يمضى فى إنجازة ، ولو ناقض فأنذته ، وعاد عليه بالضرر .

وقد اشتهر فتیان العرب بالصدق ، والرجل الصادق هو الرجل الممتاز حقاً فى كل صفاته ، وليس الرجل الصريح أو الخلف فحسب . لا يعرفون الكذب ، لأن الكذبة إمارة الجبن ، وفتیان العرب شجعان لا ريب فى ذلك .

إن هذه الطبيعة الصريحة الواضحة السمات والمعالن قد علمتهم ألا يقولوا إلا الحق ، لأنها بصفائها ووضوحها قد انعكست على نفوسهم . ثم إنهم قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق هى القانون الذى يقدسه كل عربى ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصاً على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة العامة فى المجتمع . وفى ذلك يقول هيردوت : « ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب »^(١) .

لقد كانت العرب فى حروب دائمة بعضهم مع بعض فى سبيل الرزق وأسباب الحياة . وهذا أمر طبيعى فى بيئة مجذبة شحيحة بخيرها . وكانوا إذا اشتبكوا فى معركة تقاتلوا فى قسوة بالغة ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعقد الصلح ، أمن الناس ، وأخذوا يجوبون أرجاء الصحراء طلباً للرزق ، وسعيًا بالتجارة من غير أن ينتظروا هجومًا مفاجئًا ، أو أخذًا على غرة ، وأخذت

القبيلة في الرحيل ، ورعى نَعَمَهَا من غير رهبة من عدو ، أو خشية من غدر ، لأن السيوف قد أعمدت ، والحد قد توارى ولو إلى أجل ؛ وفي قدرة المرء أن يقابل أعداءه دون خوف ، بل يقابل من له عنده ترة ، وذلك لأن القبيلتين قد اتفقتا على الكف عن العدوان ، مع أنهم كانوا غالباً من الأميين الذين لا يعرفون المعاهدات المكتوبة والصكوك والمواثيق المسجلة ، بل كانت تكفى الكلمة تقال ، يبرمها رئيسا القبيلتين فتصير نافذة على الجميع ، لأنها أقوى من القوانين المكتوبة ، والأظمة التي يدافع عنها بالحراب في المدينة الغربية اليوم .

في هذا المجتمع الطبيعي الذي لم تلوثه مفسد المدنية الحديثة ، وما فيها من نفاق ، وخداع ، وغدر ، وتنافس ذميم على عَرَض الدنيا ، كان العربي يخشى أن يُعرف بالغدر ، وتشيع عنه هذه الخلَّة بين قومه وبين سواهم من القبائل ؛ لأن الغدر وتقض العهد ، وإخلاف الوعد ، يجعله رجلاً لا يُعتمد عليه في النائبات ، فيهمله قومه ، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجدة ، وينفر منه أعداؤه وأصدقاؤه ، وهيهات لرجل يتصف بهذه الصفة ، وتكون حاله كما ذكرت أن ينبئ اسمه ، أو يكون من ذوى الرأي والجاه في قبيلته وهو ما يحرص عليه كل ذى مروءة .

ولقد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذين يغدرون ، وينقضون المواثيق ، ولا يوفون بالعهود أن يشهروا بهم في سوق عكاظ فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم فلا يعاملونهم ، ويكون هذا تأديباً لهم وعظة لسواهم ، وفي ذلك يقول قطبة بن أوس ينفي عن نفسه وعن قومه الغدر ، ويفخر بأنهم قوم أوفياء :

أُسْمِيْ وَيْحَكَ هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةٍ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي تَجْمَعِ
إِنَّا نَعَفُ فَلَئِنْ رُبُّهُ حَلِيفُنَا وَنَكْفُ شُحَّ نَفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ

وفي هذين البيتين نرى سببين يجعلان المرء يغدر أحياناً ولا يفي بوعدده ، أحدهما دناءة النفس ، وعدم عفتها ، فيحلوها ما خرجت عنه ، فتحاول نقض الميثاق ، وثانيهما شحها وطمعها فتعتريها الكزازة بعد الجود ، وتندم على تسرعها في الوعد ، وتحاول أن ترجع . والفتي الحق هو الذي يقاوم هذه الخسة في نفسه من دناءة وشح فلا يطيعها ويحملها قسراً عنها على الوفاء بما وعدت .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة على تمسك العربي بكلمة ينطق بها ولا يثنيه عنها سبب مهما عظم ، وهاك الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور بالمهلل قاتل ولده بُجَيْر في حرب البسوس ، وهو لا يعرفه ، فيسأله عن مكان المهلّل ، فيقول له هذا : أتطلق سراحى إن دلتك عليه ؟ فيعده بهذا ، فيخبره أنه المهلّل ، فلا يسعه إلاّ البر بوعدده على الرغم من أنه قاتل ولده ، ويكتفى بحز ناصيته ، ويطلق سراحه وهو يقول :

لهف نفسى على عدى وقد أشعب للموت واحتوته اليـدان
وهاك حاجب بن زُرارة التميمى يطلب من كسرى أن ينزح قومه إلى سواد
العراق ، لأنهم في ضيق من العيش ببلادهم ، فيطلب منه ضماناً على عدم إفسادهم
حال العراق ، وإغارتهم على مدنه العامرة ، فيرهن له قوسه ، ويثير هذا ضحك
حاشية كسرى ، ولكن كسرى يدرك عظم الرهينة فيتقبلها . وقد وفى حاجب
لكسرى بما وعد إلى أن مات ^(١) ، وفى ذلك يقول أبو تمام :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها فخاراً على ما وطدت من مناقب
فأتم بنى قار أمالت سيوفكم غروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ويشير في البيت الثاني إلى حادثة أخرى من حوادث الوفاء ، أعنى وفاء هانىء بن مسعود الشيباني مع النعمان بن المنذر وحمايته لنسائه ودروعه حين لجأ إليه بعد أن غضب عليه كسرى ، ولما طلب منه كسرى هذه الودائع أبت نفسه العربية أن تغدر بما تعهدت به ، وهو يعلم عظم المخالفة ، وما تجره عليه وعلى قومه من مصائب . وقد ناصرهم قومه وأيدوه ، وحاربوا الفرس وهزمهم في موقعة ذي قار سنة ٦١٤ م ليكنوهم من الوفاء بوعده . وسأقص عليك إن شاء الله قصة حنظلة بن أبي عفرة مع النعمان في القسم الثاني من هذا الكتاب ، وكيف وفى بوعده مع أنه يعلم جيداً العلم أن في هذا الوفاء ميته ، وأنه مقتول لا محالة .

وسنرى فيما بعد أن هذا الخلق الكريم كان من أعظم ما اشتهر به العرب بعد الفتح الإسلامي ، ولم يجد منهم النصارى أو اليهود أى ميل للغدر ، ونكث بالوعد ، وتقض للعهد ، بل عاشوا في ظلهم آمنين مطمئنين .

٤ — حماية الضعيف

وحماية الضعيف قانون طبيعي للفتيان ؛ لأنهم يشعرون بقوتهم الجسمية ، وقد تأصلت في نفوسهم صفة البذل والتضحية ، ومن أولى برعاتهم من الضعفاء ؟ إن التطوع لحماية الضعفاء أهم ما يميز الرجل الشهم الكامل والفارس الحق .

« مهمة الفارس هي حماية المرأة والأرملة ، واليتامى ، والضعاف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث » ^(١) . هكذا يقول « لا كورن دى سانت بالاي » ، وهذه هي صفة الفتيان الأبحاد الذين نعموا بالنشأة الطيبة بين أحضان الصحراء ؛ لأن هذه الصحراء ، والحياة القبلية ، فرضت عليهم أن يخففوا من الأخطار المحدقة بهم فتعاهدوا فيما بينهم على حماية المرأة ، والضيف والجار والضعيف .

إن هذه الفضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بكل صفات الفتوة الأخرى من شجاعة وكرم ووفاء ، وهي خلة ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية ؛ لأن من يتعرض لنصفة المظلوم ضد الظالم ، وإغاثة الملهوف المكروب ، والانتقام من القوى للضعيف ، ومد يد المساعدة للحق المهضوم ، ينصب نفسه بطالا من أبطال الخير ضد الشر المنتصر . وفي هذا كرم وسخاء دونه كل كرم وكل سخاء ، ونكران للذات دونه كل نكران .

(1) Mémoires Sur L'ancienne Chevalerie, t. I, note 36 Sur la Ile partie, P. 129. Lacurne de Saint - Palaye .

من اليسير أن يعيش الإنسان في هذه الحياة عيشة وادعة هينة لينّة ، بأن يغمض عينيه وفمه وأذنيه ، فلا يرى شيئاً ولا يقول شيئاً ، ولا يسمع إلا ما يهيمه من قرب أو بعد أو يعود عليه بخير قلّ أو كثير . بيد أن روح الفتوة وشعار الفرسان يأبيان ذلك ؛ لأن كل ما يمس الإنسانية الضعيفة يمسهم . وكان الله قد أقامهم في هذه الأرض لتحقيق العدالة وهذه رسالة بالغة في السمو أعلى منزلة .

وقد وضع فرسان الصحراء كل ما وهبهم الله من قوة وحول ومال وشجاعة فائقة لحماية البائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروين بنفس الكرم والأريحية التي يبذلون بها المال . وتتجلى هذه الصفة في عدة مظاهر :
١ — حماية الجار . والجار هو ذلك الشخص الذي ينزل بجوار آخر طالباً حمايته ، أو يلجأ إليه لينعه من أعدائه ، فإذا قبل جواره صار واحداً من أفراد أسرته وعشيرته وقبيلته ، وسمى حليفاً أو مولياً أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية ما دام في جوارها متمتعاً بحمايتها .

وإذا كان قانون الصحراء يأبى على العربي أن يرفض ضيافة الغريب ، فكذلك فرض عليه أن يرحب بمن يلجأ إليه طالباً حمايته ، وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يميز بين رب البيت وضييفه فكذلك لا يستطيع أن يميز الجار من جاره .

كان العربي يحمي جاره مادام حياً ، وإذا اضطر للرحلة أوصى به أهله وأولاده وعشيرته ، وأعانته قبيلته في المحافظة على هذا الجار . وقد يغضب كل الغضب إذا رحل عنه جاره وتنازل عن حمايته له ، ولجأ إلى سواء ، كما رحل

الخطيئة^(١) عن الزبرقان بن بدر ، ولجأ إلى بغيض بن شماس بن لآى ، وعد الزبرقان ذلك طعناً فى كرامته ، وأبى إلا أن يذهب إلى الخطيئة وبغيض كى يعود إلى جواره ، ولما خيّر الخطيئة اختار بغيضاً فسأله الزبرقان : « يا أبا مليكة ! أفارقت جوارى عن سخط وذم ؟ قال : لا » فتركه وظل آل شماس بن لآى يحرضون الخطيئة على هجاء الزبرقان وهو يقول لهم : لا ذنب للرجل عندى . حتى أرسل الزبرقان إلى شاعر آخر هجاً بغيضاً فرد الخطيئة عليه وهجاً الزبرقان ، ودافع عن بغيض بقوله :

والله ما معشر لاموا امرءاً جنباً	فى آل لآى بن شماس بأكياس
ما كان ذنب بغيض لا أباً لكم	فى بائس جاء يحدو آخر الناس
لما بدا لى منكم غيب أنفسكم	ولم يكن لجراحى فيكم آسى
أزمت يأساً مبيناً من نوالكم	ولن يرى طارداً للحر كالإيس
جاء لقوم أطالوا هون منزله	وغادروه مقياً بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم	وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه	لا يذهب العرف بين الله والناس

وقد حبسه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهجائه الزبرقان ، وأخذ يستعطفه وهو فى سجنه فلم يلتفت إليه إلى أن قال له :

ماذا تقول لأفراخ بذى مراح زغب الحواصيل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة فافغر عليك سلام الله يا عمر
فبكى عمر وعفاه عنه واشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم .
وكثيراً ما شبت الحرب مستعرة الأوار ، قوية اللظى لأن جار القبيلة
قد أهين أو أذل ، أو اعتدى عليه . وخير مثل يضرب لذلك حرب البسوس .
وقد كانت البسوس خالة جساس بن مرة ، وكان كليب وائل قد بغى وطغى
وتجبر ، وقد بلغ من سطوته ألا يحير أحد من بكر وتغلب إلا بإذنه . وحدث
أن البسوس نزلت بجوار جساس فصارت في حمايته ، ورأى كليب ناقتها بين
أينقة فأنكرها ، فلما سأل عنها أخبروه بأنها للبسوس جارة جساس ، فقال كليب :
أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يحير على بغير إذن ؟ إرم ضرعها يا غلام !
فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها وراحت الرعاة فأخبروا
جساساً بخبرها ، فثار ، وغضب لأن جارته وخالته أذلت ، وقتل كليياً سيد
مضر ، وكان هذا سبباً في حرب ضروس ، ظلت مشتعلة أمداً طويلاً . وقتل
فيها خلق كثير من بكر وتغلب على السواء ^(١) .

وقد أعز العرب حلفاءهم والمتحرمين بجوارهم ، وأنزلوهم منزلة أنفسهم
وأهليهم ، حتى إن قريشاً كانت تأبى أن تزوج بناتها من غير قرشى إلا أن
يكون حليفاً لها . بل لقد بلغ من منزلة الجار الحليف لدى بعض القبائل أنه
كان يُعد من الأهل ويرثه الجير إذا مات وهو بجواره ^(٢) وكانوا يذهبون
بالجوار إلى مابعد الموت ، كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار به
فقال له أتجبرني من الإنس والجن ؟ قال : قد أجرتك . قال : ومن الموت ؟

(١) أنظر مذهب الأغاني ج ١ ص ١٨٤ .

قال : نعم ، قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى
بعثت إلى أهلِكَ الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجزتني من الموت .

ولقد كانت حماية الجار وإعزازه مفخرة يلهج بها شعراؤهم ، ويتمدح بها
رجالهم ، وفي ذلك يقول أسد بن كرر يفتخر برد العداة عن جاره :

وما جار بيتي بالذليل فترتجى ظلامته يوماً ولا بالمتهم
ويقول السَّمُول :

وما ضربنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
ويقول عدى بن زيد يمدح بني شيبان :

إني حمدت بني شيبان إذ خدت نيران قومي ، وفيهم سُبت النارُ
ومن تكرمهم في الحل أنهم لا يعلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزاً من نفوسهم أو أن يبين جميعاً وهو مختار
كأنه صدع في رأس شاهقة من دونه لعتاق الطير أو كاره

ويوصي المثقب العبدي ابنه يا كرام الجار ومعرفة حقه فيقول :

أكرم الجار وراع حقه إن عرفان الفتى الحق كرم
ويقول : زهير :

وجار البيت والرجل المنادى أمام الحى عقدهما سواء^(١)
ويدرك الجار أنه عزيز بين من لجأ إليهم ، وأنهم يمنعونونه من الضيم ،

ويسدون مفارقة ومغارمه كما قال شقران مولى سلامان من قضاة :

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد على لإنسان من الناس درهما
ولكننى مولى قضاة كلها فلست أبالى أن أدين وتغرما
كان الفتى العربى يرحب بكل قادم إليه ، وكل لاجئ يطلب عونه ،
لايسأله : من هو ؟ وما أصله ؟ وما سبب خوفه ؟ بل يمنحه حمايته بدون تريث
أو تلوم . وفى هذا ولا شك بعض الخطأ ، فقد يكون اللاجئ مجرمًا أثمًا .
وكم من عظماء أضفوا حمايتهم على بعض المجرمين وهم أعداء الأسرة والعشيرة
والقبيلة جمعاء . كان العربى يمنح حمايته لمن يطلبها بريئًا أو مجرمًا ، ظالمًا
أو مظلومًا ضد كل إنسان . ويعد من نقص المروءة أن يعلم المرء السبب الذى
دفع اللاجئ إليه قبل أن يمد له يد المساعدة ويقبله . فقد كان هذا سمة
الضعف والجبن والخور وحاشا للفتى العربى أن يرضى الاتصاف بمثل هذه
الصفات ، وأن يوصم بها ، بل إن فى هذه الخطأ بحماية الضعفاء واللاجئين ،
ولو كانوا ممن تنكرت لهم شتى القبائل ، دليل على القوة والمكانة الأدبية
بين القبائل ، ودليل على الشجاعة الفائقة ، التى لا تحد بحدود ، ولا تقيد
بقيود ، ولذة يسعى لها فتيان العرب ، حتى يلهج الناس بذكرهم ، ويشيدوا
بمفاخرهم ، وهو الجد الذى ينشدونه ، وطيب الأحدثة الذى يرجونه .

وكثيراً ما يرى اللاجئ أن خير مكان يأمن فيه على نفسه هو أن يرتقى
بين أحضان عدوه ؛ ويعتقد حينئذ أنه فى حصن مكين ، لا يصل إليه منه سوء ،
أو يمسه ضرر ، لأن النخوة العربية ، وتقاليدهم الفتوة تأييداً على عدوه أن ينقض
عهد الجوار ، ويخفر ذمته ، أو ينتقم منه ما دام متحرمًا بذمامه ، لاجئًا إليه .

ولهذا كان الفتى العربى الذى يخشى الوقوع فى مثل هذا الإحراج ، ويريد الانتقام لشرفه المخدوش ، أو يأخذ بثأره من عدو مبين ، يضمن عليه بالصفح والمغفرة ، يعلن على الملأ أنه يحمى كل لاجئ إلا أن يكون فلاناً ، فإذا تمكن من خصمه فى أى مكان كان فى حلٍّ من أن ينتقم لنفسه من غير لوم أو تعذير . ويعلم هذا الخصم حينذاك أنه ليس فى مأمن إن دنا منه أو ألقى بنفسه فى طريقه ، ولذلك يتحاشاه إن كان غير قادر على مقارعته .

وقد يبلغ بعض الرجال من الشهرة والعظمة أو الإحسان درجة لا يستطيع بعض الناس أن يحيروا من يطلبونه بوتر أو قصاص ، ولذلك يعلن من يطلب منه الجوار والحماية أنه يحير اللاجئ إليه إلا إذا كان فلاناً طريد فلان ؛ رعاية منه لحرمة وسابق فضله عليه .

وإذا أساء الجار ، ولم يرع حرمة البيت الذى آواه ، خِسَّة فيه ، أو نزق وطيش ، استنكفوا أن يهينوه وهو ممتنع بجوارهم . وقد حدث لفاطمة بنت الخشرب^(١) أم الربيع بن زياد أحد سادات بنى ذبيان ، أن جارها راودها عن نفسها فى غيبة أولادها ، فامتنعت عليه ، فلما بلغ به النزق والسفه مبلغاً كبيراً ، وخشيت العار ، نادى ابنها الربيع فأخبرته بما فعله ذلك الجار الأحمق ، فامتشق سيفه وأراد أن يقتله ، ولكن راجعته نفسه ، وقال : لأريد أن أدنس اسم أمى وأريق دم جارى ، وعفا عنه ، وهى حادثة مشهورة فى كتب الأدب . وهذا لعمرى منتهى الحلم والكرم .

(١) وكانت فاطمة هذه تسمى أم السكلة ، وهى التى قالت فيهم المثل المشهور : إنهم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، ومن الأمثال التى ضربتها وصارت ذخيرة للعرب قولها : حسبك من شر سماعه . فى قصة معروفة أيام حرب داحس والغبراء .

وقد بلغ من تطوعهم لحماية الضعفاء أنهم كانوا يحجرون الوحش ، ويحجرون الطير ؛ رحمة منهم وفرط ثقة بمكاتبتهم وقوتهم ، وموقف عمرو بن العاص من اليمامة التي اتخذت من فسطاطه ملجأ ، وباضت فيه وفرخت ، ولم يشأ أن يزعمها بتقويض الفسطاط حين عزم على غزو الإسكندرية حتى يكبر أولادها ، وتأمين على نفسها وعليهم ، مشهورة في كتب التاريخ والأدب .

٢ — ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية دعوة المكروبين في الحرب ، بدون تردد أو سؤال ، فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم : لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ماقال برهانا ويكونون كما قال ودالك المازني :
إذ استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان
أو كما قال الخطيئة يصف فتياناً شجعاناً :

وفتيان صدق من عدى عليهم صفائحُ بُصرى علقت بالعواقب
إذا مادعوا لم يسألوا من دعاهم ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق
وطاروا إلى الجرد العتاق فألجوا وشدوا على أوساطهم بالمناطق
أولئك آباء الغريب وغاة الصَّ رينخ وماوى المرملين الدراق
أحلوا حياض الجمد فوق جباههم مكان النواصى من وجوه السوابق

وكان الفتيان يفخرون بتبليتهم دعاء المكروب ، ونداء المحروب ، والشعر العربى غاصَّ بمثل هذا الفخر ، استمع إلى دريد بن الصمة يقول لامرأته حين عذَّرتة بقولها : قد سننت وضعف جسمك ، وقتل أهلك ، وفنى شبائبك ،

ولا مال لك ، ولا عُدَّة ، فعلى أى شىء تُعَوِّلُ إن طال بك العمر ؟ وعلى أى شىء يخلف أهلك إن قتلت ؟ ! :

أعاذلُ إنما أفنى شـــــــــــــــــبَابِي ركوبى فى الصريخ إلى المنادى
مع الفتيان حتى كلَّ جسمى وأقرح عاتق حملُ النجاد
أعاذلُ عدتى بدنى ورحمى وكل مُقلَّصٍ شَكِسَ القياد
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ويفنى قبل زاد القوم زادى
ولقد مرَّ بنا عند الكلام عن الشجاعة أكثر من مثل على سرعة استجابتهم للصريخ ، وإغاثتهم للملهوف ، وهذه سمة الفتوة الحقَّة ؛ لأنها تطوع وتضحية ، ودفاع عن ضعيف .

٣ — ومن حماية الضعيف فكُّ العانى الذى أسر فى حرب ، وقد يكون ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إنقاذه عنوة ، أو عن طريق الفداء ، ودفع ما يطلبه من أسره من مال . وهذه مفخرة أخرى يتغنى بها الشعراء ، ويمدح الشجعان استمع إلى الخنساء تمدح أخاها صخراً بقولها :

إننى قد علمتُ وَجْدَكَ بالجم د وإطلاقك العُنَاةَ الجَنَاحَا
وبقولها :

رَدَّادُ عَادِيَةِ فَكَّاكُ عَانِيَةِ كضيفم باسِلٍ لِلْقِرْنِ هَصَّارُ^(١)
ويقول زهير يمدح هرم بن سنان :

أغرُّ أبيضُ فياضٌ يَفْكَكُ عن أيدى العُنَاةِ وعن أعناقها الرِّبْقَا

(١) عانية : أسيرة ، والضيفم : الأسد ، والقرن : ند المرء وكفهؤه فى القتال .

ويقول حاتم الطائي يفتخر :

وقد علم الأقبام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر
فإني لا آلو بمالي صنيعه فأوله زائد وآخره ذخّر
يُفكّ به العاني ويؤكل طيباً وما إن تُعريه القداح ولا الخمر
ويقول في موضع آخر :

إذا كان بعض المال رباً لأهله فإني بحمد الله مالى مُعَبَّدُ
يُفكّ به العاني ويؤكل طيباً ويُعطى إذا منّ البخيل المُصَرَّدُ^(١)

لو — ومن حماية الضعيف الدفاع عن المرأة ، وهذا هو أول شروط الرجولة
الحقة ، والدفاع عنها — فضلاً عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف — ، دفاع
عن العرض والشرف ، وهو أعظم ما يهتم به العربي . وكان من العار البالغ
عند العربي أن تؤسر نسائه ، وفي ذلك يقول يزيد بن حنظلة يحرض قومه على
الاستبسال في القتال :

من فرّ منكم فرّاً عن حريمه وجاره وفرّاً عن نديمه
وسأقص عليك فيما بعد بسالة ربيعة بن مُكَدَّم في الدفاع عن امرأته ، ويسمى
المدافع عن النساء والأعراض حامى الذّمار ، وحماية الذّمار ، خير ما يفخر به
الفتى العربي ليصون عرضه ويحمي عقيلته وفي ذلك يقول : زهير يمدح :

حامى الذّمار على محافظة الـ جُلّى أمين مُغَيَّبِ الصّدّرِ
ويقول عمرو بن كلثوم :

(١) المصرد : اسم فاعل من صرد تصريداً أى قتر وقلل ، وهو في السقي دون الرى

على آثارنا بيض كرام نحاذر أن تفارق أو تهونا
 ظعائن من بني جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينه
 إذا ما رحن يمشين الهوينى كما اضطربت متون الشارينا
 يفتن جنادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
 ومن حماية المرأة عدم التعرض لها بسوء ، والحفاظة على عفافها وعلى
 حرمتها على حد قول عنترة العبسي :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
 وقول حاتم الطائي يفخر بعفته واحترامه لحرمت جاره :

وما ضرَّ جاراً يا ابنة القوم فاعلمى يحاورنى ألا يكون له ستر
 بعينى عن جارات قومى غفلة وفى السمع منى عن حديثهم وقر
 وقول الخنساء فى أخيها :

لم تراه جارة يمشى بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجار^(١)
 ورثى أعشى باهلة المنتشر بن وهب بقوله :

لا يهتك الستر عن أثنى يطالعها ولا يشدُّ إلى جاراته النظرا
 ويقول عمرو بن الإطنابة الخزرجى فى آداب الفتوة وسلوك الفتيان نحو
 جيرانهم وجاراتهم .

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدعوا بحق الله ثم النائل^(٢)

(١) تراه : تراه .

(٢) انتدوا : جلسوا فى الندى أو النادى ، والنائل : عطاء السائلين .

المانعين من الخنا جاراتهم والحاشرين على طعام السائل^(١)
والخالطين فقيرهم بغيرهم والباذلين عطاءهم للسائل
ومنعهم جاراتهم من الخنا يكون بعفافهم ، وحسن سلوكهم ، ويكون
برعاية شؤونهم ، وتفقد أحوالهم حتى لا تجبرهن حالات العسر والضيق إلى
بذل ماء الوجه ، والتعرض للفتنة ، أو بيع العرض .

ولقد بلغ من حفاظ العرب على نسائهم أن المرأة العربية الحرة لا تزني ،
ولا تعرف الخنا ، ولقد قالت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان للنبي عليه السلام
حين تلا عليهن قوله تعالى : « ولا يسرقن ولا يزنين » : « أوتزني الحرة يا رسول
الله ؟ » وقالت : « ما أقبحه حالاً فكيف به حراماً ؟ » .

إن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هؤلاء الفتيان من مناعة
طبيعية ، وعلى أنهم قد علوا بتلك النفوس إلى مرتبة سامية من منازل الإنسانية ؛
فال معروف أن الغريزة الجنسية أقوى غريزة في الإنسان ، لأنها تهدف إلى بقاء
النوع ، حتى ذهب بعض علماء النفس إلى أنها هي التي تتحكم في كل
حركات الإنسان وسكناته ، وشتى أحواله ؛ ومع ذلك فهي من الغرائز الدنيا
عند الإنسان ؛ تلك الغرائز التي حاول تهذيبها ، وسنت لها قوانين الزواج
والطلاق والمعاملات في الجماعات المتمدينة منذ أن عرف الإنسان خطرها .
والتحكم في هذه الغريزة يفرق بين الإنسان والحيوان . وقهر النفس وإخضاع
الغرائز لحكم العقل فتوة ما بعدها فتوة ؛ لأن في ذلك شجاعة ، وصلابة ،
وقوة إرادة ، وتضحية بنزوات ورغبات فيها لذائذ عاجلة ، وسمو بهذه الغرائز

(١) أي لا يطعمون الضيف وحده بل يجمعون الناس ليؤنسه ويشاركوه .

إلى الجحد والسؤدد والشرف .

وبعد فهذه هي الفتوة العربية في صورتها الأولى ، أيام أن كان العرب أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، وليس لهم حكومة منظمة ، أو رئيس واحد يدينون له بالطاعة ، ولا يعرفون قانوناً سماوياً أو وضعياً ، وليس لهم من هادٍ سوى فطرتهم السليمة ، وما توحى به تلك الطبيعة القاسية التي تحيط بهم ، وما تفرض عليهم صحراؤهم من عادات وطباع .

لقد جعلتهم هذه الأخلاق الكريمة التي دأبوا على التطبع بها قروناً قبل الإسلام ، حتى تمكنت من نفوسهم ، وأحلوها محل الشريعة المفروضة ودانوا لها جميعاً — أهلاً لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء . وسيد المرسلين ، ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » ، وليحملوا نور الهداية وهاجاً إلى العالمين . لقد اختارهم الله من بين شعوب الأرض قاطبة لحمل هذه الرسالة الكريمة ؛ لأنهم تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجايا وعُرف كريم ، ولأنهم خير من يفهمها ويستجيب لها ، ويعمل بها ، وينقلها إلى الناس كافة في جدٍ ودأب ، وتواضع ومرحمة ، ولذلك دان لهم العالم في يسر ، وفي أمد وجيز ؛ لأنه كان ين من الظلم والبغى ، ولأنه كان في شوق بالغ إلى من يأسو جراحه ، ويأخذ بيده ، وينتشله من وهدة الرذائل ، وحمة المظالم ، ويدفعه إلى الطريق المستقيم : طريق النور ، والعدل ، والمساواة والمحبة برفق وحنان .

لقد كانت هذه الفتوة العربية التي نشأت فطرية في الجاهلية نموذجاً حياً للعالم وجاء الإسلام فأقرها وهذبها ، وعنها أخذت أوروبا أنظمتها الفروسية كما ستري إن شاء الله .

الفتوة في الإسلام

اشتهر الإسلام بأنه « دين الفطرة » ، والفطرة هي الخير ، والخير هو الغاية التي تهدف لها الإنسانية الكاملة . ولما كان العرب في الجاهلية على الفطرة . فقد جاء الإسلام مَهْدَبًا ، ومكْمَلًا ، وموجهاً لهذه الفِطْرَ العربية السليمة ، حتى يُعَدَّهُم لرسالة جليلة ، هي هداية العالم ، ولذلك قال تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

وقال تعالى :

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » .

لقد اتصف فتيان العرب في الجاهلية بكثير من خلال الخير ، ومكارم الأخلاق ، وكانوا قُدُوةً لقومهم وزعماء لهم ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ، فالحديث الشريف يثبت أن عرب الجاهلية ، كان فيهم من يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأن النبي عليه السلام قد جاء برسالته العظيمة ليتم هذه المكارم الخلقية .

لقد كان النبي عليه السلام من أشرف العرب أرومة ، وأمجدها بيتاً ، وكان يعلم جَدَّ العلم ما يتحلى به قومه من خلق ، وما يشينهم من صفات ، ويعلم أن العرب قد تعارفوا فيما بينهم على سجايا حميدة يحبونها ، ويتغنون بها ، وهي

تلك الصفات الكريمة التي ذكرناها آنفاً ، وأن الفتوة العربية تراها واجبة لازمة . ولا أدلّ على أن رسول الله كان يعجب بمن اتصف بهذه المكارم من عرب الجاهلية من موقفه مع سفانة بنت حاتم الطائي ، وسأذكر الحديث كما روى عن علي بن أبي طالب^(١) ؛ لأن في المقدمة التي صدر بها كلامه مغزى عظيم ؛ قال علي — كرم الله وجهه — ياسبحان الله ! ما أزهّد كثيراً من الناس في الخير ! عجبت لرجل يحميه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كنا لا نرجوجنة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ، ولا نخشى عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فإنها تدل على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : فذاك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ؛ وما هو خير منه ؛ لما أتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية حماء^(٢) ، حوراء العينين لعساء^(٣) لمياء عيطاء ، شماء الأنف ، معتدلة القوام . فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لأطلبنّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فيئتي ، فلما تكلمت أنسيت جمالها ، لما سمعت من فصاحتها ، قالت : يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلّي عني ، فلا تشمت بي أحياء العرب ؟ فإنني بنت سيد قومي ؛ كان أبي يفكّ العاني ، ويحمي الذّمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، وينفش السلام ، ولم يردّ طالب حاجة

(١) الاغانى ص ٩٣ ج ١٦ ، وسرح العيون لابن نباتة المصري ص ٧٣ ، وقصص

العرب للأستاذة جاد المولى وأبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى ج ٢ ص ٨٣

(٢) حماء : سوداء .

(٣) اللعس : سواد مستحسن في الشفة ، لمياء : مثل لعساء ، وعيطاء : طويلة العنق .

قط ، أنا بنت حاتم طيء . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جارية ! هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه خلوا عنها ، فإن أبها كان يحب مكارم الأخلاق !

فعلى رضى الله عنه يرى أن مكارم الأخلاق ، وإن لم يكن مبعثها رغبة في ثواب ، أو خشية من عقاب تكفى للنجاة ، أو تدل على سبيل النجاة ، وموقف النبي عليه السلام مع سفانة ، وثناؤه على والدها أكبر دليل على أنه كان معجباً بهذا الخلق الكريم الذى اتصف به أبوها ، مع أنه لم يكن مسلماً تأتية الموعظة من ربه ، ويرى فى رسول الله أسوة حسنة ، ولكنه كان جاهلياً هدته الفطرة إلى الخير وإلى سبيل النجاة .

وهالك مثلاً آخر على إعجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بما كان يتحلى به عرب الجاهلية من مكارم أخلاق : رافق أبو بكر وعلى بن أبى طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيره ، ثم اتبها جميعاً إلى مجلس عليه السكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات . فتقدم أبو بكر فسلم وقال : ممن القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : بأبى أنت وقومى ؟ ليس بعد هؤلاء من عزّ فى قومهم . وهؤلاء غررٌ فيهم ؛ وكان فيهم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً ، وكانت له غدירתان^(١) تسقطان على صدره . وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر ، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لنزيد على

الألف ، ولن تغلب ألف من قلة ، فقال له : كيف المنعة فيكم ؟ فقال . علينا الجهد ، ولكل قوم جد^(١) ، فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يدينا مرة ، ويديل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟ فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ، فما هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون ، ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قرْبى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ،

ولا تتبعوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بَكم عن سبيله ، ذَلِكُمْ وَصَّاكم به لعلكم تتقون .
فقال مفروق . وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قومٌ كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانىء بن قبيصة . فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا .

فقال هانىء : قد سمعتُ مقاتلك يا أخا قريش ، وصدقتُ قولك ، وإني أرى أن تركنا ديننا ، واتباعنا دينك لمجلس جلستَه إلينا ليس له أول ولا آخر ، زَلَّةٌ في الرأي ، وطيشةٌ في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ؛ وإنما تكون الزلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قومًا نكره أن نعقد عليهم عقدًا ، ولكن ترجع ونرجع ، وتنظر وتنظر — وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثني بن حارثة — فقال : وهذا المثني شيخنا ، وصاحب حربنا .

فقال المثني : قد سمعتُ مقاتلك ، واستحسنْتُ قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة ، فإنما نزلنا الصَّرَّيَّينَ^(١) : اليمامة والسَّمامة . فقال له رسول الله : وما هذان الصَّرَّيان؟ فقال له : أما أحدهما فطُفُوف^(٢) البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نُحدث حدثًا ،

(١) كل ماء مجتمع صرى ، وتثنيته صريان .

(٢) طفوف : جمع طف وهو ساحل البحر وجانب البر .

ولا تؤوى مُحْدِثًا ، ولعلَّ هذا الأمر الذى تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك ،
فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ،
وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول .
فإن أردت أن ننصرَكَ ونمنعك مما يلى العرب فعلنا . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما أسأتم الردَّ ؛ إذ نصحتم بالصدق ؛ إنه لا يقوم بدين الله إلا من
حاطه من جميع جوانبه . ثم قال رسول الله : « أرايتم أن لم تلبثوا إلا يسيراً
حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ » فقال له النعمان
بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟ ! فتلا رسول الله صلى الله
عليه وسلم قوله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وداعياً إلى الله
بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » ثم نهض رسول الله عليه السلام قابضاً على يدي أبى بكر
والتفت إلى على ، وقال : يا على ! أية أخلاق كانت للعرب فى الجاهلية !
ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا^(١) !

والحق أن الإعجاب كان متبادلاً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء
الأشراف من بنى شيبان ، الذين لم يهتدوا بعد بهداية الإسلام ؛ لقد أعجبوا
بكلام النبى ، وموعظة القرآن ، واستحسنوا ما تضمنت من حثٍّ على مكارم
الأخلاق ، التى يضعونها فى معاملتهم مقام القانون ، وآمنوا به ، أو أوشكوا
أن يؤمنوا .

وأعجب النبى عليه السلام ، بصراحتهم وصدقهم ، كما أعجب باتزانهم

(١) راجع ابن كثير ص ١٤٤ ج ٤ . والروض الأثف ص ٢٦٤ ج ١ ، وقصص

العرب ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها .

وعدم تسرعهم في الأحكام ، وبتقديرهم لمن وراءهم من قومهم ، فلا يبرمون
 أمراً جللاً مثل هذا من غير أن يرجعوا إليهم ، وأعجب كذلك بوفائهم بعهودهم
 لكسرى أنوشروان ، فلا يحدثون حدثاً أو يؤوون محدثاً ، وأعجب بتواضعهم
 وتقديرهم بعضهم لبعض ، فلا يستأثر أحدهم بكلام ، أو يدعى الرئاسة دون
 أصحابه ، بل يدعو صاحبه للحديث رافعاً لمكانته بقوله . وهذا شيخنا فلان ،
 ولذلك لم يسع النبي عليه السلام إلا أن يقول في إعجاب : أية أخلاق كانت
 للعرب في الجاهلية ما أشرفها ! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا ! أي أن
 أخلاقهم تقوم مقام القانون ، ولم فيها عصمة ، وهي التي تهديهم إلى
 سبل النجاة .

لقد جاء الإسلام منظماً لهذه الجماعة ، موجهاً هذه القوى المعنوية إلى
 وجهات أسمى وأشرف : لقد كانت الشجاعة في الجاهلية تهدف إلى المجد الفردي
 أو القبلي ، ف جاء الإسلام موجهاً لها ، إلى خدمة الأمة العربية جمعاء ، وإلى الدفاع
 عن مبدأ شريف ، ودين كريم ، مؤلفاً بين هذه القلوب المتحدة في الوسيلة
 المختلفة في الغاية ، فكان التأليف بين هذه القلوب الكريمة ، وجعلها قوة
 واحدة متحدة متجهة إلى غرض واحد من أهم وسائل الإسلام في نشر دعوته
 قال الله تعالى لرسوله : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ،
 وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ » ، فالتأليف بين العرب يرجح بقيمته ما في الأرض
 جميعاً من خير ؛ لأن حدوث هذا التأليف هو بشير اليقظة والعدل بين أهل
 الأرض جميعاً .

فالفرق بين رشد العقل الجاهلي ، ورشد العقل الإسلامي هو فرق بين

نتيجة العزلة بالبدواة ، والاكتفاء به عن شؤون العرب وحدهم ، وبين التوسع الذى يشمل نظر العرب إلى موقفهم من العالم المحيط بهم ، وبخاصة إذا أوشك أن يطغى عليهم فيهلك فضائلهم .

وجاء الإسلام كذلك منظماً للكرم العربى ، سواء كان كرم اليد ، أو القلب ، أو العقل ، جاعلاً معاونة الفقراء فرضاً بعد أن كانت أريحية وجوداً « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، ليكون المجتمع مستنداً على دعامة قوية من التشريع ، فلا يترك أمر الزكاة إلى نخوة الأفراد إن شاءوا أعطوا ، وإن شاءوا منعوا ، ولكن إلى الحق الذى فرضه الله تعالى ، وحرص على الإحسان ، وجعل ثوبته عظيمة ؛ وذلك ليشبع الكرام والأجواد رغبات نفوسهم .

وجعل الصفح عن الإساءة ، وكظم الغيظ ، واحتمال الأذى من أكبر الصفات التى يجازى عليها فقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وقال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ووضع أساس الكرم العقلى والتسامح فى قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » .

أما الوفاء بالوعد فقد حث عليه القرآن الكريم فى غير موضع « والموفون

بعهدهم إذا غاهدوا. والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» ولم يعد الوفاء بالوعد قاصراً على الأفراد في معاملاتهم الشخصية ، بل صار سمة المسلمين في جميع البلاد التي فتحوها ، وعاهدوا أهلها ، حتى ضرب بهم المثل في الوفاء وحسن المعاملة ، ولذلك دانت لهم الدنيا العريضة ، وأحبهم الناس ، وأعجبوا بدينهم فدخلوا في هذا الدين أفواجا .

لقد كان العرب المسلمون قدوة لغيرهم من الشعوب ، يتمثل فيهم الإسلام وتعاليمه روحاً وعملاً ، وخير المبادئ تأثيراً في النفوس ما كان أصحابها يؤمنون بها عاملين على هداها ، لا يتنكرون لها أو يتهاونون في تطبيقها على أنفسهم .

وأما حماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والحرص على سعادة المرأة فكلها من الأمور التي حث عليها الإسلام ، ووعظ بها القرآن وجعل ثواب العاملين بها عظيماً ، فالله تعالى يوصينا : « بالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

وهذب النجدة فلم تعد نصرته المستغيث ظالماً أو مظلوماً ، ولكن تحولت إلى دفاع عن الدين وحرمة المبدأ والعقيدة ، ونشر ألوية العدل والحرية بين الناس ، ولم تعد النعرة القبلية . والعصبية الجاهلية هي الحافز للجهاد ، وامتشاق الحسام ، ولكن الدفاع عن الحق ، ونصرة الدين ، وسيادة المبدأ ، وإعزاز العرب بإسلامهم ودينهم هي الغاية وهي الدافع والحافز .

ولقد استغل الإسلام هذه الأصول الأخلاقية المتينة لدى العرب ، وهذبها ونماها ووجهها وجهة خيرة ، واعتمد عليها في نشر مبادئه ، ووجدت الدعوة رجالاً أفضأاً نبتوا على أديم الصحراء فألهمتهم قوى معنوية عظيمة ، وما أن

تشربت قلوبهم حب الإسلام ، وتفهم معانيه وغاياته ، حتى امتزجت الفتوة العربية بالمثل الأخلاقية الدينية ، وأضيف إلى المجد الفردى ، وإعزاز العشيرة ، الرغبة فى الثواب ، والرغبة من العقاب ، والعمل على السعادة فى الدارين ، والسعى فى خير المجموع ، وتقوية أواصر المحبة بين المسلمين أياً كانت قبائلهم وأياً كان ما بينهم من عداوة وحزازات فى الجاهلية ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

لقد صار السادة فى الجاهلية سادة فى الإسلام ، ووجدت أمامهم الفرصة العظيمة لتجلى مواهبهم الخلقية والعقلية فى ميدان أوسع من ميدان العشيرة والقبيلة ، وفى بيئة أرحب من الصحراء المجردة ، ولولا ما كانوا عليه من خلق عظيم زاده الإسلام وتعاليمه رقة ، ووجهه إلى الصالح العام ، ما رأيت منهم القواد الأفذاذ ، والسادة المحنكين ، والقضاة العدول والحكام القادرين ، يقفون فى جبين التاريخ وحدهم ، لأنهم يبهرون العالم بالأسس التى وضعوها ، والنماذج التى ضربوها على غير مثال سبق ، أو خبرة أو تجربة ، إلا وحي الفطرة ، وهداية الأخلاق ، وإرشاد الدين .

لقد أنضجتهم الصحراء وهياتهم للقيادة والسيادة والحكم ، فلما جاء الإسلام أتاح لهم الفرصة ليعملوا ولتظهر مزاياهم على حقيقتها .

وسترى فى الفصول التالية كيف أن أخلاق الفتيان ، وتعاليم الفتوة تجلت فى الإسلام ورجاله الأفذاذ ، وأنها تحولت من مزايا فردية إلى مبادئ عامة تطالب بها الأمة كلها ، ولم يزدها الإسلام إلا جمالا وكلا وتهذيباً .

سيد الفتيان^(١)

كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً للعالمين ، مثلاً كاملاً للرجولة الحقة ، والخلق العظيم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاماً وقالت له : يا بن عم إني قد رغبتُ فيك لقرابتك ، وسطنتك في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك^(٢) . ١ .

ولما جاءها مخبراً بأنه رأى جبريل قالت له : « أبشر يا بن عم ، واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق^(٣) » . وهذه لعمرى صفات الفتيان الأجداد . ويذكرنا بوصف سقانة لأبيها عندما أُسرت^(٤) ، وقوله عليه الصلاة والسلام لها : يا جارية : هذه صفة المؤمن .

وقد تطلبت الدعوة إلى الإسلام جهاداً طويلاً بالحجة تارة ، وبالقوة تارة أخرى مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء على دعوته وهى فى مهدها ، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف ، ولكن لإخضاع الكفار ، وكف أذاهم

(١) هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فى وصفنا له عليه السلام بسيد الفتيان تطاول على مقام النبوة الكريم ، فقد قال تعالى فى سيدنا إبراهيم « إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » .

(٢) ابن سعد ص ١٢٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام ص ١٩٨ ج ١ .

(٣) ابن هشام ص ٢٥٠ ج ١ . (٤) راجع ص ١٣٤ من هذا الكتاب .

عن الدين الجديد ، وفي ذلك يقول جولد تسهير : ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامى يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس بإدخالهم فى الإسلام بقدر ما كان يرمى إلى إخضاع الكفار^(١) .

والجهاد فى سبيل الله يتطلب من المجاهدين قوة وفتوة ، وكان فى تعاليم رسول الله ، وفى سلوكه الخاص ، نماذج عليا لأتباعه وأصحابه :

١ — فقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُكَّانة بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن اسحاق : « أن رُكَّانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف كان من أشد قريش ، فخلاً يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارُكَّانة ! ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إني لو أعلم الذى تقول حق لا تبعثك ، فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أفهم أن ما أقول حق ! قال : نعم ؟ قال : فقم حتى أصارعك . قال : فقام إليه رُكَّانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه ، وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عُدْ يا محمد ، فعاد فصرعه^(٢) .

والمصارعة من أنواع الرياضة التى تتطلب قوة جسمية ، والقوة الجسمية أول ما يتحلى به الفتيان كما مرّ بك فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

٢ — وكان النبى عليه السلام يهتم بهذه الناحية الجسمية وتقويتها ، ويحث على الرياضة البدنية ، ويمارسها ، وفى مُسند أحمد وسنن أبى داود من حديث

(١) Goldziher : Vorlesungen über den Islam , P.25

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣١

عائشة قالت : سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلبثنا ، حتى إذا أرهقني اللحم سابقني ، فسبقني ، فقال : هذه بتلك .

وفي رواية أخرى : أنهم كانوا في سفر فقال النبي عليه السلام لأصحابه : « تقدموا » ، فتقدموا ، ثم قال : سابقيني فسبقته ، ثم سابقني وسبقني ، فقال : هذه بتلك .

وفي صحيح مسلم عن سامة بن الأكوع قال : بينما نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يُسَبِّقُ أبداً ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت : أما تُتَكْرَمُ كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل ، فقال : إن شئت ، فسبقته إلى المدينة .

وقد ثبت أن الصحابة تسابقوا على الأقدام بين يدي رسول الله بغير رهان^(١) .

٣ — وقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ، ففي الصحيح من حديث ابن عمر قال : « سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ، فأرسلت التي ضَمَرْتُ منها ، وأمدّها الحَفِيَاءُ إلى ثَنِيَةِ الْوَدَاعِ ، والتي لم تُضَمَّرْ أمدّها ثَنِيَةُ الْوَدَاعِ إلى مسجد بني زُرَيْقٍ^(٢) » .

وفي المسند من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله ، قال : قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له

(١) الفروسية لابن القيم ص ٣ .

(٢) الفروسية لابن القيم ص ٣ : في الصحيحين عن موسى بن عقبة أن بين الحفيا

إلى ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق ميل .

يقال له سَبْحَةٌ ، فسبق الناس ، فبش لذلك وأعجبه . وفي مسند أحمد كذلك عن ابن عمر أن النبي سابق بين الخليل وأعطى السابق .

وقد سابق رسول الله بين الإبل كما سابق بين الخليل ، ففي صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال : كانت العضباء لا تُسَبِّق ، فجاء أعرابي على قعود ، فسابقها فسبقها وكان ذلك شقاً على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : إن حقاً على الله عز وجل ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه .

٤ — وكان الصحابة يتناضلون بالرَّمى عن القوس في حضرته عليه السلام ، ففي صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : مرَّ النبي عليه السلام بنفر من أسلم ينتضلون بالسوق فقال : ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم .

وقد حثَّ النبي عليه السلام على الرماية ، وإجادتها ، وشجع المسلمين عليها فقال : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخبير ، والرامي به ، والممد به ، فارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

وقال عليه السلام كذلك : « ليس من اللهو محمودٌ إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علَّمه رغبة ، فإنها نعمة تركها » .

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا أن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » : وقال أيضاً : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » .

وجاء في سنن أبي داود ، والنسائي ، والترمذي عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، ومن رمى بسهم في سبيل الله ، وبلغ العدو ، فأصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة » .

وكان النبي عليه السلام يفضل الرماية على أنواع السلاح الأخرى ، وروى عنه أنه كان يخطب وهو متوكئ على قوس ، وقال أنس : ما ذكرت القوس عند النبي عليه السلام إلا قال : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » ، والحق أن الرماية أنكى للأعداء وأشد فتكاً بهم ، وكم من كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً ، لأنه يضربهم عن بعد ولا يصلون إليه ، وكان العارفون بفنون الحرب القديم يعدون كل سهم بمقام رجل ، فإذا كان مع الرجل مائة سهم عد بمائة رجل ، والخصم يخاف من النشاب أضعاف خوفه من السيف والرمح ^(١) .

ولم يكن النبي عليه السلام يشجع صحابته على الرماية فحسب ، بل كان فارساً شجاعاً يتقدم أصحابه دائماً في المعركة ، فقد روى في الصحيحين من حديث ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلاً فركب فارساً لأبي طلحة عرياً ، فخرج الناس فإذا هم برسول الله قد سبقهم إلى الصوت قد استبرأ الخبر ، وهو يقول : لن تراعوا .

وذكر ابن إسحاق في المغازي : أن رسول الله رمى عن قوسه يوم أحد حتى اندقت سَيْتُهَا ، فأخذها قتادة بن النعمان . وأنه لما كان يوم أحد ، وأُسند ظهره إلى الجبل أدركه أبيُّ بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ، قال ابن إسحاق : وكان أبي بن خلف يلقي رسول الله بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندى العودُ — فرسًا له — أعلفه كلَّ يوم فرَقًا^(١) من ذرة أقتلك عليها ، فيقول : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما أدرك أبيُّ رسول الله اعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله فخلوا طريقه ، واستقبله مصعب ابن عمير أخو بني عبد الداريقي رسول الله بنفسه ، فقتل مصعب ، وأبصر رسول الله تَرْقُوةَ أبي بن خلف من فرجة في سابعة الدرع والبيضة فطعنه بجرسته ، فوقع أبيُّ عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فكسر ضلعًا من أضلاعه ، فلما رجع إلى قریش ، وقد خدش في عنقه خدشًا غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلتني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادُك ، إنه ما كان بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة . أنا أقتلك . فمات عدو الله بسرف^(٢) وهم قافلون إلى مكة^(٣) .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا جسم رياضي ، متين التركيب ، قوى البنية ، فقد جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض عن صفة النبي عليه السلام : أنه كان عظيم الصدر عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عَبلَ العُضدين والذراعين والأسافل ، رَحَبَ الكفين والقدمين ، رَبعَ القَدِّ ، ليس

(١) مكيال يسع ستة عشر رطلا .

(٢) مكان قرب التنعيم بجوار مكة بين عسفان وقديد .

(٣) القروسية ص ١٧ .

بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد^(١) . وقال أبو هريرة : « ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث » . وهذا دليل صحة الجسم وسلامة تركيبه ، وقوة بنائه . والجسم السليم القوى أول إمارات الفتوة . ومما يدل على أن النبي عليه السلام كان يعنى بهذه الناحية الجسمية ما فعل هو وأصحابه حين اعتصموا بعد صلح (الحديبية) بعام ، فقد رآهم كفار قريش يطوفون بالكعبة فقالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حتى يثرب . فقال عليه السلام : رحم الله امراً آراهم من نفسه قوة ، واضطبع^(٢) عليه السلام بردائه ، وكشف عضده اليمنى ، شأن الفتوة ، وفعل مثله المسلمون ، فطافوا بالبيت آمين .

أما شجاعته عليه السلام فقد ضرب بها المثل ، وأى شجاعة أعظم من مواقفه المشهورة التي فر فيها الكماة والأبطال ، وتركوه في حُفنة من خُلصائه ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يُدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع إلا أحصيت له فرّة ، وحُفَّتْ عنه جولة إلا رسول الله .

قال ابن عمر : ما رأيت أشجع ، ولا أنجده ، ولا أجودَ ، ولا أَرْضَى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال علي بن أبي طالب : إنا كنا إذ اشتد البأس ، واحمَرَّت الحِدَق اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبي عليه السلام ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

(١) المتناهي في القصر .

(٢) اضطباع المحرم أن يدخل الرداء من تحت إبطه الايمن ويرد طرفه على يساره ، ويبدى منكبه الايمن ويغطي الايسر ، سمي به لإبداء أحد الضبعين (العضدين)

ولقد مرَّ بك موقفه يوم أحد وثباته وصبره ، وما موقفه يوم حنين ، وشجاعته الفائقة فيه بمجهول . كان المسلمون يزيدون على اثني عشر ألف رجل ، فأعجبهم كثرتهم ، وكان فيهم كثير من الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، ومن مشركي^(٥) مكة الذين خرجوا يشاهدون ، ويغنمون ، فلما خرج كمين العدو على مقدمة جيش المسلمين ، وصب عليهم وابلاً من النبال كأنه الجراد المنتشر ، لووا أعنة خيولهم متفرقين ، فدب الذعر في الجيش ، وفروا جميعاً حتى قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وحتى قال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبرح مكانه ووقف على بغلته في قلة ضئيلة من أصحابه ، وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وأمر عمه العباس أن ينادي الأنصار ، فلما سمعوا نداءه أجابوه ، والتفوا حول رسول الله ، ثم هجموا على أعدائهم هجمة قوية فكان النصر لهم . ولولا ثبات رسول الله ، وفائق شجاعته في هذا الموقف لفُتن خلق كثير ، ولأصاب الوهن نفوس المسلمين . ولقد قال عليه السلام : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرِّجُ اللهُ به الهَم ، وينجي به من الغم » .

وقد حدث له في غزوة غطفان حادث دلَّ على عظم شجاعته وثباته عليه الصلاة والسلام ، فقد نزل المسلمون على ماء يسمى (ذا إمر) فعسكروا به ، فزرع عليه السلام ثوبه يجففه من مطر بللّه ، وارتاح تحت شجرة ، والمسلمون متفرقون

(١) مثل صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان عدد هؤلاء المشركين ثمانين رجلاً في هذه الغزوة .

فأبصره رجل يسمى دُعْثُور ، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه ، وقال : من يمنعك مني يا محمد؟ فقال : الله ، فأدركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده ، فتناوله عليه السلام ، وقال لدعْثُور : من يمنعك مني ؟ قال لا أحد . فعفا عنه ، فأسلم الرجل ، ودعا قومه للإسلام^(١) .

وأما كرمه عليه السلام فقد كان كذلك مضرب المثل ، قال جابر رضى الله عنه . ما سئل عليه السلام عن شيء وقال : لا ، وقال ابن عباس : كان عليه السلام أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان في شهر رمضان . وقد مرَّ بك في أول هذا الفصل وصف خديجة له بقولها : إِنَّكَ تَصِلُ الرَّحْمَ ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف . وتُعِين على نوائب الحق .

وقد أعطى أبا سفيان بعد غزوة حنين أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وكذلك ابنه معاوية ويزيد ، فقال له أبو سفيان ، وهو الذي كان يعاديه بالأمس : بأبي أنت وأمي ، لَأَنْتَ كَرِيمٌ فِي السَّلْمِ كَرِيمٌ فِي الْحَرْبِ .

ورأى صفوان بن أمية يتطلع إليه وهو يوزع غنائم حنين ، وينظر إلى شِعْبٍ مملوء بالنعم والشاه ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هولك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد وكان ذلك الكرم والإحسان سببَ إسلامه .

ولما اجتمع عليه الأعراب وصاروا يقولون له : إقسم علينا ، حتى أُلْجِئُوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَنَعْلِقَ رِداؤَهُ بِهَا فَقَالَ : « رَدُّوْا عَلَيَّ رِدَائِي أَيُّهَا النَّاسُ ، فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ لِي شَجَرٌ تِهَامَةٌ نَعْمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ مَا أَلْفَيْتُمُونِي بِخِيَلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَدُودًا » .

وعلى الرغم من أن النبي عليه السلام قد أوتى خزائن الأرض ، وما أحلت له الغنائم ، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن ، وجميع جزيرة العرب ، وما داني ذلك من الشام والعراق ، وجلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها ، وصدقاتها ، وهاداه جماعة من الملوك ، فما استأثر بشيء منه ، ولا أمسك منه درهما ، بل صرفه مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين ، وقال : ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار ، إلا ديناراً أرصده لديني .

وأنته مرة دينار ، فقسمها ، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه ، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت . وحل إليه عليه السلام تسعون ألفاً ، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها ، فما قام حتى فرغ منها . ومع كل هذه الأموال التي تدفقت بين يديه ، وجاد بها على المسلمين ، والمؤلفة قلوبهم ، فقد مات ودرعه مرهونة في نفقة عياله . فهل بعد هذا سخاء يد ؟ ! وأما كرم قلبه ، فقد كان فيه فذاً ؛ لأن الله أنعم عليه بهذه الخلقة الكريمة ليم رسالته ، ويتألف قلوب الناس . « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وقال تعالى لنبيه الكريم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهليين » ، وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وقال الله تعالى : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . وقال تعالى : وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وقال : « وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنْ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُور » .

وعلى الرغم من عظم ما أودى به النبي عليه السلام في سبيل دعوته ، ولاقي

من شدائد ينوء بحملها أشد الناس قوة وبأساً ، وأعظمهم صبراً ، فإنه كان ينظر إلى هؤلاء الذين آذوه ، وأخرجوه من دياره ، ونكلوا بأصحابه ، نظرة المشفق الرحيم . ولما جرح في أحد ، وسقطت ثديّته ، ودخل طرف المغفر في وجنته ، وسال دمه ، ووقع في الحفرة ، وطلب منه المسلمون أن يدعوا على كفار قريش لم يزد على قوله : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

ولما فتح مكة ، ولان له عصيها ، وهى التى طردته وآذته ، وحرضت العرب عليه ، وحاربه غير مرة لم يزد على أن عفا وصفح حين تمكن منها ، وقال لهؤلاء الجفأة الغلاظ : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ولقد أحلّ دم بضعة نفر من أهل مكة لعظم جريمتهم فى حق المسلمين ، ولكنه عفا عنهم حين جاءوا تائبين طائعين مستجيرين ببعض الصحابة ، مثل عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى لجأ إلى عثمان بن عفان ، وعكرمة ابن أبى جهل الذى هرب وأراد أن يركب البحر فلحقت به زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فقالت لعكرمة : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم . ومنهم هبّار بن الأسود . وقد هرب واختفى ، حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة جاءه مسلماً ، وقال : يا رسول الله هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عن جهل عليك ، وكنا يارسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأقصدنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل ، فقال عليه السلام . قد عفوت عنك .

ومنهم صفوان بن أمية ، وكان قد اختفى ، وأراد أن يذهب ، ويلقى نفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي ، وقال : يا نبي الله إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه ، فإنك قد أمنت الأحمر والأسود ، فقال عليه السلام : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فقال : أعطني علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير ، حتى إذا لقي صفوان قال له : فذاك أبي وأمي ، جئتكم من عند أفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، قال صفوان : إني أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان ، فرجع إلى رسول الله . وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق ، قال : أمهلني بالخيار شهرين ، قال : أربعة أشهر ، ثم أسلم وحسن إسلامه . ومنهم كعب بن زهير ، ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، جاء المدينة بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، وقال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

وقال كلُّ صديقٍ كنتُ أملهُ	لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلتُ خلوا سبيلي لا أبالكُم	فكلُّ ما قدرَ الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ	يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ
أنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً	قرآن فيها مواعيط وتفصيل

فلما قال :

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به	مَهْدٌ من سيوف الله مسلول
خلع عليه الرسول بُرْدَتَه .	

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو ، فاستأمن له ابنه عبد الله ، فأمنه عليه السلام ، وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال : كان والله برّاً صغيراً ، برّاً كبيراً . ثم أسلم بعد ذلك .

وبمثل هذا الخلق السموح ، والعمو الجميل عند المقدرة ، لانت لدعوته هذه القلوب الجاسية ، وصارت سيوفاً مشرعة تدافع عنه وعن دينه . وعن أنس قال : كنت مع النبي عليه السلام ، وعليه برْدٌ غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جذبةً شديدة ، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ! احمل لي على بعيرى هذين من مال الله عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أيك . فسكت النبي ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي ، قال : لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافى بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر .

هذا لعمري هو المثل الأعلى في كرم القلب . وقد أثنى عليه الله سبحانه بقوله : « وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وأما كرم العقل وحرية ، فقد بلغ فيه عليه الصلاة والسلام الغاية ، ولا أدلَّ على ذلك من نفوره منذ حدوثه من مفاصد البيئة التي نبت فيها ، فلم يشرب الخمر قط ، مع أنها كانت شائعة بين قومه شيوعاً عظيماً ؛ لأنه رأى بفطرته السليمة ، وعقله الحكيم ، أنها تجنى على العقل ، وتدفع إلى كثير من الكبائر . ولم يسجد لصنم قط ، وكره عبادة الأوثان ، مع أن مكة كانت حافلة بهذه

الأوثان يعظمها قومه وآله كباراً وصغاراً ، وهو يراها كل يوم فوق الكعبة ، ولم يكن يحضرها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عبادها ؛ بغضاً وشدة كراهية . وقال عليه السلام : « لما نشأت بُغِضْتُ إِلَى الأوثان ، وَبُغِضَ إِلَى الشعر ، ولم أَمْ شَيْءٌ ، مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها ، حتى أكرمني الله برسالته : قلتُ ليلة لِعِلامٍ كان يرعى معي : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمرُ كما يسمرُ الشباب ، فخرجت لذلك ، حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لِعُرْسٍ بعضهم ، فجلسْتُ لذلك ، فضرب الله على أذنى فَنَمْتُ ، فما أيقظنى إلا مَسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثلُ ذلك » .

ولقد شهد الله أعدائه ، وأشدَّهم بغضاً لدينه بأنه كان راجح العقل ، كامل الخلق منذ نشأته ، فهذا النضر بن الحارث من بنى عبد الدار ، يقول لقومه حين اجتمعوا ليتفقوا على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم ، ويبشرهم النبي بالدين الجديد : لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغِهِ الشيب وجاءكم بما جاءكم قُلْتُمْ ساحر !! لا والله ما هو بساحر » .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن النبي عليه السلام حين جاءه كتابه يدعوه فيه للإسلام : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . وكيف لا يكون أكرم الناس عقلاً ، وهو الذى جاء بالدين الحنيف الذى

حرّر عقول البشرية من الأوهام والخرافات ، وشرع لهم أكمل تشريع ، وأحسن قانون ، وخاطب عقولهم قبل أن يخاطب عواطفهم ، وحشهم على أن يستخدموا حواسهم في تفهم آيات الله ، وإدراك عظمته ؟ !

ولم يكن النبي عليه السلام في تبشيره بالدين الخفيف فظاً ، أو متعصباً ، ولكنه كان يحاول الإقناع ، واجتثاث جذور الشك والريبة من صدور الكافرين ، وتبيان الحق ناصعاً جلياً ، بمنطق سليم ، وقول حكيم . وقد أمره الله بهذا حيث يقول : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

وقال تعالى : « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وقال تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وقال تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

وقال تعالى : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا مُثِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ ، وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » .

ولقد امتثل الرسول الكريم عليه السلام لأمر ربه ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، وقابل سفه عقولهم ، برحابة عقله ، وواسع حلمه ، وكلما أمعنوا فى لجاجهم وعتوهم ، ازداد شفقة عليهم ورحمة بهم ، ولم ييأس من إقناعهم ، ومن استجابة عقولهم لدعوته ، على الرغم من قولهم : « قلوبنا غُلْفٌ » ، « وقالوا قلوبنا فى أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وفى آذَانِنَا وَقْرٌ » ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » .
ومن دلائل هذا الكرم العقلى نهيهِ عليه الصلاة والسلام عن الاعتقاد فى كثير من أوهام العرب وخرافاتهم ، فلا زَجَرَ ولا طَيْرَةَ ، ولا فأل ، ولا كهانة ، ولا عَرَافَةَ ، ولا انصاب ولا أزلام ، ولا غير هذا مما شاع بين العرب من مخلفات الإنسانية البدائية ، التى لا يقرها العقل السليم فى تمام وعيه .

ومما يدل على كرم عقله وتسامحه عليه السلام معاملته للنصارى الذين وفدوا عليه ، وقبوله الجزية منهم ، ولم يجبرهم على الإسلام ، فقد وفد عليه نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، معهم بُسُطٌ فيها تماثيل ومُسُوح ، جاءوا بها للنبي عليه السلام ، فلم يقبل البسط لما فيها من تماثيل ، وقبل المسوح ، ولما جاء وقت صلاتهم صلوا بالمسجد مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم للإسلام فأبوا ، وقالوا : كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه السلام : يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله وَلَدًا ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل الله قوله عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .
ودعاهم عليه السلام للابتهاال فأبوا ، ورضوا بدفع الجزية ، فقبلها منهم .
وقد صالح صاحب أُيُوتَةَ ، وأهل جرباء وأذرح وأهل ميناء ، وهم نصارى ،

بعد أن غزا ديارهم ، وأمّنهم على أموالهم ، ولم يكرههم على الإسلام وكتب لهم عهداً فمن ذلك عهده عليه السلام لأهل أذربج وجرباء ، وصورته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي لأهل أذربج وجرباء إنهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين » .

وقد كان هذا السكرم العقلي والتسامح العظيم من الأسباب الأولى التي عملت على نشر الإسلام بالرفق واللين ، لا بالقوة والعنف ، ويقول السير توماس أرنولد : « إن إخفاق بعض البعوث التي أرسلها النبي إلى القبائل تدعوها للإسلام دليل على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صفة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة ^(١) » ويعزو السير توماس أرنولد انتشار الإسلام بين العرب إلى « المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي عليه السلام ، واهتمامه بالنظر في شكاياتهم ، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم » .

ويقول « قيطاني » في كتابه تاريخ الإسلام : « وقد أصبحت سرعة انتشار الإسلام بنوع خاص شيئاً ملموساً ، بسبب ما أظهره النبي من هيبة ، وما أبداه من روح التسامح والحرية ، وتحين المناسبات في علاقاته بالذين تحولوا إلى الإسلام » ^(٢) .

* * *

أما الوفاء بالعهد فهي خلة مشهورة من خلاله الكريمة عليه السلام قبل

(1) Sir T. w. Arnold : The Preaching of Islam . ch . 1 .

(2) Leon Caetani : Annali dell ' Islam . Vol,I . P. 663. Milano 1905.

البعثة وبعدها ، روى عن عبد الله بن أبي الخشاء قال : بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعده أن آتيه مكانه ، ففسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجيئت فإذا هو مكانه ، فقال : يا فتى لقد شققت عليّ ، أنا هنا منذ ثلاثٍ أنتظرُك .

ولما سأل هرقل أبا سفيان عما يأمر به النبي عليه السلام قال : « يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد أبائنا ، ويأمر بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة » ، وسأله : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا . وهذه شهادة خصمٍ أمام ملكٍ عظيم .

ولما عاهد عليه السلام قريشاً في صلح الحديبية على أن من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده ، شق ذلك على المسلمين وقالوا : سبحان الله : كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردون من جاءهم مرتداً ؟ فقال عليه السلام : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . وعلى الرغم من عظم هذا العهد وخطره ، وأن فيه مشقة على المسلمين الذين يهاجرون إلى النبي من قريش ، ويتحملون أين السفر والكلال ، ويتعرضون بعد ردِّهم لايذاء قومهم وفتنتهم ، فقد وفىَّ به النبي عليه السلام ، ولم ينقض عهده معهم . جاء أبو جندل بن سُهيل يحجل في قيوده ، وكان من المسلمين ممنوعين من الهجرة ، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه السلام : « اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً ، وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم » .

وتمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال : يا رسول الله : أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً ، فلم يجد بداً من إطاعة أمر رسول الله ، فرجع مع القرشيين ، ولما كانوا في الطريق عدا على أحدهما فقتله ، وهرب منه الآخر ، فرجع إلى المدينة ، وقال : يا رسول الله ! وفيت ذمتك ، أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . ولقد حث القرآن الكريم على الوفاء بالعهد ، قال تعالى : وَإِذَا قُلُّتُمْ فَاعْدِلُوا ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذلكم وصاًكم به لعلكم تذكرون » وقال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا تَفْعَلُونَ » .

وكان النبي عليه السلام أول مُمثّل لأوامر الله سبحانه وتعالى ، وأحسن قدوة للمسلمين « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . ولما بلغ ملك عُمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام قال : « والله لقد دلّني على هذا النبي الأُمي : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذه به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويوفي بالعهد ، وينجز الموعد ، وأشهد أنه نبي »^(١) .

وأما حمايته للضعيف ، وما اشتهر به من الشفقة والرحمة والرأفة فقد أيدها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه بقوله : « عزيزٌ عليه ما عنتم » ، حريصٌ

عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » وبقوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ،
 روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أحسنتُ إليك ؟
 قال الأعرابي : لا ولا أجملت . فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم
 أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ، وزاده شيئاً ، ثم قال أحسنتُ
 إليك ؟ فقال : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام :
 إنك قلتَ ما قلتَ وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببتَ فقل بين
 أيديهم ما قلتَ بين يدي ؛ حتى يذهبَ ما في صدورهم عليك . قال : نعم .
 فلما كان الغد أو العشي جاء فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابي قال ما قال
 فزدناه فزعم أنه رضى ، أ كذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً
 فقال عليه السلام : « مثلي ومثلُ هذا ، مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها
 الناس ، فلم يزيدها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني
 أرفقُ بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردها
 حتى جاءت ، واستناخت ، وشدَّ عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإني
 لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

ولقد أوصى بالضعفاء خيراً ، وأكثر من هذه الوصية : « اتقوا الله في
 الضعيفين النساء والعبيد » ، وقال في خطبة الوداع : « إنما النساء عندكم عوان
 لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة
 الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً » .

ولقد كان رحماً بالضعفاء ، ولو كانوا أعداء مشركين ، يقاتلونه ، ويصدون
 عن دينه ؛ فقد أوصى الجيش الذي أرسله بقيادة زيد بن حارثة في غزوة

مُؤْتَةً^(١) بقوله عليه السلام : « أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا^(٢) ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نحلاً ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بيتاً » .

لقد شملت رحمته جميع الضعفاء من الأناسي : الوليد الذي لا يملك دفاعاً عن نفسه ، والمرأة ، والكبير الفاني ، والمتعبد في صومعته ، كما شملت النبات الذي لا ذنب له ولا جريرة ، بل شملت الجراد ، فأى رحمة كانت !

ولقد أمره الله سبحانه أن يجير المشرك إذا لجأ إليه ، وطلب حمايته . وهذا منتهى الفتوة والمروءة والرحمة بالضعفاء : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبليه مآمته » . وإذا كان حذبه على الضعفاء قد امتد إلى المشركين الذين يلجئون إليه ، فما بالك بالمسلمين ؟ ! وفي أحاديثه الشريفة ، وجوامع كلمه فيض من الرحمة والرافة ، والتدخل لحماية المظلوم ورفع الظلم عنه ، والبر بالفقراء والمساكين ، والشفقة على الضعفاء والمنكوبين : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وقال عليه السلام : ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله تعالى له من يكرمه عند سنه » .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧ ، الطبري ج ٣ ص ١٠٧ ، السيرة الخلية ج ٣ ص ٧٦ ، وكانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة ، ومؤتة موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .
(٢) لا تغلوا : لا تخونوا .

وقال عليه السلام : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك أن يعمَّهُم الله تعالى بعقاب .

وقال عليه السلام : « إن أحبكم إلىَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ، الموطَّئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون . »

ونختم الكلام عن سيد الفتيان عليه الصلاة والسلام الذي تجلت فيه النبالة العربية ، والهدى الإسلامي ، والتأديب الإلهي بأجلى مايتيحاً لبشر ، بهذا الحديث المأثور عنه ، والذي يدل أتم دلالة على مايتطلبه عليه السلام من قومه وأتباعه من صفات الرجولة ، وإحقاق الحق ، ورفع الظلم ، قال عليه السلام : لا يكن أحدكم إمعة^(١) يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » فهو في هذا الحديث العظيم يحث على أن تكون لكل مسلم شخصية قوية ، لا تغنى في سواها ، وأن يكون عمله عن عقيدة ، لا عن اتباع ، وأن يتدخل لرفع الظلم وإحقاق الحق ، وعمل الإحسان وألا يجارى السفهاء والظالمين في سفههم وإساءتهم . وهو بذلك يدعو عليه السلام إلى الاستقلال في الرأي الذي لا يخاف تعاليم الدين الكريم . وإن أمة يوجد فيها مثل هؤلاء لأمة جديرة بالسيادة ؛ لأن أخلاقها ذللت لها الطرق المؤدية لسيادة العالمين ، وكذلك كانت هذه الأمة الكريمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تآمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

وقال عليه السلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل : أنصره إذا

(١) الإمعة : المتردد الذي لا يثبت على شيء ، أو هو الذي لا يضر ولا ينفع .

كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره . »

وهكذا رأينا في سيدنا محمد عليه السلام كيف اتجهت خلال الفتوة العربية إلى وجهة أعم وأكثر إنسانية ، ترمى إلى الهداية والحق ، ولم يعد الزهو الشخصى ، والمجد القبلى ، والدفاع عن العشيرة ، واكتساب السمعة الحسنة هي كل ما يرجوه الفتى ، بل صار يعمل لخدمة الدين ، والمبدأ ، ويريد اكتساب الثواب والجنة ، فزاد ذلك من فتوته وحماسته ، ويقول قيطانى : « ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب ، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل ^(١) » .

فتيان المسلمين

جعلت حرارة العقيدة السليمة ، وقوة اليقين المكين ، والقُدوة الصالحة الطيبة ، من رجال العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وصحبوا الرسول ، واهتدوا بهديه ، واقتبسوا من نوره مُثُلًا عليا نادرة في تاريخ البشرية ، حتى صار كلُّ واحدٍ منهم يَعْدِلُ أمةً كاملةً ، في رجولته ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وتمام فتوته ؛ وكيف لا يعدل أمة وقد وُكِّلَ إليهم بعد وفاة نبيهم الكريم أن يحملوا رسالته إلى العالمين ، فحملوها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وفتحوا البلدان بأخلاقهم وهدْيهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وغلبهم . وكانوا حكامًا عادلين ، وقضاة منصفين ، وقادة مُحَنِّكين ، وساسة دُهَاءَ قادرين ، وسفراء مُعْتَبَرين موفقين ، مع أنهم ظلوا في جزيرتهم قبل هذا الفتح المبين لم يبرحوها ، ولم يقتبسوا من غيرهم نُظْمه ومدنيته ، ولم يعرفوا شيئًا عن الإمارة والسفارة والقيادة ، ولكنه هَدَى الفطرة ، وتعاليم الإسلام الكريمة ، تمكنت من هذه القلوب العظيمة ، ففاضت على البشرية نوراً وعدالة وسماحة ووفاء ، وأنقذوا العالم من البغي والضلال والشُّقوة التي كان يعانيها على أيدي حكامه الفاسدين .

لقد كان صحابة الرسول هم القوة التي تَمُدُّ المسلمين بالنور ، وتدفعهم إلى النصر ، وليس أدلَّ على ذلك مما فعله خالد بن الوليد حين أمره أبو بكر رضي الله عنهما بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين في حربهم

ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذهم معه ، ولكنَّ الثُّنَيَّ بن حارثة الذى خلفه على جيوش المسلمين فى العراق غضب لهذا الاستئثار بصحابة الرسول وقال له : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكرٍ كلَّه » ، فى استصحاب نصف الصحابة ، أو بعض النصف ، والله ما أرجو من النصر إلا بهم فكيف تُعرِّفنى منهم ؟ ^(١)

والسرُّ فى هذا أن الصحابة آمنوا عن عقيدة ، وامتلأت قلوبهم بمحبة دينهم ، وهذى نبيهم ، فهم أخرى الناس بالاستبسال فى القتال وطلب الشهادة ؛ لأن حرارة الإيمان تدفعهم ، وصحبة النبی وسيرته ترشدهم ، وليس كذلك سواهم ممن دخلوا فى الإسلام بعد الفتح ، أو ارتدوا ثم أسلموا .

ثم إنهم شهدوا مع الرسول غزواته فى سبيل الدفاع عن الدين ، وثبت بلاؤهم ، وتأيدهم لدينهم ، وعظمت تجربتهم ، وسمت أخلاقهم بصحبتهم للرسول الكريم ، فهم فى كل جيش القبس الذى يهديه ، والحجة التى يلجئون إليها ، والقدوة التى يحتذونها ، ثم إنهم حفظة القرآن تدوى به أصواتهم إذا اشتد سعي المعركة ، فيزداد الجيش قوة و يقيناً .

لقد أدب الله سبحانه نبيه فأحسن تأديبه ، وأدب النبي عليه السلام صحابته فأحسن تأديبهم ، ولذا قال عليه السلام : « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلاً ورجولة و بطولة ، ونماذج فذة فى الأخلاق الكريمة بهرت الفُرس فى عزة ملكهم ، وزلزلت عروشهم فدانَتْ لهم ديارهم ، وفنت المسيحيين فى أرض الروم عن دينهم فدخلوا فى دين الله أفواجاً .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ ، فتوح البلدان ص ١٤٠ .

وفى ذلك يقول السير توماس أرنولد : « وإذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق^(١) ». وهذا التسامح هو من أثر التعاليم الإسلامية التى وردت فى القرآن الكريم ، ومن أثر معاملة النبى عليه السلام لأعدائه وقذوته للصحابة ، ولقد أوصى بأهل الذمة خيراً ، وروى عنه عليه السلام قوله : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه إلى يوم الدين^(٢) » ، وسأعود إلى هذا الموضوع بعد قليل إن شاء الله .

١ — أما الشجاعة فقد كان المسلمون الأولون أبطالاً لا نستثنى منهم أحداً ولا سيما هؤلاء الذين سبقوا للإسلام ، وعذبوا فى سبيل عقيدتهم ، وحاول قومهم فتنهم فلم ينالوا منهم شيئاً بل زادوهم ثباتاً ، وإيماناً ، وهاجروهم بدینهم فى سبيل الله ، وهؤلاء الذين استقبلوا المهاجرين فى ديارهم وشاطروهم أموالهم ومساكنهم ونصروهم وأعزوا دينهم ، وافتدوا رسول الله ورسالته بأرواحهم وأموالهم .

لقد أرادت قريش أن تستأصل هذه الفئة المسامة التى تعبد الله حق عبادته ، ولا تشرك به شيئاً حتى تستريح من هذا الدين الجديد ، واضطر محمد عليه السلام ومن معه إلى الدفاع عن دينهم وحمايته ، وكانوا قلة فقيرة ، يحاربون عرباً أقوياء أثرياء ، لهم شجاعة وبأس ، بيد أن حراة الإيمان وقوة

Sir T. Arnold : The Preaching of Islam, ch. 3 (١)

(٢) البلاذرى ص ١٦٢ .

اليقين جعلت من هؤلاء المسلمين أبطالاً مغاوير ، فكان الواحد منهم يعدل في أول الأمر عشرة من المشركين في قوة بأسه ، وشدة شكيمة ، وصبره على الجهاد والبلاء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : « يا أيُّها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ^(١) .

وكان هذا ثقة عظيمة بهؤلاء المسلمين الأولين ، ولكن الله خَفَّفَ عنهم بعد ذلك وجعل كلاً منهم عديلاً لرجلين من المشركين : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » ^(٢) .

ومما زادهم بأساً وصرامة وحرصاً على الموت ما وعدهم به الله سبحانه من الجنة والثواب العظيم إذا استشهدوا في سبيله : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » ^(٣) .

وقال تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً ، حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرَوْا اللَّهُ يَنْصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ^(٤) .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٦

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥

(٤) سورة محمد : الآيات ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤

وقال تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون» (١).

وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تَوَمنون بالله ورسوله، وتُجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ويُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذلك هو الفوز العظيم، وأُخْرَى تَحْبَبُونَهَا، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ، وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ». ولقد حرَّضَ النبي عليه السلام المؤمنين يوم بدرٍ بقوله: «والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رَجُلٌ فيُقْتَلَ صابراً مُحْتَسِباً، مقبلاً غير مُدْبِرٍ إلَّا أدخله الله الجنة» فقال عُمرُ بنُ الحُمام — وفي يده تمراتٌ يأكلهن: بَنَخْ، بَنَخْ! أفأبيني وبين أن أدخل الجنة إلَّا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتِلَ (٢).

وخطب عبد الله بن رَوَاحَةَ الجند يوم مُؤْتَةَ بقوله: يا قوم! إن التي تَكْرَهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ، وما نقاتلُ الناسَ بعددٍ ولا قُوَّةَ ولا كَثْرَةَ، ولا نقاتلهم إلَّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسَيْنَيْنِ: إما ظهور وإما شهادة»، ولما قُتِلَ زيد بن حارثة يوم مُؤْتَةَ، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ارتجز وقال:

يا حَبْدَا الْجَنَّةِ واقترابُها طَيِّبَةٌ وباردًا شرابُها

(١) آل عمران آية ١٦٩.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٩.

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرٌ بعيده أنسابها
على إذا لاقيتها ضرابها^(١)

ولقد ظهرت شجاعتهم الفائقة وجههم لنبيهم واستأثرتهم في الدفاع عنه يوم
أُحُد ، هذا أبو دُجانة يَقَعُ النبل في ظهره وهو مُنَحْنٌ يحمى النبي عليه السلام
بجسده ، ويشاركه سعد بن أبي وقاص ، ويدافع عنه طلحة بن عبيد الله حتى
تَشَلَّ يده^(٢) .

لم يكن الأمرُ أمرَ شجاعة فحسب ، ولكنها شجاعة منبعثة عن عقيدة ،
يضحى فيها المسلم بكل شيء في سبيل إعزاز دينه ، يضحى فيها بأمه وأبيه ،
وولده وكل عزيز لديه . لقد مرَّ النبي عليه السلام وهو عائِدٌ من أُحُد على امرأة
من بنى دينار قد أُصِيبَ زوجها وأخوها وأبوها بأُحُد ، فلما نَعُوا إليها قالت :
ما فعل رسول الله ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين . قالت أرونيه حتى
أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جَلَل !

ولمَّا قال عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين بالمدينة في غزوة بنى المصطلق :
« أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » وغضب رسول
الله والصحابة لهذه القالة الرذيلة ، وهمَّ كثير من الصحابة بضرب عنقه لولا
سماحة النبي ، تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبيّ هذا ، وكان من صالحى المسلمين ،
وقال لرسول الله : « إني قد سمعت أنك تريد قتل أبى لما بلغك عنه ، فإن
كُنْتَ لا بدَّ فاعل ، فرنى أحمل إليك رأسه ، والله ما علم الناس رجلاً أبرَّ

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، والسيرة

الخلبية ج ٣ ص ٧٦ ، والضراب : المجادلة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، والطبرى ج ٣ ص ٩ وما بعدها .

بوالده مني ، ولكنني أخشى أن تأمر غيري بقتله ، ثم لاستريح نفسي حتى أقتل الذي أمرته بقتله ، فأكون قد قتلت رجلاً مؤمناً بكافراً فدخل النار » ، فقال رسول الله : « بل نترقب به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا ^(١) » .

لقد أذهب الله من قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، واجتث من نفوسهم الأثرة والعصبية القبلية ، وأبدلهم منها محبة الله ورسوله ، ودينه ، ويقول في ذلك سبرنجر ^(٢) : « كان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية بالمجتمع العربي قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة ، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم ، وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكك النظام القبلي ^(٣) » .

لوتهاون المسلمون في الدفاع عن دينهم أمام تيار الكفر العنيف ، ولجاج المشركين الزري ، وإيذائهم البالغ الذي خلا من كل معاني الرحمة والإنسانية للمسلمين القوي منهم والضعيف ، والعزیز والذليل ، والحر والمولى لاستئصلوا ولاستئصل معهم هذا الدين الكريم ، وهذا ما عبر عنه سيد المرسلين عليه السلام يوم بدر حين احتدم القتال ، ورمت قریش بفلات أكبادها ، وأغر بنيتها بقوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وأبو بكر يقول له :

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٣ ، الطبري ٤ ص ٦٣ ، وكانت غزوة المصطلق في السنة السادسة من الهجرة وبنو المصطلق جماعة من خزاعة .

(2) A. sprenger : Das Leben und die Lehre des mohammed. vol, 3, Pp. 360 — 361

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبري : ج ٢ ص ٢٦٧ .

يَا نَبِيَّ اللَّهِ بَعْضَ مَا شَدَّتْكَ رَبُّكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ^(١) .

ولذلك حَسَّهمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَاعْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(٢) » .

وَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْفِرَارِ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَلَمْ يَفِرُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ
إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ أَنَّهَا لَهُمْ ، إِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ ، وَإِمَّا نَصْرَةَ الدِّينِ وَإِعْلَاءَ
كَلِمَتِهِ ؟ . وَحَسَّهمُ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فَقَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ،
إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ ، فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ،
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

وَأُصْدِرَ إِلَيْهِمْ تَعَالِيمُ تَكْفُلْ لَهُمُ النَّصْرَ ، وَإِعْزَازُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ :
« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوعُونَ ^(٣) » .
وَقَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُونَهُمْ
الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُولَهُمْ يَوْمَئِذٍ ذَرَبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ
بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ^(٤) » .

وَأَيُّ مُسْلِمٍ يَفْكَرُ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْقِتَالِ وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الصَّارِمَةُ تَدْوِي فِي
أُذُنَيْهِ : غَضَبُ اللَّهِ ، وَنَاهِيكَ بِهِ ، ثُمَّ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ؟ ! لَقَدْ بَكَى الْمُسْلِمُونَ
وَجَزَعُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ يَوْمَ الْجَسْرِ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
حِينَ عَبَثَتْ بِهِمُ الْفِيلَةُ وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يُقَاتِلُونَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) سورة الصف ، الآية ٤٠ .

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ١٥ .

يواسيهم ويشجعهم ويعزيهم عن هزيمتهم: « لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فتتكم ، إنما انخرتُم إلى ، اللهم كلُّ مسلم في حلٍّ مني ، أنا فئة كل مسلم » ، ولما سمع معاذُ وكان ممن شهد الواقعة ، وفرَّ من يقرأ : « ومن يولهم يومئذ دبره ... الآية » بسكى وعلا نحيبه ، فقال له عمر : لا تبك يا معاذُ ، أنا فتتكَ وإنيما انخرتُ إلى ^(١) .

لقد أضيف إلى الشجاعة العربية التي عرفتها في الجاهلية ، وعدم الفرار من العدو حميةً وفتوةً والتي تتدلل في قول الشاعر :

تأخرتُ أستبقى الحياة فلم أجدُ لنفسي حياةً مثل أن أتقدماً
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

عاملٌ آخر زاد في ثبات العرب المسلمين وهو حبُّ التضحية ، والرغبة في الاستشهاد ، والخوف من الفرار ، لأن عقوبته صارمة عند الله ، ولذلك كان جيش المسلمين لا يقاوم مهما كان عدد الأعداء وحماستهم ورغبتهم في النصر ؛ لأن رغبة المسلمين في النصر أقوى ، ولأنهم يحرصون على الموت كما كان عدوهم يحرص على الحياة ، ولذلك كانوا يلقون الرعب في قلوب أعدائهم على حدِّ قول الله تعالى : « لَأَتِمُّوا أشدَّ رهبةً في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون ^(٢) » .

لم يكونوا يدافعون عن غرض دنيوى من أغراض الحياة ، أو طلباً لجام

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٤ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٩٠ وفتوح البلدان ٢٥٢ ، وتسمى هذه الواقعة أيضاً يوم قس ناطف ، وكانت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

(٢) سورة الحشر الآية ١٣ .

أَوْ مَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَدَافِعُونَ عَنْ دِينِهِمْ وَعَنْ رِسَالَتِهِمُ السَّامِيَةَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا ، وَعَنْ أَنْفُسِهِمْ حِينَ اضْطَهَدَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، وَبَيَّتُوا لَهُمُ الْمَكِيدَةَ ، وَحَافِلُوا اسْتِنْصَالَهُمْ ، وَلِذَلِكَ طَلَمَّا ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِكُلِّ هَذَا حَتَّى يَزِيدَ مِنْ حِمِّيَّتِهِمْ ، وَحَرَارَةِ دِفَاعِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (١) .

وَقَالَ تَعَالَى : « وَادْكُرُوا إِذَا أَتَمَّ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٢) .

لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَائِلُ مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَلَكِنْ تَمَيَّزَ مِنْ بَيْنِ صَفُوفِهِمْ ائْتِيَانٌ مُعْلَمُونَ . كَانُوا يَنْتَدِبُونَ (٣) لِكُلِّ كَرِيهَةٍ وَيَتَقَدَّمُونَ الصَّفُوفَ ، يَبِيعُونَ أَنْفُسَهُمْ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ كَانُوا أَقْوِيَاءَ أَشَدَّاءَ ، خُبْرَاءَ بَفَنُونَ الْقِتَالَ ، تَمْتَلَى جَوَانِحُهُمْ شَجَاعَةٌ وَإِيمَانًا .

مِنْ هَؤُلَاءِ حِمْرَةُ عَمِ النَّبِيِّ ، وَلَقَدْ بَرَّهَنْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَخَلَ فِيهِ الْإِسْلَامُ عَلَى شَجَاعَتِهِ الْفَائِقَةِ ، وَعَلَى أَنَّهُ قُوَّةٌ أَيْدَى اللَّهُ بِهَا دِينَهُ وَأَعَزَّ رَسُولَهُ ، رَوَى ابْنُ هِشَامٍ فِي إِسْلَامِ حِمْرَةَ : أَنَّ حِمْرَةَ كَانَتْ رَاجِعًا مِنْ قَنْصٍ لَهُ مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ، وَكَانَ إِذَا فَعَلَ لَمْ يَمُرَّ عَلَى نَادٍ مِنْ قَرِيشٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَلَّمُ وَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ ، وَكَانَ أَعَزَّ فَتًى فِي قَرِيشٍ .

(١) سُورَةُ النَّسَاءِ : الْآيَةُ ٧٥ :

(٢) سُورَةُ الْأَنْفَالِ : الْآيَةُ ٢٦ :

(٣) يَنْتَدِبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَتَطَوَّعُونَ .

وأشد شكيمة ، فلما مرَّ بامرأة كانت قد شهدت إيذاء أبي جهل للنبي عليه السلام في ذلك اليوم قالت له : يا أبا عُمارة ، لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام : وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعِداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه فشجّه شجّةً مُنكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردّ ذلك على إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنني والله قد سببتُ ابنَ أخيه سباً قبيحاً . وتمَّ حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد غرّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما ينالون منه ^(١) .

ولما التقى المسلمون بالمشركين في غزوة بدر ، خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً سيئ الخلق شرساً من كفار قريش ، وقال : أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم (أي المسلمين) أو لأهدمته ، أو لأموتنَّ دونه ، فخرج إليه حمزة ، وضربه حمزةً فقطع قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخُّب رجله دماً ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن

(١) لم يكن حمزة حين انتقم لمحمد عليه السلام من أبي جهل قد أسلم ، ولكنه صرح بإسلامه في ذلك الوقت ، إذ أراد الله به خيراً ، وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه . راجع ابن هشام ط الحلبى ج ١ ص ٣١٢

يَبْرُ يَمِينِهِ ، وَاتَّبَعَهُ حَمْرَةَ ، فَضْرَبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ فِي الْحَوْضِ .

ولما برز عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ وَابْنِهِ الْوَلِيدِ مِنْ بَيْنِ صَفُوفِ الْمُشْرَكِينَ يَطْلُبُونَ الْمُبَارَزَةَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، رَفَضُوا مَبَارَزَتَهُمْ وَنَادَوْا : يَا مُحَمَّدُ أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا ، نَدَبَ حَمْرَةَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، قُمْ يَا عَلِيٌّ ، وَلَمْ يَمَهْلِ حَمْرَةُ شَيْبَةَ أَنْ قَتَلَهُ ، وَلَمْ يَمَهْلِ عَلِيُّ الْوَلِيدُ أَنْ قَتَلَهُ ، وَلَمَّا وَجَدَا عُتْبَةَ وَعُبَيْدَةَ لَا يَزَالَانِ يَقْتَتِلَانِ سَاعِدَا عُبَيْدَةَ ، وَقُتِلَ عُتْبَةُ .

ولما استأسر أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف ، وسار به هو وابنه سأله أمية : مَنْ مِنْكُمْ الْمُعَلِّمُ بَرِيضَةَ نَعَامَةَ فِي صَدْرِهِ ؟ قَالَ : ذَاكَ حَمْرَةُ ابْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ . قَالَ : ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الْأَفَاعِيلُ ^(١) ! .

وَفِي غَزْوَةِ أَحَدِ كَانَ حَمْرَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَهْدِي النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يَبْقَى عَلَى شَيْءٍ ، فَضُوبٌ إِلَيْهِ وَحْشَى غُلَامِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ حَرَبْتَهُ عَنْ بُعْدِ فَخْرٍ صَرِيحًا ، وَكَانَ سَيِّدُ وَحْشَى قَدْ مَنَاهُ إِنْ هُوَ قَتَلَ حَمْرَةَ أَنْ يَعْتَقَهُ . وَلَقَدْ حَزَنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَزَنَ الْمُسْلِمُونَ لِمَقْتَلِ حَمْرَةَ حَزْنًا عَظِيمًا .

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ غَيْظِ قُرَيْشٍ وَنِسَائِهَا مِنْ حَمْرَةَ وَشَجَاعَتِهِ وَبَلَاءِهِ فِي قِتَالِهِمْ أَنْ هِنْدًا بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجَ أَبِي سَفْيَانَ مَثَلَتْ بِهِ وَشَقَّتْ عَنْ بَطْنِهِ ، وَلَا كَتَ كَبْدَهُ ، وَكَافَاتِ وَحْشِيًّا بَقْلَانْدَهَا وَقَرَطَهَا لِأَنَّهُ قَتَلَ حَمْرَةَ ، وَهَذَا كُلُّهُ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى صَدْقِ بَلَاءِهِ وَعَظِيمِ شَجَاعَتِهِ . وَوَقَفَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ

(١) راجع سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها . وراجع الطبري ج ٢

ص ٢٦٧ وما بعدها في غزوة بدر .

مقتول وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفتُ موقفاً قطُّ أُغِيْظَ إلى من هذا » .

ومن هؤلاء الفتيان الذين ذاعت شجاعتهم . ولقى المشركون في كل موطن التقوا فيه بالمسلمين منهم كل بلاء ، وكانوا عليهم خطوباً جساماً ، على بن أبي طالب كرم الله وجهه . كان على صاحب لواء المسلمين يوم أحد بعد مقتل مُصعب بن عمير ، وقاتل المسلمون خلفه حتى أنزل الله نصره وصدقهم وعده . وانتدبه النبي عليه السلام بعد المعركة ، قائلاً له : « اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ! وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنَّهم » فخرج على في آثارهم ^(١) .

وفي غزوة الخندق خرج عمرو بن عبد ودٍّ من صفوف المشركين ، وقال من يُبارز ؟ فبرز له على بن أبي طالب ، وقال له : يا عمرو ! إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال : أجل ! قال على : فإنني أدعوك للنزال ، قال : ولم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك ، فقال على : ولكني والله أحبُّ أن أقتلك . فحصى عمرو عند ذلك ، ونزل عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا وتجادلا ، فقتله على .

(١) راجع في غزوة أحد ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٩ وما بعدها .

وكان على صاحب الراية في غزوة بني قريظة ، ولما حكم سعد بن معاذ على بني قريظة بحكم الله ، وأبوا صاح عليّ ! يا كتيبة الإيمان ! فتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنّ حصنهم ، فقالوا : يا محمد : نزل على حكم سعد بن معاذ^(١) .

وفي غزوة حنين حينما تخلى المسلمون عن رسول الله إلا نفر قليل من صحابته الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله ، ورأى الناس رجلا من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن ورائه فاتبعوه ، أسرع له على ابن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، وما زالا به حتى قتلاه^(٢) .

ولما توفي رسول الله عليه وسلم ، وارتد كثير من العرب ، ووفد وفدهم على أبي بكر يراودونه على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، وأبى أبو بكر ذلك وقال قوله المشهور : « والله لو منعوني عقالا لماربتهم عليه » ، خشى أبو بكر رضي الله عنه من هؤلاء المرتدين الذين يحاصرون المدينة ، وتوجس منهم شرّاً ، فأعدّ العدة لغدرهم وجعل على أُنقاب^(٣) المدينة نفراً من شجعان المسلمين ، منهم على ابن أبي طالب والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن مسعود ، حتى يمنعوا المرتدين من دخول المدينة ، وذلك لثقته بشجاعتهم وبطولتهم . وهكذا كان على رضي الله عنه في كل موطن أول من يتقدم الصفوف

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٦٥ وما بعدها . السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢١ ، الطبري

ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) الأُنقاب : ج نقب وهو الطريق .

وَيَنْتَدِبُ لِمَكَّارِهِ ، وما هُزِمَ مرة في حياته . ولا عجب فقد رَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله فيه : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي » ^(١) ولُقِّبَ على سيف الله الغالب .

ومن هؤلاء الفتيان الذي اشتهروا بالقوة والفتوة ورجاحة الرأي ، والبسالة الفاتكة ، ولم يخذلوا في أى معركة ، وكان اسمهم يفتح لهم البلدان ، ويُدِيلُ من عدوهم قبل أن يقدموا عليه ، خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول .

وما ذا عسَى أن أقول في خالد بن الوليد ؟ وقد تميز في الجاهلية بالفتوة وإليه يرجع فوز المشركين في غزوة أحد ، بعد أن كانت الدائرة عليهم . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه خالد وعمر بن العاص وعثمان بن أبي طلحة العبدرى مسلمين بعد غزوة خيبر ، مخاطباً خالد بن الوليد ، معبراً عن عظيم سروره بمقدمه مسلماً : « الحمد لله الذى هداك ، وقد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلا إلى خير » ، فقال : يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدا عليك ، فقال عليه السلام : « الإسلام يُجِبُّ ما قبله » ^(٢) .

لقد صدقت فِرَاسة النبي عليه السلام في خالد ، وصدق ظنون الناس فيه فكان سيفاً مُشْرِعاً من سيوف الله ، كُتِبَ له النصر أينما سُلِّ في سبيل الله ، ولقد برهن خالد من أول يوم دخل فيه في الإسلام على أنه قوة عظيمة يؤيد الله بها دينه ، ويشد أزر أنصاره . ولقد عهد إليه النبي عليه السلام أن يكون

(١) ذو الفقار : سيف سيدنا على . راجع . Incyclopidia of Islam P. 123 .

(٢) نور اليقين ص ١٩٦

على رأس فريق من جيشه يوم فتح مكة ، فدخلها من (الليط أسفل مكة) ، وقد تصدت له قريش تريد منعه فقتل منهم أربعة وعشرون ، ودخل مكة عنوة . وفي غزوة مؤتة جعل النبي عليه السلام إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قُتل جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فبعد الله بن رواحه . وقد كان عدد المسلمين قليلا ، ولكنهم أبلوا بلاء عظيما ، واستشهد أمراء الجيش واحداً بعد واحد ، ورأى المسلمون أنهم في حاجة إلى أمير ينقذهم مما هم فيه ، ويكفل لهم النصر أو الارتداد الكريم بدون تضحيات كثيرة وخسارة في الأرواح ، فأَمَرُوا عليهم خالد بن الوليد . ورأى خالد نفسه يرأس ثلاثة آلاف جندي وعدوه يزيد عن مائة ألف ، ولكنه قاتل في أول يوم تولى فيه إمرة الجيش قتالا عظيما ، وفي غده خالف ترتيب العسكر : فجعل الساقة مُقدِّمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين ، فدب في قلوبهم الرعب ، ثم أخذ خالد الجيش ، وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان ، لأن الأعداء ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن يجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم الخلاص ، وبذلك انقطع القتال .

وقد نعى النبي عليه السلام للمسلمين زيدا وجعفر وابن رواحه قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وكانت عيناه تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . »

وقد أثنى على خالد في مهارته بعد أن ظن المسلمون أن تهقره هزيمة ،

ولكن النبي أفهمهم أنه من مكاييد الحرب^(١).

ثم كانت الردة ، وانتفاض العرب على الخلافة الإسلامية ، ووجه أبو بكر رضى الله عنه خالداً لقتال المرتدين أتباع مسيلمة الكذاب فى اليمامة ، وهُزم المسلمون بآدى الأمر بعد أن أظهروا من ضروب البطولة ما يعجز القلم عن تصويره ، ولكنهم جَمَعُوا جموعهم ، وثبتوا . بيد أن عددهم كان يزداد قوة ومدداً ، وهم يزدادون ضعفاً ؛ لبعـد الشقَّةِ بينهم وبين المدينة . ولما رأى خالد أن القتل استحرَّ فى جيشه ، وثبت مسيلمة ومن معه ، عرف أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، فبرز حتى إذا كان أمام الصفوف دعا إلى البراز وانتسب وانتمى ، وقال : أنا ابن الوليد ، ونادى بشعار المسلمين يومئذ : يا محمداه ! فجعل لا يبرُزُ له أحدٌ إلا قتله .

وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد ، فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثُر فيهم القتل ، وشَعَرَ مسيلمة بالخزى يركبه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ، لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ؛ وإنه لفى اضطرابه وتردده ، إذ شدَّ خالد برجاله عليه وعلى من حوله يعملون فيهم السلاح ، فهرب مسيلمة إلى حديقته ، وكانت فسيحة الأرجاء متينة الجدران كأنها الحصن ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم الحديقة وأبادوهم وقتلوا مسيلمة الكذاب^(٢) . فكان هذا أول نصر أرجع للعرب

(١) نور البقین ص ٢٠٤ ، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٦٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٤ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٧٥ ، ابن كثير ج ٦ ص ٣٢٣ ، ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٤ وكانت موقعة اليمامة فى السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وبين اليمامة وبين البحرين عشرة أيام .

المرتدين عقولهم التي شردت عنهم وخيرهم الذي عَزَبَ عن نفوسهم بموت سيد المرسلين . وعلموا أن المسلمين مؤيدون من عند الله ، وأن عقيدتهم وحرارة إيمانهم ، ووعد الله لهم تكفل كلها لهم النصر المبين ، وأنهم على الرغم من شجاعتهم وكثرتهم ، وقربهم من ديارهم لم يغنهم كل ذلك شيئاً فرجعوا إلى حمى الإسلام تأبين .

وهذا هو خالد العظيم في موقعة ذات السلاسل يرى هُرمزُ ينادى للنزال فلم يطلب أحد شجعان جيشه لمنازلته ، ولكنه يتقدم إليه ، فلما التقيا اختلفا ضربتين ، ثم احتضنه خالد يريد قتله بيديه ، ولم يبال بسيف عدوه المصلت ، فشد أهل فارس يريدون قتل خالد ، وإنقاذ هُرمز من يديه . ولكن بطالا آخر من أبطال المسلمين الذين دَوَّى اسمهم في كل معركة شهدها ، ألا وهو القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم ، فانهزم الفرس هزيمة منكورة ^(١) . وفي يوم الثني حين خرج قارن قائد الفرس يدعو إلى البراز نهَّد له خالد وقتله ، ثم قتل الأنوشجان خليفته ، وقبأ الذي رأسهم بعده . وهُزمت الفرس هزيمة شنيعة ^(٢) .

لقد كان خالد يتحدى الموت ، ويعمد إلى أشجع القوم ، وقائدهم ، فيريده بسيفه ، وأحياناً يحتضنه ليعصره بين يديه عَصراً ، وإذا مات رئيس القوم ،

(١) كانت موقعة ذات السلاسل في المحرم من سنة ١٢ من الهجرة ، وسميت ذات السلاسل ؛ لأن الفرس قيدوا أنفسهم في السلاسل حتى لا يفروا . راجع الطبرى ج ٤ ص ٢ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ ، وفتوح البلدان ص ٢٤٢ ، وابن خلدون ج ٣ ص ٧٨ (٢) كان ذلك في صفر سنة ١٢ ، والثني نهر بالقرب من المذار وهي بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط . راجع الطبرى ج ٤ ص ٧ ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩

وأشجعهم دبَّ الرعب في قلوب سائرهم وولَّوْا مدبرين ، وهكذا كان خالد يعمل على أن يكنَّى المسلمين مؤنة القتال ، ويحقن دماءهم ، معرضاً دمه هو لأن يراق في سبيل الله . وإذا لم يكن قائد الجيش مثلاً رائعاً في البطولة والقوة والخبرة بفنون القتال عرض جيشه للتهلكة ، وإذا كان قدوة لهم ، يتقدم صفوفهم ، ويصرع أقوى أعدائهم ، ويحتال للنصر كل حيلة ، ويجنبهم الهزيمة ، امتلأت قلوبهم ثقة به ، وزاد ذلك في شجاعتهم وبلائهم ، واستمدوا من شجاعته شجاعة ، وكانوا على أعدائهم بلاءً مبيناً ، لا يصمد أمامهم جيش مها عظم ؛ ولعلَّ هذا هو بعض السرِّ في أن خالد بن الوليد وجيشه كان مُفْلِحاً في كل موقعة شهدها ، وكان اسمه يلتقي الرعب في قلوب الأعداء ، ولا يجدون جدوى من قتاله ، فيستقبلونه قبل أن يدمر مدنهم ، ويحصد أرواحهم ، وينزلون على شرطه صاغرين .

كان خالد عالماً بنفسية أعدائه ، وحالتهم ، فهم أوشاب لا يقاتلون بحمية ، قد فسدَ حكمهم ، وأذاقوهم كثوس الظلم مُترعة ، ونعموا دونهم بخيرات الحياة ولذائذها ، واليوم يسوقونهم للقتال ! يسوقونهم لمحاربة قوم باعوا أنفسهم لله ، وخرجوا في سبيل الله ، تترأى الجنة أمام أعينهم ، ويحثهم على النصر ما وعدهم به ربهم في محكم كتابه ، فأيمًا كان أمرهم فهم الفائزون . إنهم كانوا يقاتلون في سبيل مبدأ وعقيدة ، وقال الله تعالى فيهم : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » ^(١) .

وشتان ما بين هؤلاء القوم الذين يقودهم خالد ، وبين أعدائهم ، إن هؤلاء قلوبهم تفيض بالثقة والطمانينة ، وهؤلاء قلوبهم تدمى من اليأس ، وتئن من الجور . عرف خالد كل هذا ، وعرف أنه حين يقتل رئيس الأعداء وقائدهم وهو من السادة المنعمين ، والحكام المسلطين ، فلن يصمد بقية جيشه ؛ لأنه مسوق إلى القتال عن كراهية ، ولأنه لا يدافع عن مبدأ يحرص على نشره . هبَّ نصارى بكر بن وائل يساعدون الفرس ، ثاراً لقتلى قومهم يوم (الولجة)^(١) ، واجتمعوا لخالد في (أليس)^(٢) يقودهم جميعاً جابان الفارسي ، ولما التقى الجمعان برز خالد أمام جيشه ونادى على سادة بني بكر بن وائل من النصارى ، وشجعانهم : أين أبجر؟ ! أين عبد الأسود؟ ! أين مالك بن قيس؟ فلم يجبه أحدٌ إلا مالكا ، وبرز له ، فقال له خالد : يا بن الخبيثة ! ما جرّأك على من بينهم ، وليس فيك وفاء ، ثم ضرب به فقتله .

وكتب عياض بن غنم إلى خالد يستنجد به حين كان يحاصر دومة الجندل فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبِثُ قَلِيلًا تَأْتِكَ الْخَلَائِبُ يَحْمِلُنَ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاشِبُ^(٣)
كُتَّابٌ تَتَبِعُهَا كُتَّابُ

(١) الولجة : من كسكر ، وكان يوم الولجة في صفر سنة ١٢ هـ .

(٢) أليس : قرية من قرى الأنبار في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة ، وكان يوم أليس في صفر سنة ١٢ هـ . راجع الطبرى ج ٤ ص ٩ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩ ومعجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨ .

(٣) القاشب : السيف الصقيل المجلو ، والخلائب : النوق وهي أقوى على قطع الصحراء من سواها .

ولما بلغ أهل دومة الجندل^(١) مسير خالد إليهم أخذتهم الرعدة ، واختلفوا فيما بينهم وكان عليهم رئيسان : أكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة . أما أكيدر فقال : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أئمن طائراً منه ، ولا يرى قوم وجه خالد قلوأ أو كثروا إلا انهزموا ، فأطيعوني ، وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالككم على حرب خالد ، فشأنكم ! وخرج لطيفة . وقد صدق ظن أكيدر فقد نكل خالد بهؤلاء الذين آثروا القتال نكلاً عظيماً ، واستولى على دومة الجندل .

أما عبور خالد بادية السماوة حين طلب منه أبو بكر أن يخف ببعض جيشه لمساعدة جيوش المسلمين المجتمعين في اليرموك فعمل يتجاوز حد البطولة ، وهو من المخاطر النادرة في التاريخ ، دونه عبور هانيبال الفينيقي جبال الألب واقضاضه على الرومانيين في الزمن القديم ، ويحتاج إلى أن نفرده صورة خاصة في كتابنا هذا .

لقد كان أبو بكر عظيم الثقة في خالد بن الوليد حين انتدبه لهذه المعركة لما سمع بعظم جيوش العدو ، وكال عدتهم ، وأن المسلمين أقاموا أمامهم شهرين لا يقدرّون على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء ، وقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا نسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . ولقد كان خالد القائد الحنك الشجاع ، الذي زادته حروبه مع الفرس ثقة وإيماناً بنصر الله ، عند ظن المسلمين به . ووجد خالد أربعة جيوش للمسلمين على كل جيش أميره ، وأنهم يقاتلون متساندين لا تجمعهم وحدة ، فاقترح أن يولوا واحداً منهم أميراً على

(١) دومة الجندل : على تسع مراحل من دمشق ، وهي قرية من الحيرة .

الجميع ، وتكون الإمارة لكل منهم يوماً ، وأن يجعلوه أميرهم أول يوم ، حتى يضرب ضربته التي أعدها للأعداء ، فلبى المسلمون دعوته واجتمعوا على رأيه ، فأعد جيشه إعداداً عظيماً .

ولقد حدث في هذه المعركة عدة حوادث تدل على عظمة خالد ، وأنه يتألق في جبين التاريخ الإسلامي والعالمي نجماً ساطعاً وحده ، من ذلك : أنه قد أمر القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهما على مُجَنَّبَتَيْ قلب الجيش أن يُنْشِبا القتال ، وإذا ببريد المدينة يصل ، وفيه الخبر بوفاة أبي بكر رضى الله عنه ، وفيه تولية عمر مكانه خليفة للمسلمين ، وفيه عزل خالد ، وتولية أبي عبيدة أميراً للجيش الإسلامية ، وخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار ، وأذاعها في الناس ، أن يهينوا ، ويفت ذلك في عضدهم ، وهم في المعركة الفاصلة ؛ فأدار المعركة بنفس القوة ، وبفس العزيمة الأولى ، كأن لم يُعزل ، وكأن لم يمت ذلك الذى وثق به . وكأنه لا يزال أميراً مؤمراً . إن خالداً لم يكن يعمل ما يعمل حُباً في جاه أو دنيا ، وإنما كان يتقدم إلى الموت وبرائه دامية ، ويفتح عليه عربنه ؛ إعزازاً لدين الله ، وسيادة الإسلام . لم يكن يعمل من أجل أبي بكر ، وإنما كان يعمل من أجل دينه ، وفي سبيل الله . فسيان عنده أن كان أميراً أو مأموراً ، قائداً أو جندياً ، وسيان عنده تولى أبو بكر أو تولى عمر ، لخالد هو خالد : الجندي الباسل الذى دعا له الرسول عليه السلام بالنصر ولقبه بسيف الله . ولا أدل على ذلك من قول خالد حين انتهت المعركة بنصر المسلمين ، وسلم كتاب عمر إلى أبي عبيدة بالأمانة : « الحمد لله الذى قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحبَّ إلىَّ من عمر ، والحمد لله الذى ولىَّ عمر ، وكان أبغضَ

إلى من أبى بكر ، ثم أزمى محبته . وهذا شأن المؤمن الصادق الذي يطيع الله سبحانه وتعالى في قوله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ^(١) .

ومن الحوادث التي تدل على عظمة خالد في هذه الموقعة خروج جرجة أحد قواد الروم ، ونداؤه : ليخرج إلى خالد ، فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فوافقه بين الصّفين ، حتى اختلفت أعناق دابتيها ، وقد أمن أحدهما صاحبه . فقال جرجة : يا خالد ! اصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فيم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيّه عليه السلام فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه ، وبعضنا أباعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، وزعالي بالنّصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين ، قال : صدقتني ؛ ثم ناقشه في الإسلام حتى انتهى الأمر بإسلامه ، وترك صفوف الروم وقاتل مع المسلمين بعد أن علّمه خالد الإسلام ، وصلى ركعتين ، ومات جرجة في هذا اليوم وهو يقاتل أشدّ قتال وأصدق دفاعاً عن دينه الجديد .

لقد كان خالد في نظر الأعداء شيئاً مُرْعِباً ، حتى ظنّوا أن أمره ليس بالطبيعي وأنه فوق البشر ، وأنه لا بد أن يكون مؤيداً من السماء ، وظنوا أنه

لَقَّبَ بِسَيْفِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ سَيْفًا أَعْطَاهُ خَالِدًا فَهَوَّلَا يَهْزِمُ قُطْبًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَخْبَارَ انتصاراته الساحقة ، وتنكيله بالفرس قد سبقته ، وعملت ما عملت في قلوب الروم ، حتى إن قائدهم أراد أن يستوثق من هذا الأمر ، وهل خالد فيه شيء فوق البشر لا يمكن أن يقاوم ؛ ولما صدَّقه خالد ، وبيَّن له أنه بشر ، وأنه لم ينزل عليه سيف من السماء ، وأنه يقاتل بقوة قلبه ، وحرارة إيمانه ، وأن شجاعته فطرية طبيعية ، زادها الإيمان بالإسلام قوة وصرامة ، آمن بأنه أمام رجل مؤيد من السماء ، لا بالمعنى الذي ذهب إليه أولا ، ولكن لأنه يدافع عن عقيدة ومبدأ ، لا مؤيد بسيف من الله نزل على نبيه الكريم . وكان صدق خالد وبساطته في التعبير ، وتواضعه ، سبباً في إسلام هذا القائد الذي أراد الله هدايته ^(١) .

ولم ينته أمر خالد بعزله من إمارة الجيش ، بل سار مع أبي عبيدة يعمل تحت لوائه ، وضمَّ به أبو عبيدة فلم يرسله مع جيش العراق الذي كان قد قدم به لمعاونتهم ، علماً منه بأن خالدًا وحده أقوى من جيش عظيم ، لرجاحة عقله ، وتجربته ، وشجاعته ، وبصره بفنون القتال . ولقد برهن خالد في فتوح الشام على أنه القائد الحقيقي للجيش ، وأنه برأيه وشجاعته قد احتل المكانة التي يريد الله ويريدها المسلمون ، فقد جعله أبو عبيدة على مقدمته كسنان الحرب التي لا تقبل : تدك الحصون ، وتهدم القلاع ، وتفري الجيوش ، وتسكب للمسلمين المعركة غيب المعركة ، وتنتقل بهم من نصر إلى نصر . كان خالد على

(١) راجع الطبري ج ٤ ص ٣٢ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ ، وابن

خلدون ج ٢ ص ٨٣ ؛ وفتوح البلدان ص ١٤٠

مقدمة جيش أبي عبيدة في موقعة (خل) ^(١) ، وفي حصار دمشق ، وقد كان خالد على فرقة من الجيش في حصار دمشق لاينام ولا ينم ، ولا يخفى عليه شيء من أمر العدو ، وعيونه ذاكية ، وهو معنى بما يليه ، فاتخذ حبلاً كهيئة السلم ، ولما بلغه ذات ليلة أن الناس في دمشق غافلون في فرح لعظيمهم ، انتدب هو ومن معه من رؤساء جيش العراق قبل أن يرجعوا أمثال القعقاع ابن عمرو ، وقال للناس : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا ، وانهدوا للباب ، وقد تمكن خالد من فتح الحصن عنوة . وكان أعز مكان في سور دمشق وأمنه ، تحيط به المياه ، ولم يبق أحد ممن معه إلا ارتقى السور أو دنا من الباب ، ثم فتح الباب بعد أن قتل حراسه ، ودخل دمشق عنوة ، ففرغ أهل الأحياء التي تليه ، وهرعوا إلى قواد المسلمين الآخرين يطلبون منهم أن يجيروهم من خالد ، وفتحوا لهم الأبواب فالتقت جيوشهم وجيوش خالد في وسط دمشق ، وبذلك جعل الله على يديه فتح دمشق بعد أن استعصت على المسلمين سبعين يوماً .

ولما اجتمع العدو بمرج الروم ، بعد فتح دمشق ، وسار أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد لملاقاتهم ، واجتمعوا وإياهم في صعيد واحد ، أصبحوا ذات صباح فلم يجدوا للعدو أثراً ، وعلموا أنهم خدعوا المسلمين ، وقصدوا دمشق . فأسرع خالد وراءهم ووجد العدو مشتبكاً مع يزيد بن أبي سفيان قائد حامية دمشق ، فأخذ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فأبيدوا . ورجع خالد إلى أبي عبيدة .

(١) خل : من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ، راجع الطبري ج ٤ ص ٥٩

وبعد فتح حصص أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين ، ولما نزل بالحاضر^(١) زحف إليهم الروم ، وعليهم (ميناس) وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد وقتل ميناس ، وهزم الروم شر هزيمة ، حتى إنه لم ينج منهم أحد . أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : بأنهم عرب ، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر بن الخطاب ذلك قال : « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! ، هو كان أعلم بالرجال مني » وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة : « إنني لم أعزلهما عن ربيعة ، ولكن الناس عظموها فخشيت أن يوكلا إليهما » . وهكذا صار خالد أمير الجيش في الحقيقة وإن لم يؤذن بالإمارة . ولكن تصرفه وحسن قيادته كلها أهله لأن يكون أمير الجيش عملياً ، وإن ظلَّ يعمل تحت راية أبي عبيدة .

وزحف خالد لقنسرين فتحصن أهلها منه ، فقال لهم قوله المشهور : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فلم يجدوا بداً من صلحه ، والنزول على أمره .

هذا هو خالد بن الوليد ، لو كان في أمة أخرى من تلك الأمم التي تعظم رجالها لاعتنت بتأريخه ، وصاغته صياغات مختلفة ؛ ليتشربها الأطفال والولدان والعلماء والفتيان والرجال ، وليكون لهم مثلاً رائعاً في البطولة . وما أحوجننا اليوم إلى مثل رائع يقلده شبابنا ونحن نعاني من الغرب وغطرسته ما نعاني .

رحم الله خالداً وأيام خالد !! .

ومن هؤلاء الفتيان الأجداد الذين خطوا في صفحات التاريخ الإسلامي

(١) راجع الطبري ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ وكان فتح حصص وقنسرين في السنة الخامسة عشرة

سطوراً ينبج منها نور الإيمان والتضحية والإيثار ، لا ييغون إلا وجه الله ، مع أن كلا منهم يصلح أن يكون قائد جيش عظيم : المثنى بن حارثة الشيباني^(١) جاء إلى أبي بكر رضى الله عنه ، وقال . أمرنى على من قبلى من قومي ، أقاتل من يليئى من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتى ، ففعل أبو بكر ذلك . وكان المثنى جندياً عظيماً ، ذا شهامة ومروءة ، ولما تولى خالد إمرة جيوش العراق كان المثنى تحت لوائه ، وكان مع خالد كما كان خالد مع أبي عبيدة ينتدبه للشدائد ، ويسير فى طليعة جيشه ، إلى أن أمر خالد بالذهاب إلى الشام فخلف المثنى على جيش العراق . وقد حارب الفرس حرباً عظيمة فى يوم النمارق^(٢) وطاردهم حتى وصل إلى أبواب المدائن وأرسل إلى أبي بكر يستنجده ، ولكن نجدة أبي بكر أبطأت عليه ، فخرج المثنى بنفسه إلى المدينة وجاءها وأبو بكر يحتضر ، ولكنه أغراه بغزو بلاد فارس فاقتنع أبو بكر ، واستدعى عمر بن الخطاب ، وطلب منه ألا تشغله وفاته عن نذب الناس مع المثنى ، فلما فرغ عمر من أبي بكر نذب الناس مع المثنى ثلاثة أيام متوالية ، فلم يجبه أحد ، وكانوا يخافون فارس كل الخوف أشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم ، وفى اليوم الرابع قام المثنى فى الناس وقال لهم : « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبجبحنا^(٣) ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى

(١) ينتهى نسب المثنى إلى بنى شيبان ؛ وكان إسلامه وقدمه على رسول الله سنة تسع ، وكان شهماً شجاعاً ميعون النقية ، حسن الرأى ، وقد مات سنة ١٤ هـ قبل القادسية

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٦٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٢

(٣) التيجح : التمكن فى المقام والحلول .

السواد^(١) ، وشاطرناهم ، ولنلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » ، وخطب عمر فيهم يرغبهم في القتال وتحقيق وعد الله ، من أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون ؛ فكان أول من استجاب لهذه الدعوة أبو عبيد بن مسعود^(٢) ثم تبعه الناس ، وقد طُلب إلى عمر أن يولى على هذا البعث الجديد رجلاً ممن له سابقة في الإسلام ، فأبى إلا أن يولى أبا عبيد ؛ لأنه كان أول من استجاب لقتال الفرس من أهل المدينة بعد أن نكص الناس أربعة أيام سوياً ، ومن العجيب أن المثنى بن حارثة ، وهو من هو في بلائه وخبرته بقتال الفرس وأول من حرض على غزوهم ، قد رضى أن يكون مرءوساً لأبي عبيد ، وأن يعمل تحت أمرته ، وهذا يدل : على أن المسلمين ، لم يكونوا يفكرون في هذه الأشياء الصغيرة كالرئاسة والقيادة ، وإنما كانوا يقصدون بجهادهم وجه الله تعالى في أى مكان من صفوف المسلمين وُضعوا ، ويدل على إنكار الذات ، وجعل الهدف الأسمى فوق كل اعتبار ، وهذا من تربية الإسلام العظيمة ، الذى محا الفردية من نفوس هؤلاء العرب ، وقد كانت قوية القبضة على نفوسهم في الجاهلية ، وليس من طبعهم الإذعان بيسر وسمولة ، وقد عادوا إليها بعد أن خَفَّت تلك القبضة ، وكانت سبباً في إخفاقهم وتناحرهم فيما بينهم ، ورجعت عصبيتهم القبلية قوية في زمن بنى أمية الذين كان من غاياتهم تقوية هذه العصبية ؛ ليلهو الناسُ بها عن النظر في شأن الخلافة

(١) السواد : قرى العراق وضياعها التى فتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، سُمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار

(٢) أبو عبيد بن مسعود : من ثقيف ، وهو والد المختار بن أبى عبيد المشهور في

خلافه مع عبد الله بن الزبير

والخلفاء ؛ ويدل أيضاً على أن أى رجل من هؤلاء العرب المسلمين أهل لأن يتولى قيادة الجيوش العظيمة ، وهذا أكبر برهان على غنى هذه الأمة برجالها ، وأن فطرهم سليمة ، وعقولهم قوية ، وأن الطبيعة قد هيأتهم لأن يحتلوا مكانة سامية بين أمم العالم لو أحسنوا استغلال مواهبهم ، وطرحوا الأثرة ، والخلاف جانباً . وقد كان الإسلام آنذاك فى عنفوانه فكانوا فى أحسن حالاتهم النفسية والخلقية والعقلية .

وسبق المثنى أبا عبيد ليهيئ له الأمر ، وعمل تحت رئاسته ، قائداً شهماً شجاعاً لا يفكر إلا فى نصره دينه ، وقد برهن أبو عبيد على أنه مثل من أمثلة الشجاعة التى لا تروى إلا فى الأساطير ؛ فقد خيّر الفرس بين أن يعبروا إليه النهر أو يعبر إليهم فأبى أن يكون أجبن الفريقتين وعبر الجسر ، ولما عبث بهم فيلة الفرس ، ترجّل أبو عبيد ، وأمر الناس بالترجل وأمرهم أن ينقروا هذه الفيلة وأن يقطعوا أحزمتها ، وعمد هو إلى الفيل الأبيض الذى يتقدمها فتقطع حزامه ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومهم بالسيف ، ولكن الفيل تقدم لأبى عبيد وضربه برجليه ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه وأزهق روحه ، وقد تقدم بعد أبى عبيد سبعة من ثقيف ، قتلوا الواحد بعد الآخر ، فتقدم المثنى وأخذ اللواء ، ولكن الناس انفضوا عنه . ورأى بعض الشجعان رأياً خاله استبسلاً وتضحية ، فمنع الناس من عبور الجسر وناداهم : أن موتوا كما مات أمراؤكم ، بيد أن بعض من لم يصبر غرق فى الفرات ، وخشى المثنى أن يهلك الناس ، فوقف واللواء بيده يناديهم : إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ، إنا لن نزال حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تفرقوا أنفسكم

وأصلح الجسر حتى عبروا جميعاً ، فتركوه وانصرفوا استحياءً من الهزيمة ^(١) .

وخلصت القيادة للمثنى ، وندب عمر بن الخطاب الناس إليه ، وعاجلهم
الفرس في موقعة البويب ^(٢) ، ولكن المثنى كان القائد الثابت الجأش ، البصير
بالحرب ، فنظم جنده ، وعبأهم أتم تعبئة ، وحمسهم ، ولما حمى وطيس القتال
حمل على مهران قائد الفرس فأزاله حتى دخل ميمنته ، واختلط الجيشان ،
وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين ، وقتل غلام نصراني من تغلب
مهران ، واستوى على فرسه ، وما زالوا يكيلون للفرس ضربات حتى فروا
من أمامهم . ولقد راع المثنى هذا النصر الذي أحرزته فئة قليلة فقيرة على جيش
قوي معد أتم عدة فقال : « قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ،
ووالله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ علىَّ من ألف من العرب ، ولمائة
اليوم من العرب أشدَّ علىَّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب قوتهم ، وأوهن
كيدهم ، فلا يروعنكم زهلاء ترونه ، ولا سواداً ، ولا قسيئاً فجاً ، ولا نبالاً
طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أوفقدوها كانوا كالبهاائم أينما وجهتموها اتجهت » .
ولقد كان لهذه الموقعة أثرها العظيم في نفوس المسلمين لأنها أزالَت عار
الهزيمة في موقعة الجسر ، وردت إليهم اعتبارهم ، والثقة بأنفسهم وبالله الذي
وعدهم النصر ، وفي هذه الموقعة يقول الأعور الشنئ مشيداً ببطولة المثنى بن
حارثة ، وبلائه في قتال الفرس :

(١) كان هذا في موقعة قس الناطف أو موقعة الجسر في سنة ١٣ هـ . راجع الطبري

ج ٤ ص ٦٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٧١ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٥ ، فتوح البلدان ص ٢٥٣ ،

ومعجم البلدان ج ٢ ص ٣١٠ . البويب : نهر بالعراق يأخذ من الفرات .

هاجت لأعور دار الحى أحزاناً واستبدات بعد عبد القيس همداناً
وقد أرانا بها والشمل مجتمع إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أزمان سار المثنى بالخيول لهم فقتل القوم من فرس وجيلانا
سما لأجناد مهران وشيعته حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب في الحرب أشجع من ليث بحفانا^(١)
ومات المثنى عليه رحمة الله قبل موقعة القادسية متأثراً بجراحه ، بعد أن
مهّد الطريق لغزو فارس ، وأذاقهم النكال المرّ ، وأطعم فيهم المسلمين وجراًهم
عليهم ، وأصبحوا لا يستطيعون التكوّص عن إتمام الفتح بعد أن استشهد
منهم من استشهد . وهكذا يرجع إلى هذا القائد العظيم تلك المأثرة ، وهداية
أمم كثيرة للإسلام كانت تابعة للفرس ، لأنه أول من تجرأ على غزو بلادهم .
ومن هؤلاء الأبطال العظام الذين ندر وجودهم في أزمنة التاريخ في العالم أجمع
القعقاع بن عمرو^(٢) ، الذى منحه الله قلباً جريئاً لا يهاب المنايا وهى فاعرة
أفواها ، كأما بينه وبينها عهد ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه ذا بصيرة ثاقبة
ومعرفة بالرجال ومعادهم ، ولا سيما رجال الحروب ، فقد حدث بعد أن فرغ
خالد من اليمامة ، وقد كتب إليه بالتوجه بمن معه إلى العراق أن خالداً طلب
من أبى بكر المدد بعد وصوله إلى العراق ، فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي ،

(١) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة ، والنخيلة : مكان بالعراق قرب البويب

(٢) كان القعقاع من صحابة رسول الله ، وشهد فتوح الشام والعراق ، قال له رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والحيل .

فقيل له : أتمد رجلاً قد انفضَّ عنه جنده برجل ؟ ! فقال أبو بكر قوله الذى يدل على عظيم ثقته بالقعقاع : « لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا » . فالقعقاع وحده فى نظر خليفة المسلمين أقوى من جيش ، وهو مددٌ وحده لمن يطلب المدد ؛ لأنه شجاع ، ولأنه ذو رأى وبصيرة ، ولأنه ذو عصبية شديدة ، ولأنه مؤمن مسلم ولا عجب :

فالناسُ ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عني
إن خليفة المسلمين يطلب منه خالد المدد لغزو العراق ، وليضع أول لبنة فى صرح الإمبراطورية الإسلامية ، وليحارب الفرس الدولة العتيدة ذات السلطان الضخم والشوكة القوية ، فيمدُّه الرجلُ المسئول عن شئون المسلمين ، والذى قاتل أهل الردة بالجيوش العتيدة ، والذى يحرص كل الحرص على سلامة العرب ، وسلامة الدين برجل واحد هو القعقاع بن عمرو ، فأى رجل كان القعقاع هذا ؟ ! لا بد أنه كان شيئاً مهولاً دونه كل وصف وكل تقدير .

نراه أول ما نراه يُنبج خالد بن الوليد حين احتضن هُرمز فى موقعة ذات السلاسل . وهجم الفرس على خالد يريدون استخلاصه ، فكان القعقاع الشهم اليقظ أسرع منهم ، ولم يمهلهم حتى ينالوا من قائده ، بل حل عليهم حتى تمت هزيمتهم . ولما غزا خالد الحيرة ، وأراد مطاردة الفرس خلف عليها البطل القعقاع بن عمرو . ولما دُعى إلى محاربة الروم فى اليرموك ضنَّ بالقعقاع أن يتركه مع المثنى بن حارثة ، وأخذ معه ، ولقد تقدم كيف تسوّر كلاهما حصن دمشق ، وفتحها عَنوة . ثم أمر عمر بن الخطاب بعد فتح دمشق أن يرُجع أبو عبيدة جيشَ العراق إلى قتال الفرس ، فضنَّ بخالد بن الوليد واحتفظ

به لنفسه ، وسُيِّر جيش العراق وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو تحت إمرة هاشم بن عُتبة بن أبي وقَّاص ، وتَعَجَّلَ القعقاع حتى قدم على المسلمين بالقادسية يوم أغواث^(١) وهو ثاني أيام هذه المعركة المشهورة .

أراد القعقاع البطل أن يوقع الرُّعب في قلوب الفرس ، فعهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرَّحوا في آثارهم عشرة ، وكان قدوم القعقاع في العشرة الأولى ، فلما أتى الناس حيَّاهم وبشرهم بالجنود ثم قال لهم : أيها الناس ! إني قد جئتكم في قوم ، والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أَحْسَوْكُمْ حُسُودَكُمْ حُطُوبَهَا ، وحاولوا أن يَطِيرُوا بِهَا دُونَكُمْ ، فاصنعوا كما أصنع ، ثم تقدم من تَوَّه الصفوف ونادى : من يبارز ؟ فبرز إليه رجل من الفرس ، فقال له القعقاع من أنت ؟ قال : أنا بهمن جاذويه ، فنادى يا لِّثارات أبي عُبَيْد وأصحاب الجسر ! واجتددا ، فقتله القعقاع . وجعلت خيله ترد قطعاً ، وما زالت ترد إلى الليل ، وتنشَّط الناس ، وكان لم يصابوا أمس بمصيبة في أول أيام القادسية . ثم نادى القعقاع : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، فانضم إليه الحارث بن ظبَّيَّان ، فقتل كلَّ منهما صاحبه . وجعل القعقاع يحرض المسلمين على القتال ويقول لهم : باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناسُ بها ، وبدأ الحرب والطعان ، ونَشِطَ المسلمون لجرأة القعقاع ، وقدوم رجاله ، فنكلوا بالفرس في يوم أغواث نكلاً عظيماً . ولما جَنَّ الليل سَرَّبَ القعقاع رجاله إلى المسكان الذي فرَّقهم فيه من أمسه ، وقال لهم : إذا طلعت عليكم الشمس فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فلتتبعها مائة ، وإن

أدركم هاشم بن عتبة برجاله فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء في المدد ، فإن الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب . وإيماناً بالفوز فيها ، ففعلوا ذلك ، من غير أن يشعر بهم أحد . وقد أدركم هاشم ورجاله فزاد بهم المسلمون قوة على قوتهم ، وكبروا مقدمهم حتى فزع الفرس .

ثم كان يوم عَمَّاس^(١) . وأعدَّ الفرسُ الفيلةَ كأول يومٍ في القادسية . ولما اشتد الأمر على المسلمين من الفيلة ، أشار من دخل الإسلام من أهل فارس على سعد بن أبي وقاص بأن مقاتل الفيلة في مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى القعقاع بن عمرو وعاصم أخيه أن اكفياني الفيل الأبيض ، وأرسل إلى حمال والربيل الأسديين أن اكفياني الفيل الأجرب ، وكانت الفيلة جميعها تتبعهما . فأخذ القعقاع وعاصم ربحين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض ، فقبَّع ، وخفض رأسه ، وطرح سائسه ، ودلَّى مشفره ، فضر به القعقاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع جنبه . وفعل حمال والربيل مثل فعلهما ففرت الفيلة جميعاً ، وألقت بمن عليها من الفرسان ، واختلَّت صفوفُ الفرس ، ودارت رحي المعركة إلى الليل ، وظنَّ سعد أن الأمر سيهدأ إلى الغد ، وخشى أن يُؤتَى المسلمون من خلفهم فأرسل من يحميمهم ، ووجد هؤلاء أن الفرصة سانحة فكبروا وهجموا على الفرس ، وظنَّ الفرس أن العرب قد غدروا بهم . فاستأنفوا القتال ، فلم ينتظر القعقاع أمر سعد ، وتلقى هجومهم بهجوم شديد ، ولما رأى سعد القعقاع مشتبكاً مع الفرس يُزاحفهم قال : اللهم اغفرها له ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستأذني ، واشتد أوار المعركة طول الليل ، ولم تسمع إلا قعقة السلاح ، واختلط الأمر

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٤ وتسمى الليلة ليلة الحرير

على سعد ، فلم يعرف شيئاً عن المعركة حتى الصباح ، فرأى أن الغلبة للمسلمين .
لم يغمض للمسلمين جفنٌ في تلك الليلة ، وأنهم القتال ، وسعير المعركة ،
واشتد بهم التعب ، بيد أن القعقاع الشجاع الصارم سار فيهم يحثهم على الصبر
ويقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة ، واحملوا فإن
النصر مع الصبر . وتعاهد هو وجماعة على الموت ، وحملوا على من يليهم ،
واقتلوا أشد قتال إلى أن قام قائم الظهيرة ، فتخاذل الفرس ، وزحف القعقاع
إلى سرير رستم قائد الفرس هو وحفنة من أصحابه ، فاقتحم النهر هرباً ، فشهده
هلال بن علفه من رجله ، وقطع رأسه ، ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ،
فولى الفرس الأدبار . وتتابعت هزيمتهم ، وتردوا في النهر هرباً فغرق منهم
خلق كثير .

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يبشره بالفتح كتاباً يقول فيه : « أما
بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل
دينهم ، بعد قتال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرءون مثل زهائها ،
فلم ينفعهم الله بذلك ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج ؛ وأصيب من
المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين ، لانعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا
يدوون بالقرآن إذا جن الليل دوى الحبل ، وهم آساد الناس ، لا يشبههم
إلا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة ؛ إذ لم
تكتب لهم . »

وهذا هو القعقاع بن عمرو سيّره سعد بن أبي وقاص على مقدمة جيش

هاشم بن عتبة يوم جَلَوْلَاء^(١) ، وذلك بأمر عمر بن الخطاب ، وتعيينه القعقاع بالاسم على مقدمة جيش هاشم ، ولما دارت المعركة ، وكانت أشبه بليلة الهرير ، انتهى القعقاع في الوجه الذي هجم منه إلى باب خيل العدو وهم متحصنون وراء جدر سمكة ، فأخذ به ، وأمر منادياً فنادى : يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم ، وأخذه ، فأقبلوا إليه ، ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله . وقد أمر بذلك ليقوى المسلمين ، فحمل المسلمون ، وهم لا يشكون أن هاشم بن عتبة فيه ، فلم يَقمْ لجلتهم شيء ، حتى انتهوا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخذ به . وانهزم الفرسُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً .

وظل القعقاع ذلك القائد الباسل يشهد كل معركة من معارك المسلمين مع الفرس ، ويتقدم الصفوف ، ويقود طليعة الجيش ، وهانحن أولاء نراه مهرة أخرى في موقعة نهاوند^(٢) ، وقد تحصن الفرس في خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر المسلمون منهم على شيء ، وطال بهم الأمر ، وعظم الضيق ، واجتمع أهل الرأي من المسلمين كلٌّ يشير بحل لهذه المشكلة ، وكيف يمكن أن يُخرجوهم من خنادقهم وحصونهم ، وتكلم النعمان بن مقرن أمير الجيش ، وتكلم عمرو بن ثبّي من قواد الجيش ، وتكلم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ولم يأخذ الناس بأرائهم ، ثم تكلم طليحة الأسدي فقال : « إني أرى أن تبعث خيلاً مؤدية^(٣) ، فيحذقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال ،

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٩ ، معجم البلدان ج ٣ ص ١٢٩ ، كانت في صفر سنة ١٦ هـ ، وجَلَوْلَاء قرية في طريق خراسان على نحو أربعين ميلاً في شمال المدائن .
(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٣١ ، ومعجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٩ ، ونهاوند من بلاد الفرس قرب همدان ، وكانت هذه الموقعة في سنة ٢١ هـ .
(٣) مؤدية : كثيرة قوية معدة تمام الإعداد لتختلم وتخدعهم .

وَيُحْمَشُوهُمْ^(١) ، فإذا استحمشوا ، واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا^(٢) إلينا استطراداً ، فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإننا إذا فعلنا ذلك ، ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ، ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجأؤنا ، وجاددناهم حتى يقضى الله فينا ما أحبَّ . فوافقته الناس على رأيه .

ولكن من الجندي الباسل الذي يُنْتَدَبُ لمثل هذه المخاطرة ، ويهجم على الأعداء في خنادقهم ، ويدنو من حصونهم حتى يهيجهم ، وهم منه متمكنون يرمونه بالنشاب ، والنبال ، ثم يستطرد لهم ، وهم من خلفه ينالون منه ، وهو يتظاهر بالهزيمة ليطمعهم فيه ، ويسحبهم من خنادقهم ، ثم يشتبك معهم في معركة ، حتى ينجده المسمون ؟ ؟ ، ومن يفعل كل هذا إلا البطل المغوار القعقاع بن عمرو ، إنه لكل كريهة ، وكل معضلة ، لا يأبه بالمخاطر ، وكأنها لا تأبه به ، فقد حالفها وحالفته ، فهو من أذاها بمنجاة .

كان القعقاع قائد الفرسان فأمره النعمان بن مقرن أن ينفذ هذه الخطة ، فسار بخيله حتى هاج الأعداء وأخرجهم من مكانهم ، ثم نكص ، ونكص ، ثم نكص ، واغتمها الأعاجم وظنوا به وبجيشه الظنون ، ولم يتخلف منهم أحد عن الطراد ، وانقطعوا عن حصنهم بعض الانقطاع ، وكان النعمان بن مقرن والمسلمون على تعبئة ، ولكن النعمان حبسهم فلم ينجد القعقاع ، وأمرهم أن يئزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم ، ففعلوا ؛ وأقبل المشركون عليهم يرمونهم ، حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا الناس بعضهم إلى بعض ،

(١) يحمشوهم : يشروهم ويغضبوهم ويدفعوهم للقتال .

(٢) أرزوا إلينا : رجعوا إلينا لاجئين .

ولكنَّ النعمان صَبَرَهُمْ مَرَاراً ، وهو ينتظر بالقتال مجيء ساعات ، كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى فيها العدو ، وذلك عند الزَّوال ، ومهب الرِّيح ، وكان القعقاع وصحبه يعوقون الأعداء ، ويشغلونهم حتى يقوم جيش المسلمين ، وقد تحملوا في سبيل ذلك الشيء الكثير . فلما حان الوقت أمر النعمان سائر الجيش بالهجوم ، فكانت نكبة عظيمة للفرس لم يروا مثلها من قبل ، وكان النعمان حين أمر بالهجوم يدعو الله ويقول : اللهم أعزَّ دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ! . كانت راية النعمان تنقض على الأعداء انقضا الصواعق ، والنعمان مُعَلَّمٌ ببياض القباء والقلنسوة ، وقد أريق من دم الأعداء ما جعل الأرض تنزلق بالخيول ، وقد رَلَقَ جواد النعمان فُصْرِعَ الجوادُ وُصِرِعَ النعمان في دماء الأعداء . وأخذ الراية أخوه نُعَيْم بن مقرن ، وكنتم موت أمير الجيش ، وصاروا يقاتلون حتى أتمَّ الله لهم النصر ، وهرب قواد الفرس وعلى رأسهم الفيرزان نحو هَمْدَانَ ، ورآه نُعَيْم بن مقرن ، فطلب إلى البطل العظيم القعقاع بن عمرو أن يَجِدَّ خلفه ، فأدركه حين انتهى إلى ثنية هَمْدَانَ ، والثنية مشحونة من بغال وحمر موقرة عسلاً عاقته عن الهرب ، وحبسته ، فقتل على الثنية ، وقال القعقاع والمسلمون : إنَّ الله جنوداً منها العسل . ومضى من معه إلى هَمْدَانَ فتبعهم القعقاع حتى دخل المدينة ، وحوى ما فيها .

لقد صدق أبو بكر رضي الله عنه حين قال عن القعقاع بن عمرو : « لا يُهْزَم جيش فيهم مثل هذا » ، وكان من المنتظر بعد أن أبلى القعقاع في المواطن جميعها بلاءه المحمود أن يكون من القواد الذين يكل إليهم الخليفة

عمر إمارة الجيوش ، ولكنَّ عمر رضى الله عنه كان ذا نظر ثاقب ؛ إذ خشى أن يُفْتَنَ المسلمون بالقعقاع وأضرابه من الشجعان ، وأن يتكلوا عليهم ، ويضعف إيمانهم بأن نصرهم من عند الله ، وهذا هو السرُّ في أنه لم يول المثنى ابن حارثة إمارة الجيش إلا عند الضرورة ، وفي أنه عزل خالد بن الوليد^(١) ، ولكنَّ هذا كله لم يؤثر شيئاً في نفوس هؤلاء الرجال العظام ؛ لأنهم — كما ذكرنا آنفاً — لم يكونوا يعملون لدنيا يحبونها ، أوجاه يصيبونه ، وإنما كانوا يعملون لله وفي سبيل الله . رحم الله القعقاع رحمة واسعة ، على شجاعته ، وخالص إيمانه ، وبلائه الصادق الحق في المسكاره ، وعلى ما قدم للمسلمين في أخرج المواقف من أيادي بيضاء ! !

إن قصة الدعوة الإسلامية ، وانتشارها من أول يوم لبيّ فيه محمدٌ نداء ربّه حين قال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » إلى أن تقوضت أركان الدولة العباسية ، وغلب المسلمون على أمرهم في مشارق الأرض ومغاربها ، لقصة غاصة بمئات الألوف من الأبطال ، منهم من سجّل التاريخ اسمه وأشاد به ، ومنهم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا مُثلاً عالية في التضحية ، ونكران الذات ، يعملون في سبيل دينهم ، من غير أن يشعر الناس ، ومنهم من مرَّ التاريخ على أسمائهم دون أن يقف طويلاً ، وإن كانوا لا يقولون بأساً وتضحية عن سواهم .

ولا يسعني أن أحصى أسماء الذين تألقوا في صفحة الإسلام الغراء ، فقد كان هناك عشرات ، ومئات ، من المسلمين ، الذين كانوا قبل الإسلام

مغمورين ، لا يعرف الناس عنهم شيئاً ؛ فما أن أتاحت لهم الفرصة لإظهار مواهبهم ، حتى برزوا ، وكأنهم تخرجوا في أعرق الكليات الحربية اليوم ، كلا ! بل إنهم كانوا أسرى نفساً ، وأنبل غايةً ، وأقوم خلقاً وأرأف بالعدو قبل الصديق ، من هؤلاء الذين يبتجحون بمدنييتهم ، وهم كذابون ، منافقون غادرون ، يعطونك ساعة المحنة أقوى العهود ، وأخلص المواثيق ، فإذا ساعدتهم وكفّل لهم النصر ، تنكروا لك ، كأن لم يكونوا بالأمس على وشك التردى في هوة الاندحار ، والخزى ، والإبادة ؛ يتدللون لك ، ويخطبون ودك ، ويتمنون عطفك ، وتراهم بعد النصر متجهمين ، متغطرسين يقلبون الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، أخزاهم الله !

هناك هؤلاء الذين عذبوا في سبيل عقيدتهم ، وأوذوا أشد الإيذاء ، حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشية من الفتنة ، وهناك أبطال بدر ، من استشهد منهم ، ومن سلمه الله ، وأبقاه ليستشهد في معركة أخرى . ها هو ذا رسول الله قد خرج إلى بدر في عدد قليل ، وعدة يسيرة حتى لقد كان المسلمون يتعاقبون على الإبل لقلتها ، يسير على وفي يده راية المهاجرين ، ويسير سعد بن معاذ وفي يده راية الأنصار . ويعلم النبي بقدوم قريش ، فاستشار أصحابه ، وتكلم كثيرون ، ومن تكلم المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! « امض بنا لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون »^(١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك

الغِيَادِ^(١) جَالِدَنَا^(٢) مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ ، وَتَكَلَّمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ :
امْضُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أُرِدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ
بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لَخَضَنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكَّرَهُ أَنْ تَلْقَى
بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا ، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ ، صُدِّقَ فِي الْلِقَاءِ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَرِيكَ مَا تَقْرُبُ بِهِ
عَيْنُكَ ، فَسَرَّ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ .

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ الْأَنْصَارِ ، الَّذِينَ آوَوْا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَقَدْ كَانَ
سَعْدٌ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ الْخَافِقَةِ ، وَأَبْطَالِهِ الْأَفْذَاذِ ، مَرَّةً يَوْمَ الْخَنْدَقِ
بِحَصْنِ بَنِي حَارِثَةَ ، وَهُوَ مِنْ أَحْرَزِ حَصُونِ الْمَدِينَةِ ، وَعَلَيْهِ دَرْعٌ قَصِيرَةٌ ،
قَدْ خَرَجَتْ ذِرَاعُهُ كُلُّهَا مِنْهَا وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَسْرِعُ بِهَا وَيَقُولُ :

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ^(٣)
فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ ، وَكَانَتْ فِي الْحَصْنِ هِيَ وَعَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ : الْحَقُّ يَا بَنِي
فَقَدْ وَاللَّهِ أَخْرَبْتَ ، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ : يَا أُمَّ سَعْدٍ ، وَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنْ دِرْعَ سَعْدٍ
كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ ، ثُمَّ رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الْأَكْحَلَ^(٤) ،
وَقَدْ مَاتَ مُتَأَثِّرًا مِنْ جُرْحِهِ بَعْدَ أَنْ حَكَّمَ عَلَى بَنِي قَرِيظَةَ حُكْمَهُ الْمَشْهُورَ^(٥) ،
وَقَدْ قَالَ فِيهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَرِثِيهِ :

وَمَا اهْتَزَّ عَرْشُ اللَّهِ مِنْ مَوْتِ هَالِكٍ سَمِعْنَا بِهِ إِلَّا لِسَعْدٍ أَبِي عَمْرِ

(١) برك الغماد : موضع بعيد ، أو هو كناية عن أقصى مكان معبور في الأرض .

(٢) جالدنا : جاهدنا .

(٣) حمل : اسم رجل وهو الذي قال هذا البيت الذي تمثّل به سعد .

(٤) الأكحل : عرق في الذراع .

(٥) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ ، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٢ .

وقالت أمه ترثيه :

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدًا صِرَامًا وَحَدًّا

وَسُوْدُدًا وَنَجْدًا وَفَارِسًا مَعْدًا

سَدًّا بِهِ مَسَدًا (١)

وهناك أبطال أحد : مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أول حامل للواء المسلمين يقاتل حتى يقتل ، وهذه أمُّ عمارة بنت كعب خرجت أول النهار ، ومعها سقاء فيه ماء ، فاتته إلى رسول وهو في أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ، وأخذت تقاتل ، وتذُبُّ عن النبي بالسيف ، وترمى عن القوس حتى جُرحت في سبيل الله .

وهل أُنَاكَ حديث خُبَيْبِ بْنِ عَدَى ؟ ، وقد غدر به وبأصحابه قوم جاءوا إلى النبي مُدَّ عَيْنَ الْإِسْلَامِ ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين ، فكان خُبَيْبٌ هذا ممن أرسله رسول الله ، ولكنَّ القوم غدروا بهم جميعاً ، وباعوا خُبَيْباً لرجل من أهل مكة كي يقتله بأبيه الذي قُتل في بدر ، ثم خرجوا بخُبَيْبٍ ليقتلوه فقال : ذروني أصلي ركعتين ، فصلى ، ثم قال لولا أن يقولوا جزع من الموت لزدت ، وما أبالي على أَى شَيْءٍ كَانَ اللَّهُ مُصْرَعِي . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِكَ ، فَبَلَّغْنَا الْغَدَاةَ مَا يُصْنَعُ بِنَا ، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، واقتلهم بَدَدًا ، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا... ثم قتلوه .

وكان من هؤلاء زَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ ، فلما قُدِّمَ ليقتل ، سأله أبو سفيان :

(١) أيام العرب في الإسلام للأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوى ص ٧٠

أَشَدُّكَ اللَّهُ يَا زَيْدُ ! ، أَتَحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الْآنَ مَكَانَكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ ! قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا تُصِيبَهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي .

إِنَّ الْقَدِيسِينَ الَّذِينَ يَعْظُمُهُمْ أَهْلُ الْمَسِيحِيَّةِ هُمُ الَّذِينَ أُصِيبُوا مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ ، وَعَذِبُوا فِي سَبِيلِهِ ، وَقَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ ، وَلَكِنَّ الْمَسَامِينَ كَانُوا جَمِيعًا قَدِيسِينَ وَمِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ زُحَيْرٍ بَأْعَزَ شَيْءٍ لَدَيْهِ فِي سَبِيلِ دِينِهِ ، وَإِذَا طُلِبَتْ مِنْهُ نَفْسُهُ قَدِمَهَا رَاضِيًا مُطْمَئِنًّا . هَذَا رَسُولُ اللَّهِ يَبْعَثُ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ لِأَهْلِ نَجْدٍ كَيْ يَعْلَمُوهُمْ الْإِسْلَامَ وَيَهْدُوهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ ، فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِئْرَ مَعُونَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيُّكُمْ يَبْلُغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَهْلَ هَذَا الْمَاءِ ، فَقَالَ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ . أَنَا أَبْلُغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى حِوَاءَ ^(١) مِنْهُمْ ، فَاحْتَبَى أَمَامَ الْبُيُوتِ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ بئرِ مَعُونَةَ ، إِنِّي رَسُولُ مُحَمَّدٍ إِلَيْكُمْ ، إِنِّي أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ مِنْ كِسْرِ ^(٢) الْبَيْتِ بِرَمْحٍ فَضْرَبَ بِهِ جَنْبَهُ ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ ، فَقَالَ حَرَامُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! فَزَتْ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ! ؛ لِلَّهِ هَذِهِ النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ الَّتِي تَسْعَى لِلشَّهَادَةِ ؛ وَأَدَاءُ الرِّسَالَةِ ، وَتَسْرِعُ لِلْمَوْتِ كَمَا يَسِرُّ غَيْرُهَا لِلْحَيَاةِ .

وَكَيْفَ نَنَسَى أَبْطَالُ مَوْئِدَةٍ ، زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَقَدْ كَانُوا يَقَاتِلُونَ قَوْمًا يَفُوقُونَهُمْ عَدَدًا ، وَقَدْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ

(١) الحِوَاءُ : مَجْمُوعَةٌ مِنْ بُيُوتِ الْحَيِ

(٢) كِسْرُ الْبَيْتِ : جَانِبُهُ . رَاجِعْ فِي يَوْمِ بئرِ مَعُونَةَ سِيرَةَ ابْنِ هِشَامٍ ج ٣ ص ١٨٤ .

وَالطُّبْرَى ج ٣ ص ٣٣ وَمَا بَعْدَهَا

جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكل منهم كان يحمل راية المسلمين . استمع إلى عبد الله بن رواحة يقول وقد أخذ الراية بعد مقتل جعفر :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّه لتنزلنَّ أو لتُكرِهِنَّه
إن أجلبَ الناسُ وشدوا الرنةَ مالى أراك تكرهين الجنةَ؟^(١)
يا نفسِ إلا تُقتلى تموتى هذا حمامُ الموتِ قد صُليتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلِ فعلهما^(٢) هُديتِ
ثم ظلَّ يقاتل حتى قُتل .

وماذا عساي أن أذكر من أسماء هؤلاء الأبطال ، وعددهم يحل عن الحصر : هذا ثابت بن قيس يوم اليمامة — حين انهزم المسلمون ، نادى فيهم :
بئسما عوذتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء —
يعنى أهل اليمامة — وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء — يعنى المسلمين ، وحفر
لقدميه فى الأرض ، وهو حامل اللواء ، بعد ما تحنط وتكفن ، ولم يزل فى
مكانه حتى قُتل .

وهذا زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب تراه يوم اليمامة وهو يخطب
الناس : أيها الناس عُضُوا على أضراسكم ، واضربوا عدوكم ، وامضوا قدماً ،
والله لا أتكلمُ حتى يهزمهم الله ، أو ألقى الله ، فأكله بحجتي ، ثم قاتل حتى قتل .
وهذا هو أبو محجن الثقفى يحبسه سعد بن أبى وقاص فى بيته يوم القادسية
لتغنيهِ بالخرم وقد حرَّمها الإسلام ، فيقنع امرأة سعد والمركة دائرة بأن تفك قيده
وتعطيه فرس سعد ليقاتل عليها ، ثم يعود بعد المركة ويضع القيد فى رجله

(١) الرنة : العويل .

(٢) الضمير عائد إلى صاحبيه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب

كما كان ؛ وتوافقه بعد تردد طويل ، ويخرج إلى المعركة ، ويقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وتعجب الناس من أمره وهم لا يعرفونه . وقد قال في بلائه يوم القادسية :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخر بأننا نحن أكرمها سيوفاً
وأكثرهم دروعاً سابغاتٍ وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفاً
فإن أُحْبِسَ فذلکم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفاً
وقد عاد بعد المعركة وقيد نفسه بالقيد .

وهذا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يقاتل أسد كسرى حتى يقتله بسيفه^(١) وهؤلاء هم أبطال الشام أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، لقد كان كلٌ منهم أمة وحده ، دهاء وقوة وعزيمة .
لقد كان المسلمون جميعاً أبطالاً ، وكيف لا ؟ ، لقد عبروا دجلةً بخيولهم وراء العدو جميعاً في يوم المدائن^(٢) ، وإن دجلةً لترمى بالزبد ، وإنهم ليتحدثون في عومهم ما يكثرثون ، كما يتحدثون في مسيرهم . وسعد بن أبي وقاص وراءهم يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ؟ والله لينصُرَنَّ اللهَ وليه ، وليُظهرَنَّ اللهَ دينه ، وليهزمنَّ اللهَ عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغىٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات ، فقال له سامان الفارسي : « ذللت لهم والله البحورُ كما ذلَّ لهم البر ، أما والذي نفس سامان بيده ليخرجنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً » وطبقوا دجلة خيلاً وَرَجَلاً حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد ، ثم خرجوا من الماء ، والخيول تنفضُ أعرافها صاهلة ، فلما رأى الفرس ذلك ولَّوا مدبرين لا يلوون على شيء

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٤

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٧٠ ، وابن كثير ج ٨ ص ٦٣

لأنهم رأوا قوماً لا يقف أمامهم شيء حتى دجلة وهو يرمى بالزبد يعبرونه
سباحة ، وعليهم عُدَّتْهم وعتادهم ومعهم خيولهم وإبلهم .

ولورُحِتْ أعدد أسماء الأبطال الذين ظهرُوا في تاريخ الفتوح الإسلامية ،
وأعمال كل منهم ، وعظم بلائه ، لما استطعت إلى ذلك سبيلاً في هذا الكتاب
المحدود الصفحات ؛ لقد لمع في فتح مصر عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت
والمقداد بن الأسود ، وأبلى في فتح إفريقية ، ومقاتلة البربر عقبة بن نافع
مؤسس القيروان ، وناشر الإسلام في تلك الربوع ، والبربر أمة متبدية كالعرب
ولكنَّ العرب كانوا أقوى منهم بعقيدتهم وعِظَمَ إيمانهم بما وعدهم الله . ومن
الأسماء التي تألَّقت في سماء التاريخ العربي الإسلامي المهلبُ بن أبي صُفْرة ،
وقد اشتهر بحروبه مع الخوارج ، وكانوا قوماً أولى بأسٍ شديد ، تمكنت من
قلوبهم عقيدة راسخة ، وهم عَرَبٌ في الغالب ، وكانوا يسمون الشُّراة ؛ لأنهم
باعوا أنفسهم في سبيل مبادئهم وعقيدتهم ، واشتهر منهم أبطال عظام ، وقد أرسل
إليهم عبيدُ الله بن زياد جيشاً من ألفي رجل فهزمه أربعون من الخوارج يوم
أسك^(١) ، وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك الخارجي من بني تيم اللات^(٢) :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا
كذبتُم ليس ذاك كما زعمتم ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروننا
أطعتم أمر جبارٍ عنيد وما من طاعة للظالمينا

ولم يوجد من قواد العرب المسلمين من يستطيع الصمود للخوارج وتأديبهم

(١) الأخبار الطوال لأبني حنيفة الدينوري طبعة ليدن ص ٢٧٩

(٢) Noeldeke : Veterum Carminum Arabicorum .P. 90

وتذليلهم إلا المهلب وفي ذلك يقول ابن عمر^(١) .

وليس لها إلا المهلبُ إنه ملئ بأمر الحرب شيخ لها شان .
إذا قيل من يحى العراقيين أو مات إليه معدّ بالأ كف وقحطان
فذاك امرؤ إن يلقيهم يُطف نارهم وليس لها إلا المهلب إنسان
ولم يكن قتال هؤلاء الخوارج هيئاً ، إذ كانت عندهم عصبية شديدة
لمذهبهم ، ومعظمهم من العرب ، وكان فيهم زهدٌ وعزوف عن الدنيا
وتقشف ، وظهر من بينهم أبطال شجعان ، ضربوا المثل الأعلى في التضحية ،
والإيثار ، وتمثلت فيهم كلُّ معاني الفتوة ، ومن هؤلاء أبو بلال مرداس
ابن أدية الذي يرثيه عمران بن حطان البطل الخارجي بقوله .

لقد زاد الحياة إلى بغضاً وحباً للخروج أبو بلال .
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كتحف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فاني لها والله رب العرش قالى .

ومنهم قطري بن الفُجاءة وهو القائل :—

ألا أيها الباغي البراز تقر بن أساقتك بالموت الذعاف المقشبا
فما في تساق الموت في الحرب سبة عل شاربيه فاسقني منه واشربا
ولكن المهلب بن أبي صفرة كان من القواد المحنكين ، والشجعان
الأفذاذ ، وأخذ يتتبعهم ، ويلتقي بهم في المعركة تلو المعركة ، ويوقع بهم المرة
بعد المرة ، وهم يتربصون به الدوائر ، وهو لا ينفك يطلبهم ، ولقد هاجموا

مرة^(١) وهو جالس على المنبر يوم عيد الأضحى يخطب الناس خطبة العيد فلما سمع بمقدمهم قال : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم يأتوننا ؟ ما أبغض إلى المحاربة فيه ، ولكن الله تعالى يقول : الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص^٢ « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ونزل من على المنبر ، وخفّ لقتالهم ، وكان يرأسهم في ذلك اليوم أحد فرسانهم وهو عمرو القنا وقد ارتجز عمرو هذا حين رأى المهلب بقوله :

نحن صَبَحْنَاكم غداة النَّحْرِ بالخيل أمثالَ الوشيح تَسْرَى
يَقْدُمُهَا عمروُ القَنَا في الفجر إلى أناسٍ لَهَجُوا بالكفر
اليومَ أَقْضَى في العدو نذرى

واقْتلوا قتلاً شديداً في ذلك اليوم حتى جَنَّ عليهم الليل ، ثم انحاز الخوارج إلى (كازون) ، من بلاد فارس وتبعهم المهلب ، وكلما ذهبوا إلى مكان سار في آثارهم حتى قال أحدهم :

حتى متى يتبعنا المهلبُ ليس لنا في الأرض منه مَهْرَبُ
ولا السماء أين أين المذهبُ ... ؟

ولما سمع ذلك قطري بن الفجاءة بكى ، ووطن نفسه على الشهادة والموت ، وقدم الحرب وهو يرتجز :

حتى متى تخطئني الشهادة والموت في أعناقنا قلادة
ليس الفرار في الوغى بَعَادَه يارب زدني في التقى عبادة
وفي الحياة بعدها زَهَادَه

واستمرَّ القتال بينهم وبين المهلب زَمَنًا ، وهو يقفوا آثارهم في شعاب الجبال ، وفي الحصون ، وفي كل مدينة ومكان وينكل بهم ، وهم لا يلينون ولا يخضعون إلى أن كان يومٌ صَمَمَ فيه الخوارج على الإستشهاد أو الصمود لعدوهم ، وعليهم عبد ربه ، فناداهم : « يا معشر المهاجرين روِّحوا بنا إلى الجنة فإن القوم رائحون إلى النار . » فاطعنوا بالرمح حتى تكسَّرت ، واضطربوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم صاروا إلى المعاقبة ، فترجل المهلب في حماته وحمل عليهم وهو يتلو قول الله تعالى : « قاتلوهم حتى لا تكون فتنةً ويكون الدين كله لله » ^(١) فلم يزالوا يقتتلون حتى حال بينهم الليل ثم غدوا على الحرب ، وقد كسر الخوارج جفون سيوفهم ، وحلقوا رؤوسهم ، وقتل (عبد ربه) وجميع أبطاله ، ولم يبق إلا ضعفاؤهم ، فدخلوا في عسكر المهلب ، وانضم كل رجل إلى عشيرته من أصحاب المهلب ، فكتب بالنصر إلى الحجاج ، وأرسل الكتاب مع بشر بن مالك الحرسى ، فلما وقف أمام الحجاج أنشأ يقول : —

قد حَسَمْنَا داءَ الإِزَارِقَةِ الدَّهْ	رَ فَأُضْحُوا طُرًّا كَالْثَمُودِ
بطعان الكُماةِ في ثَغَرِ القومِ	مَ وضربٍ يُشِيبُ رأسَ الوليدِ
كلما شئت راعنى قطرى	فوق عَبلِ الشَّوَى أَقْبَّ عَتُودِ
مُعَلِّما يضربُ الكُتَيْبَةَ بالسِّبِ	وف وعمرُو كالنارِذاتِ الوقُودِ

ومن القوَّاد العظام الذين غيَّروا وجه التاريخ ، ودخل بفضلهم أممٌ عديدة في الإسلام ، رفدته بالعلماء الأجلاء ، والفقهاء المتبحرين قتيبة بن مسلم الباهلى ، وكان على قدر عظيم من الشجاعة ، لا يردده عن غايته شىء مهما جَلَّ ، وقد

وقد فتح كلَّ ما وراء النهر ، وأدخل في حوزة الإسلام بخارى وسمرقند ، وأوغل في فتوحاته حتى أبواب الصين . وقد حارب في فتوحاته أمماً شتى اشتهرت ببأسها وشجاعتها كالترك والدَّيلم وغيرهم ، فلم يثبتوا لقتاله .

ومنهم محمد بن القاسم بن محمد الثقفي الذي اشتهر بحروبه أيام بنى أمية ، وفتح بلاد السند ، وجعل لنا من أبنائها إخواناً في الإسلام نعتز بهم إلى يومنا هذا ، وكان محمد شجاعاً ، وبطلاً صنديداً لا يثنيه عن عزمه شيء .

ومنهم مسامة بن عبد الملك بن مروان ، وقد أبلى بلاءً عظيماً في حروبه مع الروم ، وفتح القسطنطينية للمرة الثانية .

ومنهم موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وحاربا الفرنجة ، وكانا السبب في تلك الدولة العظيمة التي ازدهرت بها أوربا ثمانية قرون . لقد حارب فتيان المسلمين كلَّ أمم الأرض ، وامتحنتم شجاعتهن في كل صقع ، وأمام كل أمة ، فبرهنوا على أنهم أشد بأساً ، وأقوى عزيمه ، وأعظم إيماناً ، وأهم أبطالاً من اشتهر منهم ، ومن لم يشتهر . لقد كان شعار كل منهم في هذه المعارك الطاحنة التي غيروا بها وجه التاريخ ، وأدانوا كثيراً من الشعوب أولى البأس والقوة ما قاله أبو رواغ الشكري :

إن الفتى كلَّ الفتى مَنْ لم يَهْلَ إذا الجبان حاد عن وقع الأسل
قد علمتْ أنى إذا البأس نزل أروعُ يومَ الهَيْجِ مِقْدَامَ بَطْلٍ

لقد كانت جيوش المسلمين أيام الخلفاء الراشدين ، وبنى أمية تتألف من فتيان العرب ، وهم أصحاب القيادة والسيادة ، وهم حملة الإسلام والمبشرون به ، وقد حافظوا على تقاليدهم في كل مكان حلوا به ، ولم يدعوا الترف يفسد عليهم

أجسامهم القوية ، ونفوسهم العالية ، ولقد فطن عمر بن الخطاب إلى الأخطار التي ستحدق بهم ، حينما يخالطون سواهم من الأمم ، ويقوضون عروشاً قد أبطرها الثراء ، وأفسدتها النعمة ، ويجوزون أموالاً جمّة ، ويرون من أسباب الرفاهية ما لم يتعودوه ، وما تشاققه كل نفس ، ولذلك نصحهم عمر بن الخطاب نصيحته المشهورة على ما رواه عليُّ بن الجعد عن أبي عثمان الهندي ^(١) قال :
 أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان : « أما بعد ، فاتزروا ، وارثدوا ، وانتعلوا ، والقوا الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أييكم اسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حُمام العرب ، وتمددوا واخشوشنوا ، واخلوأقوا ، واقطعوا الرُّكْب ، وانزوا على اخليل نزوا ، وارتموا الأغراض » .

فقد أمرهم بلبس الإزار ، والرداء ، والنعل لتعتاد أرجلهم الحر والبرد فتقوى على دفع الأذى ، ونهاهم عن لبس الخفاف ^(٢) ، والسراويلات ، كما نهاهم عن التنعم ، لأنه يخث النفس ، ويكسبها الأنوثة ، والكسل ، ويخون صاحبه أحوج ما يكون إلى نفسه وقت الشدائد ، والتشبه بالعجم حتى يحافظوا على مظهرهم العربي ، فلا تزل أقدامهم في مهابى الترف ، وينسوا عاداتهم وتقاليدهم ، وحتى يكونوا شجاً في قلوب عدوهم وهم في زيهم البدوى ، أما إذا رآهم في زيّه ومظهره الذى ألفه ، قلّت خشيته لهم ، وتجراً عليهم .
 وأمرهم عمر رضى الله عنه بأن يتعرضوا للشمس حتى تصح أجسامهم ، وتذهب عنهم الأمراض والعلل ، وهم في جو لم يألّفوه ، وعلى طعام لم يتعودوه . كما

أمرهم أن يتمعدوا أى أن يلزموا عادة جدهم معدّ بن عدنان فى أخلاقه ،
 وزيه ، وفروسيته وأفعاله . وطلب منهم كذلك أن يخشوشنوا أى يمارسوا
 ما يوجب الخشونة ، ويجعل الجسم متين البناء صلباً ، قوياً على احتمال الإجهاد ،
 وشدة الحر والبرد ، والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه فيجد
 عنده من الخشونة والجلد والصبر ما لا يجده عند المنعم المترف . كما طلب منهم
 أن (يخلو لقوا^(١)) أى أن يتهيئوا ويستعدوا لما يراد منهم ، فيكونون خلقاء
 به جديرين بفعله ، لا كمن ضيع فروسيته وقوته عند الحاجة . وأمرهم عمر رضى
 الله عنهم كذلك أن يقطعوا الركب ، أى أن يمتطوا صهوات الخيل من غير
 ركاب ، حتى لا يعتادوها ، فقد تلجئهم الضرورات إلى الركوب من غير ركاب
 فيجدون أنفسهم قادرين على ذلك ، أقوياء على كبح جماح الخيل ، ولذلك
 قال بعد هذا ، وانزوا على الخيل نزوا ، أى يثبون عليها وثباً ، وهذا شأن
 الفتيان الأقوياء ، وإذا رآهم أعداؤهم وهم يثبون على ظهور الخيل من غير
 استعانة بالركب ، فزعوا من قوتهم ، وفرط نشاطهم . وأخيراً طلب منهم أن
 يحكموا الرماية بقوله « وارتما الأغراض » ، بأن يجعلوا قصدهم إصابة الهدف
 حين يرمون عن القوس ، لا أن يكون همهم البعد .

بمثل هذه النصائح العظيمة الفروسية أمرهم عمر بن الخطاب ، حتى لا يدب
 الفساد إلى أجسامهم ونفوسهم ، ويستكينوا للدعة والترف فيحقيق بهم الخذلان
 فى جهادهم ، والنكوص على أعقابهم حين احتدام المعارك ، فلا يؤدون الرسالة
 التى انتدبوا أنفسهم لها ، ولقد استجابوا لنداء أمير المؤمنين ، وراذتهم معامع

(١) من الخلو القى السحاب بعد تفرقه أى اجتمع وتهايا للمطار وصار خليقاً به .

القتال تجربة وقوة ، وجرأة على أعدائهم ، وصلابة في الجسم ، وشجاعة في النفس ، وانطلقوا كالسهام المفقوة ينشرون دين الله في كل أرض توجهوا إليها ، لا يحول بينهم وبين غايتهم قوة من قوى البشر . فلما جاءت الدولة العباسية ، وناصرها الفرس واتخذت جيوشها من الأعاجم المختلفي الأجناس من فرس وديلم وترك ، وانصرفوا عن العرب ، اشتغل هؤلاء بغير الجندية وشئون القتال من أغراض الحياة تحولت الفتوة عندهم إلى غايات أخرى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله .

٢ — أما الحديث عن كرم فتيان المسلمين وسخاء أيديهم ، وكرم قلوبهم ، ورجاحة عقولهم وتساحبهم ، وحمائيتهم للضعيف ووفائهم بالعهود ، وهى الصفات المكملة للفتوة كما ذكرنا فى الأبواب السابقة ، فسأرجى الكلام عنها إلى حين الموازنة بين فروسية الغرب وفتوة العرب ، حتى لا يكون الكلام مكرراً . وإن كانت هذه الخلال الحميدة قد اشتهرت شهرة واسعة عن فتيان المسلمين فى كل مراحل التاريخ ، لأنهم كانوا يصدرون فيها عن طبيعة موروثه ، وعن تقاليد جنسية عرفت عن العرب منذ الأزل ، وعن تعاليم دينهم السمح ، وسيرة نبيهم الزكية الذى ضرب لهم المثل الأعلى فى التمسك بالشرف ، والشرف يضم تحته كل هذه السجايا ، بل الشرف كما يقول شاتوبريان Chateaubrien فضيلة تغنى عن كل الفضائل ، فضيلة لا تثمر الا الخير ، ولا تعرف الشر ، فضيلة لا تهزم إذا أحفقت ، وهو أنبل ما تتحلى به الشخصية الإنسانية ، وهو فضيلة تستمد قوتها من ذاتها ، فيها حثف صاحبها ويدها مصيره ^(١)

1 Chateaubrien Analyse raisonné de l, Histoire de France, P. 82

وانظر ذلك

Servitude et grandeur militaire : Alfred de Vigny à l, Honneur

وقد رأيت كيف تجلت هذه الصفة بأسمى مظاهرها في خلق النبي عليه السلام
وأعماله وسيرته ، وكيف تأثر المسلمون في شجاعتهم بهذه الأسوة الحسنة ،
وسترى فيما بعد كيف كانوا على منزلة عظيمة من الشرف في جميع مراحل
تاريخهم ، مقتدين في ذلك بنبيهم الكريم ✱

الفتوة الصوفية

ظلت الفتوة الإسلامية مصطبغة بالصبغة العربية طوال أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، وَرَدَحاً طويلاً من الزمن أيام بنى العباس ، وكانت الفتوة حتى ذلك الوقت صفة فردية يتحلى بها بعض الأفراد ، وتظهر فى أعمالهم وإن كانوا من الكثرة بحيث يخل لتصفح التاريخ الإسلامى أن المسلمين جميعاً من الفتيان الأجداد فى شجاعتهم ، وسخائهم ، وضبط نفوسهم عند الغضب ، وسماحة عقولهم ، وجهرهم بالحق ، وحمايتهم للضعفاء ، ووفائهم بعهودهم . ولكنَّ الفتوة حتى ذلك الوقت لم تكن نظاماً ذات تعاليم خاصة ، وفلسفة يُدعى إليها ، وينتظم الناس تحت لوائها . وذلك لأن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقنهم معانيها ، إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة ، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فكنها من قلوبهم ، وثبتها فى طباعهم .

ولكنَّ الأمة العربية حين صُرفت عن الجندية ، وحاجى خلفاء بنى العباس الأعاجم من فرس وترك وديلم ومن على شاكلتهم بالجندية ، تجلت فتوة العرب فى صورة أخرى فيها الكرم والسماحة ، والشجاعة الأدبية .

يبد أن هناك نوعاً آخر من الفتوة صُبغ بصبغة صوفية ، تلتقى فيه الصفات العربية الكريمة التى ذكرناها آنفاً ، بتعاليم الصوفية ، وكان أول ظهور هذا النظام من الفتوة فى دائرة الحسن البصرى الذى أطلق عليه أيوب بن أبى تميمة « سيدَ الفتيان » ، وكان الحسن من أوائل الذين مهدوا للتصوف الإسلامى^(١)

وقد تتلمذ عليه مالك بن دينار ، وأبو حمزة الصوفي وغيرهم ولكن هذه الحركة لم تكتمل نمواً إلا حين اشتد التصوف ، وكملت تعاليمه وظهر أبطاله ، وهنا نرى مزجاً عجيباً بين الفتوة والتصوف ، وأخذ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهم ميزاتها وهو الإيثار ، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها ، مثل كف الأذى ، وبذل الندي ، وترك الشكوى ، وإسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والعفو عن زلات الناس ، فيقول على بن أبي بكر الأهوازي : « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحداً » ، ويقول القشيري : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في غير أمره ^(١) » ، وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال إبراهيم » : الفتوة هي كسر الصم (الوارد في القصة) ، وصم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة ^(٢) وأنت ترى أن المتصوفة قد توسعوا في استعمال كلمة (الفتوة) ، وحمّلوها أكثر مما تتحمل .

وقد قال « ثورننج » إن إقبال الفتيان على التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة ، وأنكر عليه ذلك الدكتور أبو العلا عفيفي ، والحق أن التصوف الإسلامي قد أخذ من الفتوة العربية الإسلامية التي من أهم مظاهرها الشجاعة والكرم والإيثار وحماية الضعيف ، ونكران الذات شيئاً كثيراً ، وإن كان قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسخاً ، ولم نعد نرى صفات الفروسية والكفاح والنضال في سبيل الشرف ، وإنما نرى زهداً وبعداً عن الدنيا ، وإذا كان من أهم أغراض التصوف إضعاف الجسم لتقوية الروح حتى تتصل

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٣

(٢) كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي ج ٢ ص ١١٥٦ ، والملازمة والصوفية ص ٢٦

بالذات العلية ، وحتى عُرِّف التصوف بأنه « إفناء النفس لتحيا في الله »
أو « أن تطرح ما يحويه رأسك مما تملكه يدك ، وترضى بكل ما يحدث لك ^(١) »
ويعرفه الغزالي « بأنه طريقة أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله
ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ^(٢) »
ولم يكن الغزالي من هؤلاء المتصوفة الذين طرحوا الدنيا جانبا ، وأماتوا
في نفوسهم الأثرة والغضب ، ولكنه كان يسير في الأخلاق على مذهب
الفلاسفة وإن خالفهم في بعض وجهات النظر ، فهو يرى أن النفس الإنسانية
فيها قوتان : شهوانية وغضبية ، ولا بد لمن ينشد السعادة أن يخضع هاتين
القوتين للفكر الذي يوجههما نحو الخير فتنجح الأولى العفة ، والثانية الشجاعة
وبذلك توجد العدالة ، وهو لا يرى إمارة الشهوة ، ولا القوة الغضبية ، وإنما
يرى ما يراه أرسطو من أن الفضيلة وسط بين طرفين ، وإزالة الشهوة والغضب
إزالة تامة يفقد الإنسان خاصيته وميزته ، فلكل فضيلة طرفا إفراط وتفريط
والمطلوب هو الوسط ، والمعياري الذي يعين الوسط ليس العقل وحده كما يقول
الفلاسفة ، وإنما العقل والشرع معاً أو العقل المتأدب بالشرع ^(٣) .

ولذلك أراني أوافق (ثورننج ^(٤)) في قوله بأن إقبال الفتیان على
التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة كما عرفها العرب والمسلمون من قبل ، وذلك
لأن الفتى العربي يغضب إذا كان ثمة ما يدعو إلى الغضب ، يغضب لشرفه ،

(١) نيكلسون متصوفة الإسلام — لندن ١٩١٤ ص ٢٧

(٢) المنقذ من الضلال — مصر ص ٢٨

(٣) الإحياء للغزالي ج ٣ ص ١٦ — ٢٢ وما بعدها .

(٤) Dr. Her Thorning, Beitrage Zur Kenntnis Islamischen

ويغضب لعقيدته ، ويغضب إذا امتنن أو أهين ، وهو لا يحب الجبن ، ولا يعرفه ، فكيف يتفق مع التصوف الذى يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والغضبية فى الإنسان ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن المتصوفة قد استعملوا كلمة الفتوة وأكثرها فى أحاديثهم ، وأخذوا من تعاليمها العربية بعض الصفات ، فالفتى الصوفى فى نظر بعض المتصوفة من كانت له دعوى يدافع عنها ، ويضحي بنفسه فى سبيلها كالحلاج الذى يقول : « إن رجعتُ عن دعواى (وهى قوله : أنا الحق) سقطت من بساط الفتوة ^(١) » ويتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم فى قوله « أنا خيرٌ منه » ، ومن دعوى فرعون الألوهية فى قوله : « أنا ربكم الأعلى » دليلاً على فتوتهما ، فيقول على لسان الأول : « إن سجدت سقط عنى اسم الفتوة » ، وعلى لسان الثانى : « إن آمنت برسوله سقطتُ من منزلة الفتوة ^(٢) » ، فأى انحراف فى تفسير الفتوة وأى خلط ! ؟

كان المتصوفة أول الأمر لا يؤلفون وحدة فيما بينهم ، وكل يتعبد حسبما يريد ؛ ليصل إلى غايته ، وكانوا فى أول أمرهم — كذلك — يلزمون حدود الشرع ، لا يحدون عنه ولا يتأولون فيه ، لأن تصوفهم كان أشبه بالزهد منه بالتصوف الفلسفى الذى ظهر عند ابن عربى ، والحلاج ، وابن الفارض ، وأضرابهم ؛ كان ردُّ فعل حياة المجون والترف التى انغمس فيها المسلمون أيام الدولة العباسية . ولكن دخلت فى تصوفهم هذا عناصر غريبة أفسدته وأبعدته عن الدين : فترى فيه من المسيحية ، والأفلاطونية الحديثة ، والبوذية شيئاً غير

(١) الطواسين للحلاج ص ٥٠

(٢) نفس المصدر .

قليل . ولست هنا في مقام بسط حقائق التصوف والتعرف على نشأته وتعاليمه وما دخله من الفلسفات الأجنبية .

وما أن أتى القرن الرابع الهجرى حتى وُجدت هيئات صوفية منظمة ، ومدارس مختلفة ، لها رؤساؤها يهدون (المريدين) الذين يودون الانخراط في الطريق ، وهناك رئيس عام يسمى (القطب) ، وهو الوحيد الذى انتقل إليه العلم الحقيقى ، واسم الله الأعظم ، وهو موضع نظر الله من العالم ، ولا يجوز أن يحمل هذه الأسرار رجلا في عصر واحد .

وقد ادعى محيى الدين بن عربى أنه قطب زمانه حين يقول ^(١) :

لكل زمان واحدٌ هو عينُه . وإني ذاك الشخص في العصر أوحد
وحين يقول :

قلمى ولوحى في الوجود يمدّه قلم الآله ولوحه المحفوظ
ومن هؤلاء الصوفية الذين أكثروا من استعمال كلمة (فتوة) أهل الملامة ، وفسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الفتيان أو الرجال ، فيقول أبو حفص النيسابورى : « مریدو أهل الملامة متقبلون في الرجولية لا خطرَ لأنفسهم ^(٢) » . ومن صفات الفتوة كما قررها السامى حين شرح تعاليم الملامتية ما ورد في الأصل الحادى والأربعين من رسالة الملامتية في قول أبى حفص الحداد لعبد الله الحجام : « إن كنت فتىً فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان » يريد بذل كل شيء ، وعدم الإبقاء

(١) ديوان ترجان الأشواق لابن عربى .

(٢) رسالة الملامتية ، للدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٨

على شيء خدمة للإخوان ، ومن ذلك ما ورد في الأصل الخامس والأربعين في قول أبي عثمان الخيري في الصحبة : « حُسْن الصحبة ظاهره أن توسع على أخيك من مال نفسك ، ولا تطمع في ماله ، وتنصفه ، ولا تطلب منه الإنصاف ، وتحمل منه الجفوة ولا تجفوه ^(١) » .

ومن أجمع ما ورد في رسالة الملامتية من الفقرات التي تشرح صفات الفتوة كما فهمها أهل الملامة قول بعضهم — وقد سئل عن يستحق اسم الفتوة — فقال : من كان فيه من اعتذار آدم ، وصلابة نوح ، ووفاء إبراهيم ، وصدق اسماعيل ، وإخلاص موسى ، وصبر أيوب ، وبكاء داود ، وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأفة أبي بكر ، وحمية عمر ، وحياء عثمان ، وعلم علي ، ثم هو مع كل هذا يزدرى نفسه ، ويحتقر ما هو فيه ، ولا يقع بقلبه خاطر مما هو فيه أنه شيء ، ولا أنه حال مَرَضِي ، يرى عيوب نفسه ، ونقصان أفعاله ، وفضل إخوانه عليه في جميع الأحوال ^(٢) » .

ومن هؤلاء الصوفية الذين استعملوا كلمة الفتوة بكثرة متصوفة (نيسابور) ومنهم أبو حفص عمرو بن سالم ، وقد جعل هو ورجال التصوف من مدرسة نيسابور الفتوة مثلاً أعلى يهدفون إليه ، واختصوا من معانيها بالتضحية الكاملة وقد ذكر السامى « أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين الصوفى يقول : بلغنى أن مشايخ بغداد اجتمعوا عند أبي حفص ، فسألوه عن الفتوة فقال : تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان ، فقال الجنيد ، « الفتوة عندى إسقاط الرؤية . وترك النسبة » ، فقال أبو حفص : « ما أحسن ما قلت ، ولكن الفتوة عندى أداء

الإِنصاف وترك مطالبة الإِنصاف » فقال الجنيد : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته ^(١) » والفرق بين تعريفهما يدل على اختلاف بين في تفسير الفتوة ، فالجنيد يرى الفتوة إسقاط الرؤية ، أى عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير، وترك النسبة ، أى إسقاط الروابط التي تربط الإنسان بأى شيء ، أو موجود غير الله ، وعلى ذلك فالفتوة عنده الزهد الكامل . أما أبو حفص فيرى الفتوة فى أداء ما يراه الصوفى إنصافاً وعدلاً ، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بإنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع ، أى أن الفتوة عنده هى التضحية الكاملة . وكان بنيسابور فتيان من غير الصوفية أيام حمدون القصار ^(٢) ، وكانت لهم هيئات أو جماعات لا يعرف من أمرها شيء ، وكان يطلق على الفتى منهم اسم (العيَّار) ^(٣) أو الشاطر أحياناً ، قال حمدون : « كنت أسير يوماً فى حى من نيسابور فلقيت نوحاً العيَّار ، أحد المعروفين بالفتوة ، وكان على رأس الشَّطَّار بنيسابور ، فقلت له : يانوح ! ما الفتوة ؟ فقال : فتوتى أم فتوتك ؟ فقلت : صف الاثنين . فقال : أخلع القباء ، وألبس الخرقه ، وأفعل الأفعال

(١) طبقات السامى ، والدكتور أبو العلا عفيفى ص ٣٦ ، والحلية لأبى نعيم ج ١٠

ص ٢٧٠

(٢) من أشهر رجال الصوفية على الطريقة الملامية ، وهو أبو صالح حمدون بن عمارة العروف بالقصار والمتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وكان أحد علماء الفقه على مذهب الثورى ، ويعتبر المؤسس الحقيقى لمذهب الملامية ، وإن كان أتباعه يسمون عادة باسم الحمدونية أو القصارية (كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣) .

(٣) العيَّار : من أسماء الأسد ، ويطلق على الشجاع ، والشاطر : من أعيان

أهله خبثاً .

التي تليق بهذا الثوب لعل أصبح صوفياً ، وأقلع عن المعاصي لما أشعر به من الحياء من الله ، ولكنك تخلع الخرقه لكيلا يخدمك الناس ، وينخدعوا بك ففتوتى فى اتباع ظاهر الشرع ، أما فتوتك فى تلبية نداء القلب « (١) » .

ويقول الدكتور عفيفى : « وإذا كانت الفتوة بمعناها العام : هى المروءة والرجولة والإيثار المحض ، فهذه معانٍ نجدها متحققة فى حمدون القصار أكثر منها فى زميله أبى حفص ، وليس أدل على ذلك من العبارات الماثورة عنه فى رسالة السلمى ، ورسالة القشبرى ، وما أورده له مؤلفو الطبقات . فمن الفتوة عنده ألا يُظهر الإنسان العُجب والكبر ، ومنها غض الطرف عن مواطن التقصير فى الغير ، ومنها الإيثار والاعتراف بالتقصير ، والتواضع ، والتماس المعاذير عند رؤية القبيح إذا صدر عن الغير ، وهذه كلها شديدة الاتصال بمعانى الفتوة (٢) » .

هذا وقد روى القشبرى فى رسالته فى باب (الفتوة) أن إنساناً يدعونه « الفتوة » خرج من نيسابور إلى بلدة (نسا) بخراسان ، واستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى وقال : « ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدي الرجال » . وهذا لعمرى أدب جَمٍّ ، واستعمال للفتوة فى معنى جديد يقربها من الفروسية الغربية ، وهو احترام المرأة ، أو لعل هذا الفتى كان يعتقد أنه تام الرجولة ، وليس فى حاجة إلى امرأة ضعيفة لتعينه على شيء ، ولو كانت خادماً .

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣

(٢) الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤٠

وروى القشيري كذلك أن بعض الفتيان قدم له طعام وعليه نمل ، فقال :
ليس من الأدب تقديم الأكل وعليه نمل ، وليس من الفتوة طرد النمل عن
الطعام ، فلبث الغلام حتى دب النمل ، فقال المضيف : « لقد دققت يا غلام
في الفتوة » ، ولسنا ندرى أكان هذا الفتى والذي سبقه من المتصوفة أو من
العيّارين ، فقد انتحل كل منهم لقب الفتوة ، وتوسع في استعمالها ، وأخذ من
الفتوة العربية بعض معانيها ، وجعله شعاراً له .

ويظهر أن الفتوة قد تطورت على مر الأيام ، وانتحلها كثير من الجماعات
صوفية وغير صوفية ، فقد سئل ابن تيمية عن جماعة يجتمعون في مجلس ،
ويلبسون الشخص منهم (لباس الفتوة) ، ويدبرون بينهم في مجلسهم
شربة فيها ملح وماء ، ويشربونها ، ويزعمون أنها من الدين ، ويقولون :
إن رسول الله ألبس على بن أبي طالب لباس الفتوة ، ثم أمره أن يلبسه من
شاء ، ويقولون : إن هذا اللباس أنزل على النبي في صندوق ، ويستدلون
عليه بقوله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم » فهل
هو كما زعموا ، أو هو كذب واختلاق ؟

ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله ^(١) ، عن عبد الجبار
ويزعم أن ذلك من الدين ، فهل لذلك أصل أم لا ؟ ، وهل الأسماء التي يسمي
بها بعضهم بعضاً ، من اسم الفتوة ، ورؤوس الأحزاب ، والزعماء لها أصل أم لا ؟
ويقوم رئيس القوم إلى الشخص الذي يلبسونه فينزع عنه اللباس الذي يلبسه ،
ويلبسه الذي يزعمون أنه لباس الفتوة ، فهل هذا جائز أم لا ؟ وهل للفتوة أصل

(١) سيأتي الكلام في الفصل الآتي عن فتوة الخليفة الناصر لدين الله .

في الشريعة أم لا ؟ وهل أحلَّ أحد من الصحابة ، أو التابعين ، أو من بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة المذكورة ؟ .

وأجاب ابن تيمية بقوله : لباس الفتوة ، وإسقاء الملح والماء باطل لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله ، ولا أحد من الصحابة ، ولا على ابن أبي طالب ولا غيره من التابعين . والإسناد الذي يذكرونه عن طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى تمامه إسناد لا تقوم به حجة ، وفيه من لا يُعرف ، وتكلم ابن تيمية عن اللباس الذي نزل في الصندوق ، وذكر أن هذا كذب لا أصل له .

ثم قال : « وأما الشروط التي يشترطها شيوخ الفتوة ، فما كان مما أمر الله به : كصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وأداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، ونصر المظلوم ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ، أو كانت مستحبة كالعفو عن الظالم ، واحتمال الأذى ، وبذل المعروف ، وأن يجتمعوا على السنة ، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة ، ونحو ذلك فهذه أمور يؤمن بها كل مسلم ، سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشترطوها . وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله ، مثل التحالف الذي يكون من أهل الجاهلية ، وأن يصادق كل صديق الآخر في الحق والباطل ، ويعادي عدوه في الحق والباطل ، وينصره على كل من يعاديه ، سواء كان الحق معه أو مع خصمه ، فهذه شروط تحلل الحرام ، وتحرم الحلال ، وهي شروط ليست في كتاب الله فهي باطلة .

ثم قال ابن تيمية : وأما لفظ الفتوة فمعناه في اللغة (الحدث) أي الشاب كقوله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » ، لكن لما كانت

أخلاق الأحداث اللين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق كقول بعضهم : « الفتوة أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذك ، وتحن إلى من يسىء إليك سماحة لا كظاً ، ومودة لا مسaire » ، وقول بعضهم : « الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى » وأمثال ذلك . فهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوة أم لم تسم ^(١)

وهاك نوعاً آخر من الفتوة ذكره بن جبير في رحلته من أنه « وجد في دمشق جماعة من السنيين يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة القبوية ، وكانوا حرباً على الشيعة ، يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها ، وكل من ألحقوه بهم نخلصة يرونها فيه منها ، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة ، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ بقسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف » . وذكر بن جبير كذلك هؤلاء الشيعة ومذاهبهم ، وأن منهم فرقة تسمى الغرابية وهم يقولون : إن علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبي عليه السلام من الغراب بالغراب ، وينسبون إلى الروح الأمين قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً . . . إلى فرق كثيرة يضيق عنها الإحصاء ، قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيراً من خلقه . وسلط الله على هذه الرافضة طائفة أهل الفتوة الذين عرفوا بالنبوية ^(٢) ؛ فهؤلاء جماعة سموا أنفسهم بأهل الفتوة ، وذكر ابن جبير أنهم من أهل السنة ، وأنهم كانوا حرباً على الشيعة الرافضة ، ولم نعرف هل كان هؤلاء من فرق الصوفية ، أو من العيارين ؟

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته بالأناضول أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه (التكايا) و بعد أن يتعشوا يرقصون ولهم رئيس يسمى (أخى) يضيفون الغريب ويؤونه ثلاثة أيام وهم متفرغون للعبادة كأنهم الرهبان ، وأغلب الظن أنهم جماعة من أهل الطرق الصوفية ، والدرأويش ، وأنهم سموا أنفسهم بالفتيان ، لأنهم اتخذوا من الفتوة بعض مميزاتها وهو الكرم والحذب على الغريب ، وكانت لهم أمكنة كثيرة تزيد عن العشرين ببلاد الأناضول رآها بن بطوطة وزارها^(١) . وقد كان الكرم منذ أن عرفت الفتوة من أظهر صفاتها ، فقد روى أن رجلاً من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر دعاه للطعام عنده دعوة احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فطلبه ليتكامل ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة والحفلة ، حتى تصرم أكثر النهار ومسَّ محمدًا الجوع ، فتنغص عليه يومه ، وأراد محمد السفر ، فشيعة هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : أيا أمر الأمير بشيء؟ قال : نعم ، تجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث ، فأسأله أن يعلمك الفتوة ، فمضى حتى دخل إلى محمد بن الحارث ، فقال له : بعثني إليك الأمير لتعلمني الفتوة ، فضحك وقال : يا غلام ! هات ما حضر ، فأتى بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة ، من أنظف الخبز وأنقاه ، وفاكهة كثيرة . . . الخ^(٢) . فالفتوة هنا استعملت بمعنى الكرم وهو المعنى الذى لحظه أصحاب ابن بطوطة . واستعمال الفتوة بمعنى

(١) راجع رحلة ابن بطوطة في الأناضول ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ وراجع كذلك

Hammar -Purgstall. Journal Asiatique في أغسطس سنة ١٨٥٥

(٢) أدب النديم لكشاجم وراجع كذلك . Encyclopida of Islan P. 123

الكرم والحرية ، يلاحظ فيه المعانى التى تكسب صاحبها القوة المعنوية أكثر مما تلاحظ القوة الجسمية .

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نحصر الطوائف التى استعملت الفتوة فى القرنين الثالث والرابع وما بعدها فى :

١ — بعض فرق الصوفية ، واستعملوا الفتوة بمعانٍ مختلفة من مثل قول القشيري : « أن يكون العبد ساعياً أبداً فى غير أمره » ، أو قول الفضيل « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » أو قول الآخر : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » أو كما رآها الجنيد من أنها الزهد الكامل ، أو كما رآها أبو حفص من أنها التضحية التامة . . . الخ هذه التعريفات التى مرت بنا .

٢ — بعض العيارين والشطار الذين أخذوا من الفتوة معنى الشجاعة ، والجرأة ، والتغلب على الصعاب ، والاستنكاف من الاستعانة بالضعيف ، أو إيذائه .

٣ — بعض أهل السنة الذين سمو أنفسهم بأهل الفتوة لمحاربة الشيعة الرافضة ، الذين زاغوا عن محجة الدين .

٤ — بعض أهل الكرم والأريحية سواء كانوا عباداً زهاداً كأصحاب ابن بطوطة بالأناضول ، أو كانوا مثل صاحب محمد بن عبد الله بن طاهر .

ويخيل إلى أن شيوع استعمال اسم الفتوة فى كل هذه المعانى العديدة دليل على أن الأمة قد فقدت حيويتها ، وأنها لم تعد تمثل ذلك الجيل من الناس الذى اشتهر بكل خلال الخير كما كان المسمون الأوائل ، وكما كان كثير من فتيان العرب فى الجاهلية . وأن كل طائفة عرمت على أمرٍ وأرادت تقوية

نفسية ، ورابطة تربط بين أعضائها تمسحوا في « الفتوة » لعلهم يحيون
بذلك الفتوة العربية أو الإسلامية ؛ لأن لقب الفتوة يحتوى على كل معانى
الرجولة الكاملة والصفات الحميدة كما عرفناه في الفصول الأولى من هذا
الكتاب .

✓

فتوة المترفين

وثمة جماعة سمو أنفسهم كذلك أهل الفتوة ، ولكنهم لا يمتنون إلى من ذكرناهم في الفصل السابق بصلة ؛ لأنهم ليسوا من عامة الشعب ، وسواد الناس ، ولكنهم من أصحاب الثراء والجاه والسلطة يتزعمهم في ذلك الخليفة الناصر لدين الله^(١) المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م . وكان مظهر فتوته في الخروج إلى الصيد وإجادة الرمي ، والافتتان فيه ، وتأليف جماعة من المهرة في الصيد تنتسب إليه ، وجعل لها تقاليد خاصة ، وزياً معيناً كما سنذكر فيما بعد . ولا شك أن الله تعالى قد أباح الصيد في قوله عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُؤَلِّقُوا لَكُمُ اللَّهُ بَشْيَءً مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » ، وفي قوله تعالى : « قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ » . وكان الطرد من أهم ضروب الرياضة عند العرب ، ومن أحبها لنفوسهم ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، وقد أكثر شعراء الجاهلية من ذكر مواقف الصيد ، وصوروا هذه المواقف تصويراً بلغ الغاية في الإتيان والجمال فمن ذلك قصيدة زهير المشهورة التي مطلعها :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُهُ وعُمرى أفراسُ الصبا ورواحلُهُ
والتي يقول فيها واصفاً مطاردته للصيد :

(١) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه بأبي الفضل جعفر المقتدر بالله — راجع ابن جبير ص ١٨١ .

هبطت بمسود النواشر سابح
 تميم فلولناة فأكل صُنْعُهُ
 فيدنا بُغْيُ الصيْدِ جاء غلامنا
 فقال : شياه راتعات بقفرة
 ثلاث كَأقواس السراء ومسحَلُ
 وقد خرَّم الطرادُ عنه جحاشه
 فقال أميري : ما ترى رأى ما نرى
 فبتنا عراة عند رأس جوادنا
 مُمَرِّ أَيْثِيلِ الخَدِ نَهْدٍ مراكله (١)
 قَتَمَ وعزته يده وكاهله (٢)
 يَدِبُّ ويخفى شخصه ويضائله
 بمستأسد القرَّيان حو مسائله (٣)
 قد أخضر من لَسَّ الغمير جحافلُه (٤)
 فلم تبق إلا نفسه وحلاله (٥)
 أنخلته عن نفسه أم نصاله؟ (٦)
 يزاولنا عن نفسه ونزاوله

(١) مسود : مقتول ، والنواشر : ج ناشر وهى عصب الذراع ، والممر الشديد
 القتل الموثق الخلق ، وأسيل : سهل ، والنهد : الفخم ، والمراكل : ج مركل وهو
 حيث يركله الفارس .

(٢) تميم : تام الخلق . فلولناه : فطمناه فإذا نطم فهو فلو ، وعزته : غلبت
 يده وكاهله سائر أعضائه ، والكاهل : مجتمع الكتفين فى أصل العنق .

(٣) شياه : حمر الوحش ، والمستأسد : ما طال من النبات وقوى ، والقرَّيان
 ج قرى وهو بحرى الماء من الرياض من قريت الماء إذا جمعت ، والمسائل : مكان سيل
 الماء والقياس إلا تهمز ياءؤه لأنها أصلية إلا أن العرب همزتها كاتها توهمتها زائدة كما همز
 بعضهم مصائب ، ومسائل ج مسيل ، فإن كان من سال فوزنه مفعول ، والقياس إلا تهمز
 وإن كان من مسل فوزنه مفعول والقياس همزه فى الجمع ، ومستأسد القرَّيات : أى
 مستأسد نبات قرَّياته .

(٤) السراء : شجر تتخذ منه القسي ، وشبه الأتُن بالأقواس ، لأنها اجتزأت
 برعى الرطب عن شرب الماء فضمرت والمسجل : حمار الوحش من السجيل وهو صوته
 والغمير : نبت أخضر قد غمره نبت آخر أطول منه الجحافل : ج جحفلة وهى من الحمر
 كالشفاه للآسان . (٥) خرم : أبعد

(٦) الأمير : الذى يؤامره ويستشيرُه

ونضربه حتى اطمان قذاله^(١)
وملجمننا ما إن ينال قذاله
فلأياً بلأى ما حملنا وليدنا
وقلت له : سدّد وأبصر طريقه
وقلت : تعلم أن للصيد غرّة^(٢)
فتبع آثار الشياه وليدنا
نظرت إليه نظرة فرأيت
يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق
فردّ علينا العير من دون إلفه
فرحنا به ينضو الجياد عشية^(٣)
ولم يطمئن قلبه وخصائله^(٤)
ولا قدماه الأرض إلا أنامله
على ظهر محبوبك ظمأ مفاصله
وما هو فيه عن وصاتي شاغله
وإلا تضعيها فإنك قاتله
كشوبوب غيث يخفش الأكم وابله^(٥)
على كل حال مرة هو حامله
سراع تواليه صباب أوائله^(٦)
على رغبة يدمى نساء وفائله^(٧)
مخضبة أرساغه وعوامله^(٨)

وما من شاعر مشهور في الجاهلية إلا تغنى بوقت الصيد ، ومطاردة حمر
الوحش أو الثيران الوحشية ، وكل هذه يدل على محبة العرب لهذه الرياضة ،
وإن كان حيوان جزيرة العرب محدوداً ، وقد عرفوا منه الأسد ، والنمر ،
والذئب والثعلب ، والفهد ، والغزال والنعام وغير ذلك ، ولكمهم لما فتحوا
البلاد الكثيرة ، ورأوا حيوانها وتنوعه واهتمام أهلها بالصيد ، القدامى منهم
والمحدثين ؛ لأن الآشوريين مثلاً قد نقشوا على الأحجار كثيراً من مناظر

(١) قذالة : معقد عدارة في رأسه .

(٢) يخشى الألم : يخرج كل ما فيها .

(٣) تواليه : رجايه ويحجزه .

(٤) النساء عرق وفائله كذلك .

الصيد ، ورأى العرب من هذه الآثار أن الصيد كان رياضة الملوك ، وفيه كانت تتاح لهم الفرصة لإظهار بطولتهم وشجاعتهم سواء أ كانوا يمارسونه بالسيف أم بالحرب . وعلى ظهور الخيل أم بمساعدة الكلاب ، أم بالسهم ، وكان من الطبيعي أن يتطلع سراة العرب إلى المكانة الأولى في الصيد حتى يبرزوا أهل البلاد التي فتحوها في ذلك الميدان وهم الأمة الغالبة ؛ ليبرهنوا على شجاعتهم ، وسبقهم وطول باعهم ، وقد افتنوا في الصيد أيما افتنان فمن الطرق التي ابتدعوها في صيد الأسد : أن الواحد منهم كان يمتطي حصاناً مدرباً لمقابلة الأسود ، وعندما يهجم عليه الأسد يجرى ، ويسرع الحصان في جريه حتى يُجهد الأسد ، فإذا ما أحس الفارس من الأسد التعب دار حوله بحصانه ، فإذا اقترب منه الأسد سدد إليه سهمه ، فيصيبه ، ولكن ذلك لا يعوق عن متابعة الحصان ، والفارس يوالى رميه بالسهم حتى تحورقوى الأسد ويصرع^(١) ، وقد دربوا لصيد الغزلان والنعام وما شاكلها الكلاب السلوقية ، وكانت معروفة منذ الجاهلية لديهم ، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني يصف مطاردة ثور وحشى :

مَطَرَدٍ أَفَرَدَتْ عَنْهُ حَلَالُهُ

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ أَوْ مِنْ وَحْشٍ ذِي قَارٍ^(٢)

وَبَاتَ ضَيْفًا لِأَرْطَاةٍ وَأَلْجَأَ
مَعَ الظَّلَامِ إِلَيْهَا وَابِلٌ سَارٌ^(٣)

(١) الرياضة عند العرب لمحمد علوى ص ٣ .

(٢) وجرة : موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلا مافيها منزل فهي مرت الوحش (القاموس).

(٣) الأرطاة : شجرة لها ثمر كالغاب

حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبحُ عنه أى إسفار
أهوى له قانص يسمى بأكلبه عارى الأشاجع من قنَّاص أنمار
مُخَالَفُ الصيد تباع له ، كَحِمَّ ما إن عليه ثيابٌ غيرُ أطمار^(١)
يسعى بغُضْفٍ براها وهى طاوية طولُ ارتحال لها منه وتَسْيَار
ويقول أبو نواس واصفاً هذه الكلاب السلوقية :

أُنْعَتْ كلباً ليسَ بالمسبوق مُطَهَّمًا يجرى على العروق
جاءت به الأملاك من سلوق كأنه فى المِقْوَدِ المشوق
إذا عدا عَدْوَةً لا مَعُوق يَلْعَبُ بين السهل والخروق
يشفى من الطَرْدِ جوى المشوق فالوحش لو مَرَّتْ على العيوق
أَنزَلَهَا دَامِيَةً الخلق ذاك عليه أوجبُ الحقوق

فكل صياد به مرزوق

وقال كذلك :

أعددت كلباً للطراد فظاً إذا عدا من نهم تلظى
وجاذب المِقْوَدَ واستلظى كأن شيطاناً به أَلْظَا
يكُظُّ أسرابَ الظباء كظا حتى تراها فِرْقاً تشظى
يحوز منها كلَّ يوم حظاً حتى ترى نجيعها مكتظا

وقد علموا البزاة والصقور للصيد ، وذكر أسامة بن منقذ فى كتابه
(الاعتبار) كثيراً من طرق الصيِّد والحيوان المَعْلَم للصيد من ذلك قوله عن
والده^(٢) : « وكان يتكلف فى تسيير قوم من أصحابه إلى البلاد لشراء البزاة ،

(١) لحم : محب للحم ويشتهي

(٢) الاعتبار ص ١٩٩ إخراج فيليب حتى ، طبعة جامعة برنستون سنة ١٩٣٠

حتى إنه أنفذ إلى القسطنطينية من أحضر له بزاة منها ، وحمل العلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفى البزاة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا ، حتى فرغ ما معهم من الحمام ، فصاروا يطعمون البزاة لحم السمك ، فأثر ذلك في أجنحتها ، وصار ريشها ينكسر ويتقصف فلما وصلوا إلى شيزر^(١) كان فيها بزاة نادرة ، وكان في خدمة الوالد بازيار (مطبع البازي) طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فوصل أجنحتها واصطاد بها .

وقد ذكر أسامة طرق الصيد في دمشق ، وفي مصر ، وفي غيرها من البلدان كما ذكر صيد الأرنب ، والخنازير ، وحمر الوحش ، والوز ، والحباري وغير ذلك^(٢) ! وليس من همي هنا أن أفيض في هذا الباب ، فحسبي ما ذكرت .

حين أترف العرب ، وانصرفوا عن الجندية ، كان الصيد هو الرياضة الوحيدة التي يظهرون فيها بطولتهم ، وكانوا لا ينفكون عن تعلم الرماية وإجادتها في كل صقع حلوا به ، حتى في المدينة المنورة ، فقد روى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بنى أمية ، وقد تعلم محمد الباقر ذلك ، وهو في حدائثه ، فلما وفد على عبد الله بن مروان ، والقوم يرمون أراد إحراجه وطلب منه أن يرمى كما يرمى الناس ، فاعتذر ، فلما ألح عليه رمى ، وفاق كل الموجودين ، فقال له الله درك ! أنت أرمى العرب والعجم ، ثم قال له : يا محمد لا يزال العرب والعجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك^(٣) .

(١) شيزر بلدة على نهر العاص على بعد عشرين ميلا إلى الشمال الغربي من حماة بسوريا أو على مسافة ساعة منها بالسيارة ، وكانت موطن بني منقذ ، عاشوا في قلعة حصينة بها هي قلعة شيزر .

(٢) راجع الاعتبار لأسامة بن منقذ السكناني من ص ١٩٩ — ٢٢٦

(٣) صحيفة الأبرار ص ٣٦١ ج ١

وقد أسس هؤلاء الأشراف في أخريات الدولة العباسية نظاماً سموه نظام الفتوة ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، كما ورد في كلام « حاجي خليفة » في كشف الظنون عن سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ من أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة الناصر لباس الفتوة ، ولم يكن هذا اللباس ، هو ما عرفناه عن فرسان القرون الوسطى ، بل كان حذاءً طويلاً من الجلد ، وقد وصف ابن جبير الناصر لدين الله بأنه كان لابساً ثوباً أبيض شبه القباء ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك ، مما هو كالفتك وأشراف ، متعمداً بذلك زي الأتراك^(١)

ويقولون في لباس الفتوة هذا ما ذكرناه آنفاً من أنه موروث عن سيدنا علي ، ويذكرون لذلك شجرة طويلة تصل إلى الناصر لدين الله نثبتها هنا لمرافقتها :

علي بن أبي طالب

|

سلمان الفارسي

|

صفوان بن أمية

|

حذيفة بن اليمان

|

المقداد بن الأسود

أبو العز التوبى

الحسن البصرى

الحافظ الكندى

عوف الكنانى

أبو مسلم الخراسانى

الشرىف أبو العز

هلال النبهانى

بهرام الديلمى

روزبه الفارسى

الأمير حسان بن ربيعة الخزومى

الأمير جوشن الفزاري

أبو الحسن النجار

أبو الفضل بن الترهان

النعمان سلمان

شبل

الفضل بن زياد الفارسي

الفضل

الملا ميراوي

ناصر الدين بن أبي نعيمة

أبو علي الصوفي

مهنى العلوي

نعمان

أبو الحسن بن الشاربان

أبو بكر الجحيش

عمر الرهاض

علي بن دغيم

عبد الجبار بن صالح

الخليفة الناصر لدين الله^(١)

وقد أرسل الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا كأس الفتوة له ،
ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق^(٢) ، وهو كرات صغيرة
من طين أو رصاص يرمى بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ، وسموه أيضاً الاسم
الفارسي وهو الجلاهي^(٣) ، وقد اقتبس العرب لعبة رمي البندق عن الفرس في
أواخر أيام عثمان^(٤) وجاء في تاريخ ابن الفرات عن الخليفة الناصر لدين الله :

(١) راجع في تاريخ المالك الناصر لدين الله : الفخرى ص ٢٣٦ وأبو الفداء ، وحاجي
خليفة في كشف الظنون و Quatremère. P 58 وكذلك النهج السيد لابن أبي الفضائل

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان ج ٥ ص ١٥٣

(٣) الفخرى ص ٤٩ ط مصر . (٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠

« وكان يميل إلى رمى البندق ، والطيور المناسب ، ولبس سراويل النبوة والفتوة ، وكانت ساير ملوك الأطراف أن سبقوا إليه في رمى البندق وفي الفتوة ، فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس منه السراويل ، ويرمى له ، فلبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوة له ، وادّعوا له في رمى البندق . ووصل رسول إلى حماة في أيام المنصور الأيوبي صاحب حماة ، وأمره بأن يلبس للخليفة ، ويلبس الأكبر له ، فأمر الملك المنصور صاحب حماة الشيخ سالم ابن نصر الله بن واصل الشافعي الحموي بعمل خطبة في الفتوة ، فعمل خطبة بديعة في هذا المعنى ، واستشهد بآيات القرآن العزيز منها قوله تعالى « إنا سمعنا قتي يذكرهم » ومنها قوله تعالى : « إذ أوى الفتية إلى الكهف » ، وغير ذلك من الأخبار والآثار . فقرئت هذه الخطبة بحضرة الملك المنصور صاحب حماة والأكابر ، وكان قاضي حماة في ذلك الزمان القاضي برهان الدين أبا اليسر ابن موهوب ، فأمره الملك المنصور بلبس سراويل الفتوة في المجلس ، فلبسها ولبسها جماعة ، وكذلك منع الدعوة بالبندق إلا له ، والطيور المناسب في جميع البلاد إلا له ، وأجاب الناس بالعراق ، وسائر الأمصار إلى ذلك ، ما خلا رجلا واحداً رامياً بالبندق من أهل بغداد ، فإنه امتنع من إجابته ، وهرب من العراق ، ولحق بالشام ، فأرسل إليه الخليفة يرغبه بالأموال الجزيلة ليرمى عنه ، ويُنسب في الرمي إليه ، فلم يفعل ، فأنكر ذلك عليه بعض الناس فقال يكفيني فخراً أنه ليس في الأرض أحد يرمى عن الخليفة إلا أنا » ^(١).

(١) راجع تاريخ ابن القرات وكذلك : M. Le Baron de Hammar Purgstall.

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أن الاحتفال بدخول الشاب في سلك الفتیان على عهد الناصر لدين الله كان مصحوباً بشرب كأس الفتوة ، كما أخذ الناصر جنده بالتدريب المتواصل على فنون الرياضة البدنية المختلفة^(١) ، لتقوى أجسامهم ، ويشتد بنيانهم . وأعلّ رمى البندق هذا كان من الرياضة التي أخذ بها نفسه وجنده ، وكان للفتیان لباس خاص كما ذكرنا ، وأهم ما يميزهم هو سروال الفتوة ، وهو أليق بالفرسان ، ويساعدهم على سرعة الحركة ، وركوب الخيل بيسر وسهولة . وكانت بين الفتیان روابط وثيقة . ولا يدخل في هذا النظام أحدٌ إلا بعهد من الخليفة أو من يكل إليه هذا^(٢) .

أما رياضة رمى البندق التي ورد ذكرها كثيراً ، فهي لعبة فارسية أخذها العرب عن الفرس في أواخر أيام عثمان بن عفان ، ومارسوها زمناً ، ولكنهم كانوا يعدون ظهورها منكرًا يجب اجتنابه ، وإن ظل ثمة من يزاولها ، وكان للرشيد فرقة تسير بين يديه ، وترمي بالبندق من يقف في طريق موكبه . ولما جاء الناصر لدين الله اهتم بهذه الرياضة اهتماماً عظيماً . والبندق : كرات دقاق من الطين أو الحجارة أو الرصاص ، وترمي بالقوس ، وكان الفتیان يخرجون جماعات إلى ضواحي المدن ، ويُطَيرون الحمام ثم يرمونه بالبندق . ثم افتتوا في رمى البندق على مَرَّ الأيام فرموها بالمزاريق أو الأنايب بضغط الهواء من مؤخرة الأنبوب ، فلما اخترع البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنايب وسموا هذه الآلة (بندقية) نسبة إليه^(٣) .

(١) أبو الفداء تاريخ الناصر لدين الله ، وحاجي خليفة في كشف الظنون وكذلك

J. A. Jan 1849

(٢) للمراجع السابقة نفسها ، وكذلك H. Ritter in Der Islam, vol.x(1920),

PP. 244, 50

(٣) الرياضة عند العرب لكامل علوى ص ١٦٤

ولست أدري حقاً هل كان تأليف الناصر لدين الله نظام الفتوة على هذا الوضع للرياضة والترف لا غير ، أو أن هناك دوافع أخرى دعت إليه ؟ ؟ أعتقد أن الناصر وإن كان من هواة الرياضة إلا أن عصره كان مليئاً بحوادث جسيمة فقد كان معاصراً لصالح الدين الأيوبي والحرب على أشدها ضد الصليبيين ، والمسلمون جميعاً مجتهدون في هذه الحرب المقدسة . وشعار الفتوة دائماً التضحية والجهاد ، والحفاظة على الشرف ، فهل كان هذا التدريب الرياضي ، ولباس الفتوة الخاص ، وشرب كأس الفتوة — دليل الرابطة والدخول في العهد — والمهارة في رمي الطير بالبندق كلها لتأليف فرقة خاصة تنتسب إلى الخليفة ، وتستمد قوتها الروحية من الانتساب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو من هو في الجهاد والبلاء في سبيل الله ، حتى تكون هذه الفرقة القوية المعدة أتم الإعداد جسمياً وروحية من خير جند المسلمين الذين يحاربون الصليبيين ، أو أن هذا النوع من التدريب ، والأخذ بنظام الفتوة كان مجرد اللهو وقتل الوقت ؟ ؟

يخبرنا ابن تغري بردي في تاريخه . أن الناصر لدين الله أرسل في السنة التي توفي فيها وهي سنة ٦٢٢ هـ رُسلًا إلى نور الدين ، وإلى الملك العادل شقيق صلاح الدين ، وإلى ابنه الملك الصالح ، وإلى الملك شهاب الدين حاكم غزّة ومعهم كأس الفتوة وسراويلها ؛ لكي ينتظموا في سلك فتيانته ^(١) ، وهؤلاء كما نعلم كانوا من كبار القادة في الحروب الصليبية .

ولعل هذا يؤيد ظننا بأن نظام الفتوة الذي أنشأه الناصر لدين الله كان

(١) ابن تغري بردي مخطوطة في مكتبة باريس راجع J. A. Aaut - Sept 1855. P.

الغرض منه إيجاد فرقة قوية لمحاربة الصليبيين ، وأنه لم يكن الغرض منه الترف والصيْد واللهو فحسب ، فإن المهارة في الصيْد ، ومقاتلة الوحوش ، وإحكام الرماية تؤهل كلها للتفوق في الفروسية . ولقد كان ثمة فارس آخر شجاع معاصر للخليفة الناصر ألا وهو أسامة بن منقذ . وكان من الشجعان الأقوياء حتى سماه الذهبي (أحد أبطال الإسلام ^(١)) . وقال عنه ابن الأثير ، « إنه كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها ^(٢) » ، وقال أسامة عن نفسه في كتاب الاعتبار : « فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت الخواف والأخطار . ولاقيتُ الفرسان ، وقتلتُ الأسود ، وطعنت بالرمح ، وجُرحت بالسهم ^(٣) » . وشهد أسامة قتال الفرنجة ، وخاض المعارك العديدة في شتّى وجه من مدن سوريا الشمالية ، وعسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين ، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي ديار بكر والموصل ، فلا غرو أن أصبح اسمه في التاريخ الإسلامي مرادفاً للبطولة ^(٤) . ومع كل هذا فقد كان مغرمًا بالصيْد ، وقد خصّه في كتابه بفصل طويل استهلّه بقوله متمثلاً :

ولله مني جانبٌ لا أضيّعه ولله مني والبطالة جانبٌ

وكان مولعاً بصيْد الأسد ، والحيوان الضاري كالفهد والنمر ، وقد قال في كتابه الاعتبار : « وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدّة منها لم يشركني أحد في قتلها ^(٥) » .

ولعل سيرة أسامة بن منقذ وفروسيته ، واهتمامه بالصيْد هو ووالده وعمه ،

(١) دول الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٧١ (٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٧

(٣) الاعتبار ص ١٦٣ (٤) فيليب حتى مقدمة كتاب الاعتبار .

(٥) الاعتبار ص ١٤٤

وقد كانا كذلك من الأبطال تبين لنا ، أن نظام الفتوة الذى أنشأه الناصر لدين الله كان خاصاً بطبقة الأشراف والمترفين ، وأنهم كانوا يلهون بالصيد ويفيدون قوة ودُرْبَةً ، وكانوا يقاتلون الأعداء إذا دعاهم داعى القتال ، وإن لم يكن ثمة اتصال — فيما أعلم — بين أسامة والخليفة الناصر لبُعد الشقة بين مُقاميهما ، فالخليفة الناصر كان ببغداد ، وأسامة عاش فى مصر حقبة ثم فى شيزر ودمشق ، وكان منهمكاً فى حروبه مع الصليبيين .

ولما مات الخليفة الناصر لدين الله فى سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م ، لم يبطل نظام الفتوة الذى وضع تقاليده من بعده ، فها نحن أولاء نرى الخليفة المستنصر (حفيد الناصر لدين الله) يسير على سنته ، ويُنعم على من يشاء بلباس الفتوة أو يَكِل إلى أحد خاصته ممن له سابقة وقدم فى الفتوة لينوب عنه فى ذلك ، فقد رُوى فى حوادث سنة ٦٢٦ هـ « أن فخر الدين أبو طالب أحمد ابن الدامغانى ، والشيخ أبو البركات عبد الرحمن ، والأمير فلك الدين محمد بن سنقر الطويل ، ذهبوا إلى جلال الدين منكوبرى بن خوارزمشاه ، وهو يومئذ على مدينة (خلاط) محاصراً لها ، ومعهم تشريفات ، وكراع ، ولباس الفتوة ، وقد وُكِّل الخليفة المستنصر (فخر الدين الدامغانى) أو الشيخ أبا البركات فى تَفَتِيهِه ، وكان هؤلاء الثلاثة المرسلون صادفوه خارج مدينة « خلاط » للحصار فخلعوا عليه ما أرسل به الخليفة إليه ، وألبسوه سراويل الفتوة »^(١) .

وفى سنة ٦٣٤ هـ حضر عبد الله الشرمساحى مدرس المالكية بالمدرسة

(١) راجع : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لسكمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الغوطى البغدادى ص — ٨٠ — بغداد ١٩٣٢ وراجع كذلك (الفتوة والفتيان قديماً) مجلة لغة العرب إبريل ١٩٣٠ لمصطفى جواد .

المستنصرية (بالبدرية) عند شرف الدين إقبال الشرابي ، وأنعم عليه بلباس الفتوة نيابة عن الخليفة^(١) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ توفي جلال الدين عبد الله بن المختار العلوي السكوفي ، « وكان عريق النسب ، كبير القدر ، أدبياً فصيحاً ، حفظ القرآن في نيف وخمسين يوماً ، وكان يحضر عند الخليفة الناصر في رمى البندق ، والفتوة ، ولعب الحمام ، وكان يفتي ويرجع إلى قوله ، ولم يزل كذلك إلى أيام الخليفة المستنصر بالله فأشار عليه أن يلبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على عليه السلام ، وأفتى بجواز ذلك ، فتوجه الخليفة إلى (المشهد ولبس السراويل عند الضريح الشريف ، وكان هو النقيب في ذلك »^(٢) .

وهكذا توارث خلفاء الناصر لدين الله نظام الفتوة هذا حتى زمن المستعصم آخر خلفاء بني العباس في الشرق ، حين دمره هولاكو المغولي ببغداد وقتل المستعصم وأهل بيته سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م . كانت الخلافة قبل عهد الناصر لدين الله تحتضر ، وكان الخلفاء قد فقدوا من قبله كل سلطان وقوة ، ولم تعد لهم إلا سلطة اسمية ، وخضعوا خضوعاً تاماً للسلاجقة ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، وفي معظم هذه الحقبة كانت الحروب الصليبية على أشدها في سوريا وفلسطين ، ومن العجيب أن هذه الحرب الدينية الاستعمارية التي كانت تهدد الشرق العربي كله ، لم تجد أي اهتمام من السلاجقة أو الخلفاء العباسيين . ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، أقبل وفد من الشام إلى بغداد مستغيثاً بأولى الأمر ، وقد أكثر الوفد من البكاء والعويل ، وذكر ما أصاب المسلمين

في القدس من الأذى البالغ ، ولكن ذلك كله لم يؤثر في نفوس السلاجقة أو الخليفة ، وعاد الوفد من غير أن يقضى شيئاً^(١) . وفي سنة ١١٠٨ م حاصر الفرنجة طرابلس ، فذهب وفد من أهلها إلى بغداد يستغيث بالخليفة ، وبالسلطان السلجوقي ، ولكنه رجع بدون جدوى .

وحين استطاع صلاح الدين الأيوبي — الذي اشتهر بمحاربه للصليبيين — القضاء على الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م — دعا للخليفة العباسي المستضيء — لأن صلاح الدين كان سنياً — فاعترفت سوريا ومصر حينذاك بسيادة خلفاء بني العباس الاسمية . ولما انتصر صلاح الدين على الفرنجة في معركة حطين المشهورة أرسل صلاح الدين إلى الناصر لدين الله العباسي الذي تولى الخلافة بعد المستضيء في سنة ٥٧٥ هـ عدداً من أسرى الفرنج ، وجزءاً من الغنائم فيها صليب من البرونز مغشى بالذهب ، قيل إنه كان يحوى قطعة من عود الصليب الحقيقي ، فدفن الخليفة هذا الصليب ببغداد^(٢) .

وقد حاول الخليفة الناصر لدين الله محاولة ضئيلة لآخر مرة أن يحيي معالم الخلافة ، ويبعث فيها شيئاً من النشاط والقوة ، وقد وجد الوقت ملائماً ؛ لأن أمراء السلاجقة قد بدءوا يتخاصمون فيما بينهم ، ويكيد بعضهم لبعض ، ولأن صلاح الدين الأيوبي الذي ملك مصر والشام ، قد اعترف به ، فحاول استرجاع شيء من سلطته المفقودة ببغداد ، فظهر بمظهر الأبهة والبذخ ، وأقبل على تشييد الأبنية ، وأسس نظام الفتوة على ما ذكرنا آنفاً ، وكان هذا النظام يضم رجالاً

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣ . وأبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين

من ذوى المناصب والجاه أكثرهم ممن ينتسبون لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه^(١) ، وكان الغرض منه تهيئة طائفة قوية من الفتيان عليهم يساعدون فى الحروب الصليبية .

كانت محاولة الناصر هذه آخر مظهر من مظاهر البطولة العربية الإسلامية وإن شابهها كثير من الترف واللهو ، والانصراف عن الجد ، والمشاركة الفعلية فى القتال ، وقد أراد أن يبعث روح الحماسة فى نفوس من حوله من الأشراف وذوى المناصب الكبيرة فى الدولة ، ولكن هيهات ! فإن الأمة قد دبَّ فيها الانحلال والوهن ؛ لأن العرب الفاتحين قد اختلطوا على مرِّ الأجيال بالأعاجم المغلوبين ، ففقدوا بذلك صولة الغالب ، وصفات السيادة ، وبأخطاط الروح القومية بين العرب ضعفت أنفثهم وقواهم المعنوية ، ولم يطل الأمر بدولتهم حتى غلبهم عليها هولاء الذين خضعوا لهم من قبل . وكان للتسرى ، وما رافقه من نظام الحریم والخصيان ، واقتناء الجوارى والغلمان أثر فى تقويض معنويات الأمة ، وإفساد الرجال ، وذهاب المروءة منهم . وبتكاثر السراى تكاثر المولدون من بنين وبنات ، من أمهات مختلفات فى بلاط الخلافة ، واتسع المجال للتحاسد والفتن . زيادة عن انغماسهم فى ضروب اللهو والترف والتخنث ، وعكوفهم على مجالس الشراب والغناء .

قضت هذه العوامل المتعددة على نشاط الأسرة العباسية الحاكمة ، وأورثت أولياء العهد ضعفاً جسدياً وعقلياً وخلقياً . وإذا أضفت إلى ذلك كله

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٦٨ ، والفخرى ص ٤٣٤ ، وابن جبير ص ١٨٢ ، و
Thorning. Beitrage Zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens
(Berlin, 1913)

العوامل الاقتصادية السيئة التي أحاطت بالخلافة العباسية في آخر عهدها ، حين استبد أمراء الولايات بشئون ولاياتهم ، وتغالوا في فرض الضرائب على رعاياهم ، وحرّموا الخليفة أى سلطة إلا المظهر الاسمى ، كما حرّموا الأموال ، إلا ما يكفيه وأهل بيته ، وأدى ذلك إلى ضعف الخلفاء مادياً ونفسياً ، وإلى ترك الفلاحين لقراهم وهجرهم أراضيهم هرباً من الضرائب الفاحشة .

ولم يطل أمد الخلافة بعد الناصر لدين الله فقد وليها بعده ابنه الظاهر مدة عام ، ثم حفيده المستنصر ، ثم المستعصم . مات الناصر سنة ٦٢٢ هـ ، وقضى هولاء على الخلافة العباسية بضربة قوية سنة ٦٥٦ هـ ، وبذلك انتهت فتوة الناصر لدين الله ، التي سميتها فتوة المترفين ؛ لأنه ومن تبعه في نظامه هذا كانوا من المترفين حقاً ، وكانت فتوته هذا وثبة المحتضر الذى يلفظ آخر أنفاسه ، ولم تعمّر إلا أمداً يسيراً ، ولم تثمر الثمرة المرجوة ، لأن جسم الخلافة ، بل جسم الأمة الإسلامية في المشرق كان ضعيفاً ، وليس من الهين إعادة العافية لمن وهن عظمه ، ودبّ فيه ديب الفناء ، وأنهكته أمراض الشيخوخة .

ولكن نظام الفتوة والفروسية وتقاليده الذى وضعه الناصر لدين الله قد انتقل إلى طائفة أخرى من الساميين هم المماليك في مصر . وكان المماليك غالباً من الشراكسة والأتراك ، وهم أجانب عن مصر وعن العالم العربى ، وكانوا يحترفون الجندية ، بل يعدّون إعداداً خاصاً للنفوق في الجندية وفنون الفروسية وقد تبرز مواهب أحدهم ، ويبدأ أقرانه ، فيصير صاحب السلطة ؛ إذ لم يكن الملك بينهم وراثياً إلا نادراً ، وإنما الغلبة للقوى ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظّ السعيد يغير من

أخلاقه ، فهو في منصب الوالى تتقمصه في الغالب روح العبد^(١) . وهذا يدلنا على قيمة التفوق في ضروب الفروسية ، وأنه وحده السبيل للتملك والوصول إلى الولاية ، وكان كلُّ مملوك ذى شأن يقتنى عدداً كبيراً من الممالك ، ويدربهم على فنون الحرب ، وشئون القتال ، والمهارة في الضرب بالسيف ، وركوب الخيل . والحق الذى لا مرء فيه أن هؤلاء القوم — لتفرغهم لشئون الحرب — ، قد حسّنوا كثيراً في الفروسية العربية ، ووضعوا لها قواعد وأنظمة دقيقة صارمة وفى ذلك يقول الأستاذ (كاترمير) فى تعليقاته على كتاب السلوك للمقريزى نقلاً عن المؤرخ المصرى أبى المحاسن : « إن لعبة المناورة بالسهم بين الفرسان هى من ابتكار ممالك قلاوون (القرن السابع الهجرى) وأن أجدادنا العرب وإن كانوا يلعبون هذه اللعبة إلا أن طريقتهم كانت مختلفة^(٢) » .

كانو يمتطون الجواد عارياً وهو بعدُ صغير ، ويقفزون على الجواد قفزاً ، ومنه إلى الأرض بدون سرج ، ثم وهو مُسرج ، وبدون سلاح ، ثم بعدتهم كاملة حتى يكتسبوا السيطرة والمرونة على الركوب . أجل ! إن العرب منذ أقدم الأزمنة كانوا يفعلون ذلك ، وقد قال العمري : كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى ثم يجمع جراميزه^(٣) ، ويثب فكاًئما خلق على ظهر فرسه . وقال عمر بن الخطاب كذلك : « لن تخور قوى ما كان صاحبها

(١) راجع The Beginig of The Egyptian question and The Rise of

Mohamed Ali by Prof Shafik Ghorbal. P. 2

(٢) راجع أبو المحاسن بن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ وكذلك

Quatremèr : Hist de Sultans Mamlouks par Makrizi P. 58

(٣) جراميزه : بدنه .

يَنْزِعُ وَيَنْزُو^(١) » يعنى ينزع فى القوس ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالرُّكْب . فليس ما قام به المالك جديداً فى هذا الشأن ؛ لأن طبيعة العرب فى صحرائهم — كما ذكرنا — جعلتهم فرساناً محسكين بالفطرة والبيئة وكأنا عناهم المتنبي بقوله يصف الخيل وفرسانها :

فكأنما خلقت قياماً تحتهم وكأنما خلقوا على صهواتها
وكان المالك فى حاجة إلى مثل هذا التمرين

وإذا كان لهم من ميزة فهى أنهم تدربوا على كل أنواع الفروسية من الرمي بالقوس ، والضرب بالسيف . فضلاً عن التمرين البدنى الصارم تدريجاً منتظماً متواصلًا لاهوادة فيه ولا راحة ، ولامبالاة بالأخطار ، وقد أفردوا لدراسة الفروسية الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية ، ولم تنشر حتى اليوم من ذلك : « نهاية السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » تصنيف بكتوت الرماح خازندار الملك الظاهر^(٢) . وكتاب الفروسية برسم الجهاد تأليف محمد بن أحمد بن لاجين الحسامى الطرابلسي^(٣) ، والباب الأول منه : « فى ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثانى : « فى المناصب الحربية » والباب الثالث : فى الحروب وعلم الفروسية^(٤) . وقد أنشأ سلاطين المالك كثيراً من الميادين لألعاب الفروسية ، وكان الميدان من السعة بحيث يغشاه بضع مئات من الفرسان فى وقت واحد . وكثيراً ما قامت المبارزة بين الفرسان بعضهم

(٤) مسالك الأبصار لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ج ٥

(١) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٣١ Orient

(٢) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨

(٣) A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. P. 545 راجع

وراجع كذلك الدكتور على إبراهيم حسن : المالك البحرية ص ٢٧٢

و بعض في حضرة السلطان وقد وضعت للمبارزة قيود وتعليمات خاصة قيدت في قوانين ودفاتر ، وكان على المبارز أن يستخدم كل مواهبه لخلع خصمه عن سرجه ، دون أن يضربه الضربة القاتلة ؛ ولذلك كانت المبارزة تتطلب الكثير من الخدق والبراعة . وقد مارسوا لعبة (البولو) وكانت تسمى لعبة الصولجان ، ويطلق الصولجان على العصا التي تضرب بها الكرة . وذلك قبل أن تعرف أوروبا هذه اللعبة بقرون ، لأن إنجلترا لم تعرف هذه اللعبة إلا في أواسط القرن التاسع عشر نقلاً عن الهنود .

وأنشئت في عهد المماليك جماعة كان يرأسها السلطان ، ولها نظمها الخاصة تسمى جماعة الفتوة ، وكان السلطان صاحب الحق في قبول الأعضاء وفصلهم ، وكانت هذه الجماعة تحذو حذو فتيان الناصر لدين الله ، فتتدرب على رمي السهام ، والنبال ، والبندق ، وتصيد الحمام للتمرين ، وتزوي بسروال الفتوة ^(١) . وقد أبلى المماليك بلاءً حسناً في الحروب التي خاضوها ضد الصليبيين ، وضد المغول ، ولا ننسى أبداً أنهم هم الذي ردوا تيار المغول الجارف بقيادة هولاكو الطاغية الذي عاث في بلاد المسلمين فساداً ، وطوّح بالخلافة الإسلامية ببغداد إلى الهاوية ، واجتاح كل مدن سوريا ، وحاصر دمشق إلى أن نهده له القائد العظيم الظاهر بيبرس قائد السلطان قطز ، وهو يحاصر دمشق حصاراً عنيفاً ويلح عليها بقسوة ؛ حتى تخر صاغرة تحت سنانك خيله كما خرّت المدن الإسلامية العتيدة من قبل ، فهزمه هزيمة منكرة في موقعة (عين جالوت) ^(٢)

(١) السلوك للمقريزي ج ١ ص ٧٢٥

(٢) عين جالوت بين بيسان ونابلس بفلسطين .

سنة ٦٥٨ هـ ، ثم هزمهم في بيسان وقتل منهم نحو النصف^(١) . فرد عن مصر وعن بلاد الإسلام شراً ماحقاً .

وإلى هؤلاء المماليك يرجع الفضل في هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم قضاءً مبهماً فقد هزمهم بيبرس هزيمة منكرة في موقعة المنصورة المشهورة سنة ٦٤٧ هـ لقد كافح صلاح الدين الأيوبي هؤلاء الصليبيين مكافحة شديدة ، وكسر حدتهم ، وخضد شوكتهم ، وقد اشتد ساعدهم بعد وفاته لكثرة النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين ، ولولا المماليك لساد الصليبيون ، واستولوا على الدول الإسلامية جميعها . فترى قلاوون سلطان المماليك بمصر يخف لقتالهم وينزع منهم القلاع والبلدان ، فيفتح المرقب^(٢) سنة ٦٨٤ هـ ، ويفتح طرابلس التي لم يجرأ أحد من قبله على التعرض لها لحصاتها ، كما كسر جيش القتر على حمص ، وكانوا في ثمانين ألف فارس^(٣) ، بيد أنهم صمموا على الانتقام من جيوش مصر ، وتوالت هجماتهم على مدن سوريا في عهد غازان المغولي الذي اعتنق الإسلام ، وهزموا جيش السلطان الناصر في موقعة الخزندار^(٤) سنة ٦٩٨ هـ ثم فتحوا دمشق وعاثوا فيها وفي المدن المجاورة لها فساداً وأكثروا السلب والنهب والقتل سنة ٦٩٩ هـ^(٥) حتى قال بعض شعراء الشام يصف المصائب التي حلت بهم من جلاء غزو المغول وإفسادهم :

(١) السلوك المعريزي ج ١ ص ٤١٧ ، وأبوالفداء ج ٣ ص ٢٠٩ وترجمة كاترمير للسلوك ص ٩٦

(٢) قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام يذكر أسامة بن منقذ في تاريخ القلاع والحصون أنها شيدت على يد المسلمين سنة ٥٤٥ هـ . Encyclopedia of Islam. Markab .

(٣) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج ١٦ القسم الثالث ص ٦٥٠

(٤) المعريزي في كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩

(٥) التهج السيد لابن أبي الفضائل ص ٦٤٤ — ٦٤٤ وكتاب السلوك المعريزي

ج ١ ص ٩٣٣ — ٩٣٤

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة فما أحد منا من السبع سالم
غلاء وغانان وغزو وغارة وغدر وأغبان وغم ملازم
بيد أن السلطان الناصر قد أعدَّ عدته وخرج من مصر في سنة ٧٠٢ هـ
على رأس جيش كبير ، وخرج من الخليفة العباسي ويصف المقریزی هذه
المعركة بقوله : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ،
ويحشون على الجهاد ، ويشوقون إلى الجنة ، وصار السلطان يقف ، ويقول
الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم ، وعن دين نبيكم
صلى الله عليه وسلم ، والناس في بكاء شديد ^(١) » ، وتقابل الجيشان في مرج
الصفير على مقربة من حمص فهزم جيشُ الناصر المغول هزيمة ماحقة ، ومات
منهم كثيرون من شدة الظمأ ، وأسر المصريون عشرة آلاف ، وغنموا
عشرين ألف رأس من الماشية ^(٢) ، ولم تقم لهؤلاء التتر بعد ذلك قائمة إلى عهد
تيمورلنك . وكارَدَ هؤلاء المماليك طوفان التتر عن مصر وعن البلاد العربية ،
ألحوا على الصليبيين بالغزو والقتال حتى طردوهم طرداً شنيعاً ، وذلك حين فتح
السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مدينة عكا آخر معاقلهم في بلاد الشام
سنة ٦٩٠ هـ ^(٣) .

ولقد شهد لهم نابليون بالبراعة في فنون الفروسية ، ولكنَّ هؤلاء على
الرغم من براعتهم تلك في فنون القتال ، وشجاعتهم الفائقة ، لم يأخذوا من
من الفتوة العربية إلا ناحية واحدة فقط وهي التفوق في الحرب ، والشجاعة

(١) السلوك ج ١ ص ٩٣٣

(٢) أبو الفدا المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٥١

(٣) أبو الفدا ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦

الفائقة ، وفيما عدا ذلك ندر من كان منهم سخي اليد ، كريم القلب ، رحب الصدر ، وفيما بوعده . بل نرى على العكس من ذلك ، شدة التنافر فيما بينهم يثب بعضهم على بعض ، ويتولى العرش أقوام ساعداً وأكثرهم أنصاراً ، ويقتل السلطان السابق من غير رافة ولا رحمة ، وقد كان من مماليكه الذين رباهم ، وعلمهم ، وقدّمهم ، كما قتل بيبرس السلطان قطز ، وكما قتل الأشرف خليل وهو يصيد في الصحراء بأيدي مماليكه . لم يكن هؤلاء المماليك يتحلون بتلك السجايا العربية التي وصفناها آنفاً ، ومع هذا كله فقد وضعوا للفروسية نظاماً محكماً ، وقد أخذ عنهم الصليبيون كما أخذوا عن صلاح الدين والعرب عامة كثيراً من نظم الفروسية وتقاليدها كما سيأتى في الفصل القادم إن شاء الله .

بين فتوة العرب وفروسية الغرب

كم كان بودي بعد أن تتبعت الفتوة العربية في نشأتها بين أحضان الصحراء ، وفي سياحتها في الدول الإسلامية ، أن أذكر شيئاً عن عرب الأندلس ، وبلاد المغرب ، بيد أنني رأيت أن هؤلاء لا يختلفون في تقاليدهم العربية الشريفة ، في أثناء قتالهم مع أعدائهم في سبيل الله ، أو في صلاتهم مع سواهم من الناس عن آبائهم الأول ، وأن تقاليد الفتوة ، وثمارها العطرة الشبيهة قد حملت معهم إلى أوربا ، وظلت طابعاً لهم في كفاحهم المرمية ثمانية قرون سواء كان ذلك في ظل دولة بني أمية أو في ظل ملوك الطوائف ، أو لدى المرابطين أو الموحدين . ثم إنني رأيت أن حديثي عن فروسية الغرب قد يفسح لي بعض المجال لذكر شيء موجز عن تأثير عرب الأندلس في فروسية أوربا .

وقد حفزني الكلام عن فروسية الغرب ، ونحن في صدد البحث عن فتوة العرب ، ما رأيته ، وراه غيري من قبل ، من أوجه الشبه العديدة بين الاثنين ، وأن فتيان العرب وفرسان أوربا قد تلاقوا في أكثر من ميدان . ولا ريب أن أول ما يخطر بذهن الباحث المدقق هو هذا السؤال : هل ثمة صلة بينهما ؟ وللإجابة المرضية عن هذا السؤال أرى لزماً على أن أعطي صورة سريعة موجزة للفروسية الغربية ، ونشأتها ، ومميزاتها ، ثم أتكلم عن الصلة بينها وبين الفتوة العربية ، ثم أوازن بينهما .

والآن ! هل الفروسية بتقاليدها المعروفة ميل نفساني يظهر طبيعياً لدى

بعض الأمم ؛ أو أنه شيء طارئٌ عليها ، استعارته من سواها ، حين رأت أهدافه الجميلة ، وطابعه الإنساني ؛ أو بعبارة أوضح : ما أصل الفروسية الغربية ؟ ومتى نشأت ؟ وأين نشأت ؟

تعرف المعاجم الفروسية بأنها : « نظام عسكري إقطاعي خاص بالنبلاء وظهر في العهد الإقطاعي » ، وثمة نوع آخر ظهر إبان الحروب الصليبية ، ثم نوع ثالث ظهر بعد انتهاء الحروب الصليبية يختلف في أهدافه وغاياته عن النظامين ، وإن لم يعمر طويلاً .

الحق أن الفروسية الغربية قد مرّت في أطوار ثلاثة . ففي أول الأمر كانت نظاماً عسكرياً لا يضم إلا طائفة النبلاء ، ولا يحارب هؤلاء إلا على جياد مطهمة ، ويكونون في سنن تؤهلهم لحمل السلاح ، ولا بد أن يكونوا من ذوى اليسار حتى يُعدّوا أنفسهم إعداداً تاماً بالسلاح . وقد ابتدأ تنظيم الفروسية طبقاً للتقاليد (الإسكندنافية) ، فكل من يملك جواداً ، ولديه أربعون (ماركا) ، وعدة كاملة من السلاح ، وله من الثروة ما يمكنه من إعداد نفسه باستمرار ، حتى لا يظهر بمظهر زرى يسىء إلى النبلاء يستطيع أن يكون فارساً ، ولم تكن في فرنسا طبقة خاصة من الناس متميزة عن سواها تدعى طبقة الفرسان ، ولكن الميل الطبيعي لدى النبلاء هو الفروسية . وفي القرن الثالث عشر صدر قانون يحتم أن يكون الفارس من طبقة النبلاء ، بل أن يكون كل نبيل فارساً ، ومن بلغ سن الرابعة والعشرين منهم ، ولم يلتحق بالجندي عوقب عقاباً شديداً . ومنذ القرن الحادى عشر وضعت الأنظمة الإقطاعية الخاصة بالفروسية ، وأهمّها : حرص الفارس على شرف الفروسية

l' honneur chevaleresque . ويتمثل في الإخلاص والطاعة والشجاعة .
لقد كانت أول واجبات الفارس الإقطاعي هو أن يحمي سيده ، وكان
يُعَدُّ إعداداً خاصاً كي يكون فارساً ، فينتزع وهو في السادسة من عمره من
من بين أحضان النساء ، ويرسل إلى حاشية أحد الأمراء ، أو حاشية الملك
ليتلقي تعاليم الفروسية ، ويبتدئ من المراتب الدنيا ، فيقوم أول الأمر بأعمال
منزلية ، ويراقب النبلاء في حركاتهم ، وآدابهم وشتى مناحي سلوكهم ، ويعطى
في نفس الوقت تعليماً خاصاً يتناسب مع منزلة والديه ، ومع ذكائه ، واستعداده
وبعد ذلك يلتحق بخدمة أحد الفرسان ، فيتعهد الخيول ويدرس طباعها ،
ويشهد ترويضها ، ويتعود ركوبها ، ويصحب سيده تابعاً له في الصيد وفي
ميدان القتال ، وفي المباريات الخاصة ، وقد يشترك معه في كل هذا ويساعده
حتى إذا ظهرت مواهبه ، وتم استعداده ، وصار في سن تؤهله لأن يكون فارساً
أقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان ، ويقلد فيه السيف ، يقلده إياه أبوه ،
أو أميره ، ويضربه أبوه بجمع يده على قفاه ، وتلقى خطبة كلها في تقاليد
الفروسية والشجاعة ، ثم يعرض الفارس الجديد بعض ألوان من الفروسية^(١) .
هذا هو النظام الإقطاعي للفروسية ، وهو نظام أوجدته الضرورة ؛ إذ كان
أمراء الإقطاع في حروب مستمرة بعضهم مع بعض ، وكان لا بد للأمر من
جند مدر بين يحمونه وأسرتهم ويحافظون على أملاكهم ، ويردون عنه غارات
منافسيه ، واضطر الأمراء أول الأمر إلى استخدام جنود مرتزقة انحدرت الجندية
على أيديهم إلى وحشية بينة ، فعمد هؤلاء إلى قوانين ترفع من مستواهم الخلق

(1) La Grande Encyclopédie. tom. X. PP. 1137—1139.

وتصقل من طباعهم الجافة ، وتحول بينهم وبين الضعة والحقارة ، ثم قصرت الفروسية على طائفة النبلاء وذوى اليسار^(١) .

ولما شن العرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية ، كان هؤلاء النبلاء هم عماد تلك الحملات ، يخرجون من بلادهم ومعهم جنودهم المدربون على دفعات لغزو الشرق الأدنى ، وكان من الطبعي أن تبارك الكنيسة هذا العمل ؛ لأن فيه دفاعاً عن الدين ، وقتالاً — في زعمهم — ضد الكفرة الملحدين ، وصار القسس يحضرون حفلات الفروسية التي تقام لكل فارس جديد ، ثم على توالى الأيام صار القسيس هو الذى يقلد الفارس سيفه ، ويباركه ، ويغمسه فى الماء المقدس ، وكان على الفتى أن يتطهر ، ويتوب ويتندم ، ويلبس الثياب البيض سمة الطهر والصلاح ، وبذلك صار هذا التقليد البربرى تقليداً دينياً ، شاركت فيه الكنيسة ورجالها أول الأمر ثم استقلت به ، ولم يعد الأمير أو الوالد هو الذى يقلد الفتى سيفه ، ولكن صار ذلك من مهمة الكنيسة . وقد أدت الحروب الصليبية ، وما فيها من اختلاط الفرسان من شتى البلاد بعضهم ببعض إلى إيجاد مميزات جديدة للفروسية ، وصارت أكثر تديناً وأعظم انتشاراً ، وواجباً على كل شريف مسيحي . لقد كان أول واجبات الفارس الإقطاعى حماية سيده ، فصار من أول واجباته حماية الكنيسة ، وقتال الكفرة . وكان يحتفل بدخول الشاب فى نظام الفروسية عادة فى يوم عيد من أعياد المسيحية بالكنيسة ، وأحياناً فى ميدان

(1) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanité. t. III p.436. Traduction E. Quint.

القتال ، وقبل بدء المعركة^(١) .

كانت الفروسية الغربية في أوجها في ذلك العهد المسيحي ، ولكنها انتهت عند استرداد المسلمين (عكا) سنة ٦٩٠هـ - ١٢٩١م من يد المسيحيين على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون^(٢) .

ثم تحولت الفروسية الغربية في القرن الرابع عشر إلى فروسية ضالة ، لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة . رجع الفرسان الذين قاتلوا في الشرق ، وقد تطورت أوروبا ، وابتدأت نهضتها الحديثة ، ولم يجدوا عملاً ، فطفقوا يجوبون البلاد باحثين عن المغامرات ، وناديين أنفسهم لأداء الخدمات ، ومساعدة الضعفاء ، والأخذ بيد المنكوبين ، وباحثين قبل كل شيء عن الحب ، ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الأشراف . وفي هذا العهد ظهرت الفروسية بصفات جديدة فيها كثير من سمات الفتوة العربية وإن اختلفت عنها في الغاية . وأهم خصائص هذه الفتوة الحديثة : الحب ، واحترام المرأة ، والرغبة في المغامرات ، والسخاء ، والمرح وقت الحظر ، وحسن المعاملة والتمسك بالوعد حتى الموت ، والحذب على الضعفاء ، وتمجيد الشجاعه الحربية ولو كانت من الأعداء ، وعظمة النفس وسموها وإخضاع القوة الجسمية للذكاء المذهب^(٣) ومحاربة الكنيسة والقضاء على سلطانها ونفوذها وتدخلها في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة^(٤) ثم تلاشى هذا النوع من الفروسية على

(1) La Grande Encyclopedie, tom. X. PP. 1137—1139. et Wacyf Ghali : La Tradition Chevaleresque des Arabes. p. 8.

(٢) أبو الفدا ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ ، Hammar-Pargstall. J. A. Jan. 1844 ،

(3) Viollet-le-Duc, Dictionnaire du mobilier, t. V, P. 6.

(4) Wacyf Ghali : P. 13—14.

مر الأيام ، وصارت أساطير تروى ، وقصصاً تكتب .

ولعلك رأيت من هذا العرض السريع كيف تطورت الفروسية الغربية على مرّ الأيام من فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها ، ليس فيها من سمو الروح ، ودمائة الخلق شيء ، ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة ، مملوءة بالتعصب الدينى ، ليس فيها شيء من سماحة العقل ، واتساع أفقه ، إلى فروسية حديثة ، فيها كثير من صفات الإنسانية ومثلها العليا . وقبل أن أخوض فى أسباب هذا التحول الأخير ، وكيف تأثر فرسان أوروبا بحضارة العرب حتى تهذبت طباعهم ، ورقت حواشيمهم ، واكتسبوا منهم سمات النبيل الحقيقى لا نبيل الدم والنسب ، وكيف قلدهم فى طباعهم ، وجعلوهم المثل الأعلى لهم ، أعرض بعض الآراء التى سجلها الباحثون عن نشأة الفروسية الغربية وأصلها .

نرى بعض الباحثين ينكر وجود الفروسية الغربية كما صوّرها رجال الأدب ويقول : « كلما تعمق الإنسان فى دراسة التاريخ تبين له بوضوح أن الفروسية الغربية من اختراع الشعراء والقصاصين ، ولن يعثر أى باحث على وثيقة تاريخية تثبت أن الفروسية — كما يعرفها الشعراء — سادت بلداً ما . إنها تلوح من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم — بينما يعطينا المؤرخون فكرة مفصلة ، واضحة ، كاملة عن مآثم النبلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم ، واستعبادهم للشعب . وإن المرء ليعجب حين يقرأ بعد ذلك بزمن مديد الشعراء وهم يحيون هذه العصور فى رواياتهم ، ويخلعون على النبلاء أردية الفضيله والشجاعة والكرم والطاعة^(١) .

(1) S. de Simondi : De la Littérature du Midi de la France, t. I. PP. 90 et 91.

ويرى بعض الباحثين أن الفروسية الغربية في ثوبها الجميل لم تظهر إلا في الحروب الصليبية وما بعدها ، وأن ما سبقها في العهد الإقطاعي كان شيئاً قريباً قريباً من البربرية^(١) .

ويرى كثير من الباحثين أن أصل الفروسية الغربية يرجع إلى العادة التي كانت متبعة في ألمانيا بإعطاء الرمح للفتى الذي أظهر الاختيار أنه كفء لحمل السلاح^(٢) ، ويردها بعضهم كذلك إلى التقاليد الألمانية ولكن بتعليل آخر فيقول : « كان معظم القبائل الألمانية التي غزت أوروبا وانتشرت في شتى أنحاءها من الحاربين ، وكان أغلبية هؤلاء الحاربين فرساناً ، يمتطون الخيول ، وكان من الطبيعي أن يتطلع هؤلاء إلى مكافأة تتناسب مع بلائهم في الحرب . ثم تكونت على مر الأيام جماعات ينتسب بعضها للأمر ، وبعضها للملك أو الإمبراطور ، وألفت فيما بينها نظاماً خاصاً ، أو مدرسة حربية تلقن فيها تعاليم الفروسية ، وأصول القتال والكر والفر ، يغشاها الأحداث فإذا تجلت مواهبهم دخلوا في خدمة نبيل فارس أقدم منهم وأعرق في الفروسية وفنونها مع خضوعهم التام له ، ولا يوجد على ما أعتقد أى أصل آخر للفروسية الغربية غير هذا^(٣) . »

وإذا سلمنا جدلاً بأن أصل الفروسية العسكرية مأخوذ من العادات الألمانية وتقاليد رجال الحرب القبليين فيها ، وأنها على مر الأيام وضعوا لها نظاماً خاصاً ميز الفرسان عن سواهم ، فما الذي وضع للفروسية الغربية كلَّ

(1) Gautier : La Chevalerie.

(2) Tacite. Mœurs des Germains, XIII.

(3) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire. t. III, P 436.
Traduction. E. Quint.

تلك التقاليد السامية؟ وأين الروح النبيلة الكامنة في نفس الفارس، ومن يقول إن الفروسية — وهي ثمرة الجمال الخلقى — مأخوذة عن الألمان. إن التاريخ يرفض مثل هذا الادعاء. وكيف تسنى للألمان أن يضعوا المثل العليا للفروسية من التمسك بالكلمة تعطى، والسخاء والأريحية، والإخلاص، والطاعة، والإنسانية الكاملة؟^(١)

« كان الألمان منذ وجدوا حتى اليوم عبيداً لغرائزهم التي لم تهذب أو تصقلها الفكرة والمثل العليا والخضوع للواجب الإنسانى، فيهم أنانية، وغلظة، وصرامة، وشهوة عارمة للإفساد، إنهم يقدسون القوة الوحشية كما تظهر في الطبيعة، أو كما تظهر على يد محارب سفك. وتاريخ الديانة الألمانية وتاريخ الألمان أنفسهم، هو سجل للقتال وسفك الدماء، وأعظم قربان يتقرب به الألماني، ويسعد به نفسه هو سفك الدم الإنسانى، والجنسة التي يطعم الجندى الألماني في دخولها هي المكان الذي تسيل فيه الدماء من غير انقطاع، حيث يشرب المرء الخمر في جمجمة عدوه. ومثل هذه الديانة لا ترتفع بالنفس الإنسانية، ولا تسبهم في إسعاد البشرية وعلى الرغم من اعتناقهم المسيحية فقد ظلت عبادة القوة دينهم، والقسوة العارمة نزعتهم »^(٢).

ويؤكد (هردر) على الرغم من ألمانيته أن الفرنسيين كانوا أساتذة للألمان في الفروسية بمعناها الخلقى السامى، وتقاليدها المعروفة إبان القرون

(1) Wacyf Ghali. P. 9.

(2) Mignet. Mémoires de l'Académie des Science morales et politiques. T. III, année 1841 : Comment l'ancienne Germanie est entrée dans la Société Civilisée de l'Europe occidentale.

الوسطى^(١) وفي القرون الوسطى كان كل حق يعتمد على القوة ، وكان المثل الأعلى للمحارب هو النشاط والجلد ، فمن أين أتى للفروسية العربية إذاً هذا الخلق الذي هذب طباع الفرسان ، وجعل هدفهم الظهور بمظهر الإنسان الكامل ؟ ؟

يجنح كثير من الباحثين إلى أن الفروسية العربية قد اكتسبت ثروة نفسية ، وخلقية من الفتوة العربية حتى ظهرت في ثوبها القشيب الذي تفخر به ، بل إن منهم من غالى فقال إن كلمة Chevalerie التي نعر بها بكلمة فروسية مأخوذة من كلمة cherval أو chelval وهي السروال العربي الذي كان يميز الفتيان عن سواهم^(٢) . وأن أوروبا لم تعرف الفروسية إلا عن العرب ، ويؤيده في رأيه هذا فريق كبير من الباحثين^(٣) ، ويعتدل فريق آخر فيرى أنها تألفت من عناصر عربية ، ومسيحية ، وألمانية معاً^(٤) .

يقول واصف باشا غالى : « لا ترجع الفروسية الفرنسية إلى أصل روماني أو ألماني أو مسيحي أو عربي ، ولكنها فرنسية ، وليس معنى ذلك أنها لم تتأثر بالمدنية العربية ، إنها تأثرت بالتقاليد العربية فعلا في أسبانيا ، وفي فلسطين ومصر إبان الحروب الصليبية ، ويتضح هذا التأثير بصيغ الفروسية الفرنسية بصيغة حسنة ، ومظهر جميل ، وبدمثة ورقة ولطف لم تعدها من قبل . إن

(1) Herder : op, cit. P. 449.

(2) Mémoire de l'Académie des Sciences, Belles-Lettres et Art de Marseille. vo : années 1854 à 1868, p. 267; article de H. Guys.

(3) A. de Beaumont, Recherches sur l'origine du blason. Viardot, Histoire des Arabes et des Maurs d'Espagne.

(4) Chateaubriard, Analyse raisonnée de l'Histoire de France.

J. J. Ampère. Mélange d'Histoire Littéraire et de Littérature. t. I. pp. 248.

البذرة فرنسية غرست في أرض فرنسية ، ولكن إذا كانت قد نمت سريعاً وظهرت قوية الاحتمال ، وأتت بأزهار عبقة الشذا نضرة الألوان ، فإن ذلك بفضل شمس الشرق الساطعة ، وبفضل صبا نجد التي هبت عليها^(١) .

ونحن لا نمارى في أن الفروسية الغربية قد نبئت في أوربا ، ولا نغالى مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحمة وسدى ، فذلك أمرٌ يخالف الواقع ، هذا إذا قصدنا بالفروسية ذلك النظام العسكري ، الذى يتميز بالتدريب على فنون القتال ، والجلد ، واحتمال الصعاب ، ليس غير ، لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم التى تلتحم مع سواها في كثير من ميادين القتال ، إما مغيرة ، تتطلب الغزو والسيطرة ، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والعيشة الكريمة ، ولقد كانت أوربا في القرون الوسطى في حرب دائمة بعضها مع بعض ، وكانت دويلات صغيرة لم تتوحد بعد ، وكانت كذلك بعيدة كل البعد عن المدنية وحياة الاستقرار ؛ لأن النهضة الأوروبية الحديثة لم تبدأ إلا في القرن الثانى عشر بعد احتكاك أوربا بالشرق ، وكانت أوربا قبل ذلك لا تزال تتخبط في ديجور مطبق من الجهالة والظلم ، والقهر . فلا بدع ، إذاً حين ترى فيها هذا النظام العسكري ، فإذا اجتمعت طائفة من الفرسان تحت إمرة رئيس كان لابد من تنظيم العلاقة بينهم فيقسمون يمين الطاعة لرئيسهم ، والإخلاص له ، وعلى الوفاء لإخوانهم ، ورؤسئهم يحترم كل وعد وعده ، ويبرم أى أمر عقده ، ويوجههم إلى غاية واحدة^(٢) .

أما أن أوربا الغربية قد أفادت من تقاليد الفتوة العربية فذلك أمر

(1) Wacyf Ghali, op cit. p. 14.

(2) Lavisss et Rambaud, Histoire Générale. t. II. p. 60.

لا مرء فيه ولا شك ، ولقد أجمع على ذلك نفرٌ من خيرة الباحثين الأوربيين الذين لم يعمهم التعصب الذميم ، ويطمس على أفئدتهم الهوى المضلُّ ، ومنهم من يرى أن تأثير العرب في أوربا جاء عن طريق الأندلس ، وأن تقاليد الفروسية الغريسية مأخوذة من عرب الأندلس^(١) لطول احتكاكهم بفرسان أوربا مدة ثمانية قرون ، لم تحمد فيها نار الحرب برهة ، وقد تألب على العرب أم شتى من أوربا كلها ، وشهدوا صدق بلائهم في الحرب ، وكرم قلوبهم ، وحسن معاملتهم ، ووفائهم بعهودهم ، وصارت هذه الصفات الكريمة أمثلة عليا يحتذيها فرسان الغرب ، ويتغنون بها .

وفي لغة (البروفنسال)^(٢) تجد كلمة galaubia غلابية المأخوذة من كلمة (غلب) ، و (غلبة) العربية تعنى تلك الطبيعة ، والحالة النفسية والحمية التي تحمل المرء على البحث عن المجد والشهرة ، ولا سيما في ميدان الشجاعة والفروسية ، وتحدى كل من ينافسه في هذا الميدان حتى يغلبه ، و galaubia مرادفة للشجاع والجرىء والفارس ، والمغلب في العربية المغلوب مراراً والمحكوم له بالغلبة (ضد) ، ومن الفعل غلب يأتي اسم الفاعل غالب ، وغالب : لقب لسيدنا علي بن أبي طالب ، وهو موجود في ديوانه ، وإن كان هذا الديوان كما يقرر شارحه التركي (مستقيم زاده) من شعر الشريف المرتضى المتوفى سنة ١٢٢٥م وقد ورد في قطعة من الديوان ص ١١٤ طبعة مصر سنة ١٢٢٥

هذا لكم من الغلام الغالب من ضرب صدق وقضاء الواجب
وفالق الهامات والمناكب أحى به مقام الكتاب

(1) Fauriel, Histoire de la poésie Provençal. t. III. p. 312.

(٢) البروفانس : إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية المطلة على البحر المتوسط .

ومن أسماء على الفتى تبعاً لما أثر عن رسول الله أنه قال بعد غزوة أحد « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على »^(١) . وقد علمت فيما تقدم منزلة سيدنا على في سلسلة فتياي الناصر لدين الله^(٢) وقد كانت فتوة الناصر كما مرَّ بك مصحوبة بشرب كأس الفتوة ، وقد أخذ الغرييون هذا ، وتراهم يشربون كأس القديس graal ويظن بعض الباحثين أن graal محرفة من الكأس بتأخير أل ، أو من (الجرعة) بتأخير أل^(٣) .

إن أصول الفروسية الغربية سواء الدينية التي ظهرت في العهد الكنسي أو الحديثة التي ظهرت بعد ذلك مأخوذة عن عرب الأندلس ، فقد كان للمرابطين نفس النظام الديني الذي نقله عنهم فرسان أوربا أما الفروسية الحديثة فمرجعها كذلك إلى العرب ؛ إذا كان المرباطون يقومون بتدريبات عسكرية ورياضية عنيفة ، وكانوا يختارون من الجنود الأشداء الذين لهم صبر على احتمال المشاق ، ولم يكن يسمح لهم بالفرار ويموتون في الميدان من غير أن يولوا الأدبار^(٤) وكانت الصلات التجارية والعلاقات السياسية ، والحروب المتصلة ، والمعاهدات الكثيرة من الرسائل التي احتك فيها الغرب بالشرق منذ وطئت أقدام العرب أسبانيا في القرن السابع الميلادي ، وكانت معاهدات السلام التي

(١) Fauriel في كتابه المتقدم ص ٣٢٦ ونقله عنه هامر بـرجستال في عدد يناير

Hammar-Purgstall. op, cit, Journal Asiatique

١٨٤٩

وراجع كذلك في هذا الموضوع :

Dictionnaire de la langue des troubadours par Raynaud t.3. p.418

(٢) راجع ص ٢٤٠ من هذا الكتاب وما بعدها .

(3) Hammar-Purgstall. op, cit.

(4) Fauriel, op, cit. p. 321—326. et dozy. Histoire des Musulman d'Espagne (introduction)

تعتقد بين الفرنسيين والمسلمين وسيلة لأن يتعرف كل ما عند الآخر من مزاجيا خلقية ، وقد أدرك الفرنسيون شيئاً عن الإسلام وعرفوا أن المسلمين أكثر منهم مدنية . فلا عجب إذا أخذوا عنهم كثيراً وأفادوا منهم ^(١) ، ولا سيما التهذيب الخلقى ، وتقاليد الفروسية التي شكلوها حسب مزاجهم ، ويزيد هذا تأكيداً أن مقاطعات فرنسية عديدة ظلت تحت الحكم العربي رَدَحاً غير قصير من الزمن ^(٢) ، ولا أدل على هذا التأثير من أنه لا تزال ثمة آثار تلك المدنية العربية في الزراعة والصناعة ، والتقاليد الخلقية ، واللغة — وبخاصة الكلمات المتعلقة بالفروسية ، بل وبعض التدريبات الرياضية — وفي الخيال والتفكير ^(٣) .

ويقول Fauriel إن هذا الخلق العربي ، خلق الفروسية وتأثيرهم في أوربا هو أحسن وأجمل وأظهر شيء في أخلاقهم وفي نظمهم ، ولقد أثر أثر كبيراً في أخلاق أهل الجنوب والوسط من فرنسا ، حيث أنهم في خلال القرن الحادى عشر لم يروا في العرب الذين كانوا يعدونهم أول الأعداء المسيحية إلا قوماً أكثر منهم مدنية . وكان من الطبيعي جداً أن الناس ، أو على الأقل الطبقة ذات التأثير فيهم ، والتي بيدها قيادة المجتمع ، تحاكي العرب في أخلاقهم ، وتأخذ عنهم أنظمتهم التي ترى فيها فائدة لهم مع تعديل ضرورى يلائم حالهم .

لقد كان تأثير عرب أسبانيا على المدنية الفرنسية ولا سيما المدنية التي أسميها (مدنية الفروسية) تأثيراً مباشراً وواضحاً كل الوضوح . ومن المستحيل ألا

(1) Lavissee et Rambaud. op, cit, p, 346.

(2) Fauriel, op cit, p. 420.

(3) Fauriel. op cit, p. 312.

تصل بوسيلة أو أخرى إلى الأدب الفرنسي^(١) .

« وقد استعار سكان أوربا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المرأة وليست المسيحية على الرغم من أن الكل يعتقدونها التي رفعت شأن المرأة ولكنه الإسلام^(٢) » .

« كانت غزوات العرب الأولى لأسبانيا وفرنسا محوطة بالعظمة والأبهة مما لا يمكن أن يقرأه المرء إلا وتعرّوه الدهشة والحيرة ، وكان العرب يمتازون عن سواهم من الغزاة (كالنورمانديين والمجريين) بأنهم أمة بقيت على رأس المدنية مدة طويلة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسا ظلت ترتعد من احتمال غاراتهم أمداً غير يسير ، ثم إن الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في أفريقية أو في آسيا في وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق المعان الذي كان من قبل ، بيد أن كل هذا لم يكن كافياً لتفسير مكانة العرب العظيمة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسا ومن جوارها خلفاً عن سلف ، فقد كانت هذه القصص الأسرار الوحيدة للأمرء والنبلاء ، بل والشعب . وكان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية ، وحساً نجيباً . وقد تضاعف كل تاريخ بجانبها ، وهزل كل أدب سواها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، ويذهبون من بلدة إلى أخرى فينشدونها للجماهير التي تترنح لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع

(1) Fauriel. op cit. t. III. p.433.

(2) Florian, dans son Précis Historique sur le Maures. et G. Le Bon, Civilisation des Arabes. p. 428.

أولئك الرواة في إنشاء تلك القصائد عن سير أبطال الوطن ، وكانت هذه السير تدور حول حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم ولما كان في هذه القصص ، وتلك القصائد من المبالغة ما هو طابع كل القصص الذين يترنمون بوقائع تلك الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي ؛ تجسماً لفضل أولئك الذين أبلوا في تلك الوقائع ؛ حتي صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة في فرنسا وإيطاليا أمير عربي ، أو بطل عربي يبارزه أمير فرنسي ، وبعد أن يشتد البراز ، ويطول العراك ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ينتهي الأمر بالبداهة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي .

« وعلى العموم فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا ، والأقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة ، وعزة النفس ، ومكارم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ، تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها ما رواه بعض مؤرخي الأسبان من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك أستورية (أذفونس الكبير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد في المسيحيين حينذاك من هو كفء لهذه المهمة^(٣) وما عليك إلا أن تلقى نظرة عاجلة على الروايات والقصص التي تروى أخبار الفرسان في الغرب لتعلم مدى تأثير التقاليد العربية لا في فرنسا وحدها ولكن في العالم المسيحي كله . إننا نعلم جميعاً أن هذه الروايات هي المصدر الوحيد الذي تدرس فيه عادات النبلاء ، بل وعامة الشعب ، وأنها وضعت قوانين وأنظمة للحروب ، ومثلاً علياً يحتذيها الفرسان ، وأنها كانت دروساً في

(3) J. Reinaud. Invasion des Sarrazins en France en Savoie... etc p. 314,

وترجمة الأمير شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب) ص ٢٤٢ .

البطولة ، وحسن المعاملة ، وطرق الحياة ، وقد أتى في الفصل العشرين من رواية تربان (Turpin) التي سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقى الأمر بالفروسية ، وتشرب تعاليمها من الأمير العربي الذي كان يحكم (كولينو) في مقاطعة (بروفانس)^(١) ؛ وقد تلقى (برنارد دى كاربيو) Bernard de Carpio أقدم فرسان الأسبان ، وأعظمهم صيتاً فنون الحرب على يد العرب حين التحق بجيوشهم محارباً في صفوفهم ، ولم يتميز ويشتهر إلا بعد أن حذى الفروسية ثمة ، وقد أفصحت رواية Le Cid عن تلك التقاليد العربية النبيلة منذ القرن الثانى عشر^(٢) .

وقد حرص شعراء المسيحية على إذكاء الحماسة في قلوب مواطنيهم بوصفهم أخلاق أعدائهم العرب ، وتمجيد أعمالهم وكرمهم ، ووضعهم مثلاً عليا تحتذى ، حتى يجد هؤلاء في تقليدهم ، ويسيروا على نمطهم . وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء المسيحيين سواء في الشجاعة أو الكرم ، وحسن المعاملة في أى مكان حلوا به وفي أى زمان كانوا فيه . هاك الوالى عبد الملك (٧٥٥م) يقذف ابنه وفلذة كبده بالرمح فينفذ من صدره لأنه رآه يولى الأدباء أمام قوة أعظم من قوته^(٣) ، وهاك عبد الرحمن الثالث يكرم عدوه اللدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب في سنة ٩٦٠ م . فيؤمنه ، ويقدم له الهدايا ويزيد في إكرامه ، حتى يبرأ من

(1) Wacyf Ghali, op cit, p. 17.

وتاريخ غزوات العرب ص ٢٤٣

(2) Sismondi, De la Littérature du midi de la France, t. I, pp. 270 et suiv.

(3) Viardot : Histoire des Arabes et de Maures en Espagne, t. II, pp. 118, 196, 278.

مرضه ، فأين هذا مما فعله ملك قشتاله بيير القاسى فى سنة ١٣٦٠ حين دعا أمير غرناطة أبا سعيد إلى قصره فلبى دعوته ، ولما رأى بيده خاتماً ثميناً راقه ، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم ^(١) .

وهاك مثلاً آخر يدل على النبل والكرم ، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بأذى ، فقد ذهب ألفونس الثامن ملك قشتالة لمحاصرة (أوريغة) العربية فرأى أمير قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحاصرة مدداً ، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن يشتبك فى قتال خارج المدينة يكون جيشه فيه الأقل عدداً وعدداً أمام عدو كبير قوى العدة ، ورأى أن يحتال لإبعاد جيش العدو عن المدينة بمهاجمة (طليطلة) حيث كانت تقيم ملكة قشتاله ، فلعل زوجها إذا سمع بذلك يترك (أوريغة) . وأخذ القائد العربى فى مهاجمة طليطلة وحصارها ، ورأت الملكة — وقد عصرها هم والحزن — ألاّ ملجأ لها إلاّ إلى الخلق العربى النبيل تستمد منه النصر ، فأرسلت إلى القائد العربى تقول : إننى امرأة ، وليس من شيم الفرسان قتال النساء ، فإذا أردت قتالاً فعليك بزوجى فإنه ينتظرك على أبواب (أوريغة) فهزت هذه الكلمات مشاعر القائد العربى . وطلب أن يحبسها قبل أن يبرح مكانه ، فصعدت إلى أسوار المدينة — وكلها ثقة بشرف وعده ، عالمة أنه لن يمسها أذى — فحياها الجيش العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة (أوريغة) العربية واستولى عليها ^(٢) . فأى مثل فى الكرم والتضحية ، وحسن المعاملة ، والنخوة ضربه هذا القائد العربى

(1) Gustave le Bon, la civilisation des Arabes. P. 387.

(2) Louis Viardot, Essais sur l'Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne.

للمسيحيين في عصره ، وبعد عصره ؟ ! .

واستمع إلى مثل آخر من تلك الأمثلة النادرة في التاريخ ، وذلك حين تخلى الشعب عن ألفونس الحكيم في سنة ١٢٨٠ م ، فطلب المساعدة من ملك المغرب العربي يعقوب بن تاشفين ، فلبى صريخة ، وعبر المضيق ، وقابل ألفونس في (زارا) ، وحين رآه هذا أراد أن يتخلى له عن كرسيه احتراماً له وإجلالاً ومهابة ، بيد أن يعقوب أجابه : إبق حيث أنت ، فما جئت إلا لمساعدتك في محنتك ، وحين أقوم بهذا الواجب ، وتصير سعيداً منتصراً ، وتستعيد قوتك سأنازعك هذا العرش ، وأصير عدوك^(١) ، فهل ثمة قلب أسخى من هذا القلب وأشجع ؟ !

ولم يكن تأثير عرب المشرق إبان الحروب الصليبية على أخلاق فرسان أوروبا أقل من عرب الأندلس والمغرب ، ففي أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين أظهروا تفوقهم الخلقى ، وأنهم أكثر مدنية ، وأعلى كعباً في الحضارة من أعدائهم ، فبهروهم بهذه المثل الطيبة ، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ غربي منصف : « إن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر الزمن — وهى ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخى الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزاً واضحاً جلياً — ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم ، وأساليب حياتهم ، لم يخف ذلك كله فى أن يؤثر فى أفكار هؤلاء الصليبيين وأخلاقهم ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك

السمح الذى سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ، وهو اتجاه فكرى كان أشد ما تشكو منه الكنيسة^(١) . ومما يظهر الفرق بين أخلاق الصليبيين قبل أن يختلطوا بالمسلمين ، ويأخذوا عنهم التقاليد النبيلة ، والمعاملة الرقيقة ، وأخلاقهم بعد اختلاطهم بهم مارواه أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار ، من أنه كان له أصدقاء من فرسان المعبد ببيت المقدس ، فإذا زار بيت المقدس خصصوا له زاوية صغيرة بالمسجد الذى كانوا يحتلون ، وتصادف أنه ذهب مرة ، ودخل المسجد للصلاة فهجم عليه أحد الفرنجة . يريد أن يحوله عن الصلاة ، فبادر إليه بعض فرسان المعبد *The Knights Templar* ، وأخذوه وأخرجوه عنوة ، واستأنف أسامة صلاته ، فاغتفلهم هذا الصليبي المتعصب ، وهجم ثانية على أسامة ورد وجهه إلى الشرق قائلاً له : « كذا صلَّ » فعاد فرسان المعبد إليه ، واعتذروا لأسامة ، وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام »^(٢) .

ولا أدل على أن هؤلاء الصليبيين قد تهذبوا على يد العرب من قول أحد مؤرخيهم : « لقد هذب العرب — سواء فى التجارة أو الحروب — من الأخلاق الحسنة التى كان يتصف بها رؤساؤنا كما هذبوا من عاداتهم الفظة . أما الفرسان فقد تعلموا — من غير أن يفقدوا شجاعتهم — المشاعر الرقيقة وأجل الفضائل الإنسانية ، ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق »^(٣) .

(1) Guizot : Histoire de la civilisation en Europe P. 234. (Paris 1882)

(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٥ ط فيليب حتى (برنتون) ١٩٣٠ .

(3) Barthélemy Saint-Hilaire, Mohomet et le Coran, 1865.

لقد تعلم فرسان الصليبيين من احتكاكهم بالعرب في المعاملات وفي ميادين القتال كيف يهذبون من طباعهم الحرية الجافة ، وكيف يكونون ظرفاء كرماء أوفياء بالوعد ؛ لقد لانت طباعهم ، وصُقلت خشوتهم لما رأوه من كمال أعدائهم ومعاملتهم الحسنة على الرغم من شجاعتهم . لقد اضطروا إلى ذلك اضطراراً في كثير من الأحيان ؛ لأنهم كانوا مرغمين على مقابلة الإحسان بمثله ، وعلى الوفاء بالوعد كما يفي أعداؤهم بوعودهم ، وعلى المحافظة على مواعيدهم ، وعلى السخاء كما يسخو العرب ، وعلى احترام المرأة كما يحترمونها^(١) .

ويؤكد بعض الباحثين أن الفروسية الغربية جسماً وروحاً قد نقلتها أوربا عن العرب سواء في الحروب الصليبية أو في المغرب . كان صلاح الدين معاصراً للخليفة الناصر وكانت معاصراً (ليرتشارد) قلب الأسد ملك إنجلترا وللملك (فيليب أوجست) ، وهذا العصر هو أزهى عصور الفروسية المسيحية ، وقد تأسس في ذلك الوقت نظام (فرسان المعبد) بعد أخذ بيت المقدس^(٢) وهو أحسن ألوان الفروسية الغربية .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليه من بطولة فائقة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة إعجابهم به ، وانجذابهم إليه أن هجروا دينهم المسيحي . وهجروا قومهم ، وانضموا إلى المسلمين وقد طرح النصرانية فارس إنجليزى من فرسان المعبد يدعى روبرت أوف سانت أليانس

(1) Wacyf Ghali, op cit. P. 22. Paris 1919.

(2) Hammer Purgstall. J. A. Jan. 1849.

Robert of st. Alpins في سنة ١١٨٥ ، واعتنق الإسلام ، وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين^(١) . وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين ، وكان جوي Guy ملك بيت المقدس ضمن الأسرى ، وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه يفرون إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم^(٢) .

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين ، وقد كان نبيلاً في كل تصرفاته مع أعدائه ؛ فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يصاب في المعركة أمام صلاح الدين فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه ، ولم يزل يعنى به حتى يشفى من مرضه ثم يطلق سراحه^(٣) .

وحينما فتح صلاح الدين بيت المقدس منح أهلها جميعاً الحرية ومدَّ إليهم يد المساعدة بالأموال . ولما رأى نور الدين ريتشارد قلب الأسد في معركة يافا يحارب على قدميه ؛ لأن حصانه قتل في الميدان أرسل إليه جوادين كريمين قائلاً : إنه لا يليق بجندى شجاع بأسل مثله أن يحارب راجلاً^(٤) .

وهاك نور الدين يضرب مثلاً آخر في النبل والشجاعة الفائقة في ١١٦٣ حين مات (بودوا) فلم يشأ أن يستغل وفاته في مهاجمة عسقلان ، وقال : إنه عمل غير إنساني أن تزعج قومًا محزونين على أميرهم ، ولن يشرف مجدى الحربى

(1) Roger Hoveden : Chronica Magistri. edited by William Stubbs. vol. II. p. 307, London, 1868.

(2) Benedict of Peterbourgh. edited by William Stubbe. vol. II pp. II. 12. London 1867.

(٣) محمد بن منكل . الأحكام السلطانية (مخطوط) ص ٨٧ — ٩٥ .

(4) Stanley-Lane-Pool. Saladine and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 353.

أن أهجم على قوم غير مستعدين للدفاع^(١).

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية قصتها (أودو الدويلي) أحد رهبان القديس دينيس Denis ، وكان في صحبة لويس السابع ، في خلال هذه الحرب ، وكتب في وصفها ما نصه :
 بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، منوا بهزيمة منكرة على أيدي الأتراك المسلمين في ممرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨ م ، ولم يبلغوا مدينة (أناليا) الساحلية إلا بشق الأنفس ، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق ، في الإبحار إلى أنطاكية ، وتحلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون اللحاق بزملائهم ، بيد أن الجيش لم يكد يغادر المكان ، حتى وشى الإغريق بهؤلاء الحجاج العزل إلى الأتراك ، وأخذوا يرقبون في صمت ما يعانیه هؤلاء التعسفين من الجماعة والمرضى ، والجراح الدامية . ولما حاولت جماعة من الحجاج تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة أن تلوذ بالفرار حين شاهدوا الأتراك قادمين ، هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصاراتهم ، ولكنهم رأوهم في حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر العطف ، فكفوا عن هجومهم ، وطفقوا يواسون المرضى ، ويغيثون الفقير ، ويطعمون الجائع الذي أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم جميعاً العطايا في كرم

(1) Marin, Histoire de Saladin Sulthan d'Égypte et de Syrie, t. I. pp. 78 et 95.

وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي كان الأغريق قد ابتزوها من الحجاج قسراً أو خداعاً ، ووزعوا بأريحية وجود على المعوزين منهم ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار (أى المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم في المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ، حتى إن كثيراً من هؤلاء التعسفين دخلوا في دين منقذهم بمحض إرادتهم . لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساةً عليهم ، ووجدوا الأمان بين أحضان الكفار الذين كانوا رحماء بهم ، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقيقروا إلى صفوف الأتراك . آه ! إنها الرحمة أقسى من الغدر ! لقد منحوهم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، وإن كان من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً منهم على نبذ دينه ، واكتفوا بما قدموه لهم من خدمات ^(١) .

وإذا لم يكن صلاح الدين عربياً ، وإذا لم يكن الأتراك عرباً ، فإنهم جميعاً مسلمون ، قد اهتموا بهدى هذا الدين الحنيف الذى آتى صاحبه ليتم مكارم الأخلاق العربية التى نبتت فى الصحراء عبقة الشدا ، وفاح أريجها فى كل بلد خلّ فيه العرب والمسلمون .

ومما يروع أن يكون هذا مسلك الأتراك المسلمين ، ومسلك صلاح الدين ونور الدين ، وسواهم من قواد المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما نرى ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه فى موقعة عكا سنة ١١٩١ ،

على الرغم من المعاهدة التي نُصَّ فيها على منحهم الحرية والحياة^(١) ، فأى بون شاسع بين هذه الأخلاق الفظة ، والمعاملة الوحشية ، والتعصب الذميمة الذى يظهره المسيحيون دائماً ، وبين تلك الأخلاق النبيلة ، والفتوة الكاملة التى يظهرها المسلمون ؟ ! . لقد ارتكب ريتشارد فى معركة عكا إثمين عظيمين : قتله الأسرى الضعفاء الذين لا يملكون حولاً ولا قوة ، ونقضه العهد ، وغدره وخيائته .

استمع إلى المقرئ يصف معاملة سلاطين الممالك لأسرى الصليبيين والمغول : وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الغنائم والأسرى ، وكان كل أمير يستولى على غنيمته ، عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تتول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلا بإذنه . أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان ، الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ، ويأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء ، أما الرجال ، فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشئ إلا بعد معرفة أقدارهم ومراتبهم ، ومكاتبهم بين ذويهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأُخلى سبيله ، أما من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل إلى أمكنة خاصة بالأسرى^(٢) .

حقاً إن عظمة الفتوة العربية ، والأخلاق الإسلامية تتجلى فى تلك المعارك الدامية التى دارت قديماً بين الغرب المتعصب والإسلام السمح ، وفى ذلك

(1) Marin Histoire de Saladin, Sulthan d'Egypte et de syrie, t. II p. 306 et 307 — Stanley-Lane-Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 306,

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ، ص ٣٠١ وما بعدها .

يقول (ستانلى لين بول) : « لقد أجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية على أن فضائل المدنية : العظمة ، والسماحة ، والعفو ، والفروسية الحقيقية ، والتهذيب الدّمث ، كانت كلها فى جانب العرب والمسلمين إبان هذا القتال المرير ^(١) » .
ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يأتى : —
١ — لم تظهر الفروسية الغربية متحلية بالشرف والمثل الخلقية *Culte de l'honneur* إلا فى القرون الوسطى ، وهى قديمة لدى العرب قدم تاريخهم .

٢ — كانت فى طبقة خاصة من الناس هم النبلاء ، وأمراء الإقطاع وفرسانهم ، وكانت صفة عامة للعرب جميعاً الذين لا يعرفون نظام الطبقات ولا يقرونه .

٣ — ابتدأت أول الأمر للحماية من وحشية محترفى الحرب ، ثم تدخلت فيها الكنيسة ، ثم انقلبت على الكنيسة .

٤ — أخذ فرسان الغرب عن العرب كل تقاليد الفروسية الخلقية من شجاعة وكرم ، وسماحة ، وعفو عند المقدرة ، واحترام للمرأة ، ووفاء بالعهود ، وحماية للضعفاء . وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب ، لأن هذه الصفات كانت طبيعية لدى العرب ، متأصلة فى نفوسهم ، وجرت عليها تقاليدهم ، وورثوها عن آبائهم ، وحث عليها دينهم ، فتضافرت عوامل عدة على تمكينها فى قلوبهم وطباعهم ، فلا يتكلفونها أو يستطيعون الانحراف عنها . وعلى العكس من ذلك فرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعهم ، وطنى عليهم

تعصبهم ، وإن أفادوا كثيراً من الدماء ورقة الجانب وكثيراً من سمات الفتوة العربية بعد أن اختلطوا بهم .

٥ — ظهر نظام الفروسية في أوربا أولاً مصبوغاً بصبغة عسكرية بحتة ، من غير أن يتسم بصفات خلقية شريفة ، ثم تحلى بالأخلاق الشريفة بعد ذلك ؛ ولدى العرب ظهرت الفتوة الخلقية أولاً ولم يظهر نظام الفتوة إلا متأخراً على عهد الناصر لدين الله ، حين رأى العرب أنفسهم في حاجة إلى قوة ونظام يحفظان عليهم أخلاقهم .

وخير ما أختم به هذه الفقرة هو قول (ليميتير) J. Lemaitre : « من العجب أن الشعر العربي في أثناء الحروب الصليبية كان له تأثير خفي لست أدري كمه في صوغ المثل الأخلاقية لفرسان فرنسا »^(١) .

وقول (شاتوبريان) : « تميز عهد الفروسية في الغرب بوجود النظام الإقطاعي ، وطفان الإمبراطور وحاشيته ، وظلمهم للناس . أما العرب فلم يكن لديهم نظام إقطاعي ، بل كان العربي الذي يعيش في الصحراء ويقيم في خبائه — مهما كان فقيراً معدماً — يتمتع بكامل الحرية ، وله من جميع الناس كل التقدير ، وهو شجاع ، حر ، كله نشاط وحيوية ، لا يعرف له سداً غير الله »^(٢) .

ولا يسعني أن أتقل إلى نقطة أخرى من البحث قبل أن أشير إشارة يسيرة إلى تأثير العرب على فرسان أوربا من حيث احترام المرأة ، والحب ،

(1) Wacyf Ghali. p. I.

(2) Chateaubriand. Analyse raisonnée de l'Histoire de France (Feodalité, Chevalerie etc.) p. 82.

والشعر: ظهر فرسان أوربا في أواخر عهد الفروسية الغربية بمظهر الاحترام للمرأة، لا لتلك صاحبة المقام الممتاز في المجتمع فحسب ولكن لجنس النساء بعامه مهما كانت منزلتها الاجتماعية، ورقت طباعهم الحربية، وخشوتهم التي اشتهروا بها في القرون الوسطى، وصاروا أدمث خلقا، وألطف معاملة، وأرق حاشية، وكان هذا كله من أثر الفتوة العربية التي أفادوا منها كثيراً.

اشتهر العرب من قديم بعاطفتهم المشوبة، وحبهم القوى، واحترامهم للمرأة، حتى في الجاهلية، ولما جاء الإسلام رفع من شأنها، وأعطاه حقوقها، وساوى بينها وبين الرجل في الواجبات والتكاليف، وكانت المرأة هي الملممة للشعراء، تغنوا بمحاسنها وذكرياتها في أوائل قصائدهم، بل نظموا في حبها أقوى الشعر العاطفي وأرقه في كل الآداب. واشتهر من بينهم من يهوى هوى عذرياً شريفاً، يرقى بالإنسانية إلى منزلة التجرد من المادة، إلى مرتبة الملائكة. وهذه حقائق موجزة لا تحتاج منا إلى تقرير أو تفصيل، وخير لنا أن نستمع إلى الباحثين الغربيين يدلون بشهادتهم في هذا الموضوع: يقول (فلوريان)^(١): « هؤلاء المسامون أرق الناس حُباً، وأكثرهم خشوعاً، وأشدّهم عاطفة. وإذا أحبّ أحدهم امرأة — وإن حجبها حتى تصير أسيرة بيته — أصبحت حاكماً مطلق السيادة، ومعبوداً لا تنازع لهذا الذي ملك قلبه. من أجل النساء سعى العرب وراء المجد، ولكي يستطيعوا أمام أعينهم سعيوا في سبيل الثراء حتى يقدموا لمن أغلى ما يملكون من مال، وحياة ».

ويقول (سيسموندى) في أوائل القرن التاسع عشر: « ترى نساء

(1) Floriant: Précis Historique sur les Maures.

المسلمين مقدسات في أعينهم ، وليس الحجاب لمن سجنًا كما يزعم الناس ، وإنما هيكلًا يُعبدن فيه ، ولا يسمح المسلم أن ينغص زوجته أيُّ شأن من شؤون الحياة ، أو ألم من الآلام ، بل إنه — لرجولته الكاملة — يتحمل كل شيء وحده ، ولا يكلفها عملاً ، والشعر الذي يفصح به عن حبه وعبادته لها هو الذي نجده في شعر الفروسية الغربية ^(١) ، ويقول هذا وقد بلغت المرأة الغربية في الحضارة ، ورفعة المنزل في المجتمع شأنًا كبيراً ، فما بالك بكتاب القرون الوسطى .

تميز عهد الفروسية الغربية دون سواء بالحب الذي يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه الأمر في روما أو بلاد الإغريق ، فقد تحول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة ، والبعد عن المادة ، وخلصت المشاعر الساذجة مكانها إلى نوع من التقديس الصوفي ، كان المبدأ لدى الفرسان أن يحبوا . وكان الحب في نظرهم فضيلة ، بل منبع كل الفضائل ، ولهذا صار جميع الفرسان فضلاء ؛ لأنهم يحبون ، أو يتظاهرون بأنهم يحبون ، وصار الحب نظاماً تعليمياً وعُرف الحب بأنه أصل كل نشاط ، وكل فضيلة خلقية ، وكل مجد .

صارت محاسن الحب في القرون الوسطى عقيدة لا تنازع ، وارتفع شأن الحب حتى أصبح مذهباً اجتماعياً ، له قانونه ، ومحاكمه ، وكهنته ، والمستشهدون في سبيله .

ولا أدل على تأثر فرسان أوربا — ولا سيما فرسان وسط فرنسا وجنوبها — بالفتوة العربية من شيوع ظاهرة غريبة تميزت بها الفروسية الغربية في

(1) Sismondi, op cit, p. 96.

طورها الأخير، أى بعد عن أن اشتد اختلاط هؤلاء الفرسان بالعرب إبان الحروب الصليبية وفي أسبانيا، وفي وسط فرنسا وجنوبها، تلك الظاهرة هي اقتران الشعر بالفروسية. فمنذ صار الحب مذهباً أصبح قرض الشعر من الأمور الضرورية التي يجب أن يكمل بها الفارس نفسه، بل أصبح شرطاً من شروط الفروسية. وصار لزماً على كل الفرسان صغاراً وكباراً أن يقولوا الشعر، ومن لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه، ليتغنى بحبه، ويفصح عن لواعج قلبه، أنشد شعر سواه^(١).

وهذه الظاهرة ولا ريب لم تشع بينهم إلا لتأثرهم البالغ بتقاليد الفروسية العربية، فقلما تجد فارساً عربياً، ولا سيما في العصر الجاهلي، لا يقول الشعر، ولا يتغنى بحبه، ويرتل آيات وجده. كان جُلُّ شعراء العرب الفرسان محبين، ينفثون في قصائدهم لواعج أفئدتهم، ونار حبههم، لتحقيق أو التخيل على الأقل. فالغزل إما أن يصدر منهم عن عاطفة صادقة تنبئ عن قلب دلهه الوجد والعشق كما نرى عند عنتره، وإما أن يكون عن تظاهر بهذا الحب دون أن يمكن وراءه صدق في العاطفة. وكذلك كان كل شعراء (التروبادور) محبين أو تظاهروا بالحب، وكانوا يغشون قصور الملوك والأمراء كما فعل العرب من قبل؛ إذ توجهوا بقصائدهم إلى الخلفاء والأمراء. ويقول الأستاذ جب^(٢):

« في نهاية القرن الحادى عشر ظهر في جنوب فرنسا على حين غرة ضرب

(1) Fauaiel, op cit, t. I. p. 529.

(2) H. R. Gibb : The Legacy of Islam

جديد من الشعر، صناعته جديدة، وله موضوع جديد، ونفسية اجتماعية جديدة. وليس في الأدب الفرنسي القديم إلا شيء قليل مما يمكن اعتباره ممهداً لهذا التطور، على أننا نرى من جهة أخرى أن في هذا الشعر الفرنسي الجديد بعض وجوه شبه قوية بينه وبين نوع خاص من الشعر الذي كان معاصراً له في إسبانية العربية، وهل هناك أقرب إلى العقل والبديهة من أن نظن أن الشعراء الأقدمين في إقليم (پروانس) كانوا متأثرين بالنماذج العربية.

« وليست جدة الشعر الپروانسی آتية من ناحية موضوعه فحسب، ولكنها آتية من ناحية الطريقة التي اتبعت في صوغ هذا الموضوع، وذلك العشق الخفاق الذي كان يعبر عنه هذا الشعر تعبيراً غنياً بالصور الخيالية، ممتازاً بالصقل والتجويد، ولم يكن من نوع ذلك العشق الذي كانت تعبر عنه الأغاني الشعبية الساذجة المفعمة بالوله والهيام، وإنما كان هذا العشق مذهباً عاطفياً. ولم يجد ذلك العشق مثله الأعلى في الفتاة، وإنما وجدته في الزوجة، وهي التي كان لتقديسها، وتقدير خدماتها سلطان أخلاقي أثر في حياة الشاعر فجعلها حياة غنية نبيلة معاً، فأين نشأ إذاً هذا الضرب من الحب، أو هذا التقديس للسيدة؟ » لم يكن هذا الضرب من الحب نتيجة لتقاليد ذلك العصر، كما تظهر ممثلة في آداب الشعب، سواء كانت هذه الآداب تيوتونية، أو رومانية. يقول برنتيير: ولم يحدث أن امرأة في أي زمان ومكان كانت تحنى رأسها، وتخضع بفعل القوة والبطش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعله المرأة من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى. »

« ولقد كان للحب منزلة عظيمة في الشعر العربي، والعرب هم أول من

عنى بتحليل الحب ، والعاطفة فهذا ابن داود فى كتاب الزهرة تراه يرتب فى شعره كل مظاهر الحب ويصنفها ، ويفصلها ، ويشرح طبيعة الحب وقوانينه وتأثيراته ، وطرق التعبير عنه ، وكان فى كل هذا متأثراً بذلك المثل الأعلى الذى نصَّ عليه الأثر : « من عشق فكتم فعم فمات فهو شهيد » .

« ولقد كان للشعر فى الأندلس منزلة سامية ، وكان يجرى على كل الألسنة . ومن بين أولئك الشعراء الذين لا حصر لهم ، والذين عرفت أسماء طائفة منهم ، وأغفلت أسماء طائفة أخرى يصح أن نتخذ اسم الشاعر الفارس سعيد بن جودى ، وقد اقتبس المستشرق دوزى أشعاره مثلاً على موضوعنا هذا ^(٣) . وهنا نرى أن المثل الأعلى للحب العذرى الأفلاطونى قد صادف قبولاً عاماً . وابن حزم يضرب المثل فى الإسلام للتطرف الدينى والجدل العنيف ، وشهرته فى الغرب هى أنه مؤسس علم الأديان المقارن ، ومع ذلك فقد ألف كتاباً فى الحب هو كتاب (طوق الحمامة) ، وضمنه أشعاراً شرح بها ما كتبه ، فجاء كتابه معادلاً لكتاب الزهرة ، بل ربما كان متفوقاً عليه . وابن حزم هو الذى يعتقد بالنظرية الأفلاطونية فى الحب وهى : (أن الحب وسيلة به يتحد فى الحياة شقان منفصلان لماهية علوية واحدة) ، وبهذه الروح الخيالية الخالصة كان يكشف ابن حزم عن تحليل للحب ، هو من وجوه عدة ذلك التحليل الذى تراه عند جماعة (التروبادور) فى القرن التالى ، وإن كان هؤلاء قد قصروا عن إدراك ما سماه إليه ابن حزم فى وصفه للحب .

ولئن كان كثير من الشعر العربى بالأندلس يلقى الشعراء على سجيته

(1) Histoire de musulmans de L'Espagne.

فى غير ما تكلف ، فإن ما وصل إلينا منه كان فى الغالب شعراً مصقولاً متقناً السبك ، أنتجته قرائح الشعراء ، والشاعرات فى البلاط ، وكان هؤلاء هم الأرستقراطية فى صناعة الشعر ، ولم يكن الأمراء والوزراء أنفسهم يستشعرون ضعة فى مجارة أولئك الشعراء ، بل كان من الشعراء أنفسهم من يتقلدون مراتب الوزارة والإمارة .

ويقول الأستاذ جب كذلك : « فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى ظهر نوع جديد من الشعر هو الزجل ، على يد (ابن قزمان) ، وهو وإن كان معاصراً للأوائل من شعراء التروبادور — فإنه كما صرح هو بذلك — كان يسلك طريقة ثابتة ومألوفة فى الأندلس . أما شعره من حيث هو فن ، فقد كان عربياً فى صنعته وقوافيه ، وإنما شمله انقلاب من ناحية العروض ، فأصبحت أوزانه معتمدة على النبرات ، وليست معتمدة على التفاعيل . وقد كانت مقطوعاته الشعرية محكمة البناء لكى تقوم بغنائها جماعة ؛ إذ أن الكثير من أشعاره كان عبارة عن مأس تمثيلية وضعت ليتغنى بها المتكسبون بالشعر فى الطرقات » .

وإذا وازنا بين هذه المقطوعات الشعرية عند الأقدمين من شعراء (پروفانس) تكشفنا لنا مشابهاً ذات بال ، فهذه أشعار (وليم دى بواتيه) William de Poitiers كانت تصاغ أحياناً فى نفس الأوزان التى صيغت فيها أشعار ابن قزمان ، وأحياناً أخرى تختلف عنها اختلافاً يسيراً مصدره الرغبة فى جعل تلك الأوزان ملائمة للغناء الفردى ، بعد أن كانت معدة لأن يتغنى بها جماعة^(١) .

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه « إذا كانت أوربا مدينة بديانتها لليهود فكذلك هي مدينة بقصصها للعرب ، فإننا ندين لهذه الثقافات المتقاربة التي استوطنت الهضبة السورية العربية — وهي الهضبة التي تضم فيما تضم فلسطين — بأكبر قسط من تلك الحيوية التي جعلت أوربا في القرون الوسطى تختلف من الناحيتين الفكرية والروحية عن الإمبراطورية التي كانت تحت الحكم الروماني^(١) .

كان يصحب شاعر التروبادور عازف يتغنّى بشعره ، ويوقع الأنعام على آلة ذات ثلاثة أوتار ، متشبهاً بالشاعر العربي الذي كان يصحبه الراوى يتغنّى كذلك بشعره ، وهذه الآلة الموسيقية التي كانت تصاحب الشاعر الپروفانسى شبيهة تمام الشبه بتلك الآلة التي كان يحملها الراوى الأندلسى ، وهي قريبة جداً القرب من (ربابة) الشاعر المصرى الذي كان يسامر الناس بإنشادهم قصة عنتره أو أبى زيد الهلالى فى أحياء القاهرة الوطنية ، وفى منازل الأثرياء بالريف .

وكما تباهى الشاعر الفارس من شعراء التروبادور بأن محبوبته ذات جاه وحب ونبل أمعن فى إخفاء اسمها ، وكفى عنه ، ولمّح به من بعيد ، ولكن لا يفصح به أبداً ، وهو وحده الذى يدرك عظمتة ، وذلك ليذهب فيه ظن الناس كل مذهب^(٢) . ولعلك تلاحظ ما فى هذا من شبه بالشاعر العربى الغزل الذى كثيراً ما كنى عن محبوبته ، بل إن من التقاليد العربية التي

(1) Maekail : Lectures on poetry . P. 97 and 125 London .1911.

(2) Fauriel . op . cit . t . 11 . P. 23.

قاسى منها المحبون أهوالا أن أحدهم إذا صرح باسم محبوبته فى غزله حُرِّم عليه لقاءها ، والزواج منها ، وطالما استعمل الشعراء صيغة المذكر فى أشعارهم الغزلية إمعاناً فى إخفاء المحبوبة ، وعدم افتضاح خبيها ، وقد يسمونها أحياناً بأحد الأسماء الشائعة فى الشعر كهند ودعد والرباب .

وإذا فحصنا عن وصف المرأة عند شعراء التروبادور وجدناه كبير الشبه بما جاء فى الشعر العربى فهى : « نضرة كورد الربيع ، بيضاء كالزنبقة أو الآس ذهبية الشعر ، لها عنق كالعاج المصقول ، ووجه حلو القسمات مستدير ، وجبهة عالية ناصعة مصقولة كالمرآة ، وعيونها خضراء دائمة المرح والضحك ، وفها صغير كغم الطفل ، وشفاتها فى لون زهرة الخوخ ، أما أسنانها فناصعة البياض ، صغيرة ، منسقة ، متلاصقة . وهى عبلة الشوئى ، مدملجة الساقين ، مستديرة الكعبين ، لها خصر رقيق ، وقد رشيق ، وصدر ملىء ، ويد رخصة بيضاء طويلة »^(١) .

وهذا ما كان يتطلبه العرب من المرأة استمع لعربى يقول لآخر وقد أراد أن يتزوج : « خذ ملساء القدمين ، لقاء الفخدين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكتفين ، ناهضة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين^(٢) نياء الشفتين ، بليحاء الجبين^(٣) . . . الخ^(٤) ، وهاك ما قالت عصام حين أرسلها الحارث بن عمرو ملك كندة لثرى له ابنة عوف بن محم فجاءت تقول له :

(1) Gautier . La Chevalerie . PP 375 et suiv .

(٢) دققة الحاجبين فى طول .

(٣) البلج تقاوة ما بين الحاجبين .

(٤) راجع بلوغ الأرب للألوسى ج ٢ ص ١٥

رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذنا ب الخيل ، إن أرسلته
خِلته سلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل^(١) ، وحاجبين كأنما
خطا بقلم ، أو سُوداً بجم^(٢) ، تقوساً على مثل عين الظبية العُبرة^(٣) ، بينهما
أنفٌ كحد السيف الصنيع^(٤) ، حَفَّت به وجنتان كالأرجوان^(٥) ، في بياض
كالجنان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذات أشر^(٦) ،
تقلّب فيه لساناً بفصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه
شفتان حراوان ، تجلبان ريقاً كالشهد ، في رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في
صدر كصدر دُمية ، وعَضْدَان مَذْجَان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما
عظم يُمس ، ولا عِرْق يُجس ، ركبت فيهما كفّان دقيق قصبهما ، لئن عصبهما ،
تعتقد منهما إن شئت الأنامل ، تتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين . . .
النخ^(٧) .

فمن كل ما تقدم ترى عظم تأثر شعراء (پروقانس) وفرسانهم بالشعر
العربي ، وأساليب الفتوة العربية ، في معانيها الخلقية ، ومثلها العليا ، من شجاعة
ووفاء بالوعد ، وكرم ، واحترام للمرأة ، وأنهم ألهموا هذا الشعر الذي يفيض
بالعشق والهوى العذري ، حين حاكوا العرب في فنونهم ، وأنهم صاروا
يقولون الشعر على النمط العربي : موضوعاً ، وأسلوباً ، وقافية ، ولوناً وخيالاً

(١) الوابل : المطر الشديد . (٢) الحم : الفهم .

(٣) عبرة : مثلثة الجسم ، ناعمة طويلة .

(٤) الصنيع الصقيل ، المحرب .

(٥) الأرجوان : الصبغ الأحمر الشديد الحمرة .

(٦) ذات أشر : فيها تحزير خلقه لا عن صنعة ، وذلك لدقتها وحدتها .

(٧) راجع بلوغ الأرب للأوسى ج ٢ ص ١٨

وطريقة إنشاء . فهل ثمة من يجادل في أن الفتوة العربية قد أثرت أثراً كبيراً في فروسية الغرب ؟

ولا أريد أن أتعرض للقصص الغربي الذي تأثر بالفروسية العربية بشيء من التفصيل ، فحسبي تلك الإشارات العابرة التي سبقت إليه ، ولا أريد أن أتعرض لذكر مئات الكلمات التي ساقاها فوريل ، وراييرا وسيسموندي ، وغيرهم للتدليل على أخذ الفروسية الغربية من العرب ، وحسبك أن تعرف أن كلمة تروبادور مأخوذة من كلمة طَرَبَ أى غَنَى ، وإن كان بعضهم يقول : إنها مأخوذة من كلمة trouver بمعنى وجد ، ولعلك تعلم أن وَجَدَ من معانيها في العربية عَشِقَ من الوَجَدَ وهو الهيام وشدة العشق .

ولنعمد الآن إلى شيء من الموازنة بين قوانين الفروسية الغربية ، وتقاليده الفتوة العربية ، فنرى أن قانون الفروسية كما يراه جوتييه^(١) يتكون من ثمانى أصول ، منها أربعة دينية وأربعة مدنية ، فأما الدينية فهي :

١ — أن تصدق كل تعاليم الكنيسة ، وتمثل لأوامرها ، فإن فعلت ذلك ولو أدى هذا إلى استشهاده في سبيل عقيدتك دخلت الجنة . وهذا المبدأ الأول مقرر في الإسلام فإله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ ، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُسْتَفْعُونَ ، إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ

غير مأمون ، والذين هم لُفُوجُهُمْ حافظون ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، والذين
هم لَأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، والذين هم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، والذين هم عَلَى
صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ^(١) »

وقال تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ ،
وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ^(٢) »

وقال تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، وَالشَّهَدَاءُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ، لَمْ أَجْرِهِمْ وَنُورِهِمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ^(٣) . »

وقال تعالى : « وَمَنْ يَطْعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ^(٤) » .

٢ — أَنْ تَحْمِيَ الْكَنِيسَةَ ، وَتَبْذُلَ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ مَالٍ ، وَنَفْسٍ ،
وَنَفِيسٍ فِي سَبِيلِ نَصْرَتِهَا وَتَقْوِيَّتِهَا .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية كريمة بالدفاع عن الدين
وحمايته ، والبذل في سبيل نصرته : قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهَاجَرُوا ،
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ^(٥) » .

(١) سورة المعارج من الآية ١٩ إلى ٣٥

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٤ (٣) سورة الحديد الآية ١٩

(٤) سورة النساء الآية ٦٥

(٥) سورة التوبة الآية ٢٠

وقال تعالى : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ، وَصَلَوَاتٌ ، وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^(١) » .

وقال تعالى : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٢) »

٣ — والأمر الثالث أن تشن على الكافرين حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة . فإذا كان الأمر الثاني قصد به الدفاع عن الكنيسة ، فإن الأمر الثالث قصد به إخضاع الكافرين لأمر الكنيسة ، فالثاني سلبي ، والثالث إيجابي .

لقد نفذ المسيحيون هذا الأمر بالدقة ، ولم يتهاونوا فيه يوماً واحداً في حروبهم الطويلة مع المسلمين حتى اليوم ، نفذوه بحماسة ، وحمية ، وتعصب ذميم ، ويقول جوتييه : « ليس أدبنا القصصى إلا أحاديث هذا الصراع الكبير المريع » ؛ وقد استشهد بهذين البيتين ، وهما يفصحان عن حال المسيحيين تمام الإفصاح في صراعهم ضد المسلمين :

« إِنْهُمْ يَحَارِبُونَ جَمْعَ الْأَتْرَافِ مَطْوَعِينَ
وَكثييراً مَا تَعَمَّدُوا فِي دِمَائِهِمْ »

(١) سورة الحج الآيات من ٣٩ — ٤١

(٢) سورة التوبة الآية ٤٠

ولم يخفف الموت ، والهزيمة أحياناً من حدة الحقد في قلوب هؤلاء الغزاة الصليبيين القساة ، بل تراه في معاركهم ضد المارقين يتخيلون أن نعيم السماء عظيم ، ولذلك يثبتون في المعركة ويصمدون لأعدائهم وهم يقولون : « إذا كنا راقدين في جنات النعيم ، فإننا سننزل منها لمحاربة المسلمين ^(١) » .

ويقول واصف غالى باشا ^(٢) : « إننا نعلم أن المسلمين في أوج قوتهم وعظمتهم قد أظهروا كثيراً من رحابة الصدر باطناً وظاهراً . أما في الظاهر ، فإنهم لم يقدموا أبداً على هذه الأفعال التي تنم عن تعصب ذميم ، ولم يُقهرُوا أحداً على الإسلام في حروبهم الطويلة مع الصليبيين ، وفي حروبهم مع القوط بأسبانيا ، أو مع جنود أوروبا بفرنسا وسواها . لأن القرآن في الحقيقة يطالبهم بأن يندروا من يريدون الحرب معه ، ويدعوه أولاً إلى الإسلام : « وادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ^(٣) » .

ويقول تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^(٤) » .

ويقول السير توماس أرنولد ^(٥) : « ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مُدْبَرَّةٍ لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم

(1) Gautier . op . cit . P. 71.

(2) Wacyf Ghali , op , cit . P. 212.

(٣) سورة النحل الآية ١٢٤

(٤) البقرة الآية ٢٥٥

(5) The Preaching of Islam . ch . 3 .

قصد منه استئصال الدين المسيحى ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لا اكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة ؛ ولكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحاء أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين ، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسليح نحوهم .

إننا نقول فى غير فخر أو ادعاء أو تعصب لديننا : إن العرب المسلمين فى فتوحاتهم العظيمة التى حوّلوا بها وجه التاريخ كانوا مثلاً أعلى للجنود الشرفاء والفرسان العطاء جاءوا للعالم بخير رسالة ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن سجن القهر والذل ، إلى روضة العدل والحرية ، ولذلك قابلوهم بكل ترحاب وفتحوا لهم صدورهم ، وتحولوا طائعين غير مقهورين إلى هذا الدين الحنيف ، ومن أبى منهم إلاّ التمسك بدينه ، فهو فى حلٍّ من أمره ، غير مضطهد أو مُساء إليه ، استمع إلى ميشيل الأكبر اليعقوبى بطريق أنطاكية ، وهو يقرر أن يد الله مع المسلمين فى فتوحاتهم ، وأهم أتوا خير العالم وبركته ، وذلك بعد أن ظلت كنائس الشرق تحت الحكم الإسلامى خمسة قرون ، لأنه كتب ما كتب فى منتصف القرن الثانى عشر ، فذكر فظائع هرقل ضد المسيحيين إخوانه فى الدين وقال : « وهذا هو السبب فى أن إله الإتيقار الذى

تفرد بالجبروت والقوة ، والذي يدلّ دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضع — لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فمهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ، ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ، ولما أسامت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ، ومع ذلك فلم يكن كسباً هيئاً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم ، وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام^(١) .

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في (خل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا معشر المسلمين ! أتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »^(٢) .

لقد كان ديدن المسلمين منذ خرجوا للجهاد في سبيل الله العمل بتعاليم القرآن الكريم ، وسنة نبيه العظيم ، رائداهم هداية البشر ، والنظر إليهم نظرتهم إلى المريض العليل المحتاج إلى الدواء ، أو الأسير المعنى الذي أضربه القيد ، وأذلّ

(1) Michael the Elder : Chronique . Vol . 11 . PP. 412 — 13 . éditée Par Chabot, Paris 1899 — 1901 .

(٢) فتوح الشام لمحدثين عبد الله الأزدي البصري ط كلكنا ص ٩٧

نفسه الغُلُّ فهو في أمس الحاجة للحرية والمواساة . هاك أبا بكر يخاطب أول
بَعَث وجهه للغزو بعد وفاة رسول الله ، ويعطى له التعاليم التي ما حاد عنها
المسلمون قط ، والتي كانت رحمة وبركة على العالم أجمع : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَفُوا
أَوْصِيَكُمْ بِعَشْرٍ ، فَاحْفَظُوهَا عَنِّي . لَا تَخُونُوا ، وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَغْدُرُوا ،
وَلَا تُمَثِّلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً وَلَا شَيْخاً كَبِيراً ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَعْقُرُوا
نَخْلاً وَلَا تَحْرِقُوهُ وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً ، وَلَا بَقْرَةً ،
وَلَا بَعِيراً إِلَّا لِمَا كَلَّةٌ ، وَسَوْفَ تَمْرُونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ
فَدَعَوْهُمْ ، وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ ، وَسَوْفَ تَقْدُمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُمْ بَأَنِيَّةٍ
فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْءً فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا » (٣) .

تميز المسلمون بالتسامح مع أهل الديانات الأخرى ، وفرضوا عليهم الجزية
في نظير حمايتهم إذا أبوا الدخول في الإسلام ، فهي ليست عقاباً لامتناعهم
عن قبول الإسلام ، وإنما أجراً لحمايتهم لأنهم ممنوعون من الانخراط في سلك
الجيش الإسلامي ما داموا لم يسلموا ، ولا أدل على ذلك من تلك الحادثة التي
وقعت في حكم عمر بن الخطاب ، ذلك حين حشد هرقل جيشاً ضخماً يصد
قوات المسلمين المختلفة ، فكان لزاماً على المسلمين حينئذ أن يركزوا كل
نشاطهم وقوتهم في المعركة التي أحدثت بهم ، ولما علم أبو عبيدة قائد المسلمين
بذلك كتب إلى عمال المدن المفتوحة بالشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جى
من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : « إِنَّمَا رَدَدْنَا عَلَيْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ لِأَنَّهُ بَلَّغْنَا مَا جُمِعَ لَنَا مِنْ جُمُوعٍ وَإِنَّكُمْ قَدْ اشْتَرِطْتُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَكُمْ

وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد ردونا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » ، وبذلك رُدَّت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردَّكم الله علينا ، ونصركم عليهم (أى على الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء ببقى لنا » ^(١) .

بمثل هذا الخلق الكريم ، والسماحة الحلوة ، والدين الرحيم انتصر المسلمون ، وغزوا القلوب قبل أن يغزوا البلاد ، وشتان بين فظائع المسيحيين وحسنات المسلمين ، حتى لقد آثر المسيحيون من أهالى الشام وفلسطين حكم المسلمين على حكم الصليبيين بعد أن أجلوهم عنها ، ولما فتحت بيت المقدس رحب أهلها المسيحيون بالسادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم ^(٢) لأنهم ذاقوا من فظاظة الصليبيين الأوربيين وعسفهم ما لا يطاق .

لم يلجأ المسلمون يوماً إلى اضطهاد المسيحيين ، وإكراههم على الإسلام إلا فى النادر ، ثقة منهم بأن الإسلام دين العقل ، وأن كل من وهبه الله شيئاً من العقل سيهتدى للدين من غير قهر ، وسيكون إسلامه صحيحاً خالصاً لا نفاق فيه ، فيفيد الأمة ، ولا يكون دسيسة عليها . وقد حار كثير من الباحثين الغربيين فى سر عظمة الإسلام ، فمنهم من رأى أن « الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، فإن تعريف الأسلوب Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس المبادئ المستمدة

(١) كتاب الحراج لأبى يوسف ص ٨١ القاهرة ١٣٠٢ هـ

(2) H. Prutz : Kulturgeschichte der Kreuzzüge. PP. 146 — 7 — 150 . Berlin 1883 .

من العقل والمنطق ينطبق على الإسلام تمام الانطباق ... قد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ، ومن المتوقع لعقيدة خالية كل اخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلاً ، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»^(١).

ويرى بعضهم أن سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره حين الفتح كامن في إدراك هذا الدين وجود الله ، وليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ، وأن إرادته هي العليا ، وأن قوته لا تحد ، وهذا معناه الإيمان بأن هناك إرادة ؛ بأن كَمَّة إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفرع والرهبة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة ، يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها ... وهذا هو الذي أمدَّ جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك الوسائل التي بعثت فيهم روحاً من الانقياد الحربي ، والنظام العسكري ، كما بعثت فيهم ازدياد الموت ، على صورة لم تعرف قط من قبل في أى نظام سابق ، وهذا هو الذي يعطينا في كلمة ، حسب ما نجده متمثلاً في أى روح صادقة فعالة بين المسلمين — ذلك العمود الفقري لأخلاقهم ، أعنى ذلك الثبات في العزيمة ، والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف

(1) Edouard Montet : La Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans, PP.17 — 18 . (Paris 1890)

سبيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب ، وأصعبها ، كل ذلك قد ميز خير أنصار هذه العقيدة وجمَلهم ^(١) .

ولا أريد هنا أن أستطرد ، فأورد عدداً من النصوص الوفيرة لدى والى سجل بها علماء المسيحية إعجابهم بالإسلام ، وعدم لجوئه إلى القسر والإكراه في سبيل دعوته عملاً بقوله تعالى ، مخاطباً نبيه : أَفَأَنْتُ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ، وحسبى أن أقول ما قال فوديل : « ليس في التاريخ أى حادثة تدل على اضطهاد المسامين أو ظلمهم للمغلوبين ^(٢) » .

٤ — والمبدأ الرابع من مبادئ الفروسية الغربية الدينية هو المحافظة على أمراء الإقطاع مهما كانت هذه الأوامر ، ولو خالفت العقل ، لأن نظرية التفويض الآلهى كانت سائدة في ذلك الوقت ، وكان الحاكم يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ، يفعل ما يشاء دون مراجعة أو نقض ، أما الإسلام فقد أمرنا حقاً بطاعة أولى الأمر حيث يقول الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^(٣) » ، ولكن طاعة أولى الأمر ليست طاعة عمياء ، فإن الإسلام — دين العقل والمنطق — قد حدد هذه الطاعة في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وجاء في الأحكام السلطانية للماوردي : « من الواجب أن تنصت إلى أولى الأمر ، وأن تطيعهم طالما أن أوامرهم ليس فيها ما يغضب الله ، فإذا أمروك بما يغضب الله فلا تنصت إليهم ولا تطيعهم ^(٤) » .

(1) Dr. G. A. Lefroy : Mankind and Church . P.283 — 4 (Loudou 1907) .

(2) Fauriel , Histoire de la Gaul Méridional . t. 111 . P. 59 .

(٣) سورة النساء الآية ٥٩

(٤) الأحكام السلطانية للماوردي ج ٣ ص ١٦١

إن علاقة المحكوم بالحاكم قد حدّدها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حيث يقول : « والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ، وإذا غَضِبُوا هم يَغْفِرُونَ ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إن الله لا يحب الظالمين ، ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(١) » .

بل إن العرب في الجاهلية كانوا في مثل هذه الديمقراطية العجيبة ، لا سيّد ولا مَسُود ، وإنما الرئيس منهم شخص أهله صفاته الممتازة لأن يرأس قومه ، فإذا حاد يوماً عن الجادة ، أو غرّاه ما هو فيه من سلطان خرجوا عليه ، بل قتلوه ، ولقد مرّت بك أمثلة عدة في هذا الكتاب عن ذلك ، وحسبي هنا أن أذكر ما قاله دوزي : « كان يشترط في رئيس القبيلة ست صفات : الجود والشجاعة ، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، والفصاحة . ولم يكن يعترف به رئيساً حتى يعطى كل ما يملك ، وحتى يضع تحت قدميه كل ما هو عزيز عليه ، وحتى يخدم قومه كما يخدم العبد سيده ^(٢) » .

وهالك مثلاً واحداً أضربه هنا ليدل على المساواة التامة بين المسلمين ، وأن الحاكم ، ولو كان رسول الله لا يستطيع أن يفلت من القصاص ، ففي غزوة

(١) سورة الشورى : الآيات ٣٦ — ٤٣

(2) R. Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne de 711 a 1110 .

تقلا عن المبرد ص ٧١

بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل الصفوف ، وفي يده قدح يعدل به القوم فمرَّ بسَّوَاد بن غَزِيَّة ، وهو متقدم من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استويا سَّوَاد ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقْدَنِي ، فكشف رسول الله عن بطنه وقال : « اسْتَقِدْ » ، فاعتنق سَّوَاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبَّل بطنه ، فقال النبي : ما حملك على هذا يا سَّوَاد ؟ قال : يا رسول الله ! حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك فدعا الرسول له بخير^(١) .

وأظننا لا ننسى حادثة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص حين جاء المصري يشكو إليه ابنه ، واستدعاه من مصر وقال له : « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وحادثة الإعرابي مع عمر بن الخطاب حين خطب الناس وقال لهم : لورأيتم في أعوجاجاً فقوموني ، فقال له الإعرابي : لورأينا فيك أعوجاجاً لقومناك بسيوفنا » فأين كل هذا من نظرية التفويض الإلهي ، والحكم المطلق التي سادت أوربا في عهد الإقطاع ؟

أما الأصول الأربعة الدنيوية في الفروسية كما نصَّ عليها (جوتيه) فهي : الشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والسخاء ، ونجدة الضعيف . ولقد أفضت في تحليل هذه الصفات في الفصول الأولى من هذا الكتاب وأسهمت في الاستشهاد بالشعر ، والحوادث ، كما أننى في هذا الفصل وازنت بأكثر من مثل بين فروسية العرب ، وفتوة العرب ، وبينت ذلك التفوق الخلقى الذى امتاز به العرب ، والذى كان لفرسان أوربا مثلاً يحتذى ، وهدفاً يُدَلَّفُ صَوْبَهُ .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبرى : ج ٢ ص ٢٦٧ .

إننا لا نمارى فى شجاعة فرسان أوربا ، ولكنها كانت شجاعة غير مهذبة ،
ينقصها الإيمان بالمثل العليا ، وفيها وحشية وقسوة ، وغدر ، ولقد مرَّ بك
ذلك المثل السيء الذى ضربه (بيمير القاسى) ملك قشتالة مع أبى سعيد أمير
غرناطة وهو فى ضيافته ، وكيف اغتاله لينهب خاتمه الثمين الذى فتنه ، وأسوأ
منه ما فعله ريتشارد قلب الأسد مع أسرى موقعة عكا ، وكيف ذبحهم ،
وخفّر ذمته ، ونقض عهده ، وأبى إلا أن يكون أشد قسوة من وحوش الفلاة ،
فهل كان هذا هو العفو عند المقدرة ؟ وهل بهذا أمرتهم فروسيّتهم ؟

إن تاريخ الحرب المسيحية ملطخ بالدماء ، وينم عن تعصب ذميم وحقد
بالغ ، ووحشية فظيعة لا تمت إلى الإنسانية أو الدين بأى صلة . وقلمنا تجد
مثلاً نبيلاً أو معاملة طيبة فى حروبهم القديمة والحديثة ، بل ترى الغدر
والخيانة ، ونقض العهود دينهم وشيمتهم ، ويظنون أنهم أوتوا من راحة
العقل ، وحصافة الرأى ما يوحى لهم بهذا ، بل والأدهى من كل ذلك أنهم
يدّعون التفوق الجنىسى والعقلى على غيرهم من الأمم . إذا كانت العبرة بالبطش
وبمن يملك اليوم المدفع والقنابل فهم لا شك أرقى ، ولكن العبرة بالنفس
التي تكمن وراء المدفع ، وبالنبل والخلق الكريم . إن غاية الإنسانية هى الحد
من الغرائز الدنيا ، والبعد عن العصور الأولى البدائية ، والسمو بالمسلك الخلقى
للإنسان . ولكن ما شاهدناه منهم قديماً ، وما نشاهد اليوم ينبىء بأنهم أبعد
الناس عن إدراك هذه المعانى الكريمة .

هذا هو (ديازدى بيفار) المشهور بالسيد^(١) القمبيطار يحارب فى صفوف المسلمين

(١) وعن قصة حياته حكى (كورنى) الشاعر الفرنسى قصة المشهورة (Le Cid)

بالأندلس اليوم ثم يخونهم غداً ، وأخيراً يحارب يوسف بن تاشفين ، ويحاصر بلنسية حصاراً يدوم تسعة أشهر ، فتسلم في ١٥ من يونية سنة ١٠٩٤ ، « وكان يرجى من السيد أن يكون في أخلاقه من النبل ما هو جدير بفرسان العصور الوسطى ، وما هو خليف بفارس له شهرته ، ولكنه على عكس ذلك ، فما كاد أهل بلنسية يسمون له حتى نكّل بهم تنكيلاً بالغاً ، فأحرق القاضي بن جحاف وهو حى ، وذبح الآلاف من أهل المدينة المسلمين ، وفرّق الغنائم في أصحابه . ولم يغفر له الموحدون هذا الصنع الشنيع فما زالوا به حتى أوقعوا به في سيونكا فبهزموه هزيمة منكرة انتهت بموته في يولييه ١٠٩٩ » ^(١) .

فأين هذا المثل الزرى الذى لا يليق إلا بالهيج المتوحشين مما فعله المنصور ابن أبى عامر حين أسر ذات يوم عدداً من الجنود الأسبانيين ، وطلب منهم أن يلقوا سلاحهم ، ففضلوا الموت على إلقاء السلاح ، فما كان منه إلا أن أفسح لهم الطريق ليلحقوا بجيش أعدائه ؛ إكباراً منه لشجاعتهم ، وكان في استطاعته قتلهم جميعاً ، ولقد قدره المؤرخون الغربيون حق قدره فيقول عنه Ferrars فيريراس : « إنه لعلى خلق عظيم » ، ويقول عنه Mosden موسدن : « إن المنصور قد هدم بالحديد والنار المدن التى قاومته ، ولكنه أبى أن يصاب أى شخص أقل إصابة إذا سلم طواعية » ^(٢) .

وأين هذا المثل مما رواه مؤرخو الفرنجة أنفسهم عن المنصور بن أبى عامر من إطلاقه سراح ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور وإناث حين جاءه

(١) راجع تراث الإسلام الترجمة العربية ص ٧٧ — ٧٨ .

(2) L. Viardot . Essai Sur l' Histoire des Arabes et de Mores d' Espagne , t .-I . P. 112 .

الخبر بانتصار جنده في إحدى المواقع الحربية الكبيرة سنة ٩٩٧م شكراً لله^(١)
ولقد وفيت موضوع الشجاعة عند العرب حقّة ، سواء كانوا في الجاهلية
أو الإسلام ، وليس من همي أن أضرب أمثلة على شجاعة فرسان أوروبا ، وحسبي
ما ذكرت من أمثلة للموازنة في هذا الباب .

أما الكرم فقد ذكرت سببه عند العرب^(٢) ، وأن الطبيعة قد جعلتهم
كرماء ، حتى صار لهم جيلةً وطبعاً ، ولقد جاءهم الإسلام فزاد بما وعدهم من
جزاء عظيم في الآخرة ومن إرضاء الله تعالى ما كان في نفوسهم من أريحية ، فصاروا
يوجدون ؛ لأنهم فطروا على الجود ، ولأن في ذلك مشوبةً ، وخيراً للمجتمع .

قال الله تعالى : « ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ،
ولكن البرّ من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب ، والنبیین ،
وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى ، والمساكين وابن السبیل ،
والسائلین ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا
عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون »^(٣) .

وقال تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبیل الله كمثل حبة
أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله
واسعٌ علیم »^(٤) .

(١) تاريخ غزوات العرب (ترجمة الأمير شبيب أرسلان) ص ٢١٩ .

(٢) راجع باب الكرم فى هذا الكتاب ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

وقال تعالى : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ثمَّ لا يُتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .^(١)

ففي هذه الآيات الكريمة تبيانٌ لمن تجب لهم الصدقة ، وحث عليها ، وذكر للجزاء الحسن الذى ينتظر المتصدقين ، على أن تكون صدقاتهم بلا من ولا أذى على حد قوله تعالى : « قول معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى »^(٢) ، أو على حد قول الشاعر :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالٌ فليسعد النطق إن لم يسعد الحال
قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقية ، أو إطعامٌ في يومٍ ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقرية ، أو مسكيناً ذا مترية ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة »^(٣) .
ولقد نفر من البخل ، وأعد للبخلاء عذاباً عظيماً ، وعنفهم على بخلهم ، فإنهم لا يعطون من عند أنفسهم ، وإنما يعطون من مال الله . قال تعالى : « ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هـ وخيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم سيطّوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، والله ميراثُ السموات والأرض ، والله بما تعملون خيرٌ »^(٤) .

وقال تعالى : « يأيتها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدّون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب

(١) البقرة الآية ٢٦٢ .

(٢) البقرة الآية ٢٦٣ .

(٣) سورة البلد .

(٤) آل عمران الآية ١٨٠ .

والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فُتَكْوَى بها جباههم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون » (١).

ولقد استجاب المسلمون لطبيعتهم ولفطرتهم السليمة ، ولنداء الله وترغيبه ، وحذروا بطشه وعقابه ، وكان لهم في رسول الله أسوة حسنة (٢) ، فكان منهم أجاود في الإسلام ، لم ير التاريخ مثلهم بين جميع الأمم.

فهذا عبيد الله بن عباس ابن عم رسول الله لا تحصى مكرماته ، ولا يملك المرء نفسه حين سماعها إلا أن يعجب لهذه الطبيعة السمحة : جاءه رجل من الأنصار فشكى إليه أمره ، وأنه ولد له ولد وأن أمه قد ماتت وهي تلده ، فأمر وكيله بأن يشتري له جارية تحتضنه ، وأن يدفع له مائتي دينار للنفقة على تربية الطفل ، وقال للأنصاري : عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يَبَسُّ ، وفي المال قِلَّةٌ . قال الأنصاري : لو سبقت حاتماً بيوم واحدٍ ما ذكرته العرب أبداً ، ولكنه سبقك فصرت له تالياً وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطلَّ كرمك أكثر من وابله . (٣)

ولقد شاطر الحسين بن علي ماله حين حبس معاوية عنه ما يستحقه ، وقد أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر له ، وهو أول من فطر جيرانه ، ووضع الموائد على الطرق في الإسلام وفيه يقول الشاعر :

وفي السنة الشَّباه أطعمت حامضاً وحلواً ولحماً تامكاً ومزجاً

(١) التوبة — ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٤ .

وأنت ربيعٌ لليتامى وعصمةٌ إذا الحُل من جود السماء تقطعا
أبوك أبو الفضل الذي كان رحمةً وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعاً^(١)

ومنهم عبد الله بن جعفر ، وقد لاهمه قومه لأنه أعطى امرأة مالا كثيراً
وقالوا له : إنها لا تعرفك ، وكان يرضيها اليسير فقال ، إن كان يرضيها اليسير
فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي^(٢) .

ومنهم سعيد بن العاص ، وقد وهبه معاوية مرةً خمسين ألف درهم ليصلح
بها حاله ويشتري ضيعة تعينه على مكرماته فقال له : بل أشتري بها حمداً وذكراً
باقياً ، أطعم بها الجائع وأزوج بها الأيتام ، وأفك بها العاني وأواسي بها الصديق
وأصلح بها حال الجار . فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم^(٣) .

وليس معنى شهرة هؤلاء أن سواهم من العرب المسلمين كانوا بخلاء ، بل
إن كثيراً منهم كانوا على درجة عظيمة من كرم اليد ، ولو كانوا ذوى متربة ،
ولا أريد أن أفيض في ذكر أجواد المسلمين جميعاً وأتبعهم في ثنايا التاريخ من
أمثال معاوية ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتوكل ، وسيف الدولة
وغيرهم . وقد كفانا الشعراء مؤنة تسجيل كرمهم ، بما خلدوهم به من شعر باقٍ
على الدهر .

وحسبي في هذا المقام أن أضرب بعض أمثلة للموازنة بين كرم العرب ،
وما كان عند معاصريهم من أهل أوروبا من أريحية أو بخل . لم يسكن العربي
كما ذكرنا يصدر في كرمه عن قانون ، أو يفعله رياء ، وإنما كان مجبولا عليه

(٢) المرجع السابق ص ٨٥

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٨٣

(٣) نفس المرجع .

ولم يكن هذا شأن أهل أوربا ، فقد نصَّ قانون (بورجنديا) على أن « أى امرئ لا يقدم للغريب غطاءً وناراً ، يدفع غرامة مقدارها ثلاثة قروش ، وإذا قصد غريب بيت بورجندي ودلَّه هذا على بيت روماني ، تخلصاً منه يغرم ثلاثة قروش لأنه لم يصفه ، وثلاثة أخرى لأنه دلَّه على بيت الروماني » ^(١)

وروى التاريخ الأوربي أن شارلمان أسر أحد أمراء العرب ، وأدخل عليه وهو بين فرسانه وحاشيته ، والموائد موضوعة ، والكل يأكلون ، فصاح فيه إمّا أن ترتد عن دينك وإمّا أن تقتل ، فقال الأمير العربي : بل أوتر القتل فقال شارلمان : ولماذا ؟ قال ستعرف بعد برهة ؛ من هؤلاء الأشخاص الضخام الذين يلبسون الفراء ، ويجلسون على مائدتك ؟ فقال شارلمان : إنهم مطارنة وقساوسة . فسأله الأمير العربي : ومن هؤلاء النحاف الذين يلبسون السواد ؟ فأجاب إنهم رهبان يصلون من أجلنا . فسأله مرة ثالثة : ومن هؤلاء الذين يجلسون على الأرض ، ويلقى لهم فئات المائدة ؟ فأجاب شارلمان : إنهم الفقراء فصاح الأمير العربي : أهكذا تعامل الفقراء . إن هذا مخالف للشرف والمروءة ، ولا يرضى ربك الذي تعبد . والآن . لا ! لن أتصبر أبداً وهذه سمة دينك ، وإني أفضل الموت ^(٢) .

وتذكرني هذه الحادثة بأخرى يظهر منها الفرق الشاسع بين كرم العرب وكرم سواهم . وذلك أنه لما استولى أبو عبيد بن مسعود الثقفي أيام عمر بن الخطاب

(١) راجع Augstin Thierry في كتابه Lettres sur L'histoire de France, p. 82

(٢) راجع Pierre Damien dans la Chronique du Turpin

وراجع كذلك Gautier, op. cit p. ٤3

على كسكر^(١) وسرح المثنى بن حارثة وغيره من القواد ، يغيرون على النواحي ،
صالحه من خاف ممن بقى . وجاءه الدهاقين بآنية فيها أطعمة فارسية ، وقالوا :
هذه كرامة أكرمناك بها قرى لك . قال : أأكرمتم الجند وقرىتموهم مثله ؟
قالوا لم يتيسر ، ونحن فاعلون ، قال : لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد ! إن
صحب قوماً من بلادهم ، أهرقوا دماءهم دونه ، أولم يهريقوا ، فاستأثر عليهم بشئ
يصيبه لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم . ولم
يأكل من طعام أتى به الدهاقين غداة ذلك اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله
لجنده جميعاً^(٢)

وأما كرم النفس فقد سقت فيما سبق أمثلة عديدة على عدم تعصب المسلمين
وأنهم وسعوا برحمتهم ، ودينهم ، وكرم نفوسهم أهل الذمة الذين أبوا أن
يسلموا وخضعوا لحكمهم ، ولو كان هؤلاء متعصبين حقاً لأبادوهم ، واستأصلوهم
ولقد جنى عليهم هذا التسامح في بعض الأحيان ، فقد سمحوا لنصارى الأندلس
بأن يظلوا تحت رعايتهم ، وأظلوهم بعدلهم ، وأغدقوا عليهم من خيراتهم ،
ولكنهم أضرموا لهم الشر ، وكانوا حرباً عليهم حينما ضعفوا حتى طردوهم من
بلادهم .

وتاريخ أوربا المسيحية ملطخ بالتعصب الدينى ، وقد لاقى اليهود على
أنديهم في كل الأزمنة ألواناً بشعة من العذاب والاضطهاد ، وقد ذكر (دوزى)
في سياق تعليقه لسرعة فتح العرب للأندلس أن اليهود والأرقاء كانوا لهم عوناً

(١) كسكر لإقليم واسع عاصمته خسروسابور ، وصارت بعد ذلك (واسط) قصبته

(٢) راجع الطبرى ج ٤ ص ٦٤ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٣ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٨٨

لأنَّ رجال الدين الكاثوليك قد أرهقوهم وأذلّوهم ، واستعبدوهم ، وذكروا أن الناس في القرون الوسطى كما سألوا ، لماذا نرى هذا العالم الذى ينبغى أن يكون مثلاً أعلى في الفراديس انقلب جحيماً ؟ أجابتهم الكنيسة : لأن هذا من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون كثيراً .

وبدأ اضطهاد اليهود سنة ٦١٦ ، وأعطوا مهلة سنة ليتنصروا ، وإلا طردوا خارج إسبانية وصودرت أملاكهم ، وجُلد كلُّ منهم مائة جلدة ، وقد تنصر منهم عدد كبير ، ولكنهم ظلوا يضمرون اليهودية ، ويختنون ، فقرّر مجمع الأساقفة مصادرة أولادهم لينشئوا في ظل الكنيسة ، وظلوا يعذبون أكثر من ثمانين سنة ثم طردوهم من الأندلس ، ومن آثر البقاء منهم حكم عليه بالرق ، فلما جاء المسلمون فرحوا بمقدمهم فرحاً شديداً ، وحرروهم ، فكانوا من أعظم أنصار الإسلام ^(١) وذكر صاحب نفح الطيب أن المسلمين كما فتحوا بلداً من بلاد الأندلس انضم اليهود إليهم ، وأقامهم المسلمون حرساً عليها لحفظها ، وكانوا أدلاء للمسلمين على مواطن الضعف في المدن الإسبانية ^(٢) .

ولقد وضّح أحد المسلمين ، حين طُرد العرب من أسبانيا لآخر مرة في سنة ١٦١٠م الفرق بين اضطهاد المسيحيين للمسلمين وإرهاب محاكم التفتيش ، وتسامح المسلمين في أثناء تاريخهم الزاهر بأسبانيا بقوله : « هل حاول أسلافنا

(١) راجع R. Dozy Histoire de Musulmans d'Espagne. t. II. pp. 45-6 Leyden 1865

وراجع كذلك M. Reinaud في كتابه Invasion Des Sarrazins en France en Savoie et وترجمة الأمير شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب) ص ٣١ ، وص ٢١٢

(٢) راجع المقرئ في نفح الطيب ص ١ - ٢٨٠ - ٢٨٢

المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك؟ : ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية في دينهم؟ ألم يوص نيننا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حق وخرق؟ ، وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أى حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة في سبيل نشر الدين الإسلامى ، كما تفعل اليوم محاكم التفتيش المقوطة في استئصال المسلمين^(١) .

ولقد اصطنع الخلفاء في كل العصور أشخاصاً مسيحيين ، كأطباء ، وكتاب ومترجمين ومنجمين ، وشعراء ، مثل بختيشوع الطبيب النسطورى مع أبى جعفر المنصور ، وابنه جبرائيل مع هارون الرشيد ، والأخطل مع بنى أمية . وحنين بن إسحق وأسحق بن حنين ، ومتى بن يونس ، وثابت بن قرة وغيرهم مع خلفاء بنى العباس . مما يدل على رحابة الإسلام وكرم نفوس المسلمين .

فأين هذا كله من ذلك التعصب الذمى الذى أظهره المسيحيون ضد الديانات الأخرى من يهودية وإسلام ، وغيرها ، بل اضطهد أرباب المذاهب المسيحية بعضهم بعضاً ، وقامت حروب عديدة في أوروبا من أثر هذا التعصب المذهبي كحرب الثلاثين عاماً بين البروتستانتية والكاثوليكية؟

وأما كرم القلب فيكفى للدلالة عليه أن ريتشارد قلب الأسد قد مرض في خلال الحرب الصليبية فخرن عليه صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه ، وكان من عادتهما تقدير الأعداء الصرحاء الشجعان ، ولما طلب ريتشارد — حين أنهكتهم

(1) J Morgan, Mahometism explained, vol. II. pp. 297-8 London 1723-5.

الحى — فأكبه ، أرسل إليه صلاح الدين السكبرى والتفاح ، والتلج الذى كان يأتى به من الجبال كل يوم لأجله ^(١) .

فأين هذه المعاملة السمحة ، والقلب العظيم ، من تلك الفظائع الدامية التى ارتكبتها الصليبيون المسيحيون فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ وأين هذا من محاكم التفتيش التى قامت فى أسبانيا ، والتعذيب الأليم الذى احتمله المسلمون بعد أن ضعفوا ، وأكروهوا على الجلاء أو التنصر ؟

وهاك مثلاً آخر على كرم القلب العربى المسلم ، وعلى تلك المعاملة المثالية للأعداء ، فقد وقع (جان دى برين) أسيراً فى يد الملك الكامل بدمياط ، فلما حضر أمامه أخذ يبكى وينتحب . فقال له الملك الكامل : مم تبكى أيها الملك ؟ فقال أبكى لأنى تركت القوم الذين أتولى أمرهم يموتون جوعاً ، ويموتون غرقاً . فرق الملك الكامل له ، وبكى مثله ثم أرسل ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء من جيش عدوه على السواء ، أربعة أيام متوالية ^(٢) .

لقد كان المسلمون يعملون بقول الله تعالى ، ويتمثلونه فى كل حركاتهم وأقوالهم : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شئ قدير » ^(٣) .

وبقوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ^(٤) .

(1) Stanley Lane Poole. History of Egypt in the Middle Ages p. 355.

(2) Gustave Schlumberger. Récits de Bysance et de Croisade.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٩ . (٤) سورة يونس الآية ٩٩ .

ويصدق فيهم وحدهم قول أحد الباحثين الفرنسيين : إن مهمة الفارس الحق هي حماية المرأة ، والأرملة ، واليتامى والرجال الذين في حاجة إلى العون والغوث ، لا الرجال الأقوياء ^(١) »

وكان من تقاليد العرب في الفروسية ألا يجهزوا على جريح ولو كان من أشد أعدائهم ، وهذا قيس بن عاصم يبكي ويتندم أشد الندم لأنه قتل الحطيم في حروب الردة ، ورجله مقطوعة وهو لا يعلم أن برجله شيئاً ^(٢) . ومن تقاليدهم إكرام رسل العدو ^(٣) ، وهذه هي نصيحة علي بن أبي طالب لأصحابه يوم صفين وفيها كثير من سنن القتال عند العرب ، وسمات الفروسية الحقبة : « ولا تقتالوهم حتى يقتالوكم ، فأنتم على حجة ، وتركههم حتى يقتالوكم حجة أخرى ، فإذا هزمتهم فلا تقتلوا مذبراً ، ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رجال القوم ، فلا تهتكوا سترًا ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأة ، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس » ^(٤) .

كان هذا شأن العرب في حروبهم : شهامة ، ومروءة ، وفتوة ، ونجدة ، وغوث للضعيف ولو كان من أعدائهم ؛ ولما أسير كفار قریش في بدرٍ أوصى بهم النبي عليه السلام خيراً ، قال أبو عزيز بن عمير : كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدم غذاؤهم أو عشاؤهم خصوني

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الكتاب

(٢) راجع أيام العرب في الإسلام ص ١٥٦ .

(٣) راجع وصية أبي بكر لقواد جيشه في غزوة اليرموك في الطبري ص ٢٨ ،

وابن الأثير ص ٢٠٠ .

(٤) راجع في يوم صفين الطبري ص ٥٠٣ ، و ص ٦٠١ .

بالخبز ؛ عملاً بوصية رسول الله إياهم بنا ، ما تقع في يد أحد منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فأستحي فأردها على أحدهم ، فيردها على ما يمسها » ، وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين يوم بدر ^(١) .

وأما الوفاء بالوعد فقد مرّ بك عدة أمثلة على وفاء المسلمين وغدر الصليبيين والأوربيين في حروبهم : غدر ريتشارد قلب الأسد بأهل عكا بعد أن استسلموا له على الرغم من المعاهدة ، وغدر السيد القمبيطار بمسلمي بلنسية بعد أن استسلموا له ، إذ لم يكن هؤلاء الغربيون ، ولايزالون حتى اليوم . يعرفون الرحمة بالضعفاء المغلوبين على أمرهم ، أو يتدخلون لحمايتهم حتى قال فوريل : « كنت أود أن أتأكد من تدخل الفروسية الغربية في الأمور الاجتماعية والسياسية إبان القرون الوسطى بحقائق مؤكدة لا يتطرق إليها الشك ، تحدد في نفس الوقت طبيعة هذا التدخل ومقداره في فائدة الضعفاء ، ولكن حقائق من هذا النوع لا يوجد لها أثر في التاريخ ، وليس أمامنا إلا وثائق شعرية تلمح إلى مثل هذا ، وكلها تدل على أنه تدخل في مصلحة الأقارب أو من سلطة قضائية أو أبوية » ^(٢) .

لا يزال الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء بالعهود ، والاستمساك بالخدعة ، واتخاذ القسوة والعنف ديدن الغربيين حتى اليوم في حروبهم ، وكأنما جردتهم الطبيعة القاسية التي عاشوا في ظلها حقبة طويلة من الزمن من كل معاني الإنسانية ، وهم إن أفادوا إبان القرون الوسطى شيئاً من تهذيب الطابع ، ودمائة الخلق ، وعرفوا المثل العليا نقلاً عن العرب ، فقد تنكروا لها بعد ما صارت

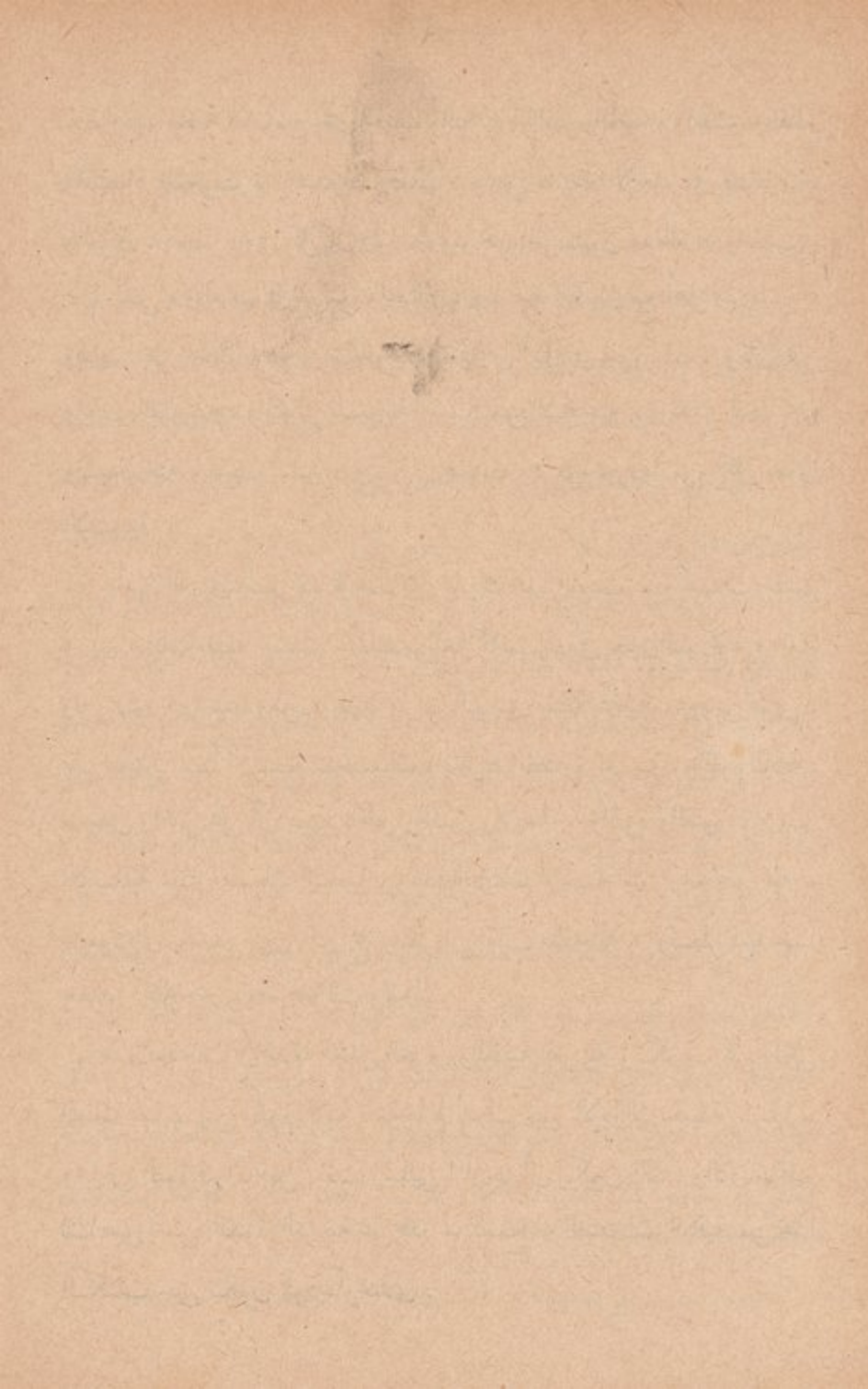
(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ص ١٥٨ > ١

(٢) راجع فوريل Fouriel في كتابه La Poésie Provençal, t. I. P.487

جسارتهم مادية لا تؤمن بغير الحديد والنار ، والقهر والغلبة ، والجشع والطمع واستعباد الشعوب ، واستنزاف دماؤها ؛ وليس ما عمله الإنجليز في فلسطين ، والعراق ، ومصر ، وفي كل بلد نزلوا به ، وما عمله الفرنسيون مع البربر والعرب في مراکش ، والعرب في تونس والجزائر ، وما عمله الطليان مع أهل طرابلس ، وقتلهم عمر المختار وهو في شيخوخته بعد أن أبلى في حروبهم ، وكان من واجب الفروسية ، والتعاليم المسيحية أن يكرموا لشجاعته ، ومحبة للحرية ، ولشيخوخته وضعف منته ، ولكن هيهات وهم قوم جردوا من كل معاني الإنسانية .

أيها العربي المسلم لقد قدمت بين يديك هذا البحث ، وأجهدت نفسي في أن أعرفك حقيقة نفسك . وأنت من أمة كانت غرة في جبين التاريخ لم ير العالم ولن يرى خيراً منها ومن دينها . وأنت اليوم في يقظة عقلية ، ووعى قومي ، ولن يفيدك شيئاً أن تمسح شخصيتك ، وتغرك الحضارة الغربية ، والقوة المادية ، فانهض واعمل على أن تسود بالحق والعدل والرحمة ، والقوة والفتوة ، وبشر الإنسانية بمادى قومك السامية ، وهداية دينك الرحيمة لعله يرجع عن غيه ، ويعود إلى رشده . إن التاريخ ينتظر أن تقلب صفحاته ، وتسطر فيها عهداً جديداً كله خير ، ومرضحة لك واغريك .

هذه صفحات في فلسفة الخلق العربي والعقلية العربية ، تكشف عن نواحي العظمة بها ، ولن تقوم لأمة قائمة ما لم تدرك حق الإدراك حقيقة نفسها ، ونواحي القوة فيها . فهل بلغت رسالتى ! أرجو أن يكون ذلك . والآن سأقدم لك صوراً من الفتوة العربية على قدر ما تسمح به الصفحات الباقية من هذا الكتاب حتى تكون نموذجاً يحتذى .



صور من الفتوة العربية

مروءة ووفاء^(١)

خرج النعمان بن المنذر ملك الحيرة يوماً للصيد في كوكبة من فُرسانه ،
وضربت له قُبَّةٌ من أديم على طرف الصحراء ، ومعه حاشية ضخمة ،
وجفانٌ وقيانٌ ، ثم ركب فرسه اليمحوم^(٢) ، وكأنما ملَّ الجوادُ طولَ الجِمام ،
فما أن اعتلى صهوة ، حتى راح يمزغُ غَرَبًا في أعنته ، كالطير تنجو من
الشُّبوب ذي البردِ ، والصحراء تعبق برِيًّا الخزامى والعرار ، والريح بليلة
ندية ، والشمس تُسفر تارة وتحتجب أخرى ، والسماء مبرقطة بالغمام ، والنعمان
فَرِحَ مَرِحٍ يُرْخِي لجواده العنان ، والجواد يطوى أديم الفلاة طيا لا تكاد
سنا بكه تمس الأرض من فرط عدوه ، وما هي إلاَّ برهة حتى لاح له عَيْرٌ^(٣)
قد اكتنز لحما ، وطُبقَ شحما ، وأحسَّ بالخطر الداهم فهو يعدو عدو الظليم^(٤) ،
يروم النجاة ، وأين النجاة ؟ وخلفه قيدُ الأوابد^(٥) ، يعدو على أثره .

وأوغل النعمان في الطراد ، وأخذت الجوادُ حُمَيَّا الصيد ، فانطلق يطوى
الحزون^(٦) ، وينهب القفار ، لا يلوى على شيء ، ولا يكفكف من غربه

(١) يجمع الأمثال الميداني ص ٤٦ ج ١ ، والمستطرف في كل فن مستظرف ج ١ ص
١٩٩ ، والأغانى ج ١٩ ص ٨٨ ط الساسى ، ومعجم البلدان ج ٦ ص ٢٨٥
والمحاسن والأضداد للجاحظ ص ٥٨ ، وبلوغ الأرب للأوسى ج ١ ص ١٢٧ ، والمحاسن
والمساوى ص ١١٧ ، وقصص العرب ج ١ ص ١٦١

(٢) اليمحوم : الأسود . (٣) العير : حمار الوحش .

(٤) الظليم : ذكر النعام . (٥) وحوش الفلاة .

(٦) جمع حزن وهو الأرض الصلبة .

زجر النعمان له ، وقد أدرك أنه فقد سيطرته عليه ، وأنه انفرد عن أصحابه ، وأنه أَمعن في القلابة . وبينما هو في شغل بجواده ، تفتحت أبواب السماء بقاء منهمر ، والتمس النعمان مأوى يأوى إليه وقد كفكف الجواد من غلوائه ، ورطبَّ ماء السماء حرارة رأسه ، فهدأ واستكان ، وسار على هيئته ، بعد أن توارى عن ناظره العير في دَغَلٍ كثيف .

ورأى النعمان عن بعد خباءً فدخل إليه ، ووجد به رجلاً من طيء يقال له حنظلة ، ليس معه في هذا القفر الموحش إلا امرأته ، وبجانب انخباء شاة سمينة . فقال النعمان : هل من مأوى ؟ فقال حنظلة : على الرَّحْب والسعة ، وخرج إليه ، وتلقاه ببشر وسماحة ، وهو لا يعرفه ، ثم دخل على امرأته وقال لها : أرى رجلاً له هيئة ، وما أخلفه أن يكون شريفاً خطيراً ، فما الحيلة ؟ فقالت : عندي شيء من طحين كنت أدخرته ، فذبح الشاة ، وسأصنع من الطحين خبز مَلَّة^(١) . وقام الطائي ، فحلب شاته ، ثم ذبحها ، وأطعم النعمان من لحمها ، وسقاه من لبنها ، وبات يسامرهِ ليلته ، ويروي له خبره وخبر الصحراء الواسعة الفجاج ، والنعمان في نشوة مما يسمع ، وفي غبطة لهذا الكرم الذي أظهره نحوه ذلك البدوي الفقير ، على غير علم بمكانته .

وبعد أن تمتع ما شاء بحديث مضيفه ، وبهواء الصحراء السَّجَسَج الرقراق ، لعب الكرى بمعاقد أجفانه ، فنام ليلة هائلة وادعة . وأيقظته أشعة الشمس وخطوطها الذهبية تداعب مقلتيه ؛ ولما لبس ثيابه ، وامتنى جواده ، واستأذن

(١) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة ما يصنع فيها

من رب مثواه ، وهمّ بالمسير قال للطائي : يا أخاطيء اطلب ثوابك ، أنا الملك النعمان ! قال : أفعل إن شاء الله .

ثم عاد النعمان إلى أصحابه ، ورآهم في قلق زائد عليه ، بيد أنهم وجدوه في أمن وعافية : تتراءى سمات المسرة على أسارير وجهه ، وأخذ يقص عليهم نبأه وأنه قضى ليلة ممتعة كل المتعة يساعده هذا البدوي ربيب الصحراء ، وأنه وجد فيه صيداً أنفس وأمن من صيد الفلاة . وأنه نعيم بمغامرته أيما نعمة ، وقد رأى من الطائي كرمًا لا يُحَدُّ ؛ لأنه جاد بكل ما يملك من خُطام الدنيا ، وهو شاته التي كانت تطفى ظمأه بلبنها ، على غير علم بمكانته واسمه .

ومضى زمان ، والنعمان يترقب قدوم الطائي عليه ، ليرد له بعض ما طوق به عنقه ، ولكنَّ الطائي لا يُسمع عنه خبر ، حتى إذا كانت سنةً شهباء ، أتت على الأخضر واليابس ، بخلت فيها السماء ، وانقطع الحيا ، وأجهد أهل البادية حتى أكلوا اليرابيع وخشاش الأرض ، والطائي يجاهد نفسه ، ولا يود وإن مات أن يقدم على النعمان ليذكره بيده لديه ، وكيف يطلب على صنع المعروف جزاء ؟ وكيف يتقاضى ثمن الإريحية ، ولو كان صاحبه ملكاً يقصده سادة العرب وأشرفهم ينالون من حباته وجم عطاياه . ؟

وأخذت امرأته تلح عليه أن ينقذ نفسه وينقذها ، وأن يُطَمِّنَ من شموخ أنفه ، ثم إن النعمان ملكٌ لا سوقة ، والواجب أن يأمره طالباً رِفده ولو لم تكن ثمة لهم يد عنده ، وبعد لأي ومجاهدة عنيفة لنفسه قبل أن يأتي الحيرة .

ووجد النعمان في حاشيته خارج المدينة ، شاكى السلاح ، ممتطياً جواده اليعموم ، وحوله فرسانه وحاشيته ، ولما رأى الطائي عرفه ، وتغيَّر وجهه حين

راه ، وتقطعت أساريه ، وظنَّ الطائي به الظنون ، وندم على أن قصده ،
ولو كان في لبثه بياديته حينه ، إلى أن قال له النعمان :

— أنت الطائي المنزول به ؟

— نعم !

— أفلا جئت في غير هذا اليوم ؟

— أبيت اللعن ! ، وما كان علمي بهذا اليوم .

— والله لو سئلت في هذا اليوم قابوس ابني لم أجِدُ بداً من قتله ، فاطلب

حاجتك من الدنيا ، وسل ما بدا لك ، فإنك مقتول !

— أبيت اللعن أيها الملك العظيم ! ، وما أصنع بالدنيا بعد نفسي ؟ وماذا

جنيت حتى أستحق القتل ، وقد قدمت تواً من البادية ؟

— إنه يوم بؤسى ، ولا مناص من قتلك ، وذلك على الرغم من كرامتك

عندي .

— فإن كان لا بدَّ ، فأجئني حتى أُلِمَّ بأهلي ، فأوصي بهم ، وأهبي حالمهم ،

ثم أنصرف إليك .

— أقم لي كفيلاً بموافاتك .

— إن كلفتني عهد ، أيها الملك العظيم ، ولو كان في صدق العهد منيتي .

— لا بد من كفيلا !

فالتفت الإعرابي إلى حاشية النعمان يتفرس الوجوه ، ويتوسم أهل الخير

ووقع نظره على شريك بن عمرو رديف^(١) النعمان ، وصاحب منادمته فقال له :

(١) رديف الملك : هو الذي يركب خلفه ، ويشرب بعده ، ويخلفه إذا غزا .

يا شريك يا بن عمرو هل من الموت محاله
يا أخا كل مصاب يا أخا من لا أخاله
يا أخا النعمان فكك الـ يوم ضيفاً قد أتى له

وامتقع لون شريك ، وصمت برهة تجاذبته فيها عوامل شتى ، وهزته الأريحية ، وقال لنفسه : إن هذا الرجل أهلٌ للكرامة بعد أن سمعت من الملك عظيم فعله على غير معرفة به ، وستكون ماثرة يتحدث بها العرب ، وقد اختارني من بين جميع الحاشية لما توسم في من الأريحية ، وستكون سبةً لو خيبت أمه ، وما أظنه يخلف وعده . ولكن هببه أخلف ، وطالبني الملك بتنفيذ وعيده . فأتني لي به بعد أن تضممه الصحراء في جوفها ، وحن يوم البؤس في العام القابل ، أليس في ذلك حتفي لغير جريرة ارتكبتها ، وفي سبيل نخوة كاذبة ، وهل أضحي بنفسى ، وأحرم ولدى حياتي من أجل هذا البدوى الجلف ؟ .

ورفع شريك رأسه ، وأبى أن يتكفل بالأعرابي ، فوثب رجلٌ من كلب يقال له قراد بن أجدع ، وقال للنعمان : أبيت اللعن أيها الملك الجليل ! هو على ، فقال النعمان : أفعلت ! قال : نعم ، فضمنه إياه . ولهج لسان الطائي بشكره ، وأكده أنه لن يخلف وعده ، ولن يخيب رجاءه فيه . وأمر النعمان للطائي بخمسمائة ناقة معكأ زينها سعدان^(١) توضح في أوبارها اللبد ، فضى بها الطائي لأهله ، وقد جعل الأجل حولاً من يومه ذلك ، إلى مثل هذا اليوم من قابل .

(١) نوع من الشوك تسمن عليه الإبل وفي أمثالهم : حبك ولا كالسعدان ، وتوضح مكان مشهور بهذا النوع من الشوك .

ثم مضى الحول ، ولم يبق على الأجل المضروب إلاَّ يومٌ ، وقال النعمان لقراد : ما أراك إلاَّ هالكاً غداً ، فقال قراد :

فإن يك صدر هذا اليوم ولىَّ فإن غداً لناظره قريبٌ
ثم أصبح النعمان فى يوم بأسه ، وركب فى خيله ورجله ، وهو فى كامل شكته كما كان يفعل فى مثل هذا اليوم من كل حول ، حتى أتى الغريين^(١) . وأخرج معه قراداً . وهو يبتسم له ، ويقول : لقد حان حينك يا قراد ، فودّع الدنيا ، وتملأ منها قبل أن تغادرها . وقراذ ثابت جأشه ، واثق فى الله ، وفى وعد ذلك الطائى ، الذى رأى فيه سمات النبى على الرغم من فاقته وخشونة مظهره . وأراد النعمان أن يتعجل قتل قراد ، قبل أن يأتى الطائى ؛ إذ كان يعز عليه أن يقتل رجلاً أسدى إليه صنيعاً جميلاً ، فأمر بالنطع أن يمدَّ ، وبالسياف أن يطيح رأسه حين وقف بين الغريين ، وتهياً قراذ للموت ، بيد أن وزراء النعمان عزم عليهم أن يقتل قراد جزاء أريحيته ، فقالوا للنعمان : ليس للملك أن يقتله حتى يمضى النهار ، فلعلَّ الطائى أن يصدق فى وعده .

وولىَّ النهار سريعاً على قراد ، وكادت الشمس تجبُّ^(٢) ، وأخذت تودع الدنيا بابتسامة صفراء من فمها الذهبى ، وأرخت ذوائب من شعرها على الأفق الغربى فى لون النضار ، فاحمرَّ الأفق ، وسكنت الدنيا سكوت المودّع للشمس الحبيبة ، ونظر النعمان إلى قراد ، وقال : الآن يا قراد لم يبق لك إلاَّ أن

(١) قبران دفن فيهما النعمان صديقين له ، كانا ينادمانه ، وأمر بقتلهما ، وهو فى سكره ذات ليلة ، ولما أفق ندم على قتلهم ، فدفنهم بهذين القبرين ، ونذر أن يطليهما بدم أول من يراه وهو واقف بينهما فى مثل اليوم الذى قتلا فيه .

(٢) تجب : تغيب .

تنجز ما وعدت ، فتهيأ للموت ، وإذا امرأته تشق الصفوف ، مولولة ناحبة ، معولة ، باكية ، وهي تقول :

أيا عينُ بكئي لى قراد بن أجدعا رهيناً لقتل ، لا رهيناً مودعا
وقد دمعت عيون السامعين لنعيبها ، أسفاً وحزنًا على قراد بن أجدع ،
إلا عين النعمان فإنها كانت جامدة ، وودَّ أن يروى نفسه الظامئ بمنظر الدم
المراق ، وأن ينقذ الطائي ، بقتل الغداء ، ولم يهتز قلبه لصوت الأسي واللوعة
ينطلق شجياً كثيباً منبعثاً من قلبها الدامى .

ووقف قراد على النطع^(١) ، وهمَّ السيف بقطع رأسه وشخصت إليه
الأبصار ، وهو مستسلم للموت فى ثبات عجيب ، وجرأة من يعرف أنه ما أتى
منكراً فيتندم عليه ساعة حينه ، بل أتى جميلاً يثلج صدره ، ويذكر بعده ، وإذا
شخص يترأى من بعيد فى نهاية الأفق ، فصاحت بطانة النعمان : كف أيها
السيف حتى يأتى هذا الشخص ، فيعلم الملك من هو ، فلعله الطائي قد برَّ
بوعده ، ووفى بكلمته .

وانتظر الجميع ، وأبصارهم شاخصة على هذا الذى قد بدا فى طرف الأفق
وقد حبسوا أنفاسهم ، وصمتت ألسنتهم ، وهو يتضح لهم شيئاً فشيئاً ، حتى
ظهرت معالم وجهه ، فإذا هو الطائي ، فابتسم أصدقاء قراد ، وابتسم قراد نفسه
ورُدَّت إليه روحه التى عذبت عنه أو كادت ، ودبت الحياة فى وجهه ، وسرَّ
الجميع بمقدم الطائي إلا النعمان ، فقد شق عليه مجيئه ، وقال له :

— ما حملك على الرجوع بعد أن أفلت من القتل ؟

— أنه الوفاء أيها الملك أبيت اللعن

— وما حملك على الوفاء ؟

— إنه وعد العربي ، ودمته ، وشرفه ، وحاشاى أن آتى بما يخل بالشرف
فأكون سبباً لأهلى ، ولقبيلتى أبد الدهر . وما أنا ممن يخاف الموت حتى
يقبع فى بيته ويدع غيره يقتل من أجله . وأنا على ثقة بأنى لم أرتكب جريرة
فأخشى على نفسى العار ، وأنى أقتل إرضاء للملك ، وتحقيقاً لعادة اعتادها ،
وقد أبى لى نحسى ، وسوء جدى أن أقدم عليه فى يوم يؤسه ، فالتقى حتمى .
وهذا قضاء من الله لا راداً له ، وأجل قد انتهى أمدى ، ومنية قد حان حينها ،
فهيا أيها الملك العظيم فإنى رهن أمرى . وأما أنت يا قراد ، فصفاً عما قدمته
لك من إساءة ، واضطراب ، وما كنت لأنسى لك هذه اليد الكريمة ،
وقد ضمنتنى لدى الملك ، وأكون سبباً فى إراقة دم زكى كدمك . وإنى إن
ميت اليوم فإن طيء بأسرها تعلم مقدار صنيعك ، وجميل عارفتك .

وذهل النعمان ، ودُهِشت حاشيته لهذا النبل الذى يمكن فى هذه الأسمال ،
وهذه النفس الرفيعة التى تتقطر فى تلك الكلمات : وأطرق النعمان برهة .
وهو يرى أنه أمام ممثلين من الأمثلة العليا فى الوفاء والمروءة ، وفاء الطائى
وقد مشى لحينه بنفسه ، وقد كان بمنجى عن أن تناله يد ، محتمياً بأجأ أو سلمى^(١)
تزل الوعول العُصم عن قذفاته وتضحى ذراه بالسماء كوافرا^(٢)
ومروءة قراد وقد ندب نفسه للموت ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى .

وأخذ يحدث نفسه ، وكيف يكون الأم الرجلين ؟ وما هذه العادة الوحشية ، وإراقة الدم البريء لغير ذنب اقترف ؟ إنها نزوة شيطان ، وفي سبيلها أطوح بالجيل . إن هذا الطائي خلّيق أن يحيا ، وهو على ما يتحلى به من كرم وأريحية ، ووفاء ، وفتوة ، ورجولة كاملة^(١) .

ورفع النعمان رأسه ، وقال يا أخا طيء ، لقد شاء الله أن ينجيك من القتل ، والله ما أدرى أيكما أوفى وأكرم . أهذا الذي نجا من القتل فعاد ، أم هذا الذي ضمنه ؟ والله لا أكون الأم الثلاثة . ولقد بهرتما بصنيعيكما ، حتى عافت نفسى هذا العمل الذميم ، ثم أمر النعمان أن يهدم الغريين ، وأقلع عن تلك العادة الخبيثة ، وأنشأ الطائي حين سمع أمر النعمان بهدم الغريين يقول :
ما كنتُ أخلف ظنّه بعد الذي أسدى إليّ من الفعّال الخالى
ولقد دعتنى للخلاف ضالّلتى فأبيتُ غير تمجّدى وفعّالى
ولقد أجزل النعمان عطاءه ، وعاد إلى قومه معافى مكرماً ، بعد أن كان ودّعهم وداع المفارق لهم إلى الأبد ، وداع الذى حانت منيته فهو يمشى إليها طواعية واختياراً ، فكان فرحهم بقدومه حياً لا يقدر ، وقد حمدوا له وفاءه ، ولقراد مروءته ، وللنعمان عفوه .

(١) روى فى تعليل وفاء الطائي أنه قال : دينى ، وقال له النعمان : وما دينك ؟ قال : النصرانية ، قال : اعرضها على فعرضها ، فتنصر هو وأهل الحيرة جميعاً ، وعندى أن هذا التعليل مفتعل ، لأن النصرانية كانت معروفة بالحيرة قبل النعمان ، وكانت قبيلة العباد كلها نصارى ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر المعروف راجع Huart : Histoire des Arabes .

فارس الشهباء

كانت الشمس تضرب وجه الأرض بسياط ملتهبة ، وتصب على الأودية المقفرة حمماً متقدماً ، تحمله أشعتها المتأججة ، ووقف فارس في فجوة بين جبلين ، يحيل بصره يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، علّه يجد طلبته في مسافر أعياء الرحيل ، وأجهد الحر ، فطلب الراحة والظل في كنف هذا الجبل الأشم ، فيأخذه على غرة ، ويسلبه متاعبه كدأبه في كل مرة يقصد فيها هذا المكان الذي يقع في مفترق الطرق ، بهذه الصحراء الواسعة الفجاج ، الموحشة المسالك .

وكاد يئأس ، ويعود أدراجه صفّر الكف . وطال به الانتظار وهو لا يرى على مدى البصر إلا وهَجاً متآلفاً تنفثه الأرض من جوفها الملتهب ، فيعلو صعداً في طبقات الجو . ثم عدا بفرسه عن يمين ، وتطلع برهة إلى الأفق الممتد ، فلم يجد أحداً ، ثم عاد بفرسه عن يسار ، وكان في هذه المرة أسعد جداً ؛ إذ لمح نقطة سوداء تتحرك صوبه سريعاً ، مَيَّرَها عينه الحادة ، بأنها فارس مثله قد أقبل من طريق اليمامة ، فامتلاً قلبه بشراً ، إذ كان واثقاً من شجاعته ومهارته ، وأنه لا كفء له في ميدان الوغى ، أو عند المبارزة .

وأخذ الفارس يدنو منه سريعاً ، فإذا هوفتي مجدول القد ، حسن الهيئة ، بهيئة الطلعة ، قد نبت عذراه ، فلما حاذاه حياه فرد تحيته في عجلة ثم سأله :

— من الفتى ؟

— وما سؤالك في أمر لا يعنيك ؟

— ستندم على قحتك وتجيبيك لي ، فعجل وأخبرني من أنت ؟

— إن كان ذلك يثير فضولك ، فأنا الحارث بن سعد ، فارس الشهباء .

— خذ حذرَكَ إني قاتلك !

— لقد طمعت في حلمي ، شككتك أمك ، فمن أنت ؟

— عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

— الذليلُ الحقيرُ ، والله ما يمنعني من قتلك إلا هَوَانُ أَمْرِكَ واستصغارُ

شأنك ؛ فأخذ عمرو يتأمل الفتى ويتعجب من جرأة جنانه ، وسلاطة لسانه ،

وقد كان يظن أن اسمه سيقذف الرعب في قلبه ، فإذا هو يحتقره ولا يأبه له ،

وعزا ذلك إلى جهله بما هو مقبل عليه من خطر ، أو إلى غروره بميعة شبابه ،

فقال له :

— دع عنك هذا ، وخذ حذرَكَ ، فما من قتلك بد !

— يا عمرو أبق على نفسك ، فإني من معشر ما أشكلهم فارس قط !

— هو الذي تسمع ، ولن ينصرف إلا أحدنا ! وستعلم بعد أين الحقير

فتردد الفتى هنيهة ، كأنما عنَّ له أمر أو خشي التلؤم والمكث في مبارزة

هذا الصعلوك ، وأمامه مهمة أجل خطراً ، ولكنه أفاق من تروده سريعاً وقال :

— اختر لنفسك ، إما أن تُطرد لي ، وإما أن أُطرد لك .

فظن عمرو الفرصة مواتية ، ولم يشأ أن يعرض مهارته للاختبار ، فقال :

— اطرُد لي .

فطرُد ، وحمل عليه عمرو بكل ما أوتي من من قوة وأيد ومهارة ، وظن

أنه قد غرز الرمح بين كتفيه ، ولكن الفتى في لباقة العليم ، وخفة الظليم ^(١)

وحرص الحكيم تفادى ضربته ، بأن انطوى تحت الفرس حتى صار لها حزاماً ثم نشط كالأجدل^(٢) ، ورفع قناته فقتنع بها عمراً وصار تحت رحمته ، ورهن ضربته ، وقال له :

— يا عمرو ! خذها إليك واحدة ، ولولا أنى أكره قتل مثلك لأرديتك قتيلاً .

فشعر عمرو بن معد يكرب ، الفارس المَعْلَم ، وصاحب الوقائع المشهورة ، ومن له الاسم المدوّى فى أرجاء البادية ، بالصغار والهوان ، وقد غلبه على أمره فتى حَدَثٌ لم يكذب يثبت عذراه ، فأجابه فى إصرار ويأس :

— والله لا ينصرف إلا أحدنا .

فعرض عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، عرضه السخى ، كما فعل أول الأمر ، وخيّرهُ فى الطراد ، فاختر عمرو موقفه الأول وقال له :

— اطرِدْ لى .

فأطرد الفتى ، وملاّت الحماسة والغیظ قلب عمرو ، وتجمعت نفسه كلها فى ضربته فلما ظن أنه تمسكن منه ، وأنه وضع الرمح بين كتفيه ، إذا بالفتى يتقلب فرسه ، وينجو من ضربته ، وإذا به يطمئن على صهوة جواده ، ويحمل على عمرو فى لمح البصر ، ويقنعُ رأسه بقناته ثانية ، ويقول لعمرو وقد امتنع وجهه وظن أنه من الهالكين :

— اذهب ثانية طليقَ صغارك وَضعة شأنك .

فغز على عمرو موقف الخيبة والعار الذى وقفه ، وتذكر قوله :

وجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهاها فاستقرت
فأخذته الحمية ، وأبى أن يستسلم ، وفضل الموت حقاً ، على أن يكون طليق
هذا الغلام الحدث ، فيلوك الناس فيما بعد اسمه ، وتذهب هيئته ، وتضعف
صولته فقال لغريمه :

— والله لا ينصرف إلا أحدنا فاطر دلى .

فاطر د الفتى ، وتهياً عمرو لضربته الأخيرة ، وتذكر هزيمته ، وخزيه ،
كما تذكر شرفه وفروسيته ، وحمل على خصمه كأنه الصخر يدفعه السيل من
أعلى الجبل ، وهوى برحمه ، وظن أنه قد ناله بعطب فيه هلاكه ، ولكن الفتى
ترجل من فرسه في خفة ورشاقة فأخطأته الضربة ، ثم استوى على الفرس في
سرعة عجيبة ، وقنع رأس عمرو بقناته الثالثة ، ولبت برهة يتمتع فيها بانكسار
الفارس المقدام ، قطاع الطريق ، وذى الصيت المديد ، وقد طأطأ رأسه ينتظر
القتلة ، ولكن الفتى قال له وهو يتسم ابتسامة المدل بنصره وفتوته وسماحة
نفسه ، ورحابة صدره ، الواثق من أمره .

— يا عمرو ، سأطلقك الثالثة على ألا تعود . ولولا كراحتى قتل مثلك
لتركتمك لقي لطيور الفلاة ، فاذهب لشأنك .

فصرخ عمرو صرخة خرجت من أعماق نفسه ، وقال : القتل أحب إلى
من هذا ، ولا تسمع فرسان العرب بموقفي منك .

فأجاب الفتى في صوت جهورى قوى فيه نبرات التصميم ، والإرادة المبرمة
— يا عمرو إنما العفو عن ثلاث ، وإذا تمكنت منك في الرابعة ، فما من
قتلك بد ، وأنشد :

وَكَدْتُ أَغْلَظًا مِنَ الْإِيمَانِ إِنَّ عِدَّتْ يَاعَمْرُو إِلَى الطَّعَانِ
لَتَجِدَنَّ لَهَبَ السَّنَانِ أَوْ لَا فَلَسْتُ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ
فَذَهَبَ بِهَذَا مَا تَبَقِيَ فِي نَفْسِ عَمْرُو مِنْ مَقَاوِمَةٍ ، وَجَلَدَ عَلَى الطَّعَانِ ، وَامْتَلَأَ
قَلْبُهُ رَهْبَةً وَهَيْبَةً لِهَذَا الْفَارَسِ ، وَأَكْبَرَمَنَّهُ هَذِهِ الْجُرْأَةُ ، وَالْمَهَارَةُ ، وَاللَّسَنُ ،
وَالسَّاحَةُ فَقَالَ لَهُ :

— أَنْتَ أَوَّلُ فَارَسٍ أَذْعَنَ لِي ، وَإِنْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ .

— وَمَا هِيَ ؟

— أَكُونُ لَكَ صَاحِبًا .

— إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَيَحْكُ ! أَتَدْرِي أَيْنَ أُرِيدُ ؟

— لَا وَاللَّهِ !

— أُرِيدُ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ عِيَانًا .

فَقَالَ عَمْرُو ، وَقَدْ أَزْدَادَ إعْجَابُهُ بِفَارَسِهِ وَتَحَرُّكَ فِي نَفْسِهِ الْفَضُولِ ، لِيَعْلَمَ مَدَى

شَجَاعَةِ هَذَا الَّذِي هَزَمَهُ ، وَوَصَمَ جَبِينَهُ بِالْعَارِ :

— أُرِيدُ الْمَوْتَ مَعَكَ .

— إِذَا فَا مَضِ بِنَا .

فَسَارَا يَوْمَهُمَا أَجْمَعِ ، حَتَّى جَنَّ عَلَيْهِمَا اللَّيْلُ ، وَمَضَى شَطْرُهُ ، وَهَمَا يَسَابِقَانِ
الرِّيحَ لَا يَسْتَرِيحَانِ أَوْ يَخْفَفَانِ مِنْ حِدَّةِ عَدُوِّهِمَا ، إِلَى أَنْ دَخَلَا فِي حِمَى حَى مِنْ
أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فَقَالَ الْفَتَى لِعَمْرُو فِي صَوْتِ خَافَتِ .

— هُنَا فِي هَذَا الْحَى الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ فَإِمَّا أَنْ تَمْسِكَ عَلَى فَرَسِي ، فَأَنْزِلْ وَأَتِي

بِحَاجَتِي ، وَإِمَّا أَنْ تَنْزِلَ وَأَمْسِكَ فَرَسَكَ فَتَأْتِنِي بِحَاجَتِي ، وَمَا إِخْلَاكَ قَادِرًا عَلَى

ذَلِكَ .

— الرأى أن تنزل أنت ، دع جانباً قدرتى وعجزى ، فانت أدري
بحاجتك منى ، وأعرف بالسبيل إليها فما وطئت قدماى هذه الأرض من قبل .
فترجل فارسُ الشهباء ، وألقى بعنان فرسه لعمرى ، ورضى هذا أن يكون
له سائساً . ثم مضى الفارسُ لِطَيْئَتِهِ وَغَشَاءِ اللَّيْلِ البهيم برادئه الأسود ، ثم دلف
إلى قبة من آدم عالية رحبة ، يتحسس طريقاً يعرفه ، ثم همس همسة ، وخرج
من القبة تتبعه فتاة كعاب ، وضيئة الوجه ، يرف ماء الحسن من مخايلها ، ويتثنى
عودها الرِّخْص ، وهى تتعثر خلفه فى مشيتها ، ثم عَرَاجَ عَلَى مَعْطَنِ الْإِبِلِ
ففلك ناقة من عقالها ، وقال لصاحبه :

— اركبى ! فبمثل هذه الساعة مَنِيْتُ نَفْسِي طويلاً .

— أو ما تخشى أبى وإخوتى أن يتبعوك ؟ إنك تعرف مقدار حبي لك ،
وشغفى بك وأخاف أن يتبدد فرحى سريعاً .

— لا عليك ! فإنى ما خشيت إنساناً قط ، فكيف بى وأنت معى أَدافع
عنك بعد أن تجشمت فى سبيل الوصول إليك ما تجشمت :

وكان قد وصلا إلى عمرو بن معد يكرب فقال الفارس لعمرى :

— إما أن تحمينى وأقود الناقة ، أو أحميك وتقودها أنت .

— بل أقودها وتحمينى أنت .

ورضى عمرو لنفسه مرة أخرى أقل المنزلتين فروسية وشرفاً ، لعلمه أن صاحبه
أقدر منه على الحماية . وسارت هذه القافلة الصغيرة جادة لا تلوى على شيء ،
وتحش الخطأ حثاً ، والليل من حولهم يُلْفُهُمْ بِمَسُوحِهِ ، والجو يترقق نسيماً صافياً
وفيه برودة تغمر الجلد غمراً هيناً ، فيقشعر منها قشعريرة خفيفة ، وما زالت تطوى

الييد — هكذا — طيا حتى بدت غرة الصباح من بين سجوف الليل الدامس .
فابتسمت له الدنيا ابتسامة الحبيب لحبيبه ، وأخذت الصحراء تنشر مفاتها بين
يديه . ثم ما لبثت ذكاء أن طلعت بوجهها الوضاء وشعرها الذهبي المرسل .
فقال الفارس لصاحبه :

— يا عمرو ! التفت فانظر هل ترى أحداً .

— إني أرى كوكبة من الفرسان .

— أغذ السير — وهيبات أن نفوتهم . أنظر أقاليل عددهم أم كثير ؟

فإن كانوا قليلا فالجلد والقوة وإن كانوا كثيرا فليسوا بشيء .

— إنهم أربعة أو خمسة إن لم يخنى بصرى .

— أغذ السير ، فستكون معمعة لا يعلم مصيرها إلا الله .

وأخذت القافلة تُجِدُّ في سيرها ما استطاعت ، ولكنها كانت مقيدة
بخطى الناقة ، فسرعان ما سمعوا وقع حوافر الخيل تطرق آذانهم وكأنها نُذِرُ
الموت ، فقال الفارس لعمرو :

— كن عن يمين الطريق ، وقف ، وحول وجه دوابنا إلى الطريق ،

ولنتهيا لاستقبالهم . فإن ذلك أكرم بنا .

ودنا القوم منهم ، فإذا هم ثلاثة نفر : شابان بدت عليهما دلائل القوة
والفتوة وكرم النجار ، وشيخ وقور قد امتلأ صحة وعافية ، على الرغم من
شيخوخته ، وقد استوى على صهوة جواده استواء الفارس الخبير . كان هذا
الشيخ أبا الجارية وكان الشابان أخويها . ووقفوا تجاه فارس الشهباء وصاحبيه ،
وقال الشيخ في صوت مليء لين :

— خل عن الجارية يا ابن أخى .

-- يا عم ! لقد حُلَّتْ بينى وبينها ، وهى مُنِيَّة النفس ، وسيدة القلب ، وما كنت أنتظر أن تردنى ، إذ خطبتها إليك ، خائباً ، وعجبت لأمرك ، فإنك لن تجد لها أ كفاً منى بعلا : شرفَ مُحْتَد ، وشجاعة قلب ، وكرم يد ، وحسبى أنى أنتمى إلى الدوحة التى تَفَرَّعَتْ منها حبيبة قلبى .

- ليس المقام يا ابن أخى مقام عتاب وجدال ، واستعطاف . ولقد خسرت بجرأتك الليلة على انتهاك حرمتى ، وخطف ابنتى ، ما بقى لك فى نفسى من احترام ، وفى قلبى من مودة . فخل عن الجارية ، وانصرف لشأنك . — ما كنت لأخليها ، ولا لهذا أخذتها ولن أدعها إلا وأنا أشلاء ممزقة . فدونك وما تريد .

فقال الشيخ لأصغر ابنه : اخرج إليه .

فخرج إليه فتى فى عنفوان شبابه يجر رحله ، وكان الناظر إلى الفتاة يرى وجهها قد علتة صفرة الاضطراب والخوف . وقد وَجَبَ قلبُها وجيباً شديداً ، وهى بين عاملين : عامل الخوف على حبيبها ، وابن عمها ، وعامل الحرص على حياة أخيها .

وجال الفتيان جولات صادقات ، وبرهن كل منهما على أنه كفء لصاحبه ونذله فى الطعان ، بيد أن فارس الشهباء كان أثبت منه ضربة وأسرع يداً ، وفى ضربة من ضرباته النافذة ، أصمى غريمه فسقط مضرجاً بدمه .

فقال الشيخ لابنه الآخر : أخرج إليه فالموت خير من حياة يلطخها العار ، ويسمها الشنار .

فخرج الفتى وكان أعظم من أخيه جثة وأصلب عوداً ، وأقوى طعنة ،
فحمل عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، وقد فارت نفسه ، وحمى قلبه ،
وهو يرتجز :

لقد رأيت كيف كانت طعنتي والطعن للقرب العنيف همتي
والموت خير من فراق خلتي فقتلتى اليوم ولا مذلتى
ثم شد على خصمه شدة ، وصوب إليه طعنة ، وجأ بها جوفه فخر صريعاً
يتشحط بدمه ، بعد أن جرحه غريمه جرحاً بليغاً فى فخذه ، وأبلى فى صراعه
بلاء مجيداً .

فقال الشيخ لفارس الشهباء : خل عن الظئينة ، فإنى لست كمن رأيت .
— يعز علىّ يا عماء أنى قتلت أخوى فى ميدان الشرف والحب ، وإنى
لن أتخلى عن عدل الروح ، طيبةً بذلك نفسى ، حسبك أن قُتل أخواها ،
فدعنى وإياها ، ولا تلجئنى لقتالك ، فلك فى قلبى منزلةٌ عالية ، وهيبةٌ عظيمة ،
فبربك إلا ما أبقيت على ما بيننا من قربى ومودة .

— هيهات يا بنى ! وقد صرع ابنائى دفاعاً عن شرف أهين ، وكرامة
امتنت . أو لمثلئى يوجه هذا الكلام ؟ وأنت جد عليم بما كسبت يداى من
خمار فى ميادين البطولة والبأس ، إنى أحذرك فخل عن الفتاة ، وانطلق لشأنك .
— دونك القتال إن أردت .

— اختر لنفسك . فإن شئت نازلتك وإن شئت طاردتك .

فنزّل الفتى ، ونزل الشيخ ، وكنت ترى فارسين ، كل منهما ملء إهابه

نجدة ، وحيوية ، وقوة ، ترتج الأرض تحت أقدامهما ، وارتجز الشيخ وهو
يمشى إلى خصمه :

ما أرتجى عنــــــد فناء عمرى سأجعل التسعين مثل الشهر
يخافنى الشجعان طولَ دهرى فى خدش عِرضى قاصماتُ الظهر
ومشى الحارث مشية الأسد الرئبال وهو ينشد .

بعد ارتحالى وطويل صبرى وقد ظفرت وشفيت صدرى
للموت خيرٌ من لباس الغدر والعمار أهديه لحي بكر
وتباريا ساعة فما وجد أحدهما فى صاحبه غفلة أو ثغرة ينفذ منها إلى بدنه .
فقال الشيخ :

— يا بن أخى إن شئت ضربتك ، فإن أبقيت فيك بقية فاضربنى وإن
شئت فابدأ أنت ، فإن أبقيت فى بقية ضربتك .
فقال الفتى ، وقد ظن أنها فرصة :
— أنا أبدأ .
— هات !

فانقضى الفتى سيفه ، ورفع يده فى جبروت وعنف ، فلما نظر الشيخ أنه
أهوى ، ضرب بطنه بسيفه ضربة قد منها أمعاء ونفذت من ظهره ، وكانت
ضربة الفتى قد وقعت جاسية شديدة على هامة الشيخ فطارت فُضاضا ، وسقطا
ميتين تبكيهما الشجاعة الفائقة ، والقوة البالغة .

وتلفت عمرو بن معديكرب ، وقد راعه ما رأى من هذه البطولة الفذة ،
فلما أفاق من دهشته ، وجد تحت يده غنيمة باردة : أربعة أسياف ، وأربعة

أجساد ، وناقاة ، وجارية ملء إهابها حسنا وملاحاة وشبابا . فأخذ بخطام الناقاة وأزمرع إلى داره ، فقالت الفتاة :

— يا عمرو ! إلى أين ولستُ بصاحبك ولستُ لى بصاحب ، ولستُ
كمن رأيت .

— اسكتى !

— إن كنت لى صاحبا حقا ، فأعطنى سيفاً ورمحاً ، فإن غلبتنى فأنا لك ،
وإن غلبتك قتلتك .

فتردد عمرو ، وقد ارتاب فى شجاعته ، وكفأته لهذه الفتاة ، بعد ما رأى
من أهلها كلَّ مثل نادر فى المقدرة على القتال والشجاعة الخارقة ، وأبى أن
يعرض شجاعته مرة أخرى للبلاء ، فزجرها ورفض أن ينيها ما طلبت .

فرمت نفسها عن البعير ، وأقبلت نحوه تقول :

أبعد شيخى ثم بعد أخوتى يطيب عيشى أو تطيب لذتى

وأصحبين من لم يكن ذا همة هلا تكون قبل ذا منيتى !

ثم انتزعت سيفاً من يده ، فى قوة وعنف ، فخاف عمرو وظن أنها ستقتله .
ولكن لا . إنها غمست السيف فى صدرها حتى نفذ إلى فؤادها ، وهوت على
إثر ذلك يشخب دمها ، وتفيض روحها . فعلت كل هذا بسرعة زائدة ، فلما

تبين عمرو أنها قتلت نفسها أقبل عليها فقالت له وهى تجود بنفسها الأخير :

إنى جدٌ سعيدة ، إذ لحقت بمن أحب فالعيش بعدهم هوان ، ودونك

هذه الفضلات التى خلفوها من سيوف وأفراس عليها تُرضى نفسك الوضيعة .

ثم فارقت الحياة .

حامى الظيعة

الشمسُ مائةٌ توقدُ بالضحي ، ورمال الصحراء تزفر زفرات ملتبهة تعلو
صُعداً في طبقات الجو كأنها خفيخ الصلال الرقط ، أو أنفاسُ جهنم ، وتهب
أمواجاً أمواجاً كأنها بحر من لهب ، وخلت البيداء من الحياة فلا ترى
إلا رمالا متوهجة ، وصخوراً جامئة ، وكشبانا قائمة . بيد أن فرسانا أربوا على
الأربعين يقودهم فارس بني جُشم دُرَيْد بن الصمة قد اقتحموا غمرات هذا
البحر المتقد ، وخيولهم تلث لغوباً وظماً ، وأجسامهم تنضح عرقاً ، ورءوسهم
تكاد تذوب من وقدة الشمس ، وأوار ذِيَاك البساط الرملى اللديد الذى تمشى
عليه جيادهم ، وكأنها تنتقل على رمضاء زاهية الجمرات .

وما أن رأوا صخرة عاتية ألقت ظلها على الأخرم — وادى بني كنانة —
حتى أووا إليها أشدَّ ما يكونون تعباً ونصباً ، وأعظم ما يكونون لهفةً وتشوقاً
إلى الراحة ، والاختفاء من هذا السعير .

خرج هؤلاء الفرسان من ديارهم قصدَ غزو بني كنانة والتنكيل بهم ،
لأحقاد قديمة متوارثة ، قد تأصلت في قلوبهم ، وترات متبادلة قد أقضت
مضاجعهم وملأت نفوسهم ضغينة وإحنا ؛ خرجوا لعلهم ينالون من خصومهم
ما يغسل عنهم عار هزيمة سابقة ، ولعلهم كذلك يُصيبيون شيئاً من الخير في
تلك السنة المجذبة التى أتت على الأخضر واليابس ، ولا سيما ولبنى كنانة وادٍ
لا تزال فيه بقية ممرعة ، قد قاومت القحط فأبقت لنعمهم اكتناز لهما ، وكثرة
شحمها فلم يُجهدوا كما أُجهد غيرهم من العرب .

وما أن استقر بهم المقام حتى قال لهم قائدهم دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ : الرأى أن نَظَلَ هُنا يَوْمَنا هذا حتى يأتى الليل فنبدأ الغارة ونكون بذلك قد استمرحنا واستجمت جيادنا ، فنقوى وإياها على حر المعركة ، ثم إن القوم الآن أيقاظٌ وقد أوت إبلهم إلى مرابضها فى أكناف الحى ، ولو أغرنا عليها واستغاث أحدُ عبيدِهم لهُبوا إليه جميعاً بسيوفهم مُشْرِعة ، ولكانت معركةٌ يهزم فيها الأقلون عدداً ، فوافقته صحبه على رأيه وطفقوا يلهون ويضحكون ويستريحون وبيننا هم كذلك إذ لاح لهم رجل فى ناحية الوادى ومعه ظعينة ، فقال دريد : « قد يرانا هذا الرجل ، وينبه علينا قومه إن تركناه ، فهو لاشك ميمم صوب الحى ، والرأى أن نقتله أو نأسره ويكون هذا أول الغنم . فمن منكم يتصدى له وله كل ما معه حتى الظعينة ؟ فقام شاب فى عنفوان العمر يكاد يتفجر قوة وصحة وحياة وقال : « إنى له » ، فقال له دريد : « دونك الرجل » . فامتطى جواده ولما انتهى إليه صاح به وألح عليه أن يستأسر وإلا فهو من الهالكين ، فوجد منه إعراضاً وإباء ، ثم رآه يلقي زمام الراحلة ويقول للظعينة :

سبرى على رِسلِكِ سبرِ الآمنِ سبرِ رِداحِ ذاتِ جأشٍ ساكنِ
إن اثثنائى دونِ قرنى شائئى أبلىِ بلائى واخبرى وعائى

وأقبل على الفارس بوجه طلق ، وسيف مصلى وقال له : « يا هذا انج بنفسك ، واحفظ ميعة شبابك ، فلست لى بِنْدٍ ، وإنى أهبك لوجهك السمح وعودك الغض ، وعمرُك النصير » . فقال فارس بنى جشم : « ليس والله إلى النكوص من سبيل ، فخذ حذرَكَ فإنى قاتلك »

ثم جالا جولات ، وحملات صادقات ، ولكن خر فارس بنى جشم

صريعاً يتشَحَّط في دمه إثر ضربة فاتكة من حامى الظعينة الذى أخذ فرسه وأعطّاها لها .

ولما رأى دريد أن رسوله قد طال به المكث بعث بفارس آخر لا يقل عنه أيداً ، وشجاعة ، وصلابة عود ، وعِظَمَ هيئة ، فلما انتهى إليه ورأى صاحبه مجندلاً ، والرجل قد أخذ بخظام البعير وهو منطلق كأن لم يحدث حدث ولم يَلْقَ الردى فارس شجاع ، صاح به مهدداً إن لم يستأسر ، ولكنه تصام عنه وظل منطلقاً لا يلتفت إليه ، فعز على فارس بنى جسم أن يُهمل هذا الإهمال فغشيه بجواده ، فلما قرب منه ألقى زمام الراحلة إلى الظعينة وكر راجعاً على مهاجمه وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الْحَرَّةِ النِّيعِ — إِنَّكَ لَأَقِي دُونَهَا رِبِيعَهُ
فِي كَفِّهِ خَطِيئَةٌ مَطِيعَهُ — أَوْ ، لَا . فَخَذَاهَا طَعْنَةً سَرِيعَهُ

فالطعن منى فى الوغى شريعته

ووجده أدرى من سابقه بفنون القتال ، وأشد بأساً ، فجال معه جولات وحمل عليه حملات دونها حملات الأسد تحمى عرينها ، وما هى إلا برهة حتى صرع مهاجمه صرعة شنيعة ، وألقاه بصاحبه فى وادى الموت ، أما حامى الظعينة فقد عاد إليها ونشوة الانتصار ملء بؤديه ، والعزة تملأ خياشيمه ، وقلبه يفيض تيبهاً وأنفةً ، وأخذ يقود البعير واستأنف سيره ، وهى تنظر إليه نظرات تفصح عن حب عميق فياض ، وإعجاب يبطل عَرَضَ نفسه للموت محبةً لها ، واعتزازاً بها ، وحفاظاً على عِرْضه وشرفه ، تنظر إليه نظرة المرأة إلى الرجل الذى يعزها

ويكرها ويحميها فلا تَذِلُّ ولا تَهَابُ ، نظرة المرأة إلى الرجل القوى الشجاع الماهر .

وما كاد يخطو خطوات حتى سمع فارساً ثالثاً يصيح به ، قد أرسله دريد
لينظر ما صنع صاحبه من قبله ، ولكنه لم يتوقف أو يتريث بل ظل منطلقاً
يقود ظيعته ويجر رمحاً ، فزاد هذا الإعراض الفارس التهايا وقد رأى صاحبيه
مجدلين معفرين ، فعدا صوبه وهو يتميز من الغيظ ، ويود أن يمزقه إرباً
إرباً ، فقال حامى الظعينة لها : « اقصدى قصد البيوت » ثم أقبل على مهاجمه يقول
ماذا تريد من شَتِيمٍ عابس ألم تر الفارس بعد الفارس ؟

أرداها عامل رومح يابس

فرد عليه فارس بنى جشم : « أريد أن أذيقك كأس الموت ، وأريق
دمك ، وأنكّل بك ، وأمثل بجسمك جزاء وفاقا على ما اقترفته يدك من
قتلك هذين البطلين ، والسيد الشريفين ، فقال حامى الظعينة : « ويحك
ألم يكن في مثلهما لك عظة ؟ أتأبى إلا أن تلحق بهما ؟ أغرب عني ، وإلا
فأنت في عداد الهالكين » فقال قرنه : هيهات لن يبرح إلا أحداً نخذ حذرنا
فإن صعبى يرتقبون عودتى .

فقال : — « لن تعود وفي يمينى هذا الرمح » ، وحمل عليه حملة أردته
قتيلاً وانكسر فيها رمحاً ، وتركه يتخبط في دمه ومضى نحو صاحبتة ، التى
أبت إلا أن تنتظر كيف تكون نهاية هذا الصراع ، فلما رأت أنه يعود مظفراً
والابتسامة ملء فيه ، عادت إليها طمأنينتها ، وفاض قلبها زهواً وعجباً أن تكون
في كنف هذا الفارس البطال ، وما كل حُرّة قد سعد جَدُّها وحاباها طالعتها

فكان أليفها وقرينها مثل صاحبها هذا بأساً ونجدة وقوة ، واستأنف سيره حتى أشرف على بيوت الحى .

ولسكن دريد بن الصمة قد رابه أن يذهب رسله فلا يعودون ، وظن أنهم قتلوا الرجل وأخذوا الظعينة أسيرة ، وأنهم قد نزلت بهم نزوات فاعتدوا عليها ، أو أنهم اختلفوا فيما بينهم على الغنيمة فاقتتلوا ، وهاج أصحابه واضطربوا ، واستنكروا غياب أصحابهم ، فهدأ روعهم وانطلق بنفسه ليقف على جلية الأمر فوجد أصحابه قد قتلوا ، فلحق بحامى الظعينة وألفاه بدون رمح ، وعز عليه أن ينازل مثل هذا البطل المغوار الذى أردى ثلاثة من أشجع فرسان بنى جُشم وأدراهم بفنون القتال ، وهو أعزل من السلاح ، فقال له دريد : أيها الرجل مثلك لا يقتل ، ولا أرى معك رحماً ، والخيول نائرة بأصحابها ، وهم فى شك من أسرك ، ولو رأوك لقضوا عليك فدونك هذا الرمح ، وإني منصرف إلى أصحابي فثبطهم عنك إعجاباً ببأسك وبلائك فى القتال ، وشجاعتك النادرة المثال .

وانصرف دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها ، وقتل أصحابكم وانتزع منى رحى ، وعفا عنى ، ولا مطمع لكم فيه ، فانصرفوا قبل أن يحيط بكم بنو كنانة ويجهزون عليكم ، فإنه على وشك أن يصل إلى بيوت الحى « فانصرفوا ، وقال دريد فى ذلك :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	حامى الظعينة فارساً لم يُقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة	ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللاً تبدو أسرة وجهه	مثل الحسام جلته كف الصيقل

يزجى^(١) طعينته ويسحب ذيله متوجهاً يمينه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رمحه مثل البُغاث خشين وقع الأجدل
ياليت شعري من أبوه وأمه يا صاح من يك مثله لا يُجهل
انصرف فرسان بني جشم ، وقد أخفقت غارتهم ، واضطروا أن يعودوا
أدراجهم وقد ردهم فارس واحد عن غايتهم ، ولا تزال الشمس تقدح فوق
رءوسهم وتصب شاييب النار على الأرض فتزيدها ضرماً ، ولا يزال حرُّ
الرمْل يشوى أطراف الخيل وهي تعدو بهم في ذلك الجحيم .
ورآهم حامى الطعينة وهم ينطلقون فقال :

إن كان ينفعك اليقينُ فسألي عني الطعينة يوم وادي الأخرم
إذ هي لأول من أتاها نهبةً لولا طعانُ ربيعة بن مكدّم
إذ قال لي أدنى الفوارس ميتة خلّ الطعينة طائعاً ، لا تندم
فصرفت راحلة الطعينة نحوه عمداً ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه فهو صريعاً للـيـدين وللفم
ومنحت آخرَ بعده جيّاشة نبلاءَ فاعرةً كشدق الأضجَم
ولقد شفعتهمَا بآخرٍ ثالثٍ وأبى الفرارَ لى الغداة تَكْرِمى

دارت الأيام دورتها ، وانصرمت بضع سنوات لم تهدأ فيها الحرب بين
القبيلتين ، وفي كل غارة تشحن القلوب غماً وحقداً وموجدة ، وتتأصل جذور
العداوة في النفوس . ثم كان أن أغارت بنو كنانة على بني جشم غارة شعواء
أخذوهم فيها على غرة فقتلوا منهم خلقاً كبيراً ، وأسروا عدداً كبيراً ، وكان

(١) يزجى : يسوق سوقاً رفيقاً .

فيمين أسر بطل بنى جشم وحامى ذمارها وفارسها المَعْلَم دريد بن الصمة ، ولم يعرف بنو كنانة أن فى حوزتهم سيد قومهم ، وأعظمهم همه وجرأة ، ورضى بالأسر موقناً أن الحرب سجال ، وأنه سيدينهم فى غد كما دانوه اليوم .

وبينا هو فى محبسه عندهم مغلول اليدين ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ورجال الحى قد انصرفوا لشئونهم فى الضحى ولم يتخلف فى البيوت إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، عَنْ لَبْعُضَ فُتَيَاتِ الحى أَنَّ يَتْلِهِنَّ بِمَدَاعِبَةِ الْأَسْرَى ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ وَهَمَّ يَرْسِفُونَ فى الْأَغْلَالِ وَالْقِيُودِ ، وَلَعَلَّ عِنْدَ أَحَدِهِمْ حَدِيثًا مُمْتَعًا أَوْ قِصَّةً طَرِيفَةً تَذْهَبُ مَا بَيْنَ مَنْ مَلَّلَ ، وَدَلْفَنَ يَحْدُوهُنَّ الْخَفَرُ وَيَحْفَزُهُنَّ الْعَبَثُ إِلَى حَيْثُ دَرِيدُ بْنُ الصَّمَةِ ، وَكَانَ وَحْدَهُ بَعِيدًا عَنْ بَقِيَّةِ الْأَسْرَى مِنْ بَنَى جِشْمَ فى بَيْتِ رَجُلٍ اسْمُهُ مُخَارِقُ وَهُوَ الَّذِى أَسْرَهُ ، وَمَا أَنْ رَأَيْنَهُ حَتَّى صَرَخَتْ إِحْدَاهُنَّ صَرْخَةً ارْتَاعَتْ لَهَا أَخَوَاتَهَا وَقَالَتْ : هَلَكْنَا وَاللَّهِ ، مَاذَا جَرَّ عَلَيْنَا قَوْمَنَا ؟ هَذَا وَاللَّهِ الَّذِى أَعْطَى رِبِيعَةَ رَحْمَةِ يَوْمِ الظُّعِينَةِ » : ثُمَّ أَتَتْ عَلَيْهِ رَدَاءُهَا وَقَالَتْ : « يَا لَقَوْمِى أَنَا جَارَةٌ لَكُمْ مِنْكُمْ ، هَذَا صَاحِبُنَا يَوْمَ الْوَادِى » فَسَأَلُوهُ مَنْ هُوَ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بَدَأَ وَقَدْ رَأَى أُمْلًا فى النِّجَاحِ أَنْ يَذْكَرَ اسْمَهُ . فَأَجَابَ : دَرِيدُ بْنُ الصَّمَةِ .

فَقَالَ النَّسْوَةُ فى صَوْتٍ وَاحِدٍ : الْفَارِسُ الْمَغْوَارُ ، يَا لِلْعَارِ !! لَقَدْ أَكْبَرْنَا وَاللَّهِ فَعَلْتِكِ يَوْمَ الظُّعِينَةِ ، وَقَلْنَا لَا يَصْدُرُ هَذَا إِلَّا مِنْ كَرِيمٍ عَظِيمٍ ، فَسَأَلْنَهُ : — مِنْ صَاحِبِى الَّذِى حَمَى الظُّعِينَةَ وَأَرْدَى ثَلَاثَةَ فَرَسَانٍ مِنْ خَيْرِ شَبَابِ بَنَى جِشْمَ ، وَأَظْهَرَ مِنَ الْبَطُولَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالدُّرْبَةِ مَا دَفَعْنِى إِلَى أَنْ أَكْرَمَهُ وَأَبْقِيَهُ فَلَا أَقْتُلُهُ وَهُوَ أَعَزُّ ؟ فَأَجَابَتْ مِنْ أَجَارَتِهِ :

— ربيعة بن مكرم .

— وما فعل ؟

— قتلته بنو سليم ؟

— فما فعلت الظعينة ؟

— أنا هي ، وأنا امرأته

فطأطأ رأسه أسفاً على ذلك الفارس وإكباراً لامرأته التي عرفت الجميل ،
وتقدمت لتجزيه معروفاً بمعروف ، وأجارتها من قومها .

ولما عاد رجال الحى تشاوروا في أمره بعد أن أخبروا خبره ، وعرفوا
عظم منزلته ، وجليل قدره ، وأن المروءة عند مثله لا تضع سدى ، وأن ما
قدمه من سابقة خير لبطلمهم يوم الظعينة قد طوق جيدهم بالمعروف .

فقال بعضهم : لا ينبغي أن نكفر نعمته على صاحبنا ، هو أهل للخير
والكرامة .

وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا مخارق الذى أسره .
وكاد الأمر ينتهى إلى هذا ، وتحقق المرأة في مسعاها ، ويدب الشقاق
بين أحياء بنى كنانة ؛ لأن عشيرتها — بنى فراس — سيقفون معها ويشدون أزرها .
ولكنها تقدمت إلى القوم ، في نديهم وهي متقنعة ، وأنشدت بصوت
قوى عذب :

سنجزى دريدا عن ربيعة نعمة	وكل امرئ يجزى بما كان قدما
فإن كان خيراً ، كان خيراً جزاؤه	وإن كان شراً ، كان شراً مذما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة	بإعطائه الرمح الطويل المقوما

فقد أدركت كفاه فينا جزاءه وأهلُ بآن يجزى الذى كان أنما
 فلا تكفروه حق نعماء فيكم ولا تركبوا تلك التى تملأ الفم
 فلو كان حيا لم يضق بشوابه ذراعاً ، غنيا كان أو كان معدما
 ففكوا دريداً من إسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر ساما
 فكان شعرها القول الفصل ، وأجمع القوم على أن يطلقوه من أسره
 فى غده ويقدموا لمخارق ما شاء من فدية إذا أبى أن ينزل على حكمهم وينصاع
 لأمرهم . ولكن مخارقاً لم يكن ليخرج عن أمر أبرمه قومه وأجمعوا عليه ،
 وأنى له أن يشذ عنهم وفيهم سادة بنى كنانة وأرباب الرأى والحكمة فيها .
 فلما أصبح الصباح أطلقوه . فأخذته جارية — وهى ريطة بنت الطعان —
 إلى دارها وكسته وجهازه بمطية وزاد سلاح ، ولحق بقومه ، وقد آلى ألا يغزو
 بنى كنانة بعامة ، وبنى فراس بخاصة ما عاش . وقد بر بقومه فاستقرت سيوف
 القبيلتين فى أغمادها ، وحفظت دماء بريئة من أن تُراق على مذبح البغى والثأر .
 وهكذا كان حامى الظعينة سيداً شريفاً عظيماً فى حياته حين حمى امرأته ،
 وفى مماته إذ كان سبباً فى نشر السلام وحفظ الأرواح والدماء .

ثَار

في سَجْوَةِ الليل الدامس ، وهواء البید يترقرق صفاء ولينا وحلاوة . ونجوم السماء تتألق بنور لامع نَفَّاذ ، يشق حُلْكة الديجور ، وتزين جيد السماء بعقود درية فتانة ، أقبل شبحٌ يَحُثُّ اِخْطَا حَثًّا نحو أحياء بنى عبس وقد هدأت نَأْمَتُهُمْ حتى طرق بابَ زهير بن جذيمة العبسي ، ونعى زهيراً إلى أهله وعشيرته ، ونَبَأَهُمْ بأن خالد بن جعفر بن كلاب قد قتله غدراً .

ريعت أحياء بنى عبس للرُزء الجسيم ، وأقض صوتُ النعي مضاجعهم ، وأخذ شبابهم وذوو الحمية يتوعدون القاتل الغادر ، ويدبرون الأمر للأخذ بثأرهم حتى لا يَفْلَتَ منهم ؛ وراح النساء يبكين في زهير سيادته وكرمه وشجاعته ، وشقت أصواتهن سكون الليل فبدت مفرعة رهيبة مقبضة للصدور . أما خالد فقد أيقن أنه قد اقترف أمراً إداً ، وأنه لا قبل له بغطفان بعامة وبنى عبس بخاصة ، وصار يلجأ إلى مختلف القبائل عليهم يحبرونه من طالبيه ، فألنى الأبواب أمامه موصدة والأشراف منه نافرة للشرف البالغ الذي كان يتمتع به زهير ، ولعظم المصيبة في فقدته .

ضاقت على خالد الأرض بما رحبت وعلم أنه هالك لا محالة ، وأنه جر على قومه حرباً ضروساً سيفنى فيها العدد الوفير ، فيا شؤم ما جرت يده ، واقترف من كبيرة ! . وحين دبَّ اليأس في فؤاده وكاد يستسلم لقبضته العاتية ، وهى تعتصره ، وتسد في وجهه المنافذ ، لاح له بصيص من أمل في جوار النعمان المنذر

ملك الخيرة ، حتى وصلها وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ، واستجار بالنعمان ، فأجاره ، وهداً روعه ، وسكناً جأشه ، فأيقن بالسلامة .

أنزل النعمان خالداً منزلاً كريماً ، وأمر خدمه برعايته وأخيه ، وطلب إليهما أن يحضرا طعامه ومجالس أنسه ولهوه وشرابه ، فكان ذلك فوق ما أُمِّلَ خالد وقدر .

أما بنو عبس فلم تهبطاً ثأرتهم ، وحين علموا أن خالداً صار للنعمان جاراً صمموا على محاربة بنى عامر ، وأخذ قيس بن زهير يعد للحرب العدة ، ويجمع الرجال والعتاد ، حتى صارت أسبابها لديه حاضرة ولم يبق إلا المسير لغزو بنى عامر في ديارهم أخذاً بثأره ، وانتقاماً من عدوه . حينذاك قال له الحارث ابن ظالم :

— يا قيس ! أنتم أعلم بحربكم ، أما أنا فسأرحل إلى خالد حتى أقتله :

— قد أجاره النعمان ، فأنتى لك به ؟

— لأقتلنه . ولو كان في حجره .

— دونك وما تريد ، وما ذلك على شجاعتك وبأسك ببعيد . أما نحن

فوجهتنا بنو عامر ، ليلاقوا وزراً ما جرّه عليهم سفهاؤهم ، فلنسأل الله أن يكتب لك السلامة ، ويكتب لنا الظفر .

كان الحارث فتى لا كالفتيان ، ريان الشباب ، فارع العود ، مفتول الساعدين قوى العضل ، متين التركيب ، ينبؤك جسمه بفتوة بالغة ، وأيدٍ عظيم . وكان فوق هذا وسيقاً ، جميل الطلعة ، حلو الحديث ، ومن أعلم العرب بأيامهم ، وأخبار فرسانهم ، ومواقف النخوة والفتوة التي وقفها أبطالهم ، والممعة

يستعر لظاها . وكان يروى كثيراً من أشعار الحماسة والبأس . كما كان فارساً شهيراً خبيراً بالقتال وأساليبه ، ذا فؤاد جَلَدٍ ثَبَتَ على الحوادث .

فلا بدع إذا رأيته يخرج وحده ليقتل جَار النعمان ملك الحيرة أخذاً بثأره وغسلاً للعار الذى لطح به قومه ، فقصده صوب الحيرة ، يتبعه رجل من بنى محارب حتى أتى باب النعمان ، فاستأذن ، فأذن له النعمان ، وفرح به فرحاً عظيماً ، وأقبل عليه يحدثه ويؤاكله تمراً ، وسر من حديثه ووجد فيه متعة ولذة فأصغى إليه دون جلسائه جميعاً ، وكان من بينهم خالد بن جعفر — والحارث لا يعرفه — فلدغت الغيرة والحسد أفئدةً منهم ، وكان فؤاد خالد أشد تألماً ، وأعظم كمداً فقال للحارث :

— يا أبا ليلى ألا تشكرنى !

— من أنت ؟ وعلام ؟

— أنا خالد بن جعفر ، وقد قتلت زهيراً ، فصرت بعده سيد غطفان .

لم يقدر الحارث أن القصة تبلغ بخالد ما بلغت ، حتى يتبجح أمامه بأنه قتل سيد قومه ويطلب منه الشكر عليه ، وعلم أن خالداً ما تجرأ على هذا إلا لاحتمائه بالنعمان وكانت فى يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده حين سمع ما قال خالد وأخذته رعدة ، وجعل التمر يسقط من يده وهو يقول :

— أنت قتلته !! أنت قتلته !!

فلما رأى النعمان ذلك ، وهو يعلم من الحارث ، وما بلغ من قوته وشجاعته وبصره بالقتال — نحس خالداً بعصاه ، وقال له :

— هذا يقتلك .

— أبيت اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني !

فكظم الحارث غيظه ، وهدأ نفسه ، ولم يشأ أن يهدد أو يتوعد ، أو ينم عن ذات فؤاده ، وزال مابه من رعدة ، فاستأنف حديثه ليلاً حلواً ممتعاً كما كان ، وتتشع ار بداد وجهه ، وعلته ابتسامته السايبة ، كأن لم يكن منذ هنيهة قد تغير وامتنع . و برهن بضبطه خلجات نفسه ، وتحكمه في أحاميسه وأعصابه على هذه الصورة البليغة على أنه رجل قد نضجت رجولته ، وليس فتى حدثاً تستغزره الحوادث ، ويفلت من يديه زمام نفسه .

وانصرف السَّار من لدن النعان ، وانصرف خالد وأخوه معهم ، ومادنت الريبة من فؤاده قط ، في أن الحارث يضمر له شراً ، أو أنه يستطيع أن يخفر ذمام النعان ، وهو الملك العتيد الطويل الباع . وكان من عادة خالد إذا دخل قبته أشرجها^(١) زيادة في الحيلة ، ففعل ذلك كعادته واستسلم لنوم عميق يزيده هدوءاً هواء البید الرقراق ، ونسيمها البليل .

أما الحارث فقد لبث عند النعان قليلاً بعد انصراف السامرين ، ثم استأذن ونفسه الفتية يحش فيها الغضب المكبوت كالمرجل ، وبوده لو وجد خالد أمامه حتى يفتك به فتكة تكون عبرة لسواه من المغرورين الجبناء ، ولكن خالداً كان قد أوى إلى خيمته مطمئناً وادعاً .

وحين انتصف الليل أو كاد ، وهدأت العيون ، وأطبقت الخيرة أجفانها تحتضنها البیداء في رفق وحنان ، وتنفحها بنسيمها العطر الناعم ، تسلى الحارث وحده ، وسيفه في يمينه مصلتاً ، وأخذ يتحسس طريقه حتى وصل إلى قبة

(١) أشرج الخيمة : أدخل بعض عراها في بعض بين اشراجها .

خالد في فناء قصر النعمان ، وكان الحراس قد غلبهم النعاس وأمال رؤسهم ، فلم يستيقظوا لخطواته الخفيفة المطمئنة ؛ ثم هتك عُمرى القبة بسيفه ، ودخل رابط الجأش ، فالتقى خالدا نائما ، وأخوه إلى جنبه . فأيقظ خالدا ، فاستوى قائما فرعا ، ورأى الموت أمامه عيانا ، فقال له الحارث :

— يا خالد ! أظننت أن دم زهير كان سائغا !؟ أو حسبت غطفان تدع لك دم ربها ، وتتركك وادعا في ظل النعمان تتمتع بجواره ، وطعامه ، ومجالس طربه ؟ لقد أقسمت لأقتلنك ولو كنت في حجره ، وهأنذا أبر بقسمى . ثم علاه بسيفه حتى قتله . وانتبه عُتبة فرأى أخاه مضرجا بدمه . فقال له الحارث في صوت ملؤه الجذ والصرامه :

— لئن نبست لألحقنك به !

انصرف الحارث ، ووجد تابعه ينتظره بفرسه خارج الفناء ، فاعتلى كلاهما جواده ، ووكزه فمضى يستبق الريح ، ويطوى بساط البيداء طياسريعا ، وقد قرّت عينه ، وانقشأ غضبه ، وسكنت نفسه .

وخرج عُتبة على أثره صارخا حتى أتى باب النعمان ، وهو ينادى : يا سوء جواراه ! ، يا سوء جواراه !

فأجيب : لا روع عليك !

فقال : عُتبة لرئيس الحرس ، وقد أسرع إليه : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر الملك ، فيا سوء جواراه !

كان رئيس الحرس يعلم مكانة الحارث بن ظالم ، وعزة قومه ، وشدة بأسهم ، فلم يستطع أن يبت في الأمر من ذات نفسه ، ويرسل خلفه بعض

رجاله ، ولكنه كان يعلم كذلك أن الملك قد أجار خالداً ، وأن الحارث قد أخفر ذمام الملك ، وأن هذه إهانة عظيمة ، وإثم كبير . فلم يجد بداً من إخبار مولاه ، فأوحى إلى بعض الجوارى بذلك ؛ فبُهِت النعمان حين أفضت إليه بالخبر ، واستعظم ما اقترَف الحارث ، ووجه الفوارس في طلبه ، وأمرهم أن يأتوا به حياً أو ميتاً ، وحذرهم بأسه وسطوته ، وشدة مراسه .

اختار رئيس الحرس ثلثة من أشد رجاله بأساً وأيداً ودُرْبَةً ، فانطلقوا على جيادهم الفاراهة المضمرة ، وعند السحر سمع الحارث ورفيقه وقع حوافر الخيل تَجِدُّ في أثره ، فوَكَز كلاهما جواده واستحثه على الإسراع ، ولكن أنَّى لجواديهما أن يسبقا خيول النعمان ! ؟ ولما لم يجد الحارث من المعركة بدا ، انتحى ورفيقه ناحية من الطريق ، وانتظر في ثبات وصبر فوارس النعمان .

فلما حاذَوْهُ انقض عليهم ورفيقه فقتلا جماعة منهم ، وقتل كذلك تابعه ، وبقي الحارث وحده ؛ فتكاثروا عليه ؟ بيد أنه كان الفارس الحنك فلم يروعه عددهم ، وكان يتقى ضرباتهم بحذق وحيلة ويشد بسيفه عليهم ، فلا يضرب فارساً إلا قتله ، ولا يقصد جماعة إلا فرقها ، ثم إذا تكاثروا عليه كرة أخرى راغ منهم . واشتى في عنفوان ، وبأس ، وحماسة ، يروى سيفه من دمائهم ، ويغمسه في أفئدتهم . ووجد القوم أنهم أمام شيطان مرید ، وفارس عنيد ، وبطل صنديد ، فارتدعوا عنه ؛ ولما رأى أنهم قد هابوه ، وأن هجماتَه قد ألقت في قلوبهم الرعب ، لوى عنان جواده ، وانطلق يعدو لطيته ، وقد أخفته الجراح ، ولكنه لم يأبه لها ، وظل جواده يسبح في الجو كأنه طائر حبيس قد فر من قفصه .

أما فوارس النعمان فقد رجعوا إليه يجلهم الخزي ، ويحدوهم العار ،
ويزفهم الانكسار .

وذهبت قصة الحارث بن ظالم مع خالد بن جعفر في شتى نواحي البيد ،
يحكيها الناس بالإكبار والإعجاب ، ويسردها الفتيان في منتدياتهم ، والنساء
لأولادهن . ولكن حساد الحارث كانوا كثيرين ، فلم يستسيغوا هذا النصر ،
وقال عمرو بن الإطنابة أحد شائئ الحارث وحساده .

عَلَّلَانِي وَعَلَلَا صَاحِبِيَا	وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمُرُوقِ رِيَا
إِنْ فِينَا الْقِيَانُ يَعْرِضَنَّ بِالضَّرِّ	بَ لَفَتِيَانِنَا ، وَعَيْشَا رَضِيَا
يَتَنَاهَيْنَ فِي النِّعَمِ وَيَضْرِبُ	بِنَ خِلَالِ الْقُرُونِ مُسْكَ ذَكِيَا
أَبْلَغُ الْحَارِثِ بِنَ ظَالِمِ الرَّءِ	بَدِيدُ وَالنَّاذِرِ النَّذُورِ عَلِيَا
إِنَّمَا تَقْتُلُ النَّيَامَ وَلَا تَقْدُ	تَقْلُ يَقْظَانُ ذَا سِلَاحٍ كَمَا ^(١)

لبث الحارث في قومه حيناً ، وفي كل يوم يلقي من إعزازهم له ، وتكريمهم
الشجاعة وبأسه ، ولغسله العار عنهم ، وللاخذ بثأرهم ، ما جعله يفنى في حب
قبيلته ، والذود عنها ، وينذر النذور ألا يفرط في حقوقها ، أو يدع عدواً يكيد
لها هادئ البال .

وكانت بعض جراحه عميقة ، ولكن شبابه ، وفتوته وحيويته ، وما أحيط
به من عناية ورعاية ، جعل البرء يمشي إليه سريعاً ، فاسترد صحته وعافيته ،
وعاد إلى امتطاء جواده الذي شاركه المعركة مع فوارس النعمان . ولما سمع بما

(١) السكى : الشجاع ، أو لابس السلاح .

قاله عمرو بن الإطنابة صمم على أن يسير إليه ، ويبارزه ، ليريه أى فارس هو وأنه لا يقتل النيام ، ولكن يُردى فى حومة القتال أشجع الفوارس ، وأكملهم عدة وسلاحاً .

كان عمرو بن الإطنابة فارساً معدوداً فى قومه ، له صيت وله بأس ، ومواقف محمود ، وأيام مشهودة ، وكان مشهوراً بنجدته ، وكرمه ، واعتداده بنفسه ، حتى لقد أقسم ألا يدعوه رجل بليل إلا لى دعوته ، ولم يسأله عن اسمه ؛ لفرط ثقته بنفسه ، ولعظم ما كلف به من المروءة والنجدة وإغاثة المضطر . فلا عجب إذا نفّس على الحارث بن ظالم مكانته ، وما يتمتع به من صيت مديد ، وإنما ينفس على المرء نظراؤه ولداته . وكان الحارث يعلم عن عمرو شيئاً كثيراً ، ويعلم قسمه هذا ، وأنه ليس له بند ، إذا جد الجد .

أتى الحارث حى عمرو بن الإطنابة ، وأخذ يسأل حتى اهتدى إلى خيامه ، فلما جن الليل هتف به ، فخرج إليه ، لا يسأله عن اسمه ، بل قال له .
— ما تريد ؟

— أعنى على إبل لبني فلان ، وهى منك غير بعيد ، وإنها لغنيمة باردة !
— لقد دعوت سميعاً

ثم دعا عمرو بفرسه وأراد أن يركب حاسراً ، غير شاكى السلاح ، فقال له الحارث : ألبس عليك سلاحك ، فإنى لا آمن امتناع القوم ، والحذر جنة وربما دارت بيننا وبينهم معركة .

فاستلأم عمرو وخرج معه بكامل سلاحه ، فلما برزا فى الأرض الفضاء .
وبعدا من مساكن القوم ، قال الحارث لعمرو :

— يا عمرو أيكما أشجع أنت أم الحارث بن ظالم ؟
— لو التقينا وشهدت صراعنا لعلمت أنه لا يثبت لى فى معركة ، ولا يقوى
على ضربات حسامى .

— وكيف هذا ؟ أو ما سمعت ما فعله بخالد بن جعفر و بفوارس النعمان ،
وأظنك قد قلت فى هذا شيئاً من الشعر ، فبر بك إلا أعدته على . . . فأنشد
عمرو أبياته فى هجاء الحارث . فقال هذا :
— أظنك قد ظلمتة

— لا والله ما ظلمتته ، وإنه ليعلم أى فتى يلاقى ، حين اصمد له .
— إذاً خذ حذرَكَ يا عمرو ، فأنا أبو ليلى وقد دنت ساعتك .
بهت عمرو لهذه المفاجأة ، ورأى أن الحارث غير تاركه إلا قتيلاً معفر
الوجه ، لكن عز عليه أن ينهزم أمامه ، ويستسلم له طواعية فقال :

— لبيك يا حارث ! فطالما تمنيت هذه الآونة حتى أشفى ما فى صدرى بقتلك
— خل عنك هذا وخذ حذرَكَ ، فلا يجدى تشجيعك نفسك شيئاً .
واحتدم القتال بين الفارسين برهة ، ثم أطاح الحارث بضربة حاذقة
شديدة السيف من يد عمرو ، ووضع ظبةً حسامه فى نحره وقال له :

— كيف ترى نفسك ، وهل ترى الحارث بن ظالم رعيداً ، لا يقتل
إلا النيام ، ويخاف من السكاة الأبطال ؟!

— اقتلنى بربك ، فالقتل أحب إلى من العار .
— إني لا أحب قتل مثلك ، ففبك من النجدة ، وحب الخير ما يدعونى
للمن عليك ، والعفو عنك .

ثم جز ناصيته وأطلق سراحه وقال :

عللاني بلذتي قينتي	قبل أن تبكي العيون عليا
قبل أن تذكر العواذل أني	كنت قديما لأمرهن عصيا
ما أبالي إذا اصطبحت ثلاثا	أرشيدا دعوتني أم غويا
غير ألا أسير لله إثميا	في حياتي ولا أخون صفيا
بلغتني مقالة المرء عمرو	بلغتني ، وكان ذاك بديا
فخر جننا لموعده فالتقمينا	فوجدناه ذا سلاح كميا
غير ما نأثم يروّع باللي	بل مُعداً بكفه مشرفيا
فرجعنا بالصفح عنه وكان المد	من منا عليه بعد تلييا

تأبط شراً

حملت به أمه كرهاً ^(١) ، ووضعت كرهاً ، فجاء آية في الذكاء ، وحدة الخاطر ، وشجاعة الفؤاد ، وعظيم الحيلة ، ثم تيمم وهو طفل ، فعركته الشدائد وشحذت همته الحاجة ، ولم يجد حوله معينا أو نصيراً ، فقويت ثقته بنفسه ، واعتماده على ساعده وضربة سيفه . لم يألف تربية الأب وتدليله ، وابتسامته وتقيله ، وإنما نشأ في حِضْن أمه ، تحمته على طلب العيش لنفسه ولها ، وأني له أن يجد اللقمة قريبة المنال ، كما يجدها أبناء السراة والأثرياء من القبيلة ، وقد خلفه أبوه صفر الكف إلا من نفس كبيرة ، فلا إبل يرعاها ، ولا حمى يحمى ذماره ، ولا جياذ يتيه بركوبها عجباً وخيلاء ، ويغير بها على الأعداء ، فيأسر ويغنم ، ويملاً بيته خيراً كما يفعل المياسير الشجعان . وكان ذا نفس أبيية ، وعزيمة قوية ، فأنف من أن يعيش عالة على غيره ، ينتظر البر يناله من ذى ميسرة عطوف ، أو ذى رحم كريم ؛ أو يستندى الأكف ويريق ماء وجهه وكرامته ، ويقطعه مزقاً في سبيل ملء البطن .

أجل ! إن ديارهم كانت مجدبة ، يجوع فيها الإنسان ويعرى ، إن لم يتحول عنها في طلب الكلاء والخصب والماء ، وهكذا كان شأن ذوى اليسار من القبيلة يكثر من النجعة ، ويرتادون مواطن العشب والرى ، ويسوقون نعمهم آلافاً ، ومعهم غيرهم من أفراد القبيلة ؛ حتى لا تنحل عرى وحدتهم ، ويطلع فيهم جار قوى ، أو عدو بطاش ، فيأسرهم وينهزم .

(١) العرب يعتقدون أن المرأة إذا حملت وهى مغضبة أنجبت .

في هذه البيئة الخشنة الجاسية ، وفي هذا البيت المعدم الحزين ، وفي
حضن هذه الأم الغليظة ، نشأ ثابت أبو زهير بن جابر مرهف الخواس : يسمع
مشى القطا في سكون الليل ، ويشم رائحة الظباء قبل أن تتراءى للعيون ، ويرى
في فسحة الصحراء وصفاء الأفق لمسافات شاسعة . وكان اذا خرج للصيد أو
الغارة حسبته شيطانا ، فكله حواس يقظة متوثبة .

إذا فات شيء سمعه دل أنفه وإن فات عينيه رأى بالمسامع
قليل نعاس العين إلا غيابة تمر بعيني جاثم القلب جائع
إذا جن ليل طارد النوم طرفه ونص هدى الحافظه بالمطامع
يراوح بين الناظرين إذا التقت على النوم أطباق العيون الهواجع
كان يترصد أسراب الظباء عند موارد الماء ، وهو بعد صبي حدث ،
فيتخير تلك التي قد اكتنزت لحما وقد طُبِّقَتْ شحما ، فيعدو خلفها وهي تقفز
فرعة ، وتسابق الريح جريا ، ولا يلبث أن يقبض عليها بجُمُوع يديه . وكان
كثيراً ما يرى متأبطاً سيفه تاركا بيته في غزاة أو صيد ، فإذا سئلت عنه أمه
أجابت : « لا أدري لقد تأبط شرا وخرج » ، فغلب عليه اللقب وعرف به
ونسى الناس أن اسمه ثابت أبو زهير بن جابر ، وقالت له أمه ذات يوم إبان
الكأبة : « ألا ترى غلمان الحى يجتنون لأهلهم الكأبة فيروحون بها ! »
فقال لها : « أعطني جرابك حتى اجتنى لك فيه » فأعطته ، فلأه لها أفاعى
من أكبر ما قدر عليه ، ووضعها بين يديها ، وكأنه بهذا ينبئها أنه أعظم همه من
أن يجتنى الكأبة كما يفعل الغلمان الضعاف ، قليلو الحيلة الذين تعوزهم الجراءة
والقوة والرأى .

ولقد زاد من شقاوته ، وشحذ من ضرواته ، وهياً له أسباب التمرد والجفوة والشدة والفتك ، إن أمه أبت أن تظل بغير بعل ، وأن ترضى بابنها واليا يعزها ويترضاها ، ويضع بين يديها كل ما جنت يداها ، فتزوجت أبا كبير الهذلي الشاعر المفلق ، و « ثابت » لا يزال غلاماً صغيراً ، فاشمأزت نفس الصبي ، ونفر من هذا الدخيل على حرمه ، وكره من أمه ما أتت ، وكان لا يراه أبو كبير إلا مربدَّ الوجه مقطب الجبين ، كأنه ينوى شراً بأحد ، وازورَّ عن أمه وصدف عن ترضيها ، دون أن يجرحها بقول أو فعل ، ولكنه كان صموتا حذرا ينظر إليهما شذراً ، ويطوى في حنايا نفسه أمرا .

فلما ترعرع ، وراه أبو كبير يزدد كل يوم صلابة عود وجرأة جنان ، وطلاقة لسان ، وإحكام رمية ، وسرعة عدو ، خشى على نفسه منه ، فقال لأمه : « ويحك قد والله رابني أمر هذا الغلام ولا آمنه ، فماذا ترين ؟ » . قالت : « فاحتل عليه حتى تقتله » ، وهكذا باعته أمه بيعه بنحس ، ولكن هيهات ! فهو في حصانة من نفسه عن أن يمسه سوء من قبل أمه أو زوجها . طفق أبو كبير يفكر في أمره وأمر الغلام ، وكيف يتأتى له أن يقتله ! ، بات من هذا الشأن في همٍّ مقيم ، حرمه الكرى خشية أن يشب به الغلام فيريه لأنه حرمه أمه وهي — على ما بها من خشونة وجفوة ، وغلظ كبد — كل ماله في هذه الدنيا ، والتي من أجلها ألف الوحش واستطاب العزلة ، وأمعن في الغارة ، واقتحم على الموت عرينه مرات ومرات ؟ لا يفكر إلا أن خلفه أمّا تكاد تهلك مسغبة وعريا ، فيزداد جرأة وإقداماً على الموت حتى يرُدَّ عليها الحياة أو ينيلها ما تشتهي .

ومضت أيام وأبو كبير لا يهتدى لحيلة أو يوفق لرأى ، وبينما هو فى ندى قومه ذات مساء ، والقوم يسمرون ويروون أخبار فتيانهم ، وكل يباهى بشجاعة ابنه وفتوته ، ويفخر على عشيرته بما أبلى به فى الغارات أو النجدة أو السباق . ولم يسمع القوم لأبى كبير صوتاً مع أنه يأوى فى بيته أشجع الفتيان وأكبرهم همّة ، وأجراًهم جنائاً ، وأشدّهم فتكّة ، فسأله أحدهم :

— ما بال شاعر القوم لا يثنى على ثابت ربيبه ، ويطرى بأسه وأيده ، وقوة مراسه ، وواسع حيلته ، واسمه تتضاءل أمامه هذه الأسماء ، وتتطامن خزيّاً ، فما صارعه منهم غلام إلا صرعه ، ولا سابقه عدّاً إلا سبقه ، ولا بارزه فارس إلا كاد يفتك به .

فقال أبو كبير : « لم يصل إلى من نبأ هذا شيء ، وهو غلام صموت ، ينطوى على نفسه فلا نعرف له سرّاً ؟ » .

— أو لم يبلغك أنه عزم على أن يتزوج الغول^(١) ، وأنه يغشى مأواها ويتخذها خلية وجارة ؟ ، وهذا العمرى ما لم يجرؤ عليه إنس من قبل ، وهو غاية ما تصل إليه السطوة والبطش .

فامتقع وجه أبى كبير ، واضطرب فؤاده ، وتراخت أعضائه ، ورأى فى مثل لمح البصر يد هذا الغلام تقبض على عنقه بصرامة وقسوة فتستل روحه ، وتدعه جثة هامدة ! ! ولكنه تماسك وتجلد وقال وهو يتصنع الدهشة :

— أوقد فعل ؟

(١) الغول : حيوان خرافى من تخيلات العرب : ويقول الشاعر .

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والحلّ الوفى

— ألم تسمع شعره الذى يقول فيه :

فأصبحت والغول لى جارة فىا جارة أنت ما أغولا !
ومن يك يسأل عن جارتى فإن لها باللوى منزلا !
كان هذا فوق ما يطيق أبو كبير سماعه ، فلم يلبث إلا هنيهة حتى التف
بشمלתه ، وحيا القوم وانصرف ، وهم فى عجب من أمره ، إذ لم يعقب ولداً ،
وأحرى به أن يفخر بربيبه هذا ، وهو من هو من بلاغة مقول ، ونجدة ،
وجرأة ، وهمة . ولم يعلموا ما يساوره من القلق ، وما يحزبه من الجزع والخوف
على نفسه ، لأنه تطاول وتزوج أم هذا الشيطان ، ولم يدروا أن تأبط شراً
يحدث عليه ، ويتربص به الدوائر ، وأنهم كلما ذكروا بأسه وشجاعته ازداد منه
أبو كبير رعباً وخشية .

مضى عام أو بعض عام ، وأبو كبير برّم بحياته وحياة هذا الغلام يراه
غصة فى حلقه ، وشجى فى نفسه ، وقذى فى عينه ، وكما سمع الناس يفاخرون
بشجاعته وحيلته ازداد هماً ومرض غماً . وزاد الطين بلة أن تأبط شراً كان
فتي حلو اللسان بليغاً ذرباً يأسر من يحدثه بفصاحته وعذب حديثه ، وأنه كان
كريماً ذا مروءة وشهامة ، يعين الكَلَّ ، ويطعم الجائع ، ويغيث الملهوف ،
يسعده أن يشركه طعامه ضيف ، ويقسم ماله ذو عيلة ، أو جار معدم ، لا يبقى
شيئاً مما يغنمه فى الغزو بل يفرقه على فقراء العشيرة بنفس سمحة رضية ، فأصبح
محبباً إلى كل نفس ، عزيزاً على كل قلب ، إلا قلب أبي كبير الهذلى ونفسه
لا مرا . ولا سيما والفتي يقابله دوماً بتجهم وغطسة وازدراء ، يتحاشى مجلسه
ويشيع بوجهه عنه إذا رآه ، وأحياناً يتمم فيحسب أبو كبير تمتمة توعداً

وتهديداً ، بينما هو مع غيره من الناس طلق الوجه ، لطيف العشرة ، رقيق الحاشية ، جذاب الحديث ، حسن البشر ، فيمضه ذلك ويؤمله ، ويتمنى أن تنزل عليه صاعقة من السماء أو تخسف به الأرض ، حتى تهدأ نفسه وتزول وساوسه ، وتذهب هواجسه ، وتعود إليه طمأنينته التي فارقتها منذ أن منى بأم هذا الشيطان .

وفي ذات مساء ، والقوم يسمرون كعادتهم في نديهم ، وقد عاودوا ذكر فتیان الحى وما يأتون به من ضروب الفروسية والحمية ، وأبو كبير معهم يخوض فيما يخوضون فيه ، ويروى من نوادر الشجعان مثل ما يروون ، ولكنه يتجاشى ذكر ربيبه تأبط شراً ، حتى لا يسمع من أمره ما يزيد جزعه ورعبه ، ولكن كيف يذكرون أولى النجدة والفروسية من شباب الحى وينسون تأبط شراً وهو منهم فى الطليعة ، فقال أحدهم : أو ما سمعتم حادثة تأبط شراً وابن براق مع بجيلة ، فتساءلوا فى لهفة عما حدث إذ كان بينهم وبين بجيلة عداوة قديمة وإحن وأحقاد . فقال المتحدث : « فى ليلة عارية تقف من بردها الأطراف وتيبس ، والريح ترفرف وتلهب بسياطها الوجوه ، والظلام يتراكم كسفاً كسفاً كأن الدنيا كهف بعيد الغور شديد العتمة ، أغار تأبط شراً وابن براق على بجيلة ، وساقوا بعض نعمها ، فأحس بهم القوم ، وخرجوا فى آثارها ، فمضيا هاربين فى جبال السراة ، ولزما الأرض الوعرة وأعلى الجبال ، وعارضتهما بجيلة فى السهل ، وسبقوهما إلى عين ماء بالطائف ، واختبئوا فى دغل قريب من العين ينتظرون قدوم المغيرين ، وهما لا يدريان من أمر المطاردة شيئاً . ثم جاء العين وقد بلغ منهما العطش مبلغاً عظيماً .

فلما وقعا عليها قال تأبط شرّاً لابن براق : « أقل من الشرب فإنها ليلة طراد ! » .

— وما يدريك ؟

— والله رب الأرض والسماء إني لأسمع وجيب^(١) قلوب الرجال تحت قدمي ذلك وجيب قلبك .

— والله ما وجب قط ولا كان وجّابا .

وضرب بيده عليه ، وأصاخ نحو الأرض يستمع ، ثم قال :

— فورب السماء إني لأسمع وجيب قلوب الرجال .

— فإني أنزل قبلك .

— « إنهم سيتركونك ، فلست المعنى بالطراد ، ولكنهم يقصدونني ، فإذا أخذوني ، وطلبت إليك أن تستأسر معي ، فاعد بين أيديهم ، ثم أظهر الكلال والتعب حتى إذا طمعوا فيك ، وقلت « خذوه ، خذوه » فأجد في عدوك إذا أكون قد انطلقت » .

ثم نزل ابن براق ، وبرك وشرب ، وكان أقل الغيرين شوكة ، وأضعفهما بأسا ، فلم يعن به القوم ، وتركوه وهم في الظلمة لا يراهم ولا يحس بهم . ثم نزل تأبط شرّاً ، وما كاد يتوسط الماء حتى وثبوا عليه ، فأخذوه ، وأخرجوه من العين مكتوفا ، وابن براق قريب منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عدوه ، فقال لهم ثابت : إنه من أصلف الناس وأشدّهم عجبا بعدوه ، وسأقول له : استأسر معي فسيدعوه عجبه بعدوه إلى أن يعدو بين أيديكم ، وهو واثق من

(١) خفقان القلب ، وكان من أسمع العرب وأكيدهم .

نفسه أنه إذا انطلق لا يلحق ، وله ثلاثة أنواع من العدو : أولها كالريح الهابة ، والثاني كالفرس الجواد ، والثالث يكبو فيه ويعثر ، فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه فإنى أحب أن يصير فى أيديكم كما صرت إذ خالفنى . قالوا : فافعل .

فصاح به تأبط شراً : أنت أخى فى الشدة والرخاء ، وقد وعدنى القوم أن يمنوا على وعلى ، فاستأسر وواسنى بنفسك فى الشدة ، كما كنت أخى فى الرخاء فضحك ابن براق ، وعلم أنه قد كادهم ، وقال : مهلاً يا ثابت ، أيستأسر من عنده هذا العدو ؟ ثم أخذ يعدو ، فانطلق أول الأمر كالريح كما وصف لهم ، وفى ثانى شوط كالفرس الجواد ، وفى الثالث جعل يكبو ويعثر ويقع على وجهه ، فقال ثابت : « خذوه ، خذوه » فعدوا بأجمعهم فلما أن نفسوا عنه شيئاً عدا تأبط شراً ، وهو مكتوف ، وعارضه ابن براق فقطع كتافه ، وأفلتا جميعاً وتركا بجيلة فى حسرة وندامة لخسرانها نعمها ، وإفلات عدوها من يديها !!

وما أن فرغ من قصته حتى أخذ القوم يتضاחקون ويتندرون على بجيلة ويثنون على تأبط شراً ، ويفخرون بحسن تأتية للأمر ، ونضج رأيه وشدة مراسه ، وقوة حواسه . ولكن شخصاً واحداً من بينهم كان كثيباً واجماً حزيناً ؛ كأن هذا الثناء سهام تحز قلبه وتدميه وكأنما هو شيخ بجيلة ، قد آلمته وحزت فى نفسه الخيبة . كان ذاك الشخص أبا كبير الهذلى ، وحق له أن يأسى ويضطرب ، وهو يرى ربيبه يشتد ساعده كل يوم ، ويبلى فى الغارة بلاء حسناً ، وقد أبرم أبو كبير أمره فى تلك الليلة ، وصمم على أن يقتله قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون أشد منعة عليه وأقوى شكيمة ، وقبل أن يعدر به ويثب عليه أو يحتال لاغتياله . فنهض من ندى قومه وكله وعزم وحزم على أن ينفذ ما ارتأى دون تريث أو تلوم .

لم يكن أبو كبير هيابة رعيدياً ، بل كان شجاعاً فارساً ، وإنما كان يخشى أمر الغلام ، لأنه ربيبه ، ويبيت معه في بيت واحد . أما وقد فوضته أمه في قتله فلن يثنيه عن ذلك شيء .

قال له في الغد : هل لك في أن تخرج معي للغزو ؟

فقال : ذاك من أمرى . قال : فامض بنا ، فخرجا غازيين ، ولا زاد معهما ، فسارا ليلتهما ويومهما من الغد ، حتى ظن أبو كبير أن الغلام قد جاع فلما أمسى قصد به أبو كبير قوماً كانوا له أعداء ، فلما رأيا نارهم من بعد ، قال له أبو كبير : ويحك ! قد جعنا ، فلو ذهبت إلى تلك النار فالتمت لنا منها شيئاً ! فمضى تأبط شراً ، فوجد على النار رجلين من أئسّ العرب ، وأشدّهم فتكاً ، وقد أرسله أبو كبير ثمة ليقتلاه ويتخلص منه ، ويبرأ من دمه أمام قومه ، فلما رأياه قد غشى نارهما وثبا عليه ، وكان أحدهما أدنى إليه من صاحبه فأردى القريب منه فخر صريعاً ، وكر على الآخر فرماه ، وذلك في سرعة وخفة ، وبطعنات نافذات شديداً من يد حاذقة صلبة ، ثم جاء إلى نارهما فأخذ الخبز منها ، وأتى به أبا كبير فقال له : كل ، لا أشبع الله بطنك ! ولم يأكل هو ، فقال له : ويحك أخبرني عن قصتك ، فأخبره ، فازداد منه خوفاً ورعباً ، وأمسى منه على حذر شديد .

ثم مضيا في ليلتهما فأصابا إبلا ، وكان يقول له أبو كبير ثلاث ليال : اختر أي نصف الليل شئت تحرس فيه وأنا ، وتنام النصف الآخر ، وفي كل ليلة يقول له تأبط شراً : « ذلك إليك . اختر أيهما شئت » . فكان أبو كبير ينام أو يتظاهر بالنوم حتى ينصف الليل ويحرسه تأبط شراً ، والله يعلم أن الرجل ما كان يغشى عينيه الكرى ، وهذا الشيطان جالس على رأسه ، وكيف

يأتيه النوم وقلبه نهب للهواجس والخاوف ، وهما وحيدان في فلاة مقفرة ؛ فإذا نام تأبط شراً في النصف الآخر من الليل نام أبو كبير كذلك لا يحرس شيئاً ، إذ لم ينم أول الليل .

فلما كان في الليلة الرابعة ظن أن النعاس قد غلب على الغلام ، لأنه نام أول الليل إلى نصفه ، وحرسه تأبط شراً ، فلما نام الغلام قال أبو كبير لنفسه : الآن يستثقل نوماً ، وتمكنني فيه الفرصة ، فلما ظن أن الكرى قد أخذ بمعاقده أجفانه ، أخذ حصاة فحذف بها فهب واقفاً على قدميه وقال : ما هذا الذي أسمع ؟ قال : والله ما أرى لعل بعض الإبل تتحرك ، فقام وطاف بها فلم ير شيئاً ، فعاد فنام . فأخذ أبو كبير حصاة أصغر من تلك فرمى بها ، فوثب ، فطاف ورجع إليه ، فقال : يا هذا : إني قد أنكرت أمرك ، والله لئن عدتُ أسمع شيئاً من هذا لأقتلنك ! قال أبو كبير : فبت والله أحرسه خوفاً أن يتحرك شيء من الإبل فيقتلني .

أصبح الصباح ، ولم يفل أبو كبير وطره ، وولت منه الفرصة ولن تعود ، وتبين له أن ريبه هذا داهية لا يغلب أو يختل ، فلما رجعا إلى حيهما آلى على نفسه ألا يدخل على امرأته حتى ترضى نفس تأبط شراً ويطمئن هو على حياته ، وآثر أن يغيش معه في سلام ودعة ، وأنشد في رحلته هذه قصيدة يصف بها تأبط شراً ويشير فيها إلى قسوته وطباعه :

وإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزولوقعتها طمور الأخيل^(١)
ما إن يمس الأرض إلا منككب^٢ منه وحرف الساق طى الحمل

(١) الطمور : الوثوب ، والأخيل الصقر ، أى يثب حين تقع الحصاة كما يثب الصقر

وإذا رميت به الفجاج رأيتَه يَهْوِي مخارمها هُوِي الأجدل^(١)
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل^(٢)
يحمي الصحاب إذا تكون كريهة وإذا هم نزلوا فساوى العليل^(٣)

(١) الفجاج : جمع فجع وهو الطريق الواسع في الجبل أو غيره ، والهوى : الاندفاع إلى أسفل ، والمخارم : جمع مخزم وهو القلع في الجبل ، والأجدل : الصقر ، ومعنى هذا البيت أنه صاحب همة لا يعأ بالصعاب .

(٢) الأسرة : الخطوط التي في الجبهة يقول : إذا نظرت في وجهه رأيت أساريه تشرق أشراق السحاب المتشقق بالبرق ، يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه وسماحته .

(٣) العليل : جمع عائل وهو الفقير ، يصفه في هذا البيت بأنه شجاع كريم .

فتى كريم (١)

— أى حاتم ! إني على سفر ، وقد خَلَفْتُكَ فى مالى ، فَأَحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَيْهِ وَالتَّعَهَّدَ لَهُ ، وَلَا تَكُنْ مَبْذُورًا مُتَلَفًا ، أَوْ كَزًّا كَنُودًا ، فَالْتَبَذِرْ يَوْثَ الْفَقْرِ ، وَالْفَقْرُ ذُلٌّ ، وَالكَزْازَةُ تُعَقِّبُ الْمَذْمَةَ وَقَالَةَ السُّوءِ ، وَلَمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى إِنْ عَاشَ فَقِيرًا يَتَصَعَّلُكَ ، أَوْ ذَمِيمًا تَتَحَامَاهُ الْعَشِيرَةُ .

— لَقَدْ نَصَحْتَ وَاعِيًا يَا أَبْتَاهُ ، وَأَرْجُو أَنْ تَسْعِفَنِي خِلَالِي فَلَا أَخِيبُ ظَنِّكَ ، أَوْ أَضِيعُ نَصْحَكَ .

ومضى عبد الله بن سعد الطائى ، والد حاتم لطيته ، وخلف حاتمًا يرعى ماله ، ويقوم بأمر العشيرة من بعده ، وشعر حاتم أنه أصبح ذا تَبِعَاتٍ ، وَأَنَّهُ سَيِّدُ نَفْسِهِ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي مَالِ جَمٍّ ، وَخَيْرٌ كَثِيرٌ . وَنَازَعَتْهُ نَفْسُهُ مِنْذُ بَرَحٍ وَالِدَهُ إِلَى الْمَكْرَمَاتِ ، وَكَانَ يَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلَى أَنْ يَغْنَمَ لِقَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ حُسْنَ الْأُحْدُوثةِ وَطَيِّبَ الذِّكْرِ بِجَمِيلِ الْقَعَالِ ، وَهِيَهَاتُ أَنْ تَنْثِيَهُ نَصِيحَةُ سَمْعِهَا مِنْ وَالِدِ بَرِّ حَرِيصٍ ، أَوْ نَظَرَةٌ إِلَى عَوَاقِبِ الْأَيَّامِ ، وَمَا تَتَدَخَّرُهُ مِنْ نَوَائِبٍ . وَكَانَ حَاتِمٌ يَخْرُجُ فِي غِلْمَانِهِ لِرَاعِيَةِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ كُلِّ يَوْمٍ ، وَيُظَلُّ يَرْتَقِبُ الطَّرِيقَ عَلَّ غَرِيبًا قَدْ أَضَرَّ بِهِ الْوَنَى ^(٢) ، أَوْ نَفِدَ مِنْهُ الزَّادُ ، يَقْرِيهِ التَّحِيَّةُ

(١) بلوغ الأرب للأوسى ج ١ ص ٧٢ وما بعدها ، والأغانى ج ٨ ص ٢٤٦ ، وذيل الأمالى ص ٢٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ وسمط اللالى ص ١٢ ، والعقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ ، وأمثال الميدانى ج ١ ص ١٢٣ و de Percerval ص ٦١٣ ج ٢ ، خزانة الأدب ط السلفية ج ٤ ص ١٦٠

(٢) الونى : التعب والضعف .

فيقوم بحقه ، ويظهر له بالغ كرمه . وفي ذات يوم مرَّ به ثلاثة نفر لم يتعرف على واحد منهم ، فسألوه القري ، فقال لهم : ويحكم ! أتسألون القري ، وهذه الإبل والغنم أمامكم ، وما هي بالقليلة حتى تحجمون ، وما أنا بالبخیل الكزَّ حتى تترددون ؟؟ انزلوا على الرحب والسَّعة .

ونزل هؤلاء ، فنحر لكل واحدٍ منهم ناقَّةً قد اُكْتَنَزَ لَهَا ، وَغُلُظَ سِنَامُهَا ، وَكَانُوا جِياعاً قد نَفِدَ مِنْهُمْ الزَادُ مِنْذُ يَوْمَيْنِ ، وَلَكِنْ هِيَهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُهُمْ مِمَّا بَلَغَتْ بِهِ الْمَسْغَبَةُ ، وَالطَّوْى ، عَلَى نَاقَةٍ سَمِينَةٍ وَحْدَهُ . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلُوا أَطْيَابَ مَا قُدِّمَ لَهُمْ ، وَشَرَبُوا لَبَنًا صَرِيفًا ^(١) ، وَاسْتَجَمَتْ مَطَايَاهُمْ ، هَبُّوا يَواصِلُونَ الرِّحْلَةَ وَالسَّيْرَةَ تَلْهَجُ بِحَمْدِهِ ، وَتُثْنِي عَلَى أَرْحِمِيَّتِهِ وَجُودِهِ ، فَسَأَلَهُمْ حَاتِمٌ عَنْ أَسْمَائِهِمْ ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ عَمِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ ، وَبُشَيْرُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ ، وَأَنَّهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى دِيَارِ الْمَنَازِرَةِ يَطْلُبُونَ الرَّفْدَ . فَقَالَ حَاتِمٌ : بَخْ بَخْ ! إِنْ ضَيَّوْا سَادَةَ الشَّعْرِ فِي الْبَيْدَاءِ ، وَاللَّهِ لَنْ تَبْرَحُوا حَتَّى أَقْسِمَ بَيْنَكُمْ كُلًّا مَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ إِبِلٍ وَشَاءٍ ^(٢) ، وَأَخَذَ يَفْرُقُ بَيْنَهُمْ مَا اسْتَخْلَفَهُ أَبُوهُ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَأَوْصَاهُ بِحَسَنِ رَعَايَتِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مِنْ شَيْءٍ . وَارْتَحَلَ الشَّعْرَاءُ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا النِّجْمَ الَّذِي أَخَذَ يَتَأَلَّقُ فِي سَمَاءِ الْجَزِيرَةِ ، فَيُبهِرُ بَسْنًا جُودَهُ كُلَّ عَيْنٍ ، وَيُفْتِنُ كُلَّ نَفْسٍ ، وَيُخْلِبُ كُلَّ لَبٍّ ، اسْمُهُ حَاتِمٌ طِيَّ . وَقَرَّتْ نَفْسُ حَاتِمٍ بِمَا فَعَلَ ، فَقَدْ حَقَّ أَمْنِيَّةُ طَالَمَا جَاشَتْ فِي صَدْرِهِ ، وَكَانَ عَنْ إِدْرَاكِهَا عَاجِزًا ، وَقَدْ كَانَ سَعِيدَ الْجَدِّ إِذْ أَصَابَ بِكَرَمِهِ شَعْرَاءُ أَجْمَادًا ،

(١) اللَّبَنُ الصَّرِيفُ : الَّذِي حَلَبَ لِسَاعَتِهِ .

(٢) وَشَاءٌ : جَمْعُ شَاةٍ .

سيذيعون في الناس كرم طيبي* ، ويرفعون لها ذكراً . ولم يخطر على باله هنيهة ما نصحه به أبوه ، ولم يفكر إلا في أنه قد أتى أمراً حميداً .

ومرت الأيام وآب والده من سفرته ، ودُهِش حين رأى المراح خلواً من راغية أو ناغية^(٥) ، وعجل بسؤال حاتم عما صار إليه ماله ، فقال له حاتم : لقد طوقتكَ به مجد الدهر طوق الحمامة ، وقصَّ عليه نبأه ، وأخذ يُحسِّن له ما فعل ، ويذكر له أن هؤلاء الشعراء سيثيرون بذكركه ، وسيخلدونه على الأيام . ولكنَّ والده أصمَّ أذنيه فلم يستمع لدفاعه عن نفسه . وقال له : لقد ضيعت مالى ، وفرطت في نصحي ، ولو بقيت معي جلبت على الفقر كلها أحسست بالغنى ، فلن أساكنك بعد اليوم أبداً ، ولا آويك أو أعينك ، فأنت وشأنك ، لقد ورثت خلال أمك غنية بنت عفيف ولم ترث حرص أبيك .

فقال حاتم : أجل لقد ورثتها وويعيت قولها :

لعمركِ قدماً عضنى الجوع عضةً فآليتُ ألا أُمْنَع الدهرَ جائعاً
فقولاً لهذا اللأيمى اليوم أعفى وإن أنت لم تفعل فعضَّ الأصابعُ
يا أبتاه ! ليس فراقك بالأمر اليسير ، ولكنَّ طاعتك واجبة ، وإن مثلى لن يعدم قوتاً ، وأنا بعد في ميعة الصبا وشرخ الشباب وسأفارقك مستجيباً لأمرِكَ لا قالياً لك ولا زاهداً في أبوتك ، ولعلك تراجع نفسك بعدُ ، فإن دعوتنى لبيت ، أطوع من بناتك ، وأمضى من حسامك .

كان حاتم على الرغم من حداثة سنه ، فارساً مغواراً ، وكأنما خصَّته العناية

بجباؤها ، فكان إذا قاتلَ غَلَبَ ، وإذا غَنِمَ أَنهَبَ^(١) ، وإذا ضرب بالقِداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسَرَ أطلق . ولذلك كان ميمون النقيبة لا يُقَدِّم على عملٍ إلا كُتِبَ له فيه الفلج والتَّجَحُّج . ومن كان مثله في شجاعة جنانه ، وطلاقة لسانه ، وروعة بيانه ، وسماحة يده ، وصرامة سيفه ، وأصالة عِرْقِهِ لا يعيش بالبادية في مَترَبَة وفاقة ، وله في غارات قومه على أعدائهم أوردتهم عن ديارهم متسع لكسب الغنى ؛ ولذلك لم يلبث بعد أن فارق أباه إلا أمداً يسيراً حتى صار من أثرياء قومه ، وأعلام فرسانهم ، ومشاهير أجوادهم ، ورغب فيه عذارى طيء ، ولكنه لم يستجب لرغباتهم ، إذ سمع بحال ماوية بنت عبد الله من بني تميم ، كما سمع بحالها سواء من فتيان قومه . وخرج هو وأوس بن حارثة الطائي في طلب ماوية .

وجمعهما الطريق يزيد الخليل الفارس المَعْلَم ، ودَلَفَ إلى باب ماوية بنت عبد الله ثلاثةً مِنْ خَيْرِ مَنْ أَنْجَبَتِ الصَّحراء ، شجاعةً وبأساً وكرماً وسيادةً . وخطبها كُلُّ مَنْهُمْ لنفسه ، وأخذ يعدد مناقبه ، ولكنه آثرت حاتمًا عليهم وتزوجته . وقد لامتها أمها لأنها اختارت المتلاف الذي لا يبقى من المال باقياً ، فقالت لها : يا أماه لعلی أصلح من شأنه ، فإن لم أستطع فسيُقرنُ اسمي باسمه ، وسيكونان مثلاً شروداً في الندى والجود .

ونزلت ماوية في ديار طيء بين جبلين متيعين : أجأ وسلَمَى ، وفي البيت الرفيع العماد ، مهوى الضالين ، ومقصد المعتفين ، وغيث المحتاجين ، وأمل المكروبين ، وسعدت أمداً بما كانت ترى وتسمع من كرم زوجها وأريحيته ،

(١) أنهب ماله : جعله نهباً للناس يأخذونه من غير مقابل .

وتوطيد سيادته ، وفي كل يوم يضرب في الجود مثلاً يُرْرى بما سبقه ، وفي كل غارة يجلب لها من الخير والمال ما تهش له نفسها ، وتطري به جدّها ، ولكن سرعان ما تراه يتبدّد بين يدي حاتم فلا يُبقي منه ولا يذر . ولقد رآه يوماً وقد وفد عليه عبد قيس بن خُفّاف البرّجى يَبْثُه حاجته ، وأنه تحمّل في قومه دِماءً ، وتطوّع لإصلاح ذات البين بينهم ، وأن يده قصرت عن أن تفي بما تحمله ، وأبى قومه أن يعفوه ، وأهلهم حتى يأتي من يحملها منه . وأنشده .

حملتُ دماءً للبراجم جمةً فجتت لك لما أسلمتني البراجم
وقالوا سيفها : لم حملت دماننا فقلت لهم يكفي الحلالة حاتم
متى آتة فيها يقلّ لي مرحبا وأهلاً وسهلاً أخطأتك الأشائم^(١)
فيحملها عني ، وإن شئت زادني زيادة من حملت عليه المكارم
يعيش الندى ما عاش حاتم طيئً فإن مات قامت للسقاء ماتم
وقال رجال : أئهب العام ما له فقلت لهم إني بذلك عالم
ولكنه يعطى من أموال طيئً إذا جلف المال الحقوق اللوازم^(٢)

وكان في مِرْباع حاتم ما يُرْبى على مائتي بعير سوى نبيها وفصالحها^(٣) قد أراحها توأ غب غارته على بني تميم ، وقالت ماوية حين رأتها : هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ، ولكنها لم تهنا بها إلّا بُرْهة ، وإذا حاتم يهبها جميعاً لهذا البرّجى وهو يقول له : خذها فإن وفّت بالحلالة فذاك ، وإلّا أكلمتها لك ،

(١) الأشائم : ضد الميامن أي التي يتشائم منها .

(٢) جلف المال : ذهب به واستأصله :

(٣) النيب : النوق المسنة ، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

حتى لا تُروِّع قومك بأموالهم ، ولأن مثلك في نجدته وشرفه ، وإصلاحه ذات البين ، وحقنه للدماء البريئة وتحمله للديات أهل لأن يُعان .

فضحك عبد قيس ملء شذقيه ، وقال يا حاتم ! إن كل بعير دفعته إلى ذنبه في يد صاحبه ، ولا يزال كُمةً من يطالبون فزاده حاتم مائة بعير ، فأخذها وانصرف ، وحاتم يقول :

فلا منَّ عليك بها فإني رأيتُ المنَّ يُزري بالجميل
ومضى عام و بعض عام ، وماوية ترى المال يأتي وافراً ، وينصرف عاجلاً
فبرمت بحياة حاتم ، وراعها وقد ولدت عدياً أنه لن يرث من حاتم مالا ، بل سيرث اسماً ، وأنه سيعيش فقيراً معدماً إذا ظل حاتم على إسرافه ، وإتلافه لما يغنمه ، وأخذت تلومه وتعذله ، وتطلب منه أن يفكر في العواقب ، وحاتم يرد عليها مرة بقوله :

وعاذلة قامت على تلومني
أعاذلُ إن الجود ليس بمهلكي
ومرة ثانية بقوله :

أماوى إن المال مالٌ بذلته
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً
فإني وجدى ربَّ واحدٍ أمه
غنينا زماناً بالتقصد والغنى
فما زادنا مأوى على ذى قرابة
فأوله شكرٌ وآخره ذكر
أراد ثراء المال كان له وفر
أخذت فلا قتلٌ عليه ولا أسر
وكل سقانا ، وهو كاسبنا الدهر
غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

وفي كل مرة تلومه ينشدها شعراً يتحدث فيه عن كرمه ، ويشرح فلسفته ،

وهي تصير على مضض ، معللة النفس بأنه قد يشوب إليه يوماً رشده ، ويدرك أنه أبو صبيئة ، وأن واجبه إزاءهم أن يخلف لهم مالا يغنيهم ذلّ المسألة ، وضراعة الحاجة ، ولكن هيهات أن يرعوى مثل حاتم ، وقد جُبل على الكرم ، وله في إنفاق ماله ألف سبيل وسبيل .

ولم يزد له لومها إلاّ تمادياً في كرمه ، وقد نذر أن ينحرف في كل يوم من رجب^(١) عشرة من الإبل يطعم منها الناس ، وكان يوقد النار على يفاع من الأرض ليلاً لتجنب الضيفان ، وماوية تشكو لجاراتها تحرقه في الغنى وإتلافه ماله ، وهن قد يعذلهن معها ، وهو لا ينصت للعذل ، ولا يكف عن جوده .

وفي ذات يوم كانت أمام خباثتها ، وأمامها عدى وسفانة يلعبان ، وقد خرج حاتم في سفرة له في خلال الأشهر الحرم ، وهي آمنة مطمئنة عليه لفرط شجاعته ، ولأن هذه الأشهر قد حرم فيها القتال ، وقد جلست إلى جاراتها يتحدثن بأخبار البادية ، وفي الحروب والغارات ، والحمالات والدييات ، وإذا برجل يناديها :

— يا أم عدى !

— لبيك !

— إن حاتمًا أسير بأرض عَنَزَة ، وهو يطلب الفداء مائة من الإبل .

— حاتم أسير ! صاحت النسوة مجتمعات ، وروّع الحى ، وأخذن يسألن

هذا الرجل عن أسر حاتم ، وكيف أسر في الأشهر الحرم ؟ ومن أسره ؟

— لا ترعن . لقد مرّ حاتم في سفرته بأرض عَنَزَة فناداه أسير لهم أن

(١) كان رجب من الأشهر الحرم التي يكف فيها العرب عن القتال ، فلا يصيدون من الغارات شيئاً ، وهذا هو السر في نحر حاتم هذه الإبل في كل يوم من هذا الشهر .

أغثنى يا أبا سفانة ، فقد أكلنى الإِسار والقمل ، فقال له حاتم ويحك ! ما أنا
ببلاد قومي فأجيرك ، وليس معى شيء ، فأفك أسرك ، وقد أسأت بى إذ
تَوَّهت باسمى ، ومالك بعد أن استنجدت بى إلا أن أفك إيسارك ، وساموم به
العنزىين ، واشتراه منهم على أن يضع نفسه فى القيد بدلا منه إلى أن يأتية
الفداء ، وأرسلنى كى أحضره .

— فصاحت ماوية ! هذا شأن حاتم يابى إلا أن يكون كريماً ولو فى
ديار غيره . إن هذا الرجل لن يرجع عن غيِّه حتى أموت حسرة ولوعة . دونك
أيها العنزى مائة من الإبل فداء حاتم ، ولعله يتعظ بعد أن ذاق ذلَّ القيد ،
والم الأسر .

ولما عاد حاتم من رحلته ، وأنبأ امرأته بما حدث له اشتدت فى تعنيفه ،
ولكنه طمأنها بأن بيت الكريم لن يُضام أبد الدهر ، وأنشدها قوله :
أماوى لا يغنى الثراء عن الفقى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
أماوى إن يُصبح صدأى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضررى وأن يذى مما بخلتُ به صغرُ
وأنشدها كذلك :

أهـن للذى تهوى التلاد فإنه إذا متَّ كان المالُ نهباً مُقسماً
ولا تَشَقِينْ فيه فيسعد وارثُ به حين تغشى أغبر الجوف مظلماً
يقسمه غنماً ويشرى كرامة وقدصرت فى خط من الأرض أعظماً
قليلاً به ما يحمدنك وارثُ إذا نال مما كنت تجمع مغمماً
وعلمت ماوية أن حاتم لن يبقى على شيء من ماله ، وأنه إن مات فسيتركها

صفّر الكف ، وإن خَلَفَ لها الصيت المديد ، والذكر العطر ، ولكن ماذا يغنيها الذكر والصيت ، والبادية كثيراً ما تَشَحُّ بخيرها ، وتُجَذِّبُ الأرض ، وتَعْرِى من النبات ، وتبخل السماء بمائها ردحاً غير قصير ، وتشوى حرارة الشمس وأوارها وجه الغبراء ، ويهزل الحيوان ، ويقل الماء وقد تهلك الماشية ، ويصيب الناس الجوع والضر . وإذا لم يكن لدى المرء زادٌ مُدْخِرٌ حتى تجود السماء ، وتهتز الأرض ، وينبت البقل ، وترعى الإبل ، وتحيا ، هلك مسغبة وجوعاً هو وعشيرته أجمعين . وقد أصابت سنة من هذه السنوات الممحلة طيئاً ، وأتت على كل ما أدخره الناس ، واقتشعت الأرض ، واغبر أفق السماء ، وراحت الإبل ضامرة هزيلة ، وضنت المراضع على أولادها فما تبضُّ بقطرة ، وأيقن الناس بالهلاك ، وأن لا منجاة لهم منه إلا بمعجزة من الله .

وقد قدم حاتم كل ما لديه من إبل وشاء ، وأطعم بها قومه وأهله يوماً بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، حتى أتى عليها جميعاً ولم يبق له إلا فرسه ، وقد عود الناس أن يستجيب لطلباتهم ، ويحقق رغباتهم ، ولا يرد لهم سؤالاً ، كأنما أوتى خزائن الأرض ، أو فُتِّحت له أبواب السماء ، وكأنما في قدرته أن يحقق المعجزات ، وذلك لساحة نفسه ، وعدم احتجازه أى شيء مما يملكه عن سواه من المعتفين ^(١) .

وفي ليلة من ليالى الشتاء الباردة وقد هبت فيهاريح زفوف تعضُّ الجسم عضاً أليماً ، وتَقِفُ منها الأطراف وتيبس ، والناس يصطلون ويتعللون بالنار والدفع عن الطعام ، والأطفال فى كل بيت وكل خيأ يصرخون من الجوع

وتشق أصواتهم أجواز الفضاء فتتفطر لهم قلوب ذويهم ، ولا يملكون لهم إلا كلمات معسولة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وأولاد حاتم عبد الله ، وعدى وسفانة قد فتك السغب بأمعائهم وهم يتلون ألما ومسغبة ، ويئنون أنيناً مفزعاً موجعاً ، وأخذ حاتم يعيل ولديه بالحديث ، ويتناوم عليهما ينامان ، وقامت ماوية إلى الصبية تعلمها كذلك ، وتتناوم عليهما تنام . وكيف ينام الجائع ؟ وهو إن نام ساعة فستصرخ بطنه صرخة مُرعبة يهب لها واقفاً بعدها . ولم يكن باليسير على حاتم وماوية أن يريا الأطفال يتضورون من الجوع ، ويعولون من الألم ولا يملكان لهم حيلة أو وسيلة إلا حديثاً حلوا لا يغنى عنهم شيئاً ، ولو استطاع أحدهما أن يقطع مُرعة^(١) من لحمه فيقدمها لأولاده لفعل ، ولكن هل أبت لم تلك السنة العجفاء الشحيحة لحمًا يقطع ؟

وبينا حاتم وماوية يتذاكران أمر هذه الجماعة وهذا القحط الشنيع الذى لم تر البادية مثله ، ويدعوان الله أن يفرج الكربة ، ويزيل الغمة ، إذ رفع طرف الخباء ، فقال حاتم : من الطارق ؟

— أنا جارتك هند ، أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب الجائعة ، وما وجدت معولاً إلا عليك أبا عدى ، فارحمهم رحمك الله .

وقال حاتم على البديهة وبدون تفكير أو تردد :

— أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم .

وخرجت المرأة مسرعة تتعثر فى ثيابها فرحاً ، وهى لا تدري من أمر حاتم وأولاده شيئاً .

(١) المزرعة : القطعة من اللحم .

وعجبت ماويةً من أمر حاتم ، ونظرت إليه نظرة دهشة واستفسار ، ثم قالت له :

— يا عجبا ! ماذا عساك تقدم لهذه المرأة وأولادها من طعام ، وبيتك لا يحوى مما يؤكل كِسرة ، ولو كان به شيء لأطعمنا أولادنا ، وقد رأيت الساعة ما بهم ؟ إنك أسرفت فيما سلف من الأيام فلم تبق لنا شيئا ، وها أنت ذا تستجيب لاستغاثة جارتك ، ولا تستجيب لعويل أولادك . ولست أدري لعمر الله ماذا ستفعل بها وبأولادها إلا أن تذبح لها أحد صبيتك ، وليس هذا على كل حال بمستغرب منك ، فإنك رجلٌ سيء التصرف .

— ألقى عليك اللوم يا ابنة عبد الله ، فوالذى نفسى بيده ، لقد لبيت دعاءها وأنا لا أدري من أمر نفسى شيئا ، ولا أعرف لهذا الأمر مخرجاً ، ولكن ما كنت بمستطيع أن أردّها خائبةً ، وقد أتت تشكو الضر ولو ذبحت لها أحد صبيتى كما قلت . وليس أمامى من شيء ينحر إلا فرسى هذا الذى تخلف من كل ما وهبني الله من نعمٍ ومال .

ولم يكد حاتم يتم حديثه مع ماوية حتى أقبلت جارته هند تحمّل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة ؛ كأنها نعامه حولها أولادها . وقد اصفرّت منهم الوجوه وغارت العيون ، وهزلت الأبدان ، وعلت شفاههم بسمّة الأمل ، وفي عيونهم بريق الرجاء ، وكأنما كان الموت يطاردهم وهم فى فزع منه ورهبة ، فنجوا منه فى حِضْن حاتم .

وتمثلت لحاتم كلُّ هذه المعاني فهب إلى فرسه زميعاً^(١) فى غير تردد ،

(١) زميعاً : مسرعاً .

ووجاً لَبَّتَهُ^(١) بمدية فخرٌ ، والدمع يتفرق في عينيه أسفاً لفراق هذا الجواد
الذى طالما صاحبه والوغى مستعر الوطيس ، والمنايا تمد إليه أيديها البشعة المملوطة
بالدماء ، والأسنة مشرعة ، والسيوف مصلتة ، والعجاج يعقد فوق الرؤوس
سحاباً ، فنجابه من التهلكة . ولكنه أفاق سريعاً من إطرافته لأن عيون
الصبية جميعاً كانت تمتد إليه وترقب فعله ، وحاشاه أن يظهر أمامهم وأمام
جارته بأنه مُتَلَوِّمٌ^(٢) في إكرامهم وقد صار جواده جثة هامدة ، فأخذ يكشط
جلده ، ثم دفع المدية إلى المرأة ، وقال لها : شألك .

وأيقظت ماوية أولادها ، بل كانوا أيقاظاً من قبل أن تأتى إليهم ، وأنى
لمن كان في مثل حالهم أن يستغرق في نوم ؟ ؛ وذهب يمشى في الحى ، ويأتيهم
بيتاً بيتاً ، ويقول : هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، الطعام ! الطعام !
ووفد الناس على النار أفواجا كأنهم أشباح هجرت رموسها ، يحبرون
أرجلاً أضعفها الونى ، وآدها^(٣) الهزال ، والتفوا حول النار يقطعون من اللحم
ويأكلون في نهَمٍ بالغ ، وحاتم ملتفع بردائه ، وقابع في ناحية ينظر إليهم ،
تعلو وجهه بسمه الرضا عن نفسه ، وعن فعله ، وينشرح صدره لضحكهم
وتراحمهم على الطعام ، واختطافهم له . وأبت عليه نفسه الأبية المترفة أن يمد
إلى الطعام يداً ، أو أن يذوق منه مُزْعَةً ، وإنه لأحوجُ إليه منهم جميعاً
لفرط ما أضرَّ به الجوع ، وأرهقه الطوى . وظلَّ الناس يأكلون حتى لم يبق

(١) وجأ : طعن ، ولبتة : أعلى الصدر إلى الرقبة .

(٢) متلوم : متردد .

(٣) آدها : أكلها .

من الفرس إلاَّ عظم وحافر ، ولو كانت هذه تؤكل ما تركوا منها شيئاً . وأنشأ
حاتم حين رأى هذا يقول :

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلاً ولا تقولى لشيء فات : ما فعلاً
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلاً وإن كنت أعطى السهل والجبال
يرى البخيل سبيل المال واحدةً إن الجواد يرى في ماله سُبُلاً
ومرّت هذه السنة الموحشة ، هلك فيها من هلك من الناس ، وحفظ الله حاتمًا
وولده وامراته ، وأصابهم الرخاء بعد الجذب ، وكثر لديهم المال والخير ،
ولكن ذكرى هذه الأيام السود ظلت في أذهان الناس بعامة ، وفي ذهن ماوية
بخاصة ، لأنه كان بين يديها من الخير ما تستطيع أن تقى به نفسها وأولادها
الآلام والضر ، وهما هي ذى اليوم ترى الخير يتدفق ، والمرباع يغص بالنعم ،
فهل تدخر من ذلك شيئاً لوقت الحاجة ؟ وهل يمكنها حاتم أن تفعل ؟ إنها تراه
كعادته مشوى الضيفان وأبناء السبيل ، وفي كل ليلة ببابه عشرات يطلبون
القرى ، لا يعرفون باباً سوى باب خبائه ، ولا يحاولون أن يعرفوا غيره من
العشيرة . وماوية لا تذكره الضيفان ، ولبكنها تفرع من كثرتهم ، ومن عظم
ما يتكلف حاتم في سبيل مكرماته . وكانت لا تخفى فرعها عن أحد من أهله
وعشيرته ، تشكوه إليهم كلما حدثتهم .

وكانت ماوية لا تزال على الرغم مما مرَّ بها من أحداث ، ومن سنين
وسيمة جميلة تتطلع إليها العيون إعجاباً ، وكان لحاتم ابن عم يدعى مالكا
وكان بهيَّ الطلعة ، حلو الحديث ، كثير المال ، وطالما شكت إليه ماوية
أمر حاتم وتخرقه في ماله ، وهو ينظر إليها معجباً برّيق شبابها ، وغضارة

وكان بهيَّ الطلعة ، حلو الحديث ، كثير المال ، وطالما شكت إليه ماوية
أمرَ حاتم وتحرَّقه في ماله ، وهو ينظر إليها معجباً برِّيق شبابها ، وغضارة
صباها ، وجمال وجهها ، وفي ذات يوم وقد أخذت تبثه شكواها المألوفة من
حاتم ، قال لها مالك : ما تصنعين بحاتم ؟ وقد صبرت عليه أمداً ، وسيذهب
إتلافه المال بشبابك ، إنه إن وجد شيئاً أتلغه ، وإن لم يجد شيئاً تكلفه ،
ولئن مات ليتركن ولده عيالاً على قومه ، وإن لى فيك رغبة فطلقه وأنا
أتزوج بك . إننى خير منه لك ، وأكثر مالاً وأعاهدك أن أُمسك عليك
وعلى ولدك ، وتعيشى معى فى نعيم ورفاهة عيش . فقالت ماوية : إن ما قلت
لحق يا مالك ، ولكنَّ حاتمًا رجلٌ لم يجد الزمان بمثله ، وقد آثرته على سواء
ممن تقدَّم إلىَّ ، ومن العار أن أترك رجلاً ملء الأسماع والأبصار ، وأهجر
بينه وهو والد صبتي .

هوَّنى عليك الأمر ، إن حاتمًا كلفَ بمكرماته . وهو لا يفكر فيك ،
ولا فى أولادك ، وإنما يفكر فى الطاوين ، والذين انقطع بهم السبيل ، أو
أضلتهم البيداء ، يقدم لهم خير ما كسبت يداه . ولو كان يفكر فيك حقاً ،
ولك فى قلبه منزلة ، ويرعى شئون صبيتك لأحسن التدبير ، وعمل لغده كما
يعمل ليومه . إنك لا زلت فى رياء العمر وبيع الحياة ، ومن العار أن تضيعى
شبابك مع رجل لا يراك حق الرعاية ، ولا يقدر جمالك كفاء قدره ، ويستمر
بك السنون وتذهب طلاوة شبابك ، وتنظرين إلى الوراء فتتندمين على أن
أفلتت منك هذه الفرصة السانحة ، وقد محضتكَ النصيح فلا تجعلى للتردد عليك
سلطاناً . وما زال بها مالك ، يخلبها بعذب حديثه ، وهى توازن بينه وبين

حاتم ، وقلبها ظمآن للحب والرعاية ، وفكرها يمتد للمستقبل ، والبادية غدارة تأتى بها سنوات تحصد الخير حصداً . وأخيراً ذهب ما بها من تردد وطلقت حاتماً .

وكانت ماوية من أولئك النسوة اللاتي اشترطن لأنفسهن حق طلاق أزواجهن ، وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها ، حولت باب خبائها ، فإن كان الباب من المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان قبل اليمين جعلته قبل الشام ، فإذا رأى الرجل منها هذا علم أنها عنه راغبة ، وله كارهة ، وأنها طلقتها فامتنع عنها ، وحرّم خبائها على نفسه .

وأتى حاتم ذات يوم فوجد ماوية قد حولت باب الخباء ، فقال لابنه عدى : ما ترى أمك ؟ ما عدا عليها ؟ قال لا أدري ! غير أنها غيرت باب الخباء ، وكأنه لم يفطن لما قال ؛ فدعاه وهبط به بطن الوادى .

وجاء المساء ، وأخذ ضيوف حاتم يغشون داره ، وينزلون بباب الخباء كما كانوا يفعلون ، حتى صارب عدتهم خمسين رجلاً ، فضأقت بهم ماوية ذرعاً ، وبرمت بهم ، فقالت لجاريتهما : اذهبي إلى مالك فقولى له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً فأرسل إلينا بناب نقرهم ، ولبن نغبتهم^(١) وقالت لجاريتهما : انظري إلى جبينه وفمه ، فإن شافهك بالمعروف فأقبلى منه ، وإن طأطأ رأسه ، فارجعي ودعيه .

ومشت الجارية إلى مالك ، ووجدته متوسدً وطباً من لبن ، فأيقظته ، وبأغته الرسالة ، وقالت فى نفسها : إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكانه .

(١) الغبوق : الشرب بالعشى ، وأغبقه : سقاه فى ذلك الوقت .

فأدخل يده في رأسه ، وطأطأها حتى ضرب بلحييته على زوره ، وقال لها :
أقرئي عليها السلام وقولي لها : هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتمًا من أجله ،
وما عندي من ناقة كبيرة قد تركت العمل حتى أقدمها لضيوف حاتم ، وما
كنت لأنحر صفيّة غزيرة بشحم كلالها ، وما عندي لبن يكفي أضيافه .

فرجعت الجارية ، ووصفت لها حاله ، وكيف رآته متوسداً وطباً من لبن
وأعلمتها بمقاتله ، فذهب كل ما راود قلبها من احترام له ، وإعجاب بحاله
وعلمت أنها كادت تفرط في سيد من أشرف الدنيا في سبيل رجل ساقط
الهمة ، عديم المروءة على كثرة ماله ، ولو كان يحبها حقاً وله فيها رغبة للبي طلبتها ،
وأظهر نفسه بأنه لا يقل عن حاتم جوداً ، ولا سيما وحاتم غير موجود والضيوف
يخرجونها ، ويقفون بباب خباتها .

وقالت لجاريته : ويلك ! ابجئي عن حاتم وقولي له : إن أضيافك قد
نزلوا بنا الليلة ، ولم يعملوا بمكانك ، فأرسل إلينا بناب نفحرها ونغذهم ، وبلبن
نسقيهم ، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك .

وأنت الجارية حاتمًا فصرخت به ، فقال حاتم : لبيك ! قريباً دعوت .
فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام ، وأنبأته نبأ أضيافه وما طلبته ماوية
فقال : نعم وأبى !

ثم قام إلى الإبل فأطلق ناقتين من عقالهما ، وظل يصيح بهما حتى أتى
الخباء ، خيا أضيافه ، وعقرها ، وأخذ يطعمهم ويسقيهم ويقول :
وإني لعبد الضيف مادام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

ولحته ماوية فحذبتة من ردائه ، وأخذت تصيح به : هذا الذي طلقته
فيه ، تترك ولدك وليس لهم شيء ، ولكن هيهات أن ينثنى عن طبع جبل
عليه ، وأدركت ماوية أنه على الرغم من إتلافه ماله رجل تفخر به ، ويفخر به
العرب ، وأنها مستخلد معه كما قالت لأُمها ، فأقلعت عن لومه وعاش حاتم معاش
ثم ذهب في فم الزمان أحدىثة عطرة ، ومثلاً نادراً ، ورمزاً للمكرمات .

لا حرَّ بوادي عوف^(١)

وقفت خُخاعة بنتُ عوف بن مُحَلَّم أمام خباياها تشهد فرسان قومها كيف
يردون غارة بني عبس ، وكيف يدافعون عن أعراضهم ، ويحمون ذِمَّارهم ،
ويجودون بالأنفس في سِخاء وحمية ، لا ينكصون على أعقابهم ، أو يولون
الأدبار . لقد أبلى قومها بلاءً حسناً ودافعوا في جدٍّ وصرامة ، بيد أنهم كانوا
قَلَّة فلم تغن عنهم شجاعتهم شيئاً ؛ إذ كان معظم الرجال بعيدين عن الحى فلم
يستجيبوا للاستغاثة ، وتكاثر الأعداء على الحماة يصرعونهم واحداً بعد واحد ،
وخُخاعة ترقب المعركة بقلب واجف ، ونَفْسٍ سريع ، وعين حائرة ، ووجه
شاحب ، لأن زوجها ليثُ بن مالك قد لبى نداء النجدة زميلاً^(٢) ، وهى تخشى
أن يُصرَعَ فتسكون نهبا للغزاة ، وسبيةً ممتهنة ، وتفقد بعلاً كريماً ، فتأيم من
بعده وقد عاشرته فأحبته ، وهى ترى الدائرة تدور على قومها ، ومنجل الموت
يتخطف الفرسان ، وهم يتحدونه فى إصرار وعناد وجراًة .

كانت نظراتها تتبع فى لهفة وعجلة حركات جواد أشهب وسط المعمان ،
يجول ويصول ، ويكر ويفر ، وفارسه لا ينفك يرفع سيفاً بتاراً ويهوى به فى
قوة وبطش . ثم رأت الفارس ينخر صريعاً ، ويخلى صهوة جواده ، وتبدسه
الخيول بسنابكها ، وفارسين من الأعداء يأخذان سَلْبَهُ ، ويقودان جواده خارج
الحوْمة ، فسحت عينها الدمع سحاً وشعرت بنكأة دامية تنفذ إلى قوادها ،

(١) الأمثال للميداني ج ٢ ص ٢٩٩ ، وبلوغ الأرب ج ١ ص ١٢٥

(٢) زميلاً : صديقاً .

ولكنها أبت أن تستسلم للحزن ، وطفقت تفكر في أمرها وقد ترملت
وفقدت رجلها وحاميها ، وشغلها همها وأمرها عن المعركة الدائرة ، وما راعها
إلا الفرسان يعدون صوبها ، ويتقدم اثنان فينهبان الخباء ويسوقان من فيه
أسرى ، ويأخذان خماعة سبية ، وقد راعهما منها جمال فاتن ، وثبات عجيب ،
وأنف شامخ ينم عن غزاة وكرم محمّد .

انتهت الغارة ، وردّت السيوف إلى أغماذها ، وقفل بنو عبس إلى ديارهم ،
وخماعة وأهل زوجها ، وكثيرات من نساء قومه يسرن وراء الخيل حفاة
سافرت الوجوه مهيئات ، يحثهن رجال غلاظ جفاة .

ينظرون شزراً إلى من جاء عن عُمرُض بأوجه منكرات الرق أحرار
وكان مروان القرظ بن زنباع^(١) رئيس بني عبس يومئذ ، وكان يضرب
به المثل في العز والشهامة والمروءة ، خانت منه التفاتة نحو السبايا ، فرأى بينهن
امراً يترقق ماء الحسن والملاحة في وجهها ومخايلها ، مشوقة القوام ، مرفوعة
الرأس ليست كبقية من يسير معها مشية ، وشخصية . فسألها :

— من أنت ؟

— خماعة بنت عوف بن محلم

— بنت سيد بني شيبان ، وأحد أجواد العرب ، وأعزهم ، وأشجعهم ؟!

وأسفاه !

ثم سأل رجاله :

— أسيرة من هي ؟

(١) سمي مروان القرظ ، لأنه يغزو اليمن وهي منابت القرظ .

فأجابه رجل منهم :

— أسيرة عمرو بن قارب ، وذؤاب بن أسماء .

فالتفت إليهما مروان وقال :

— حكمانى فى خماعة

— حكمناك يا أبا صهيبان

— أشتريها منكما بمائة من الإبل

— قبلنا حكم سيد بنى عبس

فأمرها مروان أن تغطى وجهها قائلاً : والله لا ينظر إليه عربى حتى أردك إلى أبيك . وضمها إلى أهله ، وأوصاهن بها خيراً ، لأنها بنت العزور بيته ، وسليمة الأرومة الكريمة ، والحسب الرفيع والسؤدد والجاه . فعاشت خماعة بضعة أشهر فى بيت مروان ما رآها مرة إلا من وراء حجاب براً يمينه ، وما رأت وما سمعت من أهله وخدمه ما ذكرها أنها سبية مغلوبة على أمرها ، لأن عين مروان اليقظة كانت تتعدها فى السر والجهر ، لما لأبيها فى أعناق العرب من أياد كريمات ، وفضل سابغ ، وذكر حميد .

دخل الشهر الحرام ، وأمن الناس الغارات ، واطمأنت القلوب على المال والولد والأهل ، لأن العرب جميعاً تحرم القتال فى هذه الشهور المباركة^(١) ، فترد السيوف إلى أغنادها وتضع الحوامل^(٢) ويحج الناس إلى بيت الله الحرام ،

(١) الأشهر الحرم أربعة وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وكان العرب لا يستحلون فيها قتالاً إلا حيان منهم ما خضع وطىء فإنهما كانا يستحلان كل الشهور ولهذا كان العرب يستحلون دماءها فيقولون : يحرم القتال فى هذه الأشهر إلا دماء الحليين

(٢) المراد هنا الإبل .

يستمتطرون شآبيب رحمته لتغسل أوصار نفوسهم ، و يجتمعون في الأسواق يتاجرون ، و يتفاخرون ، و يعقدون المحالفات .

حين دخل أول هذه الأشهر ، و ارتاحت النفوس من الجهد والقتال والسفر والحذر الشديد ، جهز مروانُ خِمامةَ أحسن جَهاز وأتمه ، فكساها الديباج والحريز ، وأخدمها الجوارى والعبيد ، وأكرمها غاية الإكرام ، ثم حملها إلى عكاظ كأنها أميرة من بيت ملك عتيد ، ولم تكن سبيةً أسرت بظبي السيوف ، وأسنة الرماح ، وافتديت من آسريها بمائة من الإبل على حَنَقٍ منهما وسخط . صحبها مروان في رحلتها هذه ، فلما دنا من عكاظ تقنع على عادة فرسان العرب ، حتى لا يعرفه أعداؤه ، ومن لهم عنده ترات ، فيترصدونه في ساحات القتال ، و يبذلون أقصى جهدهم للانتقام والقضاء عليه . وعكاظ — عادة — تَعَصُّ بفرسان العرب من كل القبائل ، فلا يعدم أن يكون هناك قرنٌ موغَر الصدر مَوْجدةً وحفيظةً يتوسمه فيتربص به الدوائر عند أول لقاء ^(١) .

فلما انتهى مران بأمانته إلى منازل بني شيبان — قوم خِمامة — قال لها :

— هل تعرفين منازل قومك ، ومنزل أبيك ؟

— هذه منازل قومي ، وهذه قبة أبي

— انطلقى إلى أبيك ، فإنه أهل لكل مَكْرمة .

والتفت مروان إلى قومه وأشد :

رَدَدْتُ عَلَى عَوْفٍ خِمامةَ بعدما خلاها ذُؤَابٌ غير خلوة خاطب

(١) عكاظ : نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاثة ليال ، وبه كانت تقام سوق للعرب وهى أعظم أسواقهم ، ويأتى إليها فرسان العرب وعظماؤهم وشعراؤهم وخطبائهم وتجارهم .

ولو غيرها كانت سبيئة ربحه لجاء بها مقرونة بالذوائب
ولكنه ألقى عليها حجابها رجاء الثواب أو حذار العواقب
فدافعت عنها : ناشباً ، وقبيله وفارس يعبوب وعمر بن قارب^(١)
أما خاتمة فدلقت إلى قبة أبيها ، وخلفها جواريتها وعبيدها ومعهم عتادها
وما أكرمها به مروان ، فلما رآها أبوها عوف بن محلم ، ولم يكن ينتظرها ، قال
لها في دهشة :

— ما وراءك يا خاتمة ؟

فقصت عليه خبرها ، وأشادت بما فعل مروان ، وكيف نازع قومه وتحداهم
في سبيلها وكيف حفظها عزيزة مكرمة ، وجعلها أحسن جهاز وأتمه ، وأخدمها
وسهر على راحتها منذ أسرت حتى بلغت قبة والدها .
فقال أبوها : يابنية : إن مروان لمثل في العزة ، ألم تسمعي العرب يقولون :
أعز من مروان القرظ ، ولقد طوق جيدي بمنجس ، وهيئات أن أفيه حقه
وإن كان مثله في عزته ومروءته ، وسؤدده لا يرتقب على حسن صنيع أجراً .

* * *

دارت الأيام دورتها ، وغزا مروان بكر بن وائل على حين غرة ، فسبي
ونهب ، فلما عاد الفرسان والرجال إلى أحيائهم ، وسمعوا بما حدث لقومهم ،
عز عليهم ألا يثأروا من ذلك الذي استباح حماهم ، وأسر نساءهم ، ونهب
أموالهم ، فهبوا يقصون أثر جيشه في عدد عديد ، وخيل مسومة ، وسلاح وعدة
كاملة ؛ وصمد لهم مروان ساعات ثم نجح فريق من جيشه بالأسلاب والسبايا ،
أما هو وصناديد قومه فوقفوا يدرءون العدو ويروغونه في ثبات وحسن حيلة ،

(١) هذه أسماء الذين اعترضوا عليه في فدائها وحاولوا استرقاقها .

ولكن أني له أن يثبت طويلا وقد تكاثرت عليه بنو بكر بخيرة فرسانها ،
وجزاء كبير من جيشه قد انفصل ينبغي النجاة ، وبعد جولات صادقات ، وقتال
عنيف ، وقع مروان ومن بقي من رجاله أسرى ، بعد أن تكسرت سيوفهم
وتحطمت رماحهم ، وأثخنت الجروحُ خيولهم ، وسقط كثير من الفرسان صرعى
مضرجين بالدماء تدوسهم سنابك الخيل في غير شفقة أو رحمة .
ومضى بمروان أسره وهو لا يعرفه ، فأتى به أمّه مختالا فخوراً فقالت
له أمه :

إنك لتختال بأسيبك كأنك جئت بمروان القرظ !

فقال لها مروان وهو يرسف في الأغلال :

— وما ترتجحين من مروان ؟

— عظم فدائه

— وكم ترتجحين من فدائه ؟

— مائة بعير

— ذلك لك عليّ ، على أن تؤديني إلى خמاعة بنت عوف بن محم .

— ومن لي بمائة من الإبل

فأخذ مروان عوداً من الأرض ، وقال لها : هذه لك بها^(١)

فمضت به إلى عوف بن محم^(٢) . فلما عرف عوف أنه مروان ، وأخبر

بذلك ابنته خماعة قالت له : يا أبت إني أجرتك من بني بكر بن وائل ، وإني

(١) كان هذا يكتفى عندهم ويغنى عن مغاظة الأيمان والمواثيق والعهود .

(٢) هو من أشرف العرب في الجاهلية ، وكان مطاعاً في قومه ، قوياً في عصبته ،

وكانت تضرب له قبة في عكاظ ، توفي سنة ٤٥ ق . هـ

أستعين بك على الوفاء له بما في أعناقنا من أياد ومنن ، واذكر إذ كنت سبية
فقداني ، ومهينة فأعزني ، وغريبة فأنزلي مع أهله ثم أسلمني إليك لم أمتهم بنظرة
عربي إلى وجهي ، وكنت عنده في نعيم وعيش رغيد ، والحمد لله الذي أمكننا
من هذه الفرصة حتى نرد إليه الجليل .

فقال لها أبوها : إن مروان قد أعمل السيف في رقاب قومك ، وقد أخذهم
على غرة فكثرت ترثهم عنده ، ولكنني سأجيره معك ، ولا سبيل إليه
إلا فوق هامتي .

وما أن علمت بنو بكر بخبر مروان حتى سعت جموعها إلى عوف بن محلم
يطلبون منه أن يسلم مروان إليهم حتى يقتصوا منه على ما جنت يده في أرواحهم
وأموالهم ، فأبى عليهم عوف — وكانوا يحلونه ويطيعونه ، ونبأهم بقصته مع
ابنته ، وذكروا أن كلا منهم معرض لأن يؤسر في حومة القتال ، والأسير حقه
أن يفدى لا أن يقتل . وبعد جدال شديد ، أذعنوا للرأي ، وتركوا مروان
لعوف بن محلم ، وكان تنازلهم هذا تضحية كبيرة قدموها لرئيسهم وسيدهم .

وظل مروان أياماً عند عوف في كنف خماة ورعايتها ، تحاول أن تكرمه
كما أكرمها ، وترد إليه الجليل على قدر طاقتها ، وفي ذات يوم دخل عوف
خباءه بادي الهم متعكر الوجه ، فأنكرت خماة أمره ، ومشيت إليه في لطف
ودعة تسأله عما أهمه ، وأزال سماحة وجهه وبشاشته ، فكان جوابه أن
سأل مروان :

— خبرني يا أبا صهبان عما أحفظ عمرو بن هند ملك الحيرة عليك !
— لم يكن — علم الله — بيني وبينه إلا كل خير ، وكنت أفد عليه

بالهدايا والأموال ، فينزلي خير منزل ، ويكرمني وقومي . وفي ذات يوم أراد أن يعاملني كما تعامل الملوك رعيّتها ، أو السيد من دونه في الشرف والمنزلة ، فأبت على نفسي أن أجالسه ، وبقيت أياماً عنده مغاضباً له ، فأرسل إلى يستزيرني ، فلما دخلت عليه لم أصاحه ، فعاتبني لتخلفي عن مجلسه ، فتعللت ببعض المعاذير ، وقلت لعلها كانت هفوة فيه ، ولكنه أيقن أن في نفسي شيئاً لأنني لم أضع يدي في يده . وفي نفس اليوم استأذنت في العودة فأذن لي بعد لائي ، وقد انقطعت عنه ردحاً من الزمن ، وعلمت أنه ساخط عليّ .

فقال عوف : لقد علم أنك متحرم بدمامي ، فأرسل إلى يطلببك ، وأنت تعلم مكانة عمرو بن هند لدينا ، وأن ديارنا تتأخم دولته ، وأن الصلات بيننا قوية متينة ؛ ولكنني أخبرت رسوله : أن ابنتي أجارته وليس إليه من سبيل ؛ وإني في انتظار رده ، وإن كنت أعلم أنه سيتميز غيظاً حين يستمع للجواب ، بيد أنه يدري عزة قومي فلعل ذلك يخفف من غلوائه .

ومضت أيام قضاها عوف في همٍّ مقيم معقد ، لأن الحرب بينه وبين عمرو بن هند ليست بالشئ الهين اليسير ، ولكنها حرب تكلفهم شططا ، وتودي براحتهم ، ونعيمهم ، وتراق فيها الدماء بسخاء . وأخذ يقلب وجوه الرأي وحده دون أن يستشير أحداً من قومه ، خشية أن يستحثوه على تسليم مروان لسابق أخطائه معهم ، ولعظم جريته لديهم .

ثم جاء رسول عمرو بن هند ينبيء عوفاً أن الملك لن يعفو عن مروان حتى يضع يده في يده — سمة المبايعة والمعاهدة والخلف والولاء — وبذلك يثق الملك أنه لن يخونه أو يغير على حواشي دولته ويتنقصها من أطرافها . فقال

عوف : يضع يده في يد الملك على أن تكون يدي بينهما ، وكأنه بذلك يحتاط لغدر عمرو بن هند بجاره ، أو ليبرهن للملك على أنه صار حليفاً لمروان على كل من ناوأه أو همَّ بشيء يسوءه .

فلم يسع عمرو بن هند إلا أن يستجيب لطلب عوف . ثم قدم عوف ومروان الحيرة ودخلا على الملك فوضع مروان يده في يده ، ووضع عوف يده بينهما ، وعفا عمرو بن هند عن مروان وقال : « لا حُرَّ بوادي عوف » أي لا سيد به ينازعه سلطانه ، فصارت مثلاً .

هـ ! (١)

جلس الحارث بن عوف المري ذات مساء مع خِلاله يَسْمُرُون أمام أخبيتهم
بديار دُبَيان ، يتوسدون حشايا من الرمل الناعم الأملس ، والبيداء من حولهم
ساكنة لا تسمع فيها حساً ولا جرساً ، قد استسلمت لنوم عميق ، تداعبُ
وجهها ريح الصَّبَا الفديّة الرقراقة ، فتمعن في غفوتها . وصفحة السماء تتحلى
بالنجوم الزُّهر ، ما بين مجتمعة ومفترقة كحلى الحسناء ، والبدر يسطع بنوره
الباهر فيزيد في بهاء الصحراء وروعها وجلالها ، والجبال جاثمة من حولهم
تبعث الرهبة والخشية في النفوس .

وجرى الحديث بين الحارث بن عوف وخِلاله حول الحرب الضروس
التي خاضوا غمارها مع أبناء عمومته بني عَبَسْ أربعين سنة ، أتت على
الطارف والتلبد ، وتقطعت فيها وشائج القرْبى وفلَّ بها غَرْب غُظفان وتبدد
ثراؤها ، وسُرِّد رجالها ، وقتل أبطالها ، والقوم لا يزالون في حدّتهم وشرّتهم
لا يودون ردّ الصوارم إلى أعمادها ، وكلُّ قتيل جديد يبعث ثأراً جديداً ،
وحقداً شديداً ، وهيهات أن يكفكفوا من عُلوّاتهم أو يرتدعوا إلى صوابهم
حتى يتأففوا ويصيروا مثلاً في البائدين .

وأخذ الحارث بن عوف يتلمس للخروج من هذه الحرب سبيلاً ، وكيف

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩٤ ، والمستطرف ج ٢ ص ٢٢٢

de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes, P.474

وقصص العرب ج ٢ ص ٨٠

يتأتى السعى لحقن الدماء ، ورتق الفتوق ، ورأب الصدع ، ولمَّ الشَّمْل ، ورجوع بنى عبس إلى ديارهم ، وقد طافوا بأنحاء الجزيرة ، ولفظتهم كلُّ قبيلة وتألَّب عليهم القوى والضعيف . وقد كانوا مع أبناء عمومتهم فى مَنَعَةٍ ، ومقام رفيع ، يدأ قووية وبطشاً شديداً على كل من تحدّثه نفسه بالنظر إلى ديارهم ، وطلما خاضوا غمرات الحروب معاً يردون كيد بنى عامر وغير بنى عامر ، ولم يكن أعزّ منهم فى العرب قبيلًا وأقوى مُنَّةً ، وأرفع صَوْتًا ، وأطول يَدًا . وعمرَّ جوا فى حديثهم على ذكر العِزَّة ، والسيادة والشرف ، فسأل الحارث خِلالَه :

— هل ثمة فى العرب مَنْ إذا خطبت ابنته ردَّنى ؟

فقال خارِجة بن سنان :

— نعم !

— ومن ذاك ؟

— أوس بن حارثة الطائى

— إني أعلم مكانة أوس فى قومه ، وكيف احتلَّ الذُّرَّة فى الشَّرَف

والجود ، حسيب لا ينكر بيته ، كريم لا ينقطع عطاؤه ، فيُصَلِّ لا يطعن على رأيه ، شجاع لا يضام نزيله ، عزيز لا يجار عليه ، وأعلم أن النعمان بن المنذر حين وفدت عليه وفود العرب وبين يديه حُلَّةٌ مرصعة ، عزم على إهدائها لسيد العرب ^(١) ، وأنه قد خلعها على أوس بن حارثة . ولكن أوساً لا يجهل مكانى فى قومي ، ومبلغ ثرائى ، وشرفى ، وأنى من أشرف العرب فى الصميم ،

(١) المختار من نواذر الأخبار ، مخطوط .

وفي السيادة أراحه بالمنكب ، وما أظنه يجرؤ على ردّي إن خطبت إليه إحدى بناته ، ولقد عزمت على الرحلة إليه ، فهل تصحبني يا خارجة لتشهد كيف أنه لا يستطيع ردّي .

— هوّن عليك الأمر يا حارث ، واربا بنفسك أن تضعها موضع البلاء والاختبار ؛ وإذا كان أوس على ما أعلم فله شأنه بيناته ، ولن يغض من منزلتك أنه لا يستجيب لرغبتك .

— لا بد من الرحلة إليه .

— إذا فأنا معك .

وفي الصباح تجهز الحارث وخارجة ومعهما غلام للحارث ، ويمموا جميعاً صوب أجأ وسلمى حيث منازل طيء . وقصدوا لتوهم منزل أوس بن جاريه ووجدوه بفناء المنزل ، فلما رأى الحارث بن عوف هّش لمقدمه ، وتهلّل وجهه ، وبالغ في تحيته والترحيب به لأن الحارث ليس بمجهول المكانة لدى أوس ، وقال له أوس :

— مرحباً بك يا حارث ! هيا انزل على الرحب والسعة .

— لقد جئتُك خاطباً !

هكذا قال الحارث من غير استئناس ، أو تقدمة بين يدي طلبته ، وثوقاً من نفسه ومنزلته ، واعتزازاً بهما ، فأجابه الحارث .

— لست هناك !

فارتدّ وجه الحارث بن عوف ، ولوى زمام ناقته ، وولى ظهره للحارث ثم سار لم ينطق بكلمة ، وقلبه يفور بالغضب والشجن ، لأنه جرح في كرامته

جُرْحًا نَغَارًا هِيَهَاتَ أَنْ يَنْدَمَلَ ، وَأَخَذَ خَارِجَةً يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقُولُ لَهُ :
لَقَدْ حَذَرْتُكَ غَبَ عِزِّمَتِكَ هَذِهِ ، فِي أَوْسٍ صَلَفٍ ، وَهَوَلًا يُعَدُّ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ
لَهُ نِدَاءٌ وَكَفَيْتُوا لِمَصَاهِرَتِهِ . وَأَبَى الْحَارِثُ أَنْ يُجِيبَهُ ؛ إِذْ كَانَ فِي شُغْلٍ بِنَفْسِهِ
وَأَخَذَ يَحْتَ نَاقَتَهُ حَتَّى شَدِيدًا كَأَنَّمَا يَرِيدُ النِّجَاجَةَ مِنْ تِلْكَ الْأَدْيَارِ الَّتِي ذَاقَ فِيهَا
مَرَارَةَ الْخِزْيِ وَالْعَارِ .

وَوَقَفَ أَوْسٌ هُنَيْهَةً يَفْكُرُ فِيمَا قَالَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ وَهُوَ
يَنْصَرِفُ لِطَيْبَتِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ، وَالْغَضَبُ قَدْ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ نَقَابًا ،
وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ عَبَسٍ ، فَقَالَتْ لَهُ :

— مَنْ رَجُلٌ وَقَفَ عَلَيْكَ ، فَلَمْ يُطَلْ ، وَلَمْ يُنْخَرْ رَاحِلَتُهُ ، وَلَمْ تَقْدَمْ لَهُ
قِرْرَى ، وَلَمْ تَكَلِّمْهُ ؟ ؟

— ذَا سَيِّدِ الْعَرَبِ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمَرَى .

— فَمَا لَكَ لَمْ تَسْتَنْزِلْهُ ، وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنِّي غُطْفَانِيَّةٌ ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْتَ
مِنَ الْمَكَانَةِ ؟

— إِنَّهُ اسْتَحْمَقَ !

— وَكَيْفَ ؟

— جَاءَنِي خَاطِبًا .

— أَفَتُرِيدُ أَنْ تَزُوجَ بَنَاتَكَ ؟

— نَعَمْ .

— فَإِذَا لَمْ تَزُوجِ سَيِّدَ الْعَرَبِ فَمَنْ ؟ !

— قَدْ كَانَ ذَلِكَ .

— تدارك ما كان منك .

— بماذا ؟

— تلحقه فترده .

— وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ وعزيز على نفسى أن أرجع فى كلمة قلتها .

— هوّن عليك ! ، تقول له : لقيتني مغضباً بأمر لم تقدّم فيه قولاً ، فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ، عُدْ ولك عندى كلّ ما أحببت فإنه سيفعل .

وقد ردّ هذا الكلام ما عُزّب من صواب أوس ، وعلم أنه هو الذى استحمق ، إذ عجّل بالرفض ، فلهق بالحارث وصاحبيه .

وحانت من خارجه التفاتة ، فرأى أوساً يعدو خلفهما على جواد فارّه ، فقال للحارث — وهو لا يكلمه غمّاً — هذا أوس بن حارثة جادّ فى أثرنا فقال الحارث :

— وما نصنع به ؟ امض بنا .

فلما رآهم الحارث لا يقفون صاح بهم : يا حارث ؟ قف هنيهة . فوقف وكلمه بما أوحى به امرأته ، فرجع معه مسروراً . ودخل أوس منزله ، وقال لزوجته : هذا هو قد رجع ، ولست أدري أى بناتى أصلح له ؟ ادعى له فلانة — لأكبر بناته — فأتته ، فقال لها :

— أى بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وعلم من أعلامهم ، قد جاءنى خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منك ، فما تقولين ؟

وأطرقت الفتاة قليلاً تفكر ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا تفعل ؟

— ولِمَ .

— إني امرأة في وجه أثر من دمامة ، وفي طبعي بعض الغلظة . ولست

بأبنة عمه فيرعى رَحَى ، وليس بجارك فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه ، وأجلب لك الإساءة ، وليتلك الشَّين .

— بارك الله عليك يا بنية ، لقد أظهرت رجاحة عقل ، وثاقب رأى ،

فعوضك الله خيراً منه .

ثم قال لزوجته : ادعى لى فلانة — يريد وسطى بناته — فدعتها ، وقال لها ما قال لأختها من قبل فأجابته بمثل إجابتها ، وزادت أنها خرقاء لا تحسن صنعةً ، وأنها تخشى أن يجد فيها ما يكره فيطلقها ، فدعا لها بخير ، وقال لامرأته : ادعى بُهَيْسَةَ - صغرى بناته — فدعتها أمه ، وأتت بهيسة ، قد امتلأت غضارة ونضارة ، كأنها وجهها الديناري تالقي تالقياً ، وكأنها الغصن الأملود يتثنى ويترنح ، يشع من عينيها بريق ينم عن فرط ذكاء ، وعزيمة صارمة ومضاء ، كأنهما سيفان في جفنين ، ولها خدٌّ كغريض التفاح ، وشفاه كورق الورد ، ووجهة كفلق الصبح . فقال لها أبوها حين رآها : حيالك الله يا بُهَيْسَةَ ، تعالي أحدثك !

— هأنذا يا أبتاه !

— جاءني الحارث بن عوف سيد ذبيان خاطباً ، فما تقولين ؟

— أنت وذاك ؟

— قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه .

ولم يذكر لها ما قالتا ، فقالت :

— لكننى والله الجميلة وجهاً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير .

— بارك الله عليك يا بنية ، وجعلك منجبة ودوداً .

وخرج أوس إلى الحارث بن عوف ، ونفسه راضية ، لأنه يعلم من بهيسة أنها راجحة العقل ، وأنها كفء للحارث ، وأنها المرأة التى لا يخشى عليها إن اغتربت عن أهلها لفرط دهائها ، ورقة خلقها ، وقال للحارث : يا حارث زوجتك بهيسة بنت أوس ، فقال الحارث : قبلت .

وأمر أوس ببيت فضرِب للحارث ، وأنزله إياه ، ثم دعا وجوه قومه ليرحبوا بصهره ، وسيد غطفان ، وبالغ فى الخفاوة به وإكرامه .

وأخذت زوجة الحارث تهيب من أمر بهيسة ، وتعدّها للزفاف ، ونساء طي يهنئنها بزواجها ، وكل توصيها بوصية حتى يدوم عيشها فى كنف زوجها وهى عن بلادها نائية ، ليس لها مشير إلا رأيها ، وما وعته من نصائح أحبائها وبعد أن فرغن من تجهيزها زفها النساء إلى خباء الحارث بن عوف ، ولكنه ما لبث هنيهة معها حتى خرج ، وهو يقول لخارجة : هيا بنا إلى ديار ذبيان .

— وما العجلة ، وقد زفت إليك عروسك ؟ .

— لقد أبت أن أبى بها وقالت : مه ! أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله

ما لا يكون .

— إذا فلنرحل ، ما دام هذا أمرك وأمرها .

وودَّعت بهيسة أباهما وإخوتها ، ثم سارت في هودجها مع زوجها وصاحبيه ، وهي رابطة الجأش ، ساكنة النفس ، واثقة من أمرها ، كأنها لم تفارق عَشَّها الذي فيه درَّجت ، وتودَّع أهلاً أعزاء عليها ، وكأنها تقدم على أمر قد أبرمته من قبل ، وفكرت فيه ملياً .

وبينا هم في الطريق أخذت نفس الحارث تراوده ليخلو بها ، فأمر خارجه أن يسبقه ، فلما انفرد بها ، جلس وإياها هنيئة على جانب الطريق ، ولكنه ما لبث أن لحق بخارجه ، فقال له :

— ما بالك لم تلبث بجانب زوجك إلا أمدأ يسيراً ، هل ردَّتكَ عنها ؟

— أجل ! لقد قالت هذه المرة ! أكما يُفعل بالأمة الجليلة ، أو السبية

الأخيدة ؟ ، لا والله ، حتى تنحر الجُزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلي !

فقال خارجه :

— والله إنى لأرى همةً عالية ، وعقلاً راجحاً ، وأرجو أن تكون المرأة

منجبة إن شاء الله .

وواصلت هذه القافلة الصغيرة سيرها صوب ديار ذيَّيان بنجد ، والحارث ابن عوف يفنكر في عروسه الأبيَّة النفس ، وكيف يسوسها في المستقبل ، وهي على ما رأى من أنفة ، وترفع عن الصغائر ، وإرادة قوية ؛ وابتدأ يشعر نحوها باحترام وتقدير ومحبة ، ولم تعد في نظره مجرد امرأة سيَّبنى بها ، ودبَّ في فؤاده الأمل بأنها ستكون مُنْجِبه ، وأنها ربما ولدت من يسمو على أوس بن حارثة

في عزته وكرمه ، وعلى الحارث بن عوف في سيادته وشرفه .

وصار يحدث خارجة بما يعتلج في صدره ، وبأنه سعيد الجدد إذ وفق
للزواج من بهيسة ، وأنه لولا تمهيس خارجة وإثارته له ما عزم على الرحلة إلى
أوس وما رجع بهذا الصيد النفيس ؛ وظلا في حديث بهيسة ، وأوس بن حارثة
حتى وصلا إلى ديار ذييان .

وما أن استراح الحارث من وعثاء السفر حتى أخذ يُعِدُّ للزفاف عُدَّتَه ،
فأحضر الإبل والغنم ، ودعا سادات ذييان ، وذوى الرأى فيها ، وأقبل النساء
على داره ليشاهدن هذه العروس التى يعد لها كل هذه العدة ، وقد علمن بمكانة
أبيها ، ومنزلته في العرب ، ورأينَ جمالاً باهراً أخذاً ، وعقلاً حصيماً ، ولساناً
ذرباً فصيحاً ، وكرامةً ، واعتداداً بالنفس ، وترفعاً ، فأحبَّها بعضهن ، وأقبلن
عليها يرجبن بها ، ويحسبنها ، ويؤنسها في غربتها ، ويحاولن خدمتها ، وحسدها
بعضهن على ما حباها به الله من جمال جسم وكمال خلق ، وحصافة عقل ،
فأشحن بوجوههن عنها ، وانصرفن والحسرة تلدغ قلوبهن ، وكلُّهن تحاول أن
تتلمس فيها عيباً ، فهذه تقول : إنها متكبرة ذات صلف ، والويل لآل الحارث
منها ، وهذه تقول : إنها متفهمة ، كثيرة الحديث كأنها تفرض فينا الجهل
والغباء ، وهذه تقول : ألم تلاحظن سعة عينها إنها لعمرى مخيفة . . . وهكذا
انقلبت آياتها الباهرة في نظرهن سيئات ومحاسنها عورات .

واجتمع القوم للطعام ، وقام الحارث وآله وخدمه عليهم ، والكل يهنئه
بما وفق فيه من مصاهرة أوس بن حارثة الطائى سيد العرب ، ويرجون أن
تنجب له عروسه خير البنين ، وأجل البنات ، وهو فرح مسرور بأن عروسه

قد هيأت له فرصة يظهر فيها محبته لقومه ، وإعزازه لهم بمشاركتهم إياه في مسرته .
وبعد أن انفض الجمع دخل الحارث على بهيسه خباءها ، ولكنها أبت
عليه أن يقربها ، فقال لها في دهشة

— أأنت راضية يا ابنة أوس عما قمت به ؟ أليس هذا ما اقترحت علي ؟
— إني لفي عجب من أمرك ، ولقد سمعت عنك ، وعن شرفك ، أكثر
من رأيته منك

— فبهت الحارث ، وارتد وجهه ، وابتدأت نفسه تتور بالغضب ، وقال
لها : أأبني عما أردت بما تفوهت به الآن ، والله إن العرب جميعاً لتعلم حق العلم أني
في الذروة حسباً ، وكرم نجار ، وأنى من أطولها يداً ، وأكثرها غنى ، وأكثرها
فعلاً ، فما بدا لك مني حتى أسمع منك ما يسيئني وقد كنت معك حليماً ، كريماً ؟
— لم أقصد الإساءة إليك ، أو الغضب من شأنك ، ولكنني كنت أنتظر
منك ، وقد طار صيتك في المكرمات وجميل الفعال ألا تفرغ للنساء ،
وتخصهن بوقتك كله ، وأمامك من أسباب السيادة ، والعمل الصالح ، ما يخلدك
أبد الدهر

— وما هذا الذي أمامي ؟

— لقد أفنت الحرب بين عبس وذبيان خير شبابهما ، وطال أمدّها ،
وملأها الناس ، وعظمت ويلاتها عليهم ، فهل من رجل مسموع الكلمة ، طائل
الثراء ، سمح النفس ، واسع الحيلة ، يسعى بينهم بالصلح ، ويعيد الأمن
والطمأنينة إلى هذه الديار الجميلة ، ويحقن الدماء البريئة ، ويفدى القتلى
ويتحمل الديات ، فيعود إلى النفوس هدوءها وانسراحها ؟؟

لقد كنت أظن يا ابن عوف أن هذا الأمر لا يخفى على مثلك ، وإني لم أمتنع عليك زهداً فيك ، أو خوفاً منك ، أو كراهية لك ، ولكن أحببت أن يكون مقدمي عليك سبباً في رفع ذكرك ، وتحليلك بالأثر الطيب والعمل الصالح مدى الدهر ، فاخرج إلى هؤلاء القوم ، وأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد .

فسرَّ الحارث من حديثها ، وتحركت همته العالية ، ونفسه الطموح لتحقيق طلبتها ، وقضى ليلته بعيداً عنها في خباء وحده ، وهو يفكر فيما اقترحته عليه وهل يستطيع وحده أن يتحمل ديات القتلى ؟ ، وهل ثمة من يرغب في السعي معه في هذا الأمر الجلل ؟ ، وأخذ يستعرض أشراف قومه وأجوادهم : عيينة ابن حصن الفزاري ، إنه حقاً رئيس قومه ولكنه أحق موتور ، .. ابن سيَّار إن فيه كرازة ، ليس لها إلا هَرَم بن سنان المرّي ، إنه ذو أريحية ، وصاحب همة ، وسماحة يد . واطمأن قلبه حين اهتدى رأيه إلى هَرَم ، وعزم أن يبكر في التحدث إليه في شأن الصلح ، وأغنى قليلاً قبل أن ينبجج الصباح ، وقام حين أشرقت الشمس وقلبه مفعم بالأمل في تحقيق رجاء بهيسة بنت أوس . وجاءه خارجة بن سنان قبل أن يبرح خبائه ، وسأله : كيف قضى ليلته مع عروسه ؟ ، فقص عليه قصتها معه ، وما طلبته منه ، فقال له خارجة :

— والله إني لأرى همةً وعقلاً ، ولقد قالت قولاً

— في الحق يا خارجة ، لقد ازدت بها شغفاً ، ولها محبة وإعجاباً ، وياليت مثلها في النساء كثير ، فإنها مُلْهَمَة ، وصاحبة رأي ، ودلّت على أنها حقاً بنت سيد من سادات العرب ، وأخت عَرَابَة الذي قال فيه الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عَرَابَة باليمن

وتريد أن يكون زوجها أهلاً لها في السيادة والشرف ، يلهج الناس بحمده ،
كما تريد أن يكون مقدماً خيراً وبركة على من حلت بهم ، فتحتل من
قلوبهم أرفع منزلة ، وأسمى مكانة ، وهكذا يكون النساء .

والآن يا خاتمة ! لقد فكرت ملياً في هذا الأمر الذي عرضته بهيسة
ولم أجد إلا هَرَم بن سنان معوّناً لي في الصلح بين الناس ، فهيا بنا إليه .
— لقد أصبت ، فهرم جدير بأن يتزعم معك شئون قومه ، وقد صدق
زهير حين قال فيه :

تراه إذا جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وصدق كذلك حين قال فيه :

قد جعل المبتغون الخير في هَرَم والسائلون إلى أبوابه طرقا
من يلق يوماً على علاته هَرَمًا يلق الساحة منه والندی خلقا
لو نال حى على الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفة الأفقا

فهيا بنا نعرض أمر الصلح على قومنا ، وما إخالهم إلا تواقين إليه ، بعد
أن طحنهم الحرب طحناً ، وإن لم تغلّ غرهم كما صنعت بيني وعمومتهم عيس .
وخرج الحارث بن عوف ميمماً صوب هَرَم بن سنان ، وما كاد يعرض
عليه الأمر حتى تهلل وجهه ، ووضع كل ما له بين يدي الحارث إذا كان في
المال ما يزيل الأحقاد ، ويذهب الإحن ، ويعيد للنفوس هدوءها ، وللديار أمنها ،
ويردّ عيساً إلى أوطانها ، وقد شردوا في كل مكان وطوفوا بأحاء الجزيرة .
وكانت عيس قد ملّت الحرب كما ملتها ذبيان ، بل إنها سئمت التطواف
بشتى الأماكن ، والنزول بمختلف القبائل ، يلاقون منهم عتّاً وإرهاقاً حتى
قال لهم قيس بن زهير ، قائدهم وصاحب حربهم : ارجعوا إلى إخوانكم من

ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، وقالوا له : سر معنا ، فقال : لا والله ، لا نظرت في وجهي ذبيانية قتلت أباه أو أخاه أو زوجها أو ولدها . وسمعت عبس بمسعى الحارث بن عوف فجاءوا ونزلوا عليه ، وذكروا له ما قدموا من أجله ، فكان فرحه بمقدمهم لا تسعه الدنيا العريضة ، لأنه وجد في نفوسهم مثل ما في نفسه ، وجدها مهيئة مشوقة للصالح . ودعا هُرم بن سنان إليه ، واحتسب كل فريق من القبيلتين قتلاه وتحمل الحارث بن عوف ، وهُرم بن سنان ديات مَنْ زاد من القتلى ، فكانت ثلاثة آلاف بعير ، دفعها الموتورين في ثلاث سنوات ؛ وحَدَّ الناس لهم ذلك الموقف الفذ ، وذاع اسمها في العرب كلها ، ولكنَّ شخصاً واحداً أبى يَدْخُل فيما دخل فيه قومه من الصلح ألا وهو حُصَيْن بن ضَمْضَم المري ، فقد قتل وَرْدُ بن حابس العبسي أخاه قبل الصلح ، وأقسم لينتقم له ، فلَمَّا علم بالصلح أبى أن ينصاع له ، وأخذ يترقب الفرصة المواتية ليَبْرَ بيمينه .

وجاءته الفرصة سريعاً بعد الصلح ، إذ مرَّ به ذات مساء رجل من عبس ، فأخذ يسأله عن نسبه حتى علم أنه من عشيرة ورد بن حابس فقتله ، فنارت بنو عبس ، وكاد الصلح ينتقض ، وتعود الحرب على أشدها ، ولكنَّ الربيع بن زياد سيد عبس أشار عليهم بأن يركبوا إلى الحارث بن عوف ، فلما علم الحارث بركوبهم إليه ، ورأى في وجوههم الشر وأنهم عازمون على قتله هو ؛ إذ ظنوا صلحه هذا خُدْعَةً منه أرسل إليهم ابنه ومعه مائة من الإبل ، وخيَّروهم بأن يقبلوا دية قتلهم مائة من الإبل ، فإن أبوا فيها هو ذا يقدِّم ابنه ليحقن به الدماء ، ويثبت الصلح . فاستحى الربيع بن زياد وبنو عبس ، وقبلوا الدية

وبذلك تَمَّ الصلح على يد الحارث وفضل بهيسة بنت أوس زوجه .
وقد خَلَدَ الشعراء الحارث بن عوف لهذه اليد الكريمة التي طَوَّقَ بها
قومه وذلك حيث يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته ذا كراً مسعاه هو وهرم
ابن سنان في هذا الأمر الجليل :

سَعَى سَاعِيَا غَيْظَ بَنِ مُرَّةَ بَعْدَمَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدمِ (١)
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رَجَالٌ بَنُوهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرُهمِ
يَمِينًا لِنَعَمِ السَّيْدَانِ وَجَدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبَرَمِ (٢)
تَدَارَكْتُمَا عِبْسًا وَذُبْيَانِ بَعْدَمَا تَفَانُوا ، وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ (٣)
وَقَدْ قَلَّمَا إِنْ نَدْرَكِ السَّلْمَ وَاسْعَا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنِ بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عَقُوقٍ وَمَأْتَمِ
عَظِيمِينَ فِي عُليَا مَعْدٍ هُدَيْتُمَا وَمَنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزَا مِنْ الْمَجْدِ يُعْظَمِ (٤)
وَاسْتَقْبَلَتْ بِهِيْسَةُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ حِينَ تَمَّ لَهُ الصَّلْحُ ، وَخَلَدَ فِي الْعَالَمِينَ
بِمَا يَلِيقُ بِمَكَاتِهِ وَسَعِيهِ ، وَوَضَعَهَا الْحَارِثُ مِنْ فُؤَادِهِ فِي السَّوِيدَاءِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ
امْرَأَةً أَيْنَ مِنْهَا النِّسَاءُ !

-
- (١) تبزل الجرح : إذا تشقق وخرج ما فيه ، كان القوم وئاماً ووحدة ، فتشقق
أمرهم ، وانصدعت وحدتهم .
(٢) السيدان : الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، وكلاهما من ذبيان ، والسحيل
الخيطة المقتول على قوة واحدة ، والمبرم : المقتول على قوتين ، والمعنى : لنعم السيدان وجدتما
حين تفاجآن لأمر قد أبرمته وأمر لم تبرماه ، أى على كل حال في شدة الأمر وسهولته .
(٣) منشم : امرأة كانت تباع العطر ، وقد تحالفت جماعة على القتال وغمسوا أيديهم
في عطرها ، ودخلوا الحرب فقتلوا جميعاً ، فضربت مثلاً في التشاؤم ، وقيل غير ذلك .
(٤) يعظم أى يأتي بأمر عظيم ، أو يصير عظيماً .

السخى العداء^(١)

كان المهاجرُ بن عبد الله والى اليمامة ذات يوم جالساً فى حاشيته ، وكل من له قضية ينبغى الفصل فيها ، أو طلبية يروم قضاءها ، أو ظلم وأراد النصفه والعدل ، دخل على الأمير نائراً بين يديه خبيثةً نفسه ، ودخيلةً أمره . والمهاجرُ بن عبد الله ينصت ويفكر ، ويستشير ذوى رأى من جاسائه ويصدر أمره . ولما انقضى عليه بعض الوقت وهو يوزع العدل على الرعية ، ويغيث المسكروب ، وينصف المظلوم ، ويعين المحتاج ، أحضر بين يديه أعرابى جلف ، خفيف اللحية ، أشعث الشعر ، فى وجهه ندوبٌ جراح قديمة ، قصيرُ الثياب ، نحيف البدن ، مفتول العود ، يحيط به رجال الشرطة فى حرص وعناية كأنهم يخشون إفلاته ، أو كأنه شئ ثمين أحرزوه بعد جهد وعناء وما كان لهم أن يفرطوا فيه .

ولما مثلوا بين يدى الأمير قال أحدهم :

— هذا يا مولاي سُحَيْمُ الأزدى ، الذى روع الآمنين ، وقطع الطريق وعاث فى البلاد فساداً ، وقتل وسرق ، والذى طالما طاردناه وتمنينا القبض عليه وقد أمكننا الله منه بعد طرادٍ عنيف ، وقد ألح عليه السَّعْبُ وقلة ما بالبیداء من خير ، لشدة الجذب هذا العام ؛ فورد هذه المدينة علّه يجد ما يقيم بها أودّه ويمسك ذمّاءه ، يمشى على حذر خائفاً يترقب ، وقد راب أمره أحدُ رجالى فأرسل إلى من أنبأنى خبره دون أن يضع عنه بصره ، وما أن رأيتُه حتى

عرفته ، وقد لحنى فقر كأن به مساً من الشيطان ، أو أنه قد رأى شبح الموت .
ولسكننا طاردناه حتى أمعن فى الصحراء فلم نلق عنه إلا وهو مغلول اليدين
يرسُف فى القيود .

فقال الأمير : أحقاً ما يقول الشرطى ياسحيم ؟

— هو بعض الحق يا مولاي .

— أو عندك شيء آخر ؟

— إني لا أزهى بالسلب والقتل . ولكن مضى على حين من الدهر ،
وأنا اقتحم الصعاب ، وأرد المكاره فى سبيل الرزق ، وقد أخذت للأمر عذته
فكان لى بغير لا يُسبق ، وخيل لا تُلحق . وإذا خرجت فى غزاة أو غارة
لا أرجع خائباً ، وعندى جنان كالجليل الأشم لا تنزله الحوادث وتروعه
الكوارث ، ويد صناع ماهرة فى القتال بشتى فنونه وأدواته .

ولم أكن أتورع عن قتل من يعترض سبيلي ويزحني فى طريقى ،
أو من يروم بى سوءاً ، ويبغى إحباط مسعاى ، وإفساد تديري . وكان ذلك
سفهاً وطيشاً أعترف بهما بين يدي الأمير ، لا عن خوف من عقاب أو طمع
فى عفو ، فإني على يقين من عظم الجريرة وكبر الإثم ، ولكنها الحقيقة ، وعهد
أخذته على نفسى منذ زمن ألا أقول مِيناً .

— أو لم يكن لك فى قوتك وشجاعتك ما يغنيك عن قتل الوادعين
الآمنين ، وسلب عباد الله ، وما يجلب لك الرزق الحلال ؟ وإذا كنت عاجزاً
من الكسب ، فهلا لجأت إلينا لنعطيك من بيت المال وندير لك أمرك ؟
اللهم إن ذنبك لعظيم . والآن أخبرنى يا سحيم عن بعض عجائبك قبل أن

نفضل في أمرك وندعك لحكم الله .

— أيها الأمير — لا زلت مؤيداً — إني والله لا أخشى الموت وقد اقتحمت عليه غريته مرات ومرات ، وتمثلته في كل خطوة في غارة ، وكل ثنية في طريق ، وكيف لي أن أهابه اليوم وقد بلغت من العمر ما بلغت : وإني أقول غير معذِرٍ عن نفسي : إن ما دفعني إلى ما فعلت هو غرورُ الشباب ، وجرأةُ الجنان ، وسوء الصحة ، وتصريف القضاء . ولقد كنتُ موقناً أن هذا اليوم آتٍ لا ريبَ فيه إن عاجلاً وإن آجلاً ، وإن نجوتُ في الدنيا فلن أسلمَ في الآخرة .

أما عن عجائبي فكثيرة ، ومن أعجبها أني خرجت في يومٍ فأنظ يتوهج لهباً ، وقد التمت شيئاً أطعمه فلم أجده ، وخلفتُ ورأى صبيّةً يتضاغون من الجوع وآليتُ لا أرجع حتى أغنيهم عنهم هذا الحمأ ولبناً . ومضيتُ في طريقٍ لا أجده إلا رمالاً سافية ، وصخوراً عاتية ، وبياباً قفراً خلا من الزرع والضرع . ولما اشتد بي الجوعُ حتى كدت أهلك وارتد عن عزمي ، شاهدتُ ضباً يُطلُّ برأسه من جُحر ، فأنخت راحتي ، وقلتُ لنفسي سأبلغ به حتى يأتي الفرج . ثم مددت يدي إلى جُحره ولما صار في يدي عافته نفسي على ما بي من جوع ، فعلقته على قَتَبٍ بعيري ؛ خشيةً ألا أجده سواه وأضطر إلى أكله . وانطلقتُ في طريقِي وأنا لا أكاد أتماسك إعياء وسغباً ، ثم مررت على خباء واسع عليه مظهر الثراء والرخاء وليس به إلا عجوزٌ شمطاء . فقلتُ لنفسي أخلق بهذا الخباء أن يكونَ له رائحةٌ من غنم أو إبل ، ودنوتُ من الخباء ، فحييتُ العجوز ، فردَّت التحية وقالت :

« إني أراك لغيباً نصيباً ، فهل لك أن تنزلَ على الرَّحْبِ والسعة . »

وتسامرَ زيدا الليلة فإنه سيأتي عما قليل بالإبل .

فقلت : « لقد كدت أطلب ذلك من شدة ما بي من الإعياء والجوع لولا أنك تكرمت فسبقت إلى الفضل ، لا زال رزقك موفوراً ، وخيرك مشكوراً » .

وانتحيت ناحية وأرحت بعيري والشمس على وشك المغيب ، وقد بدا على وجهها الصفرة والشحوب كأنها جَزعة من فراق هذه الأرض ، أو كأنها مجاهدة عيية من عناء يومها ، وطول سفرها ، وأخذ أديم الأرض يبرد ، وهواء الصحراء يرق ويلطف . وما أن توارت الشمس بالحجاب ، ونشرت في الأفق ثوبها الأرجوانيّ تلوّح به لهذه الدنيا مودعة قبل أن تدخل في سجون العتمة حتى طلعت علينا مائة من الإبل الضخمة وفيها شيخ عظيم البطن كبير الهامة ضخمة الجثة كثير اللحم والشحم ، ومعه عبد أسود عملاق ، عنيف المنظر ، شتيم الوجه ، غليظ الشفتين ، مكتنز البدن .

فلما رآني الشيخ رحب بي ترحيب الجواد الذي يهش للضيف ويسر ، بمقدمه ، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها ، وناولني الإناء فشرب ما يشرب الرجل ، وهو ينظر إلى بعين فاحصة فأخذ ما تبقى فضرب به جبهته ، ومن ثم قام إلى تسعة أينق فاحتلبهن جميعاً ثم شرب كل ألبانهن ، وأنا أصعد فيه بصرى وأتعجب لبطنته وعظم شهيته . ولقد ظننته والله سينفجر أو أن جوفه لا قرار له ولما انتهى بدا كأنه لم يتناول شيئاً ، ونظر إلى وهو يبتسم ثم قال :

— والآن سنطهى طعامنا .

فقلت لنفسى : « ليس هذا إلا وحشاً يمشى على رجلين ، أبعد هذا اللبن

كله يجد في أمعائه متسعا لطعام» ، ولكن راعني وإيم الله أنه عمد إلى حوار^(١) حفيد فذبحه وطبخه ودعاني للطعام معه ، فأكلت ما يأكل الرجل ، وتركته ينهش اللحم نهشاً ويلقى العظام بيضا ، حتي أتى عليه كله لم يفكر في عبور أو عبد ، وأنا أزداد منه عجباً وأقول : أخلق بذي البطن أن يكون خوَّاراً ضعيفاً قليلَ الهمة . وهذا لعمري ما أبغيه في ليلتي تلك . وبعد أن فرع من طعامه لم يعد لديه مِئْلٌ للسر أو الحديث ولكنه ثَقُلَ وتراخى وأخذ الكرى يداعب أجفانه ، فثنا كومةً من الرمل وتوسدها ، وراح يغطُّ غطيطةً البكر شدَّ عقله .

أخذتُ أتأمل هذا الجسمَ الطويلَ الممتد ، وهذه المعدة التي تعلو وتنخفض مع النفس وقد تكوَّرت وبرزت ، وهذا الإهاب الخشن ، واليد الجاسية ، والقدم الغليظة ، والرأس الضخم ، والجثة المنتفخة ، وقلت بعد أن تقينت أن النوم قد جره إلى بئر العميقة وتمكن منه كل التمكن : هذه والله لغنيمة ، وأنى لهذا البطن أن ينتبه لمن يسطو على إبله ويطردها . ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته^(٢) ثم قرنته إلى بعيري ، والتفت فوجدت العبد قد لحق بسيده في مهامه النوم ، فزادني ذلك إقداماً ، وصحت بالفحل فاتبعني ، واتبعت الإبل فصارت خلقي كأنها حبل ممدود ، وأخذت أجدو وأغني وأجدُ السير ، وبعيري يكاد يطير سرعة ، ومع هذا لم آله ضرباً باليد ، ورَكَّلاً بالرجل وكنت أقصد ثنية^(٣) بيني وبينها مسيرة ليلة للسرعة ، فبلغتها في مطلع الفجر بعد أن بلغ مني الجهد كل مبلغ .

(١) الحوار : ولد الناقة . (٢) وضعت فيه الخطام وهو ما يوضع في أنفه ليقادبه .

(٣) الثنية : المنحنى في الطريق .

أخذ الليل يعلم أطرافه السحمة في عجلة وذعر ، وجحافلُ النهار والنور
تزحف مسرعة وتنشر ألويتها في الخافقين ، فأبصرت الثنية ، خفق قلبي فرحاً
وقلت : نجونا بالإبل . ولكن راعني حين نظرت إليها ثانية أن عليها سواداً
لم أتبينه بادي الأمر ، ولم أعرف كنهه وأخذت أحدث نفسي وأقول : ترى
ما هذا ؟ أقاطع طريق مثلي يريد أن يغصبني ما تجشمت في سبيله الصعاب
وسهر الليل ووعاء السفر وعناءه ؟ ، فلما دنوت منه إذا أنا بالشيخ قاعداً وقوسه
في حجره ، فارتعت ورب الكعبة ، وقلت : ما هذا إلا شيطان مارد ، كيف
استطاع أن يسبقني إلى هذه الثنية وأنا راكب وهو راجل ، وقد قضيت الليل
أحدو الإبل وأغذ السير غذا وأحشها على السفر حثاً شديداً ، وقد تركته نائماً
يغط غطيظاً منكراً ، وبطنه مملئة تكاد تنفجر تحمة ، وقد قضى يومه تعباً
نصباً يرمى الإبل في الوادي وإنه لبعيد ! ؟

وقفتُ بالإبل على بعد منه ، وأخذت أقلب طرفي في هذا الخلق العجيب
ووجدته لم يحرك ساكناً بل ظل في مكانه قاعداً كأنما ينتظر مني أن ألقى
بنفسي بين يديه ، وأستسلم له طواعية ، ولما رأني لم أفعل وقد بدا الاهتمام
والتفكير على محياي قال وهو بعد في جلسته :

— أضيفنا ؟

قلت : نعم !

وأنا أحس بما في هذه الكلمة ، وما في لهجته من التأنيب والتوبيخ .
ولكن أنى لمثل أن يهزه التأنيب والتقريع وينال منه ، وقد فعل ما فعل وهو

على بينة من أمره . وحملت فيه متحدياً كأنى أشعره بثبات الجنان وعظم
المنة . فقال :

— أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟

قلت : لا . (وقد فهمت مغزى سؤاله وما فيه من تهكم لاذع ، ولكننى
تماسكت وتجلدت .)

فأخرج من كنفاته سهماً كأن نصله لسان كلب ، ثم قال :

— ترى هذا الضب الذى علقته على قَتَبِكَ ؟

قلت : أجل .

قال : أبصر بين أذنيه .

ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه . ونظر إلى ثم قال :

— ما تقول ؟

قلت : (وأنا والله أتهيبه وأخاف شره) : أنا على رأي الأول !

قال : انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى .

ثم رمى به دون عناية وكأنه يلهو ، فجاء فى الفقرة الوسطى كأنما قدره
بيده ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال :

— أرايت ؟

قلت : إنى أريد أن أستثبت .

وأنا فى هذا أحاول أن استنفذ أسهمه وأعلم مبلغ مهارته التى لا أرتاب
فيها ، وقد ازداد إعظامى له ، وخوفى منه ؛ ولولا الحياء وبقية من رجولة
وشجاعة لألقيت نفسى تحت قدميه ، لأنى مهما أوتيت من قوة لن أصل إلى

در بته وتفوقه الجسمى ، وأيده وجلده . فقال :

— انظر هذا السهم الثالث فى أصل ذنبه ، والرابع والله فى بطنك .
ثم رماه ولم يخطئ موضعه ، وكأنما أزال هذا السهم كل ما فى نفسى
من ريبة وأدركت أنى قد وقعت من هذا الشيخ على داهية خبير من شياطين
الصحراء ، الذين تمرسوا بها وعركوا الحوادث وعركتهم فما ازدادوا إلا جرأة
وصلابة فقلت :

— هل أنزل آمنًا ؟

قال : نعم .

فتعجبت من سماحته وعفوه عنى ، وقد خنتُ عهده بعد أن تحرمت بذمامه
وأكلتُ من طعامه ولم أرع حق الضيافة . وقد أرانى من كفايته وسرعة عدوه
وشدة أيده ، ومهارة يده ما أثبت تفوقه علىّ ، وإن فى مكنته أن يردىنى قتيلا
بواحدة من هذه الأسهم اللعينة قبل أن أدنو منه وأعرف أى شخص هو ،
ولكنه أبى إلا أن يكون سمحاً كريماً .

فنزلت ودفعت إليه خُطام الفحل وقلت :

— هذه إبلك لم يذهب منها وبرة .

وأنا أنتظر متى يرمىنى بسهم ينتظم قلبى ، فلما تنحيت قال لى :

— أقبل !

فأقبلت والله خوفاً من شره لا طمعاً فى خيره .

ودنوت حتى صرت بين يديه ، وهو يتسم لى ويحرثنى على القدوم ، وأنا
أتهيبه ، وقد جف ريقى ، وتصبب العرق من جبينى ، وعلا وجهى الخزى

والخبيية ، وكنت منه كما يكون الولد الصغير المذنب أمام والده الوقور ، فقال :

— أى هذا ! ما تظن أنى فاعل بك ؟

فقلت لا أدرى ، ولكنك تقدر أن تفعل الكثير ، لولا أنك أمّنت نزولى .

قال : ما أحسبك جشمت الليلة ما جشمت إلا من حاجة .

قلت : أجل .

قال : — لو انتظرت حتى الصباح ، وأشرت إليّ بحاجتك ، ولم تخفر

ذمتى وتتسلل فى سُدفة الليل بإبلى كما يفعل اللصوص الهيايون ، لأعطيتك رزقاً

وفيراً ولكن أبى عليك ضعف همتك إلا أن تفعل ما فعلت ، وليس لك عندى

بعد كل هذا إلا بعيرين ، فاقرنهما وامض لطيتك ، وإياك أن تعود لمثلها .

كان هذا أعجب من عفوه السابق وحقنه لدمى ، وكان أبعد مما كنت

أقدّر ، فوجمت وأطرقت إطراقة الخزى ، وقد أ كبرته جداً ، وأدركت أن له

قلباً كبيراً رحيماً ، ونفساً سمحة طيبة سخية . ولم أشأ أن أتركه دون أن أطلعـه

على حقيقة أمره عندى . فقلت : أما والله حتى أخبرك عن نفسك قليلا !

ثم قلت : والله ما رأيت أعرايياً قط أشدّ ضرراً ، ولا أعدى رجلاً ،

ولا أرمى يداً ، ولا أكرم عفواً ، ولا أسخى نفساً منك .

عمدت إلى ناقتين من أسمن نوقه فقرتتهما ، ومضيت فى طريقى دون أن

ألتفت خلفى ، وكنت بهذا أخسّ ضيف وأدناهُ ، وكان أشجع مضيف وأسخاه .

عنتره الفوارس (١)

في يوم قانظ شديد الحر ، يذوب منه أديم الأرض ، ويتوهج الهواء ،
وتضطرم البيداء ، وقد سكنت الريح ، واربداً الجو ، وظلت الشمس تصب
على الأرض شواظها الملتهب في غير مراحة ، جلس رجلٌ طويل القامة ،
عظيم الهامة ، ضخّم القسّات ، غليظ الشفتين ، صلب العود ، مفتول العضلات
أسود الوجه كأنه زبيبة ، في عبوس وإطراق ، وقد رفع عصاه وألقى عليها
رداءة ، وقبع تحت هذا الظل الضئيل يستتر من أبواب جهنم المفتحة ، وحرّ
البيداء يلفح وجهه ، وأمامه إبل عديدة ترعى الحسك ، والسعدان ، بعضها
قائم وبعضها بارك ، وهو في شغلٍ عنها بنفسه .

وبينا هو يعانى من شدة القيظ ما يعانى ، ولا يستطيع الفكّ من هذا
الجحيم المستعر بأن يريح الإبل إلى معاطنها ؛ لأن سيده ، وامرأة سيّده يأمر
عليه ذلك ، إذا جاءه فتى أسود الوجه ، يشبهه قوة وأيداً وبادره بالخطاب :

(١) هذه الصورة لعنتره الفوارس كما استطعت أن أستخلصها من الكتب التاريخية والأدبية الموثوق بها ، وهى غير الصورة المبالغ فيها كما وردت في قصة عنتره المشهورة راجع de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes. II. p, 519 وراجع شعراء النصرانية ص ٧٩٤ ، وراجع بلوغ الأرب للألوسى ج ٢ ص ١٢٦ ، ومهذب الأغاني ج ٢ ص ٢٦ ، والأغاني ط بولاق ج ٧ ص ١٥٢ ، والكامل للبرد ، والقصد الثمين لوليم آل ورد ص ٥١ ، والتبريزى شرح المعلقات ط السلفية ، وابن قتيبة في الشعر والشعراء ، وراجع Brockelmann, Anter-Encyclopedia of Islam ، وخزانة الأدب للبغدادي ط السلفية ج ١ ص ١٢٥ ، وطبقات الشعراء لابن سلام وراجع A. Perron. Lettre sur Anter. J. A. décembre 1840, P, 501 — 503.

— هانتذا يا عنتره ! أما آن لك أن تريح إبلك من هذا الأوارالمشتعل .

— إنك تعلم يا أخى حنبل أن شداداً وامرأته سُمية ، لا يقصدان إلا

تعذيبى ، وامتهانى ، ولو رحت إليهما الآن بالإبل لأوسعنى شداد ضرباً بالعصا ،
وسلقتنى سُمية شتاً وقذفاً ، ولحر البيد هذا أهون علىّ مما ألاقى منهما .

وما بالك مشغولاً مهموم البال ؟ هل ثمة ما يثير شجنتك غير ما تلاقيه من

شداد وُسْمية ؟

— ليس هذا بالأمر الهين ، ولست أدرى متى يرعوى شداد فلا يعاملنى

معاملة العبد ، ومتى يلحقنى بنسبه ، فلا أطأطئ الرأس أمام بنى قومي ، وهم
دونى شجاعة ، وبأساً ، وإصابة رَمِيَّة .

— صبراً يا عنتره ، وسيعلم قومك عما قريب مكاتتك ، ويرون أنفسهم

فى أمس الحاجة إليك ، وإلى حُسامك البتار ، وسهمك الصائب ، وساعدك
المفتول ، وضربتك الشديدة . ولقد آفدت لعمرى من وحدتك هذه فصرت
أصوب الناس سهماً ، وأقواهم ساعداً ، لترسك بالرماية وأعمال الفروسية .

— والله لقد عيل صبرى ، وإن فى قلبى سراً رهيباً أخشى أن أبوح به

لأحد ، وهو الذى يقض مضجعى ، ويطير الكرى من جفنيّ ، ويعتصر قلبى
هماً وكداً .

— ويك يا عنتره ! وما سرُّك هذا ؟ بُحَّ إلىّ به ، ولك عهدى ألا

أذيعه ، فأنت تعلم أنك أملُ إخوتك المرجو ، وأنهم إن اعترفوا بك وأحقوك
بنسبهم ، سعت لديهم فى الاعتراف بنا ، وإن لم نكن أشقاءك . بحلى بسرك
لعلّ لدىّ من الرأى ما يخفف عنك شجنتك ، أو يجد لك فى أمرك هذا مخرجاً .

إني عاشق يا حَنْبِل ، ولست أعرف لى حيلة أو وسيلة فى الوصول إلى قلب من أحبها ، وإنى لأراها ، وأنا على ما فيه من امتهان ومذلة ، لا همَّ لى إلا رعى الإبل لشداد وُسْمِيَّة ، أعلى من السما كين منالاً .

— ويك يا عنتره ! إن هذا لأمر جلل ، وإنك لتعرف هوان منزلتك فى قومك ، وإنى أعرفك راجح العقل ، حصيف الفكر ، كريم النفس ، وما كنت أظن أنك تجهل أمرك ، وتطمح فى أن تعشق . ولكن خبرنى من التى تيمت عنتره ، وملكت عليه لُبّه ، وأرقت جفنيه ؟

— ذاك هو السر يا حنبِل ؟

— يا ابن أمى ، لقد أخبرتك أنى حريصٌ عليك ، مؤمل فىك ، وإذا لم تبح بسرّك لى فمن عساه يؤتمن عليه !

— سيظل دفيناً فى فؤادى حتى أقدم بين يدى محبوبتى من باهر الأعمال وكريم الخصال ما يحجب عنها سواد لونى ، وضعة نشأتى ، وحينئذ تبادلنى حباً بحب ، ويعرف الناس من أمرها وأمرى ما أنا حريص على إخفائه اليوم .

— أخبرنى باسمها لعل أعينك فى أمرك ، ولا تحش بأساً .

— إنها عبلة بنت عمى معاوية .

— يا لله ! عبلة ! أو تطمح فى أن تحبك عبلة ، وأبوها معاوية على ما تعرف من صلف وكبرياء ، وتيه وخيلاء ، يعتقد أنه أرفع من النعمان مكاناً ، وأعلى من ابن ذى يزن شأنًا ، وكيف السبيل إلى عبلة ، وعمرو أخوها يزدريك أينما رآك ، ولا يناديك إلاَّ يا ابن الأمة السوداء ، ولا تملك لقوله رداً ، ولا لهجومه عليك صداً ، وشدادٌ يعنى فى إيذائك وتحقيرك ، وُسْمِيَّة لا تنفك عن

شتمك وتعييرك . لقد أوقعك فؤادك في مأزق حرج يا عنتره ، وكنت أظن أن الأمر أهون من هذا ، فهل إلى العدول عن هذا الحب الذي لا جدوى منه ، ولا خير فيه من سبيل ؟

— والله يا ابن أمي ، لقد غالبته مراراً فغلبنى ، وطردته فاستعصى عليّ ، ولقد فكرت في أمري هذا طويلاً ، ولا سبيل إلى عبلة إلا أن أرتفع بسؤددى وعظيم فعالي إلى مرتبة السيادة والشرف ، وإن أيام عبس لكثيرة ، وسيعرف القوم من عنتره حين يحز بهم الضر ، ويغشاهم اليأس ، ويتامسون الساعد القوى ، والفتى الأبى ، والعقل الذكى ، واللسان الصارم ، والحسام القاطع فلا يجدونه إلا لدى عنتره ، فصبراً صبراً ، وإياك أن تنم عليّ ، أو تشي بي ، فتفسد من الأمر ما دبّرت ، وتنقض عليّ ما قدرت وأحكمت .

— لك عليّ عهد الله يا عنتره أن أحفظ شرك في مكنون فؤادى ، حتى تنال أمنيّتك ، وتحقق طلبتك ، وإن كنت في يأس من أمرك ، ولا أجد له مُنفرجاً ؛ والآن أتركك للتفكير في عبلة ، وعسى أن يأتى الله بالفرج أو أمر من عنده .

وقضى عنتره يومه هذا في تفكير وتدبير ، وليس له من أملٍ إلا في ساعده القوى ، وفؤاده الأبى ، وخلالاله الكريمة ، وما أن أتى المساء حتى ساق إليه إلى معاطن شداد ، ولما رآته سمية نادته :

— هل حلبت الإبل يا عنتره ؟

— لقد أتيت بها تواء ، وسأحلبها الآن فناولينى الأوعية .

— يا عبد السوء ! ، إنك لتعلم مكان الأوعية ، فما زدت عليّ أن جعلتنى

لك خادماً ، يا ابن زبيبة ، يا مشقوق المشفرين ، يا راعى الإبل ، تالله لأخبرن شداداً بأمرك ، وإن لم يؤدبك فلن أقيم معه في بيت يأويك .

وجاء شدادٌ وهى تنهال على عنقثة سباً ، وتبرق وتوعد ، وتهدد وتتوعد ، وما أن رآته حتى هَوَّأت له فى عصيان عنقثة لأوامرها ، وأنه أبى أن يحلب الإبل ، فتناول شدادٌ عصاً غليظة ، وأخذ يضرب عنقثة بكل ما أوتى من قوة ، وهو مستسلم لضربه ولما أمعن فى إيذائه وهو صابرٌ لا يتكلم أو يتأوه ، ارتمت سمية على عنقثة تحميه من ضربات شداد ، وتشفعت له ، وأنقذته من يديه وهى تبكى لما أصابه فانفلت وهو يقول :

أمنُ سُمِيَّةَ دمعُ العينِ مذروفُ لو أن ذا فيك قبلَ اليومِ معروفُ
تجللتنى إذ أهوى العصا قبلى كأنها صنمٌ يُعتَادُ معكوفُ
العبدُ عبدُكم وللمال مالكم فهل عذابُك عنى اليومَ مصروفُ؟
ومضى عنقثة كسيفاً حزيناً ، يندب كرامته المهانة ، وحبّه الذى لا أمل فيه ، ورأى فتیان الحى يسمرّون ، ويشربون الخمر ، ويسمعون الغناء ، فلما مرَّ بهم لم تحدّثه نفسه بالجلوس معهم ، وأنىَّ له أن يفعل مثل ما يفعلون ، وهو لا يملك من حُطام الدنيا نقيراً ، أو قطميراً ، وهم به يتغامزون ، وله يحقرّون ، ولا يُطيق أن يسمع من أحدهم كلمة نائية ، فربما ثارت نفسه ، فوكزه ، فقضى عليه ، وهو إن احتملَ سمية وشداداً فلائنه أبوه ، وهى امرأة أبيه ، وللأب حرّمته ومهابته .

وبعد أيامٍ قضّاها عنقثة فى غمٍّ وهمٍّ ، يغدو بالإبل نهاراً ، ويروح بها ليلاً ، لا يكلم أحداً ، ولا يحى سمية ، ولا يطلب منها طعاماً ، سمع أن قومه

يستعدون للغارة على طي* أخذاً بثأر قديم ، فأخذ يشحذ سيفه ، ويريش سهامه
ويعدُّ رمحه ، وقال : قد جاءتك الفرصة يا عنتره وسيلو القوم بلاءك ،
ويعرفون مضائك .

وما هي إلا ساعة حتى تداعى القوم ، وخرجوا وخرج شداد ودعا عنتره
ليكون بجانبه وقت الغارة ، وفرح عنتره حين دعاه شداد وركب القوم ،
وتسابقوا نحو العدو ، وصادفوا منه غرة ، وكانت المعركة عظيمة أبلى فيها عنتره
بلاءً عظيماً ، فلم يقف في سبيله فارسٌ إلا جندله بضربة واحدة ، وإذا فر
منه فوق إليه سهماً مريشاً محكمًا فأصماه فخر صريعاً يتشحط في دمه ، وانتهت
المعركة سريعاً بعد أن غم بنو عبس مغنم كثيرة .

ولما وصلوا إلى ديارهم أرادوا أن يقتصموا ما غنموه ، وأراد عنتره أن يأخذ
نصيبه كأحدهم ، وهو من خبروا وعينوا نجدة ، وقوة وفتوة ، ولكن القوم
ردوا عليه في صلف بالغ ، وعُجبية وغلطية : ليس لك مثل نصيب أحدنا ،
لأنك عبد ، فارض بالنصف إن شئت . فثار الدم في وجه عنتره ، وعلاه الغضب
واعترزهم ، ورفض أن يأخذ من الغنيمة فتيلًا ؛ وتضاحك القوم حين تركهم
عنتره محنقًا مغيضًا ، وقال عمرو ابن عمه وعنتره يسمع قالته : تبًا لهذا العبد ! ،
التي يعرف ضعة أمره ، وهوان شأنه ، ولا يرعوى عن أنفته الكاذبة ، وتعففه
المصطنع ، انظروا إليه كيف يمشى خزيان كسيفًا ، ومهمومًا أسيفًا ، تتقطع نفسه
حسرات على الغنيمة التي صدف عنها ، ونظر القوم إلى عنتره وهو منصرف
عنهم نظرة الشماتة والحسد وهم يتغامزون ويتضاحكون .

وكانت نفس عنتره تتقطع حقًا ، لا أسفًا على غنيمة زائلة ، ولكن أسى

على كرامة ممتحنة ، ونسكران وقح للجميل ، ونفس أبية طموح لا تجد من يقدرها قدرها ، بيد أن اليأس لم يترك أزيمة فؤاده ، وراح يمني نفسه ، بأن قومه عما قريب سيستنجدون به وهم في أمس الحاجة إلى سحر بيانه ، وجرأة جنانه ، حر سناناه ، وأنه سيرغمهم صاغرين على الاعتراف به قبل أن ينقذهم من مخالب الموت أو العار أو الهزيمة .

وانصرف عنقرة إلى إبله يرعاها في الصحراء ، غير مخالط لقومه ، أو آخذ فيما يأخذون فيه من لهو ومتعة ، عاكفاً على نفسه في وحدة تامة ، وصمت مطبق كأنه متعبد يتحنث في محراب الطبيعة ، أو أسدٌ جريح يسترد عافيته ، وينتظر التئام جراحه ، ولم يكن يغشاه ، ويقطع عليه وحدته إلا أخوه حنبل ، يأتي له بالطعام كل يوم ، ويحادثه في شئون قومه ويسليه ويعزيه ويؤمّنه ، ويتطرق الحديث غالباً إلى عبلة وحبها ، ويثبته عنقرة كامن شجنه ، وبالغ أساه وحسرتة على حبه الضائع ، وحالته الزرّية لينفس عن لواعجه المكبوتة ، ويخفف من آلامه المبرحة .

ولم يطل الزمن بعنقرة ، فإن بنى طيء ، كانوا يقيمون على وتر منذ أغار عليهم العبيسون ، وقد أخذوا للثأر أهبتة وأعدوا له عدته ، وساروا في جحافل عديدة .

بكل مجرب كاليث يسمو على أوصال ذبّال رفن^(١)
وضمر كالقـداح مـسـومات عليها معشر أشباه جن^(٢)

(١) الأوصال : المفاصل أو مجتمع العظام ، جمع وصل . ذبّال : ذو الذيل ، والرفن : طويل الذيل وأصلها رفل .

(٢) شبه الخيل الضامرة بالسهام ، مسومات : معلّات لها دراية بالحرب .

وأغاروا على بنى عبيس ذات صباح والقوم بعد نيام ، فأخذوهم على غرة
وأمعنوا فيهم قتلاً قتل أن يفتقوا من هول المفاجأة ، واستاقوا نعمهم وإبلهم ،
وأسرعوا عائدين إلى ديارهم ، واجتمع شباب عبيس ورجالها ، وفرسانها ، وصرىخ
النساء يصم الآذان ، ويستحث القوم على استنقاذ أموالهم ، والأخذ بثأرهم ،
ودماء أبنائهم ، وتهيا الفرسان للحاق بالعدو ومطاردته ، وركب عنقرة فيمن
ركب ملبياً دعوة شداد والده ، ولكنه أبرم في نفسه أمراً ، وعزم عزمًا ألا
يستमित في القتال ، ويستنقذ الأموال إلا إذا اعترف به شداد وحطم عنه
غُلَّ العبودية .

وسرعان ما لحق بنو عبيس بالفرزة الموقرين بالغنائم ، والسائرين بسرعة
الإبل ، والتفت لهم بنو طيء يدفعونهم عن أسلابهم ، والتحم الفريقان ،
وعنقرة لا يقاتل إلا مدافعاً ، وكادت الهزيمة تحيق بالعبيسين ، ورأى شداد من
عنقرة نكوصاً عن القتال ، وحذراً في المدافعة ، وأنه لا يصول ويجول كعادته
فصاح به :

— كُرِّ يا عنقرة !

— العبد لا يحسن الكر . وإنما يحسن الحلاب والصَّر .

— كر يا عنقرة ! ، كُرِّ وأنت حر

وهنا امتلأت نفس عنقرة زهواً ، وعاد إليها نشاطها المفقود ، وأملها
الضائع ، وومض أمام عينيه طريق المستقبل الباسم ، وتمثلت له عبلة بشبابها
الريان ، وجهالها الفتان ، وكأنها تناديه أن يغسل عن قومه العار والسَّار ،
وأن يرد عادية المغيرين لتعيش في أمن ودعة . فتيجمعت كل هذه الآمال في

نفسه واضطربت في حنايا صدره ، فأرغى وأزبد ، ورأى أن كل حياته معقودة في ظبية حسامه وسنان رمحه ، ففكر نحو العدو كرة الأسد الرئبال يحمى عرينه ، وخاض غمار المعركة أشد بنى قومه بأساً ، وأفظعهم بطشاً ، فتحاماه الفرسان ، وتجاؤوا عن طريقه ، وهو يمعن فيهم قتلاً كأنه البركان الثائر ، أو القضاء النازل ، لا يصيب إلا أصمى ، ولا يضرب إلا صرّع ، يعتمد على الكهى المدجج بالسلاح ، الذى كره الأبطال نزاله فيرديه ، وإلى الفتى الجلد الصبور على القتال فيصميه ، وهو يقول :

ومدجج كرة السكاة نزاله لا مُمعن هرباً ، ولا مُستسلم
جادت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشكت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم
فتركته جزر السباع يذشنه ما بين قلة رأسه والمعصم
ورأت طيئ أنها أمام مارد من الجات ، يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، ولا ينالون منه شيئاً ، أو أنهم أمام سيل يهذر يحتاج كل ما يعتاق سيله ، ويهدّ صفوفهم هدأً ، وأنهم يُفوّقون إليه سهامهم حتى إذا ظنوا أنهم أصابوه تلبب فرسه ، أو التوى تحتها ، أو نزل عنها متجنباً تلك السهام ، ثم اعتلاها في سرعة البرق الخاطف ووثب على الرامين فأنخلعت لوثبته قلوبهم وولو الأدبار . ورأوا أنهم إن استمسكوا بالغنائم ، وتمادوا في الدفاع عنها ، فقدوا أنفسهم ، وفقدوا الغنائم ، فتركوها لأهلها ، وتقهقروا ناجين من وجه ذلك الشيطان المريج الذى تحمس قومه حين رأوا بأسه فاشدت ضرباتهم ، وقست هجماتهم ، وأنه لا قبل لهم اليوم ببني عبس ؛ لأن فى الأمر سرّاً لا يدركونه .

ووقف بنو عبس ينظرون إلى العدو الهارب ، بقلوب فرحة راضية ،
والتفوا حول عنقرة يثنون على شجاعته وبأسه ، ويهتفون شداً بلاء عنقرة ،
فهو حامى الذمار ، والمدافع عن العشيرة ، وصمت شداد هنيئاً وتمثل له عنقرة
فى المعركة ، وكيف دافع عن قومه ، ورأى أن عنقرة فخر القبيلة ودرؤها ، وسيد
فتيانها بأساً ونجدةً ، وأنه لا غناء لها عنه ، ولا عز لها إلا به ، وهى كثيرة العداة ،
عرضة فى كل آونة للغزاة ، وأن الاعتراف به يزيد كليهما فخراً وشرفاً ، فرفع
رأسه ، وقال : أشهدكم يا بنى عبس أن عنقرة هو ابنى ، وأنه منذ اليوم حرٌّ ،
وأنه ابن شداد بن عمرو بن قُراد ، وأقبل على عنقرة يقبله ، وتزاحم الفتيان على
عنقرة يقبلونه ويهتفونه إلا ابن عمه عمراً ، فقد أنف من أن يعترف به أو يثنى
عليه ، وأكل الحسد شراسيف قلبه ، فأشاح بوجهه عنه ، حتى لا يرى الفخر
والشرف والسؤدد يتوج بها عنقرة جميعاً .

وأحرز عنقرة بهذا أول انتصار له فى الشرف ، وخطا أول خطوة فى
طريق حبه المكتوم ، ولكن عمراً ، آه من عمرو أخى عبلة ، لماذا ينفس عليه
حريته ، وشجاعته ؟ ، ولماذا لا يصفاه كما صافاه شباب عبس ؟ ، إنه كلما رآه
أعرض عنه ، ولكنه لم يعد يؤذيه كسابق عهده ببذى كلامه ، وجارح سبه ،
فقد اكتسب عنقرة هيبه فى النفوس ، ورفعة فى العيون . ما أحوجه إلى
مصافاة عمرو ، ليعبد له طريق عبلة ، وهى منية روحه ، وأمل فؤاده ، وزهرة
حياته ، ولكن كيف السبيل إليه ، وهو وعُزُّ الخلق ، شديد الصلف ، تيّاه
على الناس ؟

ولم يكن عمرو وحده هو الذى يحسد عنقرة على ما أصاب من مكانة ،

بل قبل كثير من أشراف عبس مكانة عنتره على مضيض حاجتهم إليهم ،
وكانت نظراتهم إليه مزيج من الحسد ، والازدراء ، لسواد لونه ، وعدم خلوص
نسبه ، ولكنه كان يقابل كل ذلك منهم بسعة صدر ، وحلم وأناة ، ولم يزد
انتصاره إلا تواضعاً لهم ، وحنواً عليهم .

وكان في كل مرة يلتحم قومه في معركة يزدادون به إعجاباً ، وله إجلالاً ؛
لأنه كان دائماً الفارس المجلى ، والبطل الصنديد ، وأنه عماد القوم الذى
يلتفون حوله فيحرز لهم النصر ، أو يدفع عنهم الغارة الشعواء ، وإذا انقضت
المعركة ترفع عن الغنيمة ، وتركها لهم ، كأنما كانت الفروسية والبلاء في القتال
مقصده وهدفه ، وكان قومه يتعجبون من أمره ، وقسوته على نفسه ، فلا يلهو
كما يلهو الفتيان ، ولا ينظر إلى النساء نظرة فاحشة ، وإن بدت جارته غصّ
طرفه عفة منه ، وكرم خلق .

وفي كل يوم يكسب عنتره قلوباً جديدة تلتف حوله ، وتعجب به ،
وعلى الرغم من سواد لونه ، وعدم خلوص نسبه ، فقد اشتبهته كثيرات من
فتيات الأشراف ، وإذا مرّ بهن تهاوسن ، وتغامزن ، ونظرن إليه نظرة
إعجاب ، وقد لا تملك إحداهن نفسها فتقول لصويحباتها :

— ألا ترين عنتره ، إنه لقسوره ، فما أشد خطره ، وما أجلّ منظره
فترد إحداهن :

— عجباً له ! أما تهفو نفسه إلى حليلة ، أو تراوده على خلية

— خلّ عنكن ، فإنى سمعت أنه عاشق

— ومن الحليلة المنتظرة ؟

— إنه يحب عبلة ابنة عمه

— أو تعرف عبلة أمرَ هذا الحب ؟

— إنها متينة ، ولكنها تخشى أخاها وأباها ، فعمرو أخوها لا يطيق منظره

— والله ما علمنا على عنتره من سوء ، وإنه لنعم الفتى ، سماحة خلق ،

وترفعاً عن الدنيا ، ولطف معشر . أو ما سمعتهن بتعففه عن الغنائم والإسلاب

غيب المعارك ، وهو الذى أبلى فيها بلاءه ، وأظهر لهم مضاه ؟ أو ما ترين

كيف يأوى إليه كل ليلة البأس والفقر ، وأنه يطعم الجائع ويغيث الملهوف ،

ويحمل الكَلَّ ، ويفك العانى ، وينفق ماله ذات اليمين وذات اليسار

فى المكرمات ؟

وقضى النسوة ساعة فى الحديث عن عنتره ، كل تشيد بفضله ، وتعز به ؛

لأنه يحميهم ، وينكل بالعدو المغير ، ويشعرن بأمن وطمانينة لوجوده ، كأنه

الحصن الركين ، والجيش المتين .

وسمع عنتره ذات يوم من عيَّره بأنه على شجاعته وبأسه ، لا يتحلى

بما يتحلى به الفرسان من فصاحة ولسن ، وأنه لا يقول الشعر إلا بيتين أو ثلاثة ،

وأنه لا يعرف الحب ولوعته ، له مشاعر جامدة ، وقلب صلد ، وليس ذلك

من شيمة الفتيان ، وأطرق عنتره إطراقة طويلة قبل أن يرفع رأسه وهو يغمم

ويدمدم ، ثم انطلق كالسيل الهادر ينشد معلقته المشهورة ، يفصح فيها عن حبه

الذى ظلَّ حبيساً فى سويداء فؤاده ، ويشرح فيها موقفه مع قومه ، وتعنتهم

وإرهاقهم له ، وظلمهم المر ، مع سماحة خلقه ، وتعففه ، وكرم يده ، ويشيد

فيها بفروسيته ، ومدافعتهم ، في لفظ رشيق ، ومعنى دقيق ، وحسن
مُرْهَف ، وعفة لسان ، وسحر بيان :

يا دار عبلة بالجِواء تكلمى وعمي صباحاً دار عبلة واسلمى
ولقد ذكرتكَ والراح نواهلٌ منى ويبض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبقارق ثغرك المتبسم
وأخذ الفتيان يرددون في كل مكان معلقة عنتره ، حتى لميج بها كلُّ
لسان ، ووعاه كل إنسان ، وبرهن لهم عنتره على أنه في الفصاحة يتسمُّ الذروة ،
وأنه شاعر عبسٍ غير مدافع ، كما أنه فارسها غير منازع ، ووعى الفتيان قوله :

أُننى علىَّ بما علمتِ فإننى سهلٌ مخالفتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمتُ فإنَّ ظلمىَ باسلٍ مرٌّ مذاقته كطعم العلقم^(١)
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم^(٢)
بزُجاجة صفراء ذاتِ أسرة قرنتُ بأزهرَ في الشمال مُفدَّم^(٣)
فإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى وعرضى وافرٌ لم يُكلم
وإذا صحتُ فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلى وتكرمى

وعلموا أن عنتره لن يرضى بعد اليوم بالإساءة ، وأنه يمكن لنفسه وسيادته
بهذ الشعر العذب ، واللسان الذَّرب ، وعرفوا سرَّ إحتجامة عن النساء ، وتعففه
عن الصغائر ، فإنه حبُّ عبلة الذى ملكَ شِغاف قلبه ، ولكن هل يرضى
معاوية أبوها ، أو عمرو أخوها بعنتره صهراً ، وهما من أشد القوم حسداً على

(١) باسل : كرية (٢) المشوف : يقصد به الدينار المجلو ، أو القدح الموشى .

(٣) الأزهر : الإبريق ، والمقدم : المصنوع ، وفي الشمال : يقصد أنه بارد بريح الشمال .

ما أصابه من نعمة وشرف ؟ لقد تعلق عنقته في نظرهم بأمرٍ عزيز المال ،
ويا ليت له لم يفعل ، فليس بالهين عليهم أن تجرح عنقته بعد اليوم .
وسمع معاوية وعمر بن الخطاب ما قاله عنقته في عيلة ، وغضبوا أشد الغضب ، وتوعداه
وتهدداه ، وعزما على أن يزوجاها سريعاً ، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها ،
وتأمر معهم على ذلك أشرف بنى عبس من مثل قيس بن زهير ، والربيع
بن زياد حسداً لعنترة ، وضناً بعيلة الجميلة الشريفة أن تأوى إلى بيت هذا
العبد الغليظ المشفرين .

وسرعان ما تقدم لعيلة من خطبها من أشرف قوما ، فزفت إليه وهي
تسح الدمع سحاً ؛ لأنها كانت تهوى عنقته وتعزه ، ولكن زواج عيلة لم يغير
من حب عنقته لها والتنويه بها في كل قصيدة ، ولم يزهّد بعد ذلك في النساء
زهده الأول ، ولكنه لم يكن كسائر الفرسان ، فإذا سبي امرأة دفع إليها
مهرها وتزوجها ، وأبى أن يسترقها ، كما يسترق سواه السبايا الحرائر ؛ لأنه ذاق
طعم العبودية ، وذل الرّق ، ولم تلهه أى امرأة عن عيلة وحبها وفي ذلك يقول :
وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء باسلة يخاف رداها
ورجعت محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لما ناواها
ما استمت أنثى نفسها ، في موطن حتى أوفى مهرها مولاهها
أغشى فتاة الحى عند حليها وإذا غزا في الجيش لا أغشاهها
وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إني مرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها
ولئن سألت بذاك عيلة خبرت أن لا أريد من النساء سواها

وأجيبها إما دَعَتْ لعظيمة وأعينها وأكفُ عما ساءها
 وكان هذا الخلق الرفيع ، والشمم والشجاعة ، تغيط كثيراً من أشراف
 عبس ، وتزيد قلوبهم حنقاً وموجدةً عليه ، ويودون ألا يحتاجوا إليه في ردِّ
 عادية ، أو كشف عدو ، ولكن أنى لهم أن يستغنوا عن ساعده القوى ،
 وسيفه البتار ، وهم أحلاس حروب ، وقد طال ما بينهم وبين بني ذبيان من
 قتال أربعين عاماً ، جلوا فيها عن ديارهم ، ونزلوا بشتى القبائل ، فضاقوا بهم
 ذَرعاً ، واشتبكوا معهم في معارك حامية ، حتى لم يعد لهم من ملجأ يأوون إليه
 إلا ظهور خيولهم ، وأسنة رماحهم ، وظُي سيوفهم ؟؟

وسرعان ما برهن عنترة مرة أخرى على أنها درع القوم السابغة ، وحصنها
 المتين ، والذائد عنها في الملمات ، حين يشتد بهم الكرب ، وتذلهم الحرب ،
 فقد كانوا في معركة عنيفة مع بني تميم ، بعد أن ضعفتهم حروبهم مع
 ذبيان من جراء سباق داحس والغبراء ، وصمدوا لبني تميم ساعات ، وجال القوم
 جولات صادقات ، ولكن لم تطق عبس على القتال صبراً ، فولت الأدبار ،
 واتبعتهم بنو تميم يريدون أن يتخطفوهم من خلفهم ، ويحلون بهم هزيمة
 ماحقة ، فوقف عنترة الفوارس وحده أمام جموع بني تميم تتكسر على شبة
 رمحه ، وظُبة سيفه أمواج هجياتهم ، وهو صامد كالجيل الأشم ، تطير الرءوس
 أمام ضرباته فضاءً ، وتجمع حوله عصابة من فتيان عبس حتى رحل قومه
 لم يُصَب منهم مدبرٌ إلى أن تواروا جميعاً عن الأنظار .

وبلغ الغيظ من قيس بن زهير سيد عبس وصاحب حربهم مبلغه ، حين
 رأى أن عنترة وحده هو الذي نجَّى قومه ، ففاه بها عوراء شائنة ، وقال : والله

ما حى القوم إلا ابن السوداء ، فلم يصمت عنتره كسابق عهده ، وردَّ عليه رداً قوياً ، معيراً إياه بأنه أكل نهرهم ، وأنه خيرٌ منه بأساً ، ويدانيه نسباً ، وأنه دره قومه ومشواهم وذلك حيث يقول :

إني امرؤ من خير عبسٍ منصِبا
شطرى ، وأحى سائرى بالمنصلِ^(١)
بكرت تخوفنى الختوف كأننى
أصبحتُ عن عُرْض الختوف بمعزل
فأجبتها أن المنية منهلٌ
لا بدَّ أن أُسقى بكأس المنهل
فأقننى حياءك لا أباك واعلمى
أنى امرؤ ساموتُ إن لم أقتل
إن المنية لو تُمثِّلُ مُثِّلْتُ
مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
والخليلُ تعلمُ والفوارسُ أننى
فرقتُ جمعهم بضربة فيصل
لما سمعتُ دعاءَ مُرَّةٍ ، إذ دعا
ودعاء عبسٍ ، فى الوغى ومحلل
ناديتُ عبساً فاستجابوا بالقنا
وبكلٍّ أبيض صارمٍ لم يَنحل
إن يُلَحِّقُوا كُرُرُ وإن يُسْتَلَحِمُوا
اشدد ، وإن يُلَفُّوا بضنك أنزل
ولقد أبيتُ على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكَلِ^(٢)
وإذا حملت على الكريهة لم أقل
بعد الكريهة ليتنى لم أفعل

فاستخذى قيس بن زهير ومن كان يحسد عنتره بعد سماعهم هذه القصيدة ،

(١) أى أن شطره من جهة أبيه من خير عبس ، ويحى شطره الثانى من جهة أمه بسيفه .

(٢) يعرض بهذا البيت والذى بعده بقیس بن زهير لأنه كان أکولاً ، وكان يتقدم على خوضه المعارك ، ويعتمد فى الحرب على دهائه لاعلى شجاعته حتى لقب بقیس الرأى ، ولما أشد النبي عليه السلام هذا البيت قال : ما وصف لى أعرا بى قط ، فأحببت أن أراه إلا عنتره — راجع الأغانى ط بولاق ج ٧ ص ١٥١ .

وازداد في عيون سائر قومه رفعةً ومكانةً . وجاءه أخوه حنبل بعد أن وصل إلى هذه المنزلة السامية ، يلح عليه في أن يعمل على أن يعترف قومه بأخوته لأمه ، كما اعترفوا به وقد أصبح سيداً من أغنى أشرافهم ، وما أن عرض عنتره على قومه هذا الرأي حتى لبوا مُسرعين إكراماً لعنتره وتحيّةً له .

وهكذا حقق عنتره ما كان يصبو إليه إلا أمراً واحداً خَلَفَ في نفسه الحسرة والألم ، ألا وهو عدم نيّله عبلة ، ولبث ما بقي من حياته يتغنى بحبه الذي لا أمل فيه ، حتى صار مثلاً في الحب والوفاء ، كما كان مثلاً في الشجاعة والبأس والمضاء .

هلال (*)

— ها قد أقبل هلالٌ بإبله ، تالله إن الأمير سيسر بمقدمه سروراً لا يعدله
نزول الحيا غبَّ جذب ، وإن نفوسنا المغيظة المحنقة الموتورة لتتعطش إلى
القصاص من ذلك العبد الجبار الذي صرع كلَّ فتيان المدينة ، وتطامن تحت
قبضة يده الرءوس العزيزة ، وريعت منه القلوب الأبية الجريئة . كان خالد
المازني يقول هذا الرفيقه ووجهه يتهلل بشراً ، ويفصح عن نفس حزبها الهم
وأمضها الحزن فأصابته فرحاً ومسرة على حين غفلة ، ثم انفلت خالد من رفيقه
مهرولا وهو يصيح خلفه :

إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى الأمير .

قال هذا وهو يُجِدُّ في ركضه فما تمهل حتى دخل على أمير المدينة المنورة
وهو في مجلسه وحوله وجوه أهلها وأشراف العرب ، فلما رآه الأمير يلهث بادره
سائلاً :

— ما بك يا خالد ؟

— أصلح الله الأمير ! عندي خبرٌ يسرك ، فقد قدم هلال بن الأسعر
المدينة بإبل له تحمل عروضاً لبعض تجارها ، ولعل الأمير قد سمع ببطشه وقوته
إن ذلك العبد قد آذانا وطعن كرامتنا ، وصرع خيرة شبابنا ، وذوى الأيد منا ،

(*) الأغاني ج ٣ ص ٥٦ ، وهلال بن الأسعر شاعر فارس اشتهر في العصر الأموي

وكان مشهوراً بالشجاعة والبأس ، ومات نحو سنة ١٣٠ هـ

فلو سمح الأمير — حفظه الله — لهلال بمصارعة هذا العبد حتى يغسل عنا العار ، ويأخذ الثأر ، ويُنعش النفوس المستخذية فإننا لا ننام على وترٍ وقد أمكننا الله منه .

— ومن هلال هذا ؟ إنى لم أسمع به من قبل ، وما إخاله قادراً على هذا العبد العملاق ، وما أظنه إلا كهؤلاء الذين اشتهروا بالفتوة والقوة من شباب المدينة وما جاورها ، حتى إذا رأوا العبد الرومى دبَّ في قلوبهم الرعب وأخذتهم الرجفة ، وكانوا في يده كخذروف^(١) في يد صبي يطوحهم يَمَنَةً ويسرة ويلقيهم تحت قدميه مغشياً عليهم من شدة الإعياء والألم .

— أعز الله الأمير ! إن هلالاً فتى لا كالفتيان ، إذا رأيته هالك منظره ، فما شئت من جسم فارع كأنه رجل على صهوة جواد ، ومن جثة مكنتزة ، وعنق ضخم ، وهامة كبيرة ، وكتفين عريضين ، وساعدين كذراعى البكر أو أشد ، وقبضة يد كالخديد ، وقد ملأ جلده من كل أقطارها ونواحيها ، فهو يموج في بدنه قوة وعافية ، إنى أعهد فارساً شجاعاً شديد البأس والبطش ، أكثر الناس أكلاً ، وأعظمهم فى حرب غناء ، وإنه ليردُّ مع الإبل على أهله فيأكل ما وجد ثم يرجع إليها ولا يتزود طعاماً ولا شرباً حتى يرجع يوم ورودها ، ولا يذوق فيما بين ذلك شيئاً .

— وكيف هو فى الصراع ؟ فإنى أربأ بى وبكم أن يخلع علينا هذا العبد مرة أخرى أثواب الخزى والشماتة ، فحسبنا ما لاقيناه آنفاً .

(١) الخذروف : النحلة التى يلعب بها الصبيان .

— هل لى أقص على الأمير — لا زال مؤيداً — بعض حوادثه حتى
يستوثق مما أقول ؟
— امض فى حديثك .

— لقد خرجت وهالالا ذات يوم ننشد إبلا لنا ، حتى دُفَعنا إلى قوم
من بكر بن وائل ، وقد أخذ منا اللغوب والكلال كل مأخذ ، فإذا نحن
بفتية شباب عند بئرهم ، وقد وردت إبلهم فلما رأوا هالالا استعظموا خلقه ،
وقام إليه رجلان ودعاه أحدهما للصراع ، فاعتذر هلال بحاجته إلى ما يطفى
ظمأه من لبن وماء ، فأبى عليه ذلك حتى يستجيب له . فاعتذر ثانية بأنه
ضعيف والضيف لا يصارع ربَّ منزله ، ولكنَّ يعمد إلى أشد خل فى إبلهم
وأهيبه صولةً ، وإلى أشد رجل منهم ذراعاً ، وأنه سيقبض على هام البعير وعلى
يد الرجل فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى يدخل هذا فى فم ذاك ، وإن لم يفعل
فقد صرعوه .

فعبجوا من مقاتله وأومأوا إلى خل من إبلهم هائج صائل ، فاتاه هلال
وضغط بيده على هامته ضغطةً جرَّجَر^(١) لها الفحل واستخذى ورغى ، وقال :
ليعطنى من أحببتم يده أولوجها فى فم هذا الفحل ؛ فامتنعوا وهم يتعجبون .
حسبك يا خالد ! ولا ريب عندى فى صدق حديثك ، ولقد هجت
شوقى إلى رؤية هلال ، فإن ما ذكرت ينبئ عن قوة جبارة ، وفتوة خارقة .
فعلىَّ به .

وأرسل الأمير بعض رجاله مع خالد لينحضروا هالالا ، فجاءوه وهو يضع

(١) جر جر البعير : بكى .

عن إبله ، وأخذوا بيده قائلين : أجب الأمير .

— ويلكم ؟ إبلى وأحمالى ؟

لا بأس على إبلك وأحمالك .

— ما حاجة الأمير إلىّ ، وليس لى غرماء ، ولا أحدثت حَدَثًا ، ولقد

قدمت الساعة من رحلة مضنية ؟

ثم التفت إلى خالد المازنى وقال :

— ويحك يا خالد ! ألا تخبرنى بحلية هذا الأمر ؟ أو من حق الأخوة أن

تسعى بى مع حرس الأمير دون أن توضّح لى ما أنا مقبل عليه ؟

— هديّ روعك يا هلال ! فهناك كلُّ خير إن شاء الله .

ثم انطلقوا به حتى دخلوا على الأمير فسلم عليه هلال وقال :

— جُعِلت فداك ! إبلى وأمانتى .

— نحن ضامنون لإبلك وأمانتك حتى تؤديها إليك .

— فما حاجة الأمير إلىّ ، جعلنى الله فداه ؟

حينئذ أخذ الأمير يتأمل هلالا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فرأى رجلا

عملاقا ، متين البناء ينطق كلُّ عضو من جسده بحياةٍ متدفقة ، وصلابة عارمة

ونمو كامل . كان فى العقد الرابع من عمره ، ترتسم على وجهه سمات السداجة

والرحمة على الرغم مما أوتى من قوة وبأس ، عند ذلك أشار الأمير على رجل

أصفر بجانبه وقال :

— إن هذا العبد الذى ترى ، لا والله ما ترك بالمدينة عربياً يصارع

إلا صرعه ، وبلغنى عنك قوة ، فأردت أن يجرى الله صرع هذا العبد على يدك فتدرك ما عنده من أوتار العرب .

طفق هلال يتأمل هذا العبد الجبار فرأى خاتمة هائلة ، وسحنة غريبة ، وجسمًا ضخماً ، لم يدر أطوله أكثر أم عرضه ، وعضلاتٍ مفتولة بارزة ، وعنقاً غليظاً ويداً جاسية خشنة صلبة ثم أطرق برهة وقال :

— جعلنى الله فداء الأمير ، إني لَغِبٌ نَصِبٌ جائع ، فإن رأى الأمير ، أن يدعنى حتى أضع عن إبلى وأودى أمانتى وأريح يومى هذا وأجيئه غداً فليفعل . — رأى الأمير فى قول هلال ما ينبئ عن نفس هائلة مطمئنة ، وما يدل على عقل ناضج وقلب جرىء فأجابه إلى طلبته ، وقال لكبير أعوانه :

انطلقوا معه فأعينوه على الوضع عن إبله وأداء أمانته ، وانطلقوا به إلى المطبخ فأشبعوه ، ثم التفت إلى جلسائه وحاشيته وقال : لم أر رجلين قد تكافأ فى الخلقة والجسم ، ولعل هلالاً يحقق ظننا فيه ، وإن غدا لناظره قريب .

ذهب هلال مع أعوان الأمير فأراح إبله وأدى أمانته ، وانصرف معهم إلى المطبخ فقدموا إليه طعاماً شهيماً كثيراً ، فأتى على كل ما قُدِّم إليه ، وبدا عليه كأنه لم يأكل ، فجهزوا له طعاماً جديداً يكفى خمسة رجال جياع فأكل حتى شبع ، ثم ظل بقية يومه على أحسن حال ، وبات ليلته شبعاً هادئاً مرتاحاً مَعْنِيًّا به .

وأخذ خالد المازنى منذ سمع هلالاً يقبل مصارعة العبد الرومى يشيع الخبر فى المدينة ، وبات الناس ليلتهم تلك يفيضون فى حديث هلال والمصارعة ، ومنهم من يروى عن هلال أخباراً عجيبة ونوادر فى القوة والفتوة ، وأخذ

هؤلاء الذين صرعو اعلی يد العبد يهولون في شأنه ، ويعظمون من قوته ، ويبالغون في صلابته ودُرْبته بالصراع ، ويشككون الناس في أمر هلال ؛ اعتذاراً لأنفسهم من الهزيمة المنكرة ، وكان كلامهم هذا يزيد الناس تشوقاً إلى رؤية الصراع وباتت نفوس أهل المدينة يساورها القلق ، وكان كرامة العرب وضعت في كفة ميزان ، وتواعد سُرّة المدينة وأتريائها فيما بينهم إن صرع هلال العبد ، وغسل بقوته العار الذي لحقهم ، وبرهن على أن في العرب رجالاً قد كملت رجولتهم واشتدت شكيمتهم ، وعظم بأسهم ، أن يجزئوا له الصلات ويكرموه ، بقدر ما كرمهم وأخذ بثأرهم .

كل هذا وهلال لا يدري من أمر الناس ولغتهم واهتمامهم شيئاً ، إذ كان يغط في نومه بعد ما حلَّ به من الأيْن والكالال طوال يومه ، وبعد ما امتلأت معدته طعاماً شهيماً ، غِبَّ جوع طويل وظماً قتال ، وبعد ما أخذت هذه المعدة الضخمة تهضم ما استوعبت وتمثله ، وتوزعه على هذا الجسم الهائل . ونهض في غده قبل أن تنفض الدنيا الكرى عن أجفانها ، والطيور لا تزال بعدُ وكُنّاتها ، وضوء الفجر يشق أستار الظلام ، ونسيم الصحراء يترقرق صفاءً ولينا ، فأدى فريضة ربه ، وتنفق إبّله ، وسار بعيداً في الوادي كأنه يستقبل موكب الشمس ، وقد طفقت طلائعه تطل على الدنيا الغافية ، فتهب من سباتها ، وتدب فيها الحياة والحركة ، ثم عاد من رياضته موفور النشاط رخيَّ البال ، متهلل الوجه تدب العافية والصحة في أعضائه بقوة وعنفوان .

ويمم مجلس الأمير في الضحى وعليه جبة صوف وبَت^(١) وليس عليه إزار ،

(١) البت : انضيلسان ونحوه ، وهو ثوب يشبه العباءة له أكمام ، وهو من ثياب الأعاجم

وقد شدَّ بعاملته وسطه ، فكان بصورته تلك يمثل الصحراء بخشوتها وامتدادها ووعورة مسالكها . ولما طالع بيت الإمارة رأى جموعاً زاخرة تحيط به ، فتقدم في سداجة دون أن يعيرها التفاتاً ، وما أن أشرف عليهم حتى امتدت إليه العيون واشترأبت الأعناق وفتحت الأفواه عجباً ورهبة ، ثم ارتفعت الأصوات بخليط من الإعجاب والتحية والتهليل والتكبير والدعاء . وأخذ هلالٌ يتصفح تلك الوجوه بدهشة واضطراب وحياء جم وتواضع كثير ، فلما دلف إلى مجلس الأمير ، وأقبل يسعى بين يديه — وقد فرش له في ناحية من فناء رحب يتصل ببيته ، يحيط به أشراف المدينة وندماؤه وأعوانه ازداد ما بهلال من حياء ، وحياءً في أدب مفرط ، فردوا عليه تحيته وملأوا أعينهم منه ، فدخلت في أفئدتهم الروعة والإعجاب ، ووجهه إليه الأمير الخطاب قائلاً : —

— لا أريد أن أزودك بنصح ، فمخايلك وأسارير وجهك تتم عن فرط قوة وثقة ، إن كرامة العرب رهنٌ يمينك فأحرص عليها وأخرجها من الصراع موفورة مصونة .

ثم قال للأصفر :

قم إليه ، فقد أرى الله أنك بما يخزيك .

فنهض العبد كالبناء المتناول ، وكان يلبس ثبناً^(١) ودرعاً^(٢) غليظاً من الصوف ، ونظر إلى هلال وقال : إئتز يا أعرابي .

فأخذ هلال بثته فاتزر به على جيبته فقال العبد : هيهات ! هذا لا يثبت ، إذا قبضت عليه جاء في يدي .

(١) الثبان : السراويل القصيرة (شورت) . (٢) الدرع : القميص .

فقال هلال : والله مالى من إزار ! فدعا الأمير بملحفة ما رأى هلال ولا علا جلدَه مثلها ، فشد بها على حَقْوِه ^(١) وخلع جُبَّتَه . ثم تقابل الخصمان ، وأخذت الجموعُ الحاشدة تتطلع فى لهفة وشوق إلى صراع عجيب بين جبارين عاتيين كأنهما شيطانان قد تركا الجحيم لساعتهما .

جعل العبد يدور حول هلال ، ويدب إليه فى عنف وبطء كأنه الذئب يريد خَتْلَه ، وبدا على هلال كأنه منه وَجِلٌ ، وارتسمت على وجهه الخيرة . كأنه لا يدرى ما ذا يصنع به ، وهو يتقهقر أمامه خطوة خطوة ، ثم دنا العبد منه دنوة ، فنقذ جبهته بظفره نقذة شخب منها وجهه دما ، وتراجع العبد على إثرها وهو يسخر من هلال ، ويضحك ملء شديقه ، وكأن ذلك غاظ هلالا فتجهَّم وجهه واربد ، وتطايّر الشرر من عينيه ، فجعل يتأمل العبد فى حنق وسخط كأنه يبحث عن جزء من جسمه يقبضه منه ويعصره بين يديه ، ولكن هيهات ! فإن الرومى كان فطنا خبيراً بالصراع ، فردّه بضربة خاطفة على فكّه الأسفل ترنخ لها هلال وقعد توازنه واغرورت عيناه ، وسال الدم من فمه ، وعلت الضجة من الجميع ، وطرقت أصوات التحميس أذنى هلال ، وكانت الضربة قد آلمته وأوجعته فاشتاط غضبا ، ولكنه ضبط أعصابه ، وأخذ يدور حول العبد فى سرعة وحذر ، ثم انقض على رأسه فجذبها بين يديه الغليظتين ، ووضع إبهاميه فى ضذغيه وأصابعه الأخرى فى أصل أذنيه ، ثم عزمه غمزة شديدة ، وهو يُصِرُّ على أسنانه فصاح العبد : قتلنى ! قتلنى ! فقال الأمير لهلال : اغمس رأس العبد فى التراب .

(١) الحقو : آخر العمود الفقرى من أسفل .

— ذلك لك على .

ونغمس رأسه في التراب وما تركه حتى خر مغشياً عليه .
فتجاوب الفضاء العريض بصيحات الفرح والإعجاب والانتصار والتهنئة
وتدفقت الجموع تحيط بهلال وهو يتأمل غريمه الملقى على الأرض ، وكأنه
يقول لنفسه : كيف صرعت كل هذه القوة والدربة والعضلات ؟ وهو في ذهول
عن حوله ثم أفاق من إطراقته فرأى الدم قد لوث ثيابه ، وجىء له بماء نضح
به على وجهه ومسحه في جبهته . فتقدم إليه الأمير ضاحكاً ملء شذقيه وأخذ
يربت على ظهره ، وأمر له بجائزة وصلة وكسوة .
وأخذ سراة المدينة وأعيانها يتسابقون في دعوة هلال لبيوتهم كي يكرموه ،
فاعتذر في أدب جم بأنه مزعم الرحلة في أصيل يومه ، فقدموا إليه جوائزهم
وهداياهم وترك مجلس الأمير بين الهتاف والإعجاب والتكرمة ، وقد شفى
غليل النفوس الموتورة وثأر للفتوة العربية .

جحدِر (*)

نشأ جحدِرُ بن ربيعة باليمامة ، واحتضنته الصحراء منذ حبا ، فشارك الغزلان سرعة عدوها ، والذئاب شراسة خلقها ، وضراوة طبعها ، والنسور والعقبان هويَّها وانقضاضها ، والصخور وعورتها وصرامتها وصلابتها ، والأسود شدة فتكها وجراتها .

كان نحيفاً مديد القامة قد لوَّحَ حرُّ البید وجهه فحف عارضاه ، واسمرت بشرته ، له عينان كالجمرة الملتهبة إذا غضب ، وكان نجم المتألق إذا رضى عن نفسه ، يدها معروقتان وساعدها مفتولان ، وأبرز سجاياه الحذر فما يُخدع أو يختل ، له لسان عَضْبٌ ، وجنان ثَبْتُ ، وبصيرة نافذة ، وبديهة خاطفة ، وحيلة واسعة ، وذكاء عجيب .

تمرَّس جحدِرُ باليمامة منذ حداثة يبحثُ عن المكاره ، فيردُّها بنفس رَضِيَّة ، وشهوة قوية ، فاشتدَّ أيده وقويت منته ، ونمت تجاربه ، فالتف حوله الصعاليك والفُتَّاك ، قد اتخذوه لهم إماماً وقائداً ، يدبر أمورهم ويحيك شباكه ، وينفذ كيدهم ، وهم له أطوع من بنانه وأقرب من ظله ، يجلونه ويرهبونه ، كما تخشى الشياطين إبليس أو أشد خشية .

عظمت وطأة جحدِر على عرب اليمامة : يغير على أحيائهم جهاراً ، فينهب ويفتك بمن تعرض له ويبطش برعاتهم ، ويسوق نَعَمهم إلى مكمنه ، والويل

(*) المستطرف ص ٢٢٤ ج ١ ، والمحاسن والساوى ص ٧٧ ، وقصص العرب

لمن تحدثه نفسه في قصّ أثره أو مطاردته ؛ لأنه كان أصوب الناس سهماً ، وأعداهم جواداً ، وأقطعهم سيفاً ، وأجرأهم فؤاداً ، تحيط به شِرْذمة فاتكة من لصوص العرب وشطارهم ، لا يبالون في النضال أي ميتة تهيأت لهم . قد نعموا في صحبته بالعيش الرغد ، والمال الوفير فأحبوه وقدموا نفوسهم فدى له .

كان ذلك في أيام الوليد بن عبد الملك ، والحجاج واليه على العراق والبادية ، فبلغ الحجاج أمرُ جحدر وأنه عاث في الأرض فساداً ، وملاً الصحراء شراً ، واستبد بمسالكها ودروبها ، وأباد خلقاً عديداً ، فأهم ذلك الحجاج وخزّ في نفسه التي تعودت تذليل الصعاب وتيسير العسير أن يكون في حواشي ولايته مثل ذلك العاهر الفاتك ، فأرسل إلى عامله باليمامة يوسعه ذمّاً وتأنيباً ؛ لعجزه عن الضرب على يديّ ذلك السفاح وأمره أن يوقع به أو يحمله إليه أسيراً ، وإلا فله الويل والثبور .

لم يكن العامل على جهل بأمر جحدر ، فطالما جأر إليه الناس بالشكوى وطالما استمع لقصص كيده ، وعنف غاراته ، وعظيم فتكه ونادر جرأته ، في أسف وهم ، وقد أرسل في أثره الثلة من الفرسان تلو الثلة لأشهر عديدة ، وفي كل مرة يمّتي بهزيمة نكراء ، فيقتلون ويشردون ، ولا ينجو منهم إلا من تعلق بأذيال الهرب ونجا بنفسه . وفي كل مرة يروى الفارون كيف أوقع بهم جحدر ، ونكل بشجعانهم ، وأضلهم في فجاج الصحراء ودروبها ، فكم صعد بهم الجبال وأهبطهم الوديان ، وكما أحكموا أمرهم وظنوا أنه قد أحيط به ، وأن لا منجاة له ولا مهرب ، إذا هو يفر من بين أيديهم كالسهم ، يضحك في وجوههم ويستهزئ بهم ، حتى إذا أخذ منهم اللغوب والأعياء كل مأخذ ،

ودارت رؤوسهم من الأين والكلال حمل عليهم ورجاله، فأذاقوهم مرَّ العذاب، وأوردوهم حياض الموت إلا من لاذ بالفرار .

ولما أيس العامل من أخذ جحدر بالعنف لجأ إلى الحيلة، فأوطأ جماعة من فتية بنى حنظلة كلهم فارس شجاع، اشتهر بالفتك والصَّلَكة، ووعدهم الجعائل العظيمة، إنْ هُم أتوه بجحدر مغلولاً أو مقتولاً .

وعلم هؤلاء أن لا قبل لهم بجحدر وقبيله إنْ هم صارحوه العدا، وأنه لا سبيل لهم إلا الخديعة والمكر، فأرسلوا إليه يقولون : إنهم يتوقون إلى السير تحت لوائه والانتقطاع إليه والخضوع لأمره، لما بلغهم عنه من عظيم الهمة، وطول الباع في الغارة والحرب . فأخْلَد جحدر إلى قولهم وأدخلهم في صحبته، ليزيد من قوته، ولأنه كان يستغلُّ خطرهم، فلم يظن بهم سوءاً فأخذوا ينهبون معه، وهم يتربصون به الدوائر طمعاً في جعائل الأمير، وحسداً لجحدر على بالغ سطوته، وعظيم نفوذه، وسعة رزقه وقد حَمَى الصحراء فلا ينهب ولا يفتك إلا مَنْ يمشى في ركابه .

ظل فتیان بنى حنظلة في صحبة جحدر ردحاً من الزمان، وعينه الحذرة ترقبهم عن كذب، فلا يظهر منهم إلا طاعة عمياء وإخلاص في القتال وحسن تصرف في المآزق، فوثق بهم وأمن لهم، بيد أنهم لم يغفلوا عن هدفهم، وهو أسر جحدر أو قتله . فلما رأوا أنه قد اطمأن إليهم أبرموا أمرهم بينهم، إلى أن صادفوا منه غيرةً فشدوا وثاقه وهو بمنأى عن خلصائه وأعوانه ؛ وعلم جحدر أنه غلب على أمره، فلم يتوسلْ، أو يحاول النجاة، بل كَظَم غيظه وتقبل الحنة بما عُهد فيه من قوة واحتمال، وراحت جيادهم تطوى البيد طياً، حتى

قدموا به إلى عامل اليمامة ، فكان فرحه بأسر جحدر عظيما وخشى أن يحتال على الخلاص أو ينصره رجاله ، فوجهه مع أسريه إلى الحجاج قبل أن يطمئن بهم المقام .

تسامع الناس في البصرة بأسر جحدر ، فاحتشدوا في طرقاتها يرتقبون مقدمه ، حتى يمتعوا أنظارهم بمراى ذلك الذى جعل من بادية اليمامة جحيا والذى فتك بمئات من الخلق ، وأعيأ شأنه أولى الأمر سنتين ، فلما أقبل الركب لم يروا إلا رجلا نحيفا مشدود الوثاق مُنكَّس الرأس ، وقد توهوا أن جحدر عملاق ضخم الجثة ، كبير الهامة ، غليظ العنق ، عريض المسكين فزاد إعجابهم به وإكبارهم له وخوفهم منه ، فعلا صراخهم وتهديدهم .

فلما مثلوا بين يدى الحجاج ألقوه على الأرض تحت قدميه فأخذ الحجاج يتأمله ويصوب فيه بصره . ثم سأل : —

— أنت جحدر ؟

— نعم !

— ما جرأك على ما بلغنى عنك ؟

— جور الزمان وجراءة الجنان !

— ما مبلغ جرأتك ؟

— لو أطلقنى الأمير ، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه .

— إنى قاذف بك إلى حظيرة بها سبعُ شرس فإن قتلك كفانا مؤونتك

وإن قتلت عفونا عنك لشجاعتك .

— أصلح الله الأمير ، لقد قرب الفرج !!

— أمر الحجاج به فحمل إلى السجن ، وأوصى أن تُحكم أغلاله ويزيد

حراسه ؛ حتى لا يفلت أو يبطش بهم ، بعد ما سمع من استهتازه بالأسد ، وأن
الفرج سيواتيه عما قريب بعد أن يصصره . ثم كتب الحجاج إلى عامله باليامة
أن يرتاد له سَبْعاً عَتِيّاً ، ويحمله إليه ، وكان صيد السبع أخف على نفس
العامل من أسر جحدر ، فارتاد له أسداً خبيثاً ، كرية المنظر قد أفنى جميع
ما باليامة من حيوان ، ووضعه في قفص حديد وأنفذه إلى الحجاج ، رأى الحجاج
الأسد فراحه منظره ، وأيقن أن جحدر هالك لا محالة ، وأنه لا قبل لآدمي
بمصارعة هذا الوحش البَشع ومع ذلك فقد أمر الحجاج بأن يلقي السبع في
حفيرة ، ولا يطعم شيئاً ثلاثة أيام ليزداد ضراوة وشراسة .

فلما انقضى الأجل المضروب أقبل الناس زرافات ووحدانا على مكان
الحفيرة وهم يتحرقون شوقاً لرؤية هذا الصراع الموعود ، وأخذوا يتنبأون بالعاقبة
ويتجادلون في مصير جحدر بحدة وعنف ، فهذا يدعى بأن جحدر سينخلع
فؤاده حين يرى الأسد الجائع ، وأنه سيقطعه بمخالبه ويمزقه بأنيابه ويطحنه
بأضراسه ثم يلتهمه التهاماً ، وأن جحدر المسكين الذي ظلماً روع الآمنين ،
وانتهك الحرمات وأراق الدماء البريئة وادّعى السطوة والبطش وجُرّد من
الرحمة والعطف ، سيلقى حتفه بين يدي وحش عي ، قد استبد كذلك طويلاً
بملك البيداء . ومن الناس من تمس لجحدر وآمن بالقوة الإنسانية ، والحيلة
والشجاعة وأن الأسد مهما كان ضارياً جائعاً كئيب الطلعة ، فسيجد في جحدر
نِداً يفوقه أيذا وصبراً ، وبأساً وجرأة وأن الصراع سيكون عنيفاً رهيباً ،
ولكن جحدر لسابق حنكته وتمرسه بالشدائد وصلابة عوده سيفلج ويردى
الأسد هالكا .

وبينا الناس في هذا الجدال إذ طلع عليهم الحجاج فخشعت الأصوات
إلا همسا ، ثم استوى على مقعد مشرف على الحفيرة ، وأمر الحراس بإخراج
جحدر ، فأثنى به يتعثر في قيوده ، وعليه أمارات الوائق بمنته وقوته ، المطمئن
لمصيره وعاقبته ، المدلِّ بمهارته وشجاعته ، ثم حطَّ الحراسُ أغلاله ، وأعطوه
سيفا صارما ، أخذ يفحصه ويهرزه ، والتفت إلى الأمير قائلا : —

— هل الأمير أصلحه الله عند وعده ؟

— أجل ؟! فامض إلى الحفيرة فإن الأسد ينتظرك .

فمضى جحدر لطيفته صوب الحفيرة فما أن رآه الأسد مقبلا عليه حتى نهض
وزأر زئيراً رَجَّ الجبال ، وأراع الحاضرين فأنشد جحدر : —

ليثٌ وليثٌ في مجالِ صَنْكُ كلاهما ذو قوَّةٍ وسَفْكُ

وصولةٍ وبَطْشَةٍ وفَتْكُ إن يكشف الله قناع الشكِّ

فأنتَ لي في قبضتي ومِلْكِي

* * *

ثم وقف على الحفيرة وأخذ ينظر إلى الوجوه المتطلعة إليه هُنيئةً ، ويتأمل
ما حوله كأنه يتملى من الدنيا قبل أن يودعها هالكا ولكن وقفته لم تطل ،
فسرعان ما أدلى به في الحفيرة فصرخ الأسد عند رؤيته صرخة عظيمة ، فأجابه
هو بأعظم منها . وأقبل عليه الأسد منقضا كالصاعقة وعيناه تقدحان بالشر ،
وأنيابه تتلمظ على الفريسة ، ومخالبه مشحودة كأنها رُسُل الموت ، ووقف
جحدر وسيفه مُصَلَّت في يده وقفة الأشوس البطل ، الذي يوقن أن حياته
رهنٌ يمينه ، وجبس الناسُ أنفاسهم ، وكادت حداث أعينهم تثب من

محاجيرها ، وقد ساد الفزع وتملكتهم الرعدة لهذا المنظر الرهيب .
ولما أصبح الأسد في متناول سيف جحدر ، ضربه ضربة فلقت هامته وزأر
لها زأرة المنكسر الهلوع ، وترنح يئساً ويسرة ثم خرّ كأنه بناء مشمخر قد زلزل
من قواعده وكبرّ الناس وعلا ضجيجهم .

وخرج جحدر يتهدى في مشيته مقبلاً على الحجاج فقال له : « الله درك
ما أنجذك ! إنك أهلٌ للكرامة والعفو » وأقبل وجوه القوم يهنئونه ويبدون
إعجابهم به . ثم خيّر الحجاج بين أن يقيم عنده مكرماً ، في عز ورغد من
العيش ، أو يلحق ببلاده على ألا يؤذى أحداً ، ولا يحدث حدثاً ، وكان
جحدر سئم حياة الصعلكة والمخاطرة ، فروى قليلاً كأنه يعقد موازنة بين ذلك
الملك الشاسع في البيداء ، وتلك السطوة الغالبة والحرية الطليقة مع ما يصحبها
من حق الأمير وسيخط الناس ، والتعرض لغضب الله جل وعز لأيدائه
الأبرياء ، وبين مقامه عند الأمير في أمن ودعة وطمأنينة وأخيراً قال : —
بل أقيم معك أيها الأمير — لا زلت مرفوع اللواء ميمون النقيية .

تغيرت بجحدر سبل العيش ولكن ذكائه الفطري ، وذهنه الثاقب ،
مكناؤه من التأدب سريعاً بأدب جلساء الأمير وحاشيته ، فزاد إعجاب الحجاج
به ، وحظى عنده ، وأصبح من خواصه ، وبعد ذلك بزمان غير طويل ولاه
اليامة مرتفع طفولته ومدرج شبابه ، فرجع إليها أميراً مطاع الكلمة بالحق
بعد أن خلفها أميراً مطاع الكلمة بالرهبة والباطل .

١ — المراجع العربية

- ١ — الدكتور ابراهيم سلامة الخطابة لأرسطو
- ٢ — ابن أبي الفضائل النهج السديد ، والدر الفريد
- ٣ — ابن الأثير الكامل في التاريخ
- ٤ — ابن بطوطة تحفة الأنظار (رحلة ابن بطوطة)
- ٥ — ابن تغرى بردى (أبو الحسن) النجوم الزاهرة
- ٦ — ابن تيمية رسائل ابن تيمية
- ٧ — ابن جبير رحلة ابن جبير
- ٨ — ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر
- ٩ — ابن سعد الطبقات
- ١٠ — ابن سلام طبقات الشعراء
- ١١ — ابن طباطبا الفخرى
- ١٢ — ابن عبد ربه العقد الفريد
- ١٣ — ابن عربى ديوان ترجمان الأشواق (ترجمة نيكلسون)
- ٢ — الفتوحات المكية
- ١٥ — ابن الغوطى البغدادى الحوادث الجامعة
- ١٦ — ابن الفرات تاريخ ابن الفرات
- ١٧ — ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار
- ١٨ — ابن قتيبة — ١ — الميسر والقдах

٢ — عيون الأخبار

٣ — الشعر والشعراء

الفروسية

البداية والنهاية

الأصنام

لسان العرب

سرح العيون

السيرة النبوية

الحماسة

الأخبار الطوال

الجماهر في تعريف الجواهر

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

الأمالي ، وذيل الأمالي

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة

المختصر في أخبار البشر

١ — أيام العرب في الإسلام

٢ — أيام العرب في الجاهلية

٣ — قصص العرب أربعة أجزاء

الخراج

المستطرف في كل فن مستظرف

٢١ — ابن القيم

٢٢ — ابن كثير

٢٣ — ابن الكلبي

٢٤ — ابن منظور

٢٥ — ابن نباته

٢٦ — ابن هشام

٢٧ — أبو تمام

٢٨ — أبو حنيفة الدينوري

٢٩ — أبو الريحان البيروني

٣٠ — أبو شامة

٣١ — أبو علي القالي

٣٢ — الدكتور أبو العلا عفيفي

٣٣ — أبو الفداء

٣٤ — أبو الفضل ابراهيم

٣٧ — أبو يوسف

٣٨ — الإبيشيحي

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| التصوف في نظر الإسلام | ٣٩ — أحمد صبرى شويمان |
| فتوح الشام | ٤٠ — الأزدي |
| الاعتبار | ٤١ — أسامة بن منقذ |
| الأغاني | ٤٢ — الأصفهاني |
| بلوغ الأرب | ٤٣ — الألوسي |
| بحث عن المروءة | ٤٤ — الدكتور بشر فارس |
| خزانة الأدب | ٤٥ — البغدادي |
| فتوح البلدان | ٤٦ — البلاذري |
| الحاسن والمساوي | ٤٧ — البيهقي |
| شرح القصائد العشر | ٤٨ — التبريزي |
| كشف اصطلاحات العلوم | ٤٩ — التهانوي |
| الحاسن والأضاد | ٥٠ — الجاحظ |
| تاريخ التمدن الإسلامي | ٥١ — جورجى زيدان |
| كشف الظنون | ٥٢ — حاجى خليفة |
| الأغذية | ٥٣ — حسن عبد السلام |
| الطواسين | ٥٤ — الحلاج |
| دول الإسلام (مخطوط) | ٥٥ — الذهبي |
| الروض الأنف | ٥٦ — السهيلي |
| تاريخ غزوات العرب | ٥٧ — شكيب أرسلان |
| المفضليات | ٥٨ — الضبي |

- ٥٩ — الطبرى تاريخ الأمم والملوك
- ٦٠ — الدكتور على إبراهيم حسن الممالك البحرية
- ٦١ — على البجاوى ١ — أيام العرب فى الإسلام
- ٢ — أيام العرب فى الجاهلية
- ٣ — قصص العرب
- ٦٤ — عمر الدسوقى النابغة الذبياني
- ٦٥ — الغزالى ١ — إحياء علوم الدين
- ٢ — المنقذ من الضلال
- ٦٧ — فيليب حتى ١ — مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ
- ٢ — تاريخ العرب (ترجمه فيليب حتى)
- ٦٩ — القشبرى الرسالة القشبرية
- ٧٠ — كشاجم أدب النديم
- ٧١ — لويس شيخو شعراء النصرانية
- ٧٢ — الماوردى الأحكام السلطانية
- ٧٣ — المبرد الكامل
- ٧٤ — محمد بن منكلى الأحكام السلطانية (مخطوط)
- ٧٥ — محمد الخضرى بك ١ — تاريخ الآم الإسلامية
- ٣ — مذهب الأغاني
- ٣ — نور اليقين
- ٧٨ — محمد كامل علوى الرياضة عند العرب

- ٧٩ — مصطفى جواد الفتوة والفتيان قديماً — مجلة لغة العرب
إبريل سنة ١٩٣٠
- ٨٠ — المقرئ نفع الطيب
- ٨١ — المقرئ ١ — الخطط
- ٨٣ — الميداني ٣ — السلوك
- ٨٤ — نور الدين الحلبي مجمع الأمثال
- ٨٥ — ولیم آل ورد السيرة الحلبية
- ٨٦ — ياقوت الحموي العقد الثمين
- معجم البلدان
-

٢ — المراجع الأجنبية

- 1 — Aristototele, Nicomachean Ethics.
- 2 — Arnold - Sir. T. W. The Preaching of Islam.
- 3 — Alfred de Vigay, Servitude et Grandeur militaire.
- 4 — Ampère. J. J. Mélange d'Histoire Littéraire et de Littérature.
- 5 — Atiya. A. S. The Crusade in the Later Middle Ages.
- 6 — Barthélemy. Saint - Hilaire, Mohamet et le Coran.
- 7 — Beaumont - de, A. Recherches sur L'origine de blason.
- 8 — Chateaubriand, 1. Etude Historiques, étude Sixième : Moeurs de Barbare
2. Analyse Raisonnée de L'Histoire de France.
- 9 — Corneille, le Menteur.
- 10 — Daumas. (Général), Les Chevaux du Sahara
- 11 — Delard. l'Art équestre.
- 12 — Dozy, Histoire de Musulman d'Espagne.
- 13 — Edourd Monetet, la Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans.
- 14 — Fauriel, Histoire de La poesie Provençal.
- 15 — Florian, Précis Historique sur Maures.
- 16 — Gautier, La Chevalerie.
- 17 — Gibb. The Legacy of Islam.
- 18 — Goldziher, 1. Muruwa und Din.
2. Vorlesungen über der Islam.
- 19 — Guizot, Histoire de La Civilisation en Europe.
- 20 — Guys, Mémoire de l'Academie des Science, Belle - Lettres, Art de Marseille.
- 21 — Hammer - Purgstall. J. Asiatique.
- 22 — Herder. Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanité
- 23 — Hérodote, Histoire.
- 24 — Huart, Histoire des Arabes.
- 25 — Lacurn de Saint - Palaye, Mémoires sur L'ancienne Chevalerie
- 26 — Le Bon, (G), Civilisation des Arabes.
- 27 — Laviss et Rambaud, Histoire Générale.

- 28 — Lefray (Dr. G. A.) Mankind and Church.
- 29 — Leon Caetani. Annali dell, Islam.
- 30 — Maekail. Lectures on Poetry.
- 31 — Mairn, Histoire de Saladin Sulthan d'Egypte.
- 32 — Marett, Anthropology.
- 33 — Mignet, Mémoire de l'Academie de Science morales et polotiques
- 34 — Michael, (The Elder), Chronique.
- 35 — Morgan, Mahometism explained.
- 36 — Noeldeke. Veterum Carminum Arabicorum.
- 37 — de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes.
- 38 — Pierre Damien, Chronique du Turpin.
- 39 — Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge.
- 40 — Qutremér Hist, de Sultans Mamloukes, par Makrizi.
- 41 — Raymaund, Dictionaire de Langue de Traubadours.
- 42 — Reinaud, Invasion des Sarrazins en France, en Savoie . . etc.
- 43 — Ritter, Der Islam.
- 44 — Roger Hoveden, Chronica Magistri.
- 45 — Schlumberger (Gustave), Récits de Bysance et de Croisade.
- 46 — Shafik Ghorbal, The Begining of The Egyptian Qustion and
the Rise of Moh-. Ali.
- 47 — Sismondi, de la Littérature du Midi de la France.
- 48 — Sidgwick, History of Ethics.
- 49 — Sprenger, Das Leben und die Lehere des Mohamimed.
- 50 — Stanley Lane - Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of
Jerusalem,
- 51 — Tacite, Moeure de Germaines.
- 52 — Thierry (Augstin) Lettre sur l'histoire de France.
- 53 — Thorning, Beitrage Zur Kenntnis Islamichen
- 54 — Taylor (E. B.) Anthropology.
- 55 — Viardot, Hisroire des Arabes.
- 56 — Viollet-le- Duc. Dictionnaire du Mobilier.
- 57 — Wacyf Ghali. Tradition Chevaleresque des Arabes.

كشاف الأعلام

(١)

- أبو جعفر المنصور ٣١٥
 أبو الحسن بن الشاربان ٢٤٣
 أبو الحسن التجار ٢٤٢
 أبو حفص الحداد ٢٢٤
 أبو حفص النيسابوري ٢٢٤
 أبو حنيفة ٢٨
 أبو رواغ البشكري ٢١٥
 أبو سفیان بن حرب ٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥١
 ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٠٧
 أبو عبيد بن مسعود ١٩٣
 أبو عبيدة بن الجراح ٢١٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
 أبو عثمان الهندي ٢١٦
 أبو العز التوري ٢٤١
 أبو عزيز بن عمير ٣١٧
 أبو علي الصوفي ٢٤٥
 أبو العلا عفيفي ٢٢١ ، ٢٢٧
 أبو الفضل بن الترهان ٢٤٢
 أبو قيس بن الأسلت ٣٤
 أبو كبير الهذلي ٢٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥
 ٣٦٩ ، ٣٧٠
 أبو محجن الثقفي ٢٠٩
 أبو مسلم الخراساني ٢٤١
 أبو نواس ٢٣٨
 أبو هريرة ١٤٩
 الأخطل ٣١٥
 الأخنس بن شهاب ٥٢
 أرسطو ٦٢ ، ١٠٢ ، ٢٢٢
 أسامة بن منقذ ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
- إبراهيم بن كنيف النبهاني ١١٤
 ابن الأثير ١٦٧ ، ١٧٤
 ابن أذينة الثقفي ١٠٠
 ابن أهبان الفقعي ١٣
 ابن بطوطة ٢٣١
 ابن تيمية ٢٢٩
 ابن جبير ٢٣٠ ، ٢٤٠
 ابن خلدون ١٦٧ ، ١٧٤
 ابن عربي ١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
 ابن عراده ٢١٢
 ابن عمر ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩
 ابن الفارض ٢٢٣
 ابن قتيبة ٨٧
 ابن القيم ١٤٥ ، ١٤٧
 ابن كلال ٨٨
 ابن السكلي ١١٠
 ابن ناشرة ١٤
 ابن هرمة ١٥
 أبي بن خلف ١٤٨
 أبو بكر الجعفي ٢٤٣
 أبو بكر الصديق ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،
 ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ،
 ٢٢٥ ، ٣٠٠
 أبو البلهاء ١٨
 أبو تمام ١١٨

تيلر ٢٤ ، ٤٠

تيمورلنك ٢٥٧

(ث)

ثابت بن قرة ١٣٥

ثابت بن قيس ٢٠٩

ثورثنج ٢٢١ ، ٢٢٢

(ج)

جابر بن حيان ٧٦

جان دي برين ٣١٦

جبرائيل بن بختيشوع ٣١٥

جبير بن مطعم ١٧٧

جب ٢٨٧ ، ٢٩٠

جندر بن ربيعة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥١

الجرجاني ١٨

جرير ٨٥

جزء بن ضرار ١١٤

جساس بن مرة ١٢٣

جعفر بن أبي طالب ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢٠٩

جوشن الفزاري ٢٤٢

جولد تسمير ١٧ ، ١٨ ، ١٤٤

الجنيد ٢٢٥ ، ٢٢٦

(ح)

حاتم الطائي ٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١

حاجي خليفة ٢٤٠ ، ٢٤٥

الحارث بن سعد ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩

إسحق بن حنين ٣١٥

أسد بن كرر ١٢٤

الأعشى ١٢٣

الأعور الشني ١٩٥

أكثم بن صيفي ٦٢

الأولسي ٤٣

أم حكيم بنت الحارث ١٥٣

أمرؤ القيس ١٠٩

أم عمارة بنت كعب ٢٠٧

أم الفضل بنت الحارث ٣٨

أمية بن أبي الصلت ٨٢

أوس بن حارثة ٩٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠١

أوس بن حجر ١٨

(ب)

بختيشوع ٣١٥

برسقال ١٠٤

بشامة بن حزن النهشلي ١٥

بشر بن أبي حازم ٩٩ ، ٣٧٣

بشر فارس ١٧

البلاذري ١٦٨

بهرام الديلمي ٢٤١

بهمن جاذويه ١٩٨

بهيسة بنت أوس ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١١

٤١١

بودوا ٢٧٩

البيروني ١٥ ، ١٦ ، ١٧

بشير القاسمي ٣٠٦

(ت)

تأبط شرا ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧

خبيب بن عدى ٢٠٧

خدش بن زهير ٥٢

خديجة بنت خويلد ١٤٣

خليل بن قلاوون ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣

الخنساء ١٨ ، ٣٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠

(د)

دريد بن الصمة ١٨ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٩٨

٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩

دلاس ٤٣

دوماس (الجنرال) ٤١

سيدجوك ٦٢

(ذ)

ذو الإصبع العدوانى ٢٠ ، ٧٤

(ر)

الربيع بن زياد ١٢٦

ربيعة بن مكدم ٩٨ ، ١٢٩ ، ٣٤٩

ركانة بن عبد يزيد ١٤٤

روزبة الفارسى ٢٤١

روبرت أوف سانت أليانس ٢٧٨

ريتشارد قلب الأسد ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١

٣١٥ ، ٣١٨

(ز)

الزرقان بن بدر ١٢٢

الزير بن العوام ١٧٩

زرعة بن عمرو ٨٣

زهير بن أبى سلمى ٦٨ ، ١٢٤ ، ١٢٨

١٢٩ ، ٢٣٤ ، ٤١١

زهير بن خديجة ٥٧ ، ٣٥١

زهير بن عمرو المازنى ٦٨

زيد الخيل ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥

٤٧ ، ٣٧٥

الحارث بن ظالم المرى ٥٧ ، ٩٨ ، ٣٥٢

٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧

الحارث بن ظبيان ١٩٨

الحارث بن عباد ١١٨

الحارث بن عوف ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

الحارث بن ويلة ٩٧

الحارث المحاسبى ١٢

الحافظ الكندى ٢٤١

الحجاج ٤٤٧ ، ٤٥٠

حذيفة بن بدر ٥٦

حذيفة بن ايثان ٢٤٠

حسان بن ثابت ٦٣

حسان بن ربيعة ٢٤١

الحسن البصرى ٢٢٠ ، ٢٤١

حسيل بن سجيح الضبي ٤٧

الحسين بن على ٣١٠

الحصين بن الحمام ٥٤

الخطيئة ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩١

١٢٢ ، ١٢٧

الحلاج ٢٢٣

حمدون القصار ٢٢٦

حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

حمل بن بدر ٥٦

حنظلة بن أبى عفرة ١١٩ ، ٣٢٣

(خ)

خارجة بن سنان ٤٠١

خالد بن جعفر السكلابى ٣٥١ ، ٣٥٣

٣٥٧ ، ٣٥٩

خالد بن الوليد ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١

١٩٧ ، ٢٤٠

زيد بن حارثة ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
زيد بن الخطاب ٢٠٩
زيد بن الدمنة ٢٠٧

(س)

سالم بن نصر الله الحموي ٢٤٤
ساجم الأزدي ٤١٢

سعد بن أبي وقاص ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٠٩

سعد بن معاذ ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩

سعيد بن جودي ٢٨٩

سعيد بن العاص ٣١١

سلمان الفارسي ٢٤٠

سامي بن ربيعة ٩٠

سامة بن الأكوع ١٤٦

سهيل بن عمرو ١٥٠ ، ١٥٥

سويد بن أبي كاهل الشكري ٢٧ ، ٤٧

السيد القميضار ٣٠٦ ، ٣١٨

(ش)

شانو بريان ٥١ ، ٢٨٤

شارلمان ٣١٢

شداد بن عمرو ٤٢٣ ، ٤٢٤

شرف الدين الشرايبي ٢٤٩

الشناخ بن ضرار ٩١

الشميدز الحارثي ٥٠

الشنفري ٤٩

الشريف أبو الغز ٢٤١

الشريف المرتضى ٢٦٩

شريك بن عمرو ٣٢٦

(ص)

صلاح الدين الأيوبي ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣١٥

صفوان بن أمية ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢٤٠

(ض)

ضبة العبسي ٤١ ، ٤٣

(ط)

طارق بن زياد ٢١٥

الطبري ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٤

طرفة بن العبد ١٤ ، ١٥ ، ٦٦ ، ٨١

طلحة بن عبيد الله ١٧٩

طريف بن تميم ٥٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ٢٠٦

عاصم بن الطفيل ١٢٣ ، ٢٠٨

العباس بن مرداس ٥٦

عبد الجبار بن صالح ٢٤٣

عبد الرحمن بن حسان ١٣

عبد الرحمن بن الحسين الصوفي ٢٥٥

عبد الرحمن الثالث ٢٧٤

عبد الشارق الجهنّي ٥٧

عبد القيس بن خفاف البرجي ٤٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧

عبد الله بن أبي ١٧١

عبد الله بن أبي الحشاء ١٦٠

عبد الله بن جدعان ٨١ ، ٨٢

عبد الله بن جعفر ٣١١

عبد الله بن رواحه ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٩

عبد الله بن سعد بن أبي السرح ١٥٣

عبد الله بن سعد الطائي ٣٧٢

عبد الله الشرماساحي ٢٤٨

عبد الله بن العباس ٣٨ ، ١٥١

عبد الله بن مروان ٣٣٩

عمرو بن الإطابة ٥٧، ٩٨، ١٣٠، ٣٧٥
عمرو بن الأهم ٦٣
عمرو بن براقه ٣٥، ١٠٣
عمرو بن الجوح ١٠٩
عمرو بن العاس ١٢٧، ١٨٠، ٢١٠،
٣٠٥، ٢١١

عمرو بن عبد ود ١٧٨د
عمرو بن عنبسة ١٤٧
عمرو بن كلثوم ٥٤، ١٠٢، ١٢٩
عمرو بن معد يكرب ٤٨، ٥٠، ٣٣٢،
٣٣٦

عمرو بن هند ١٠٢
عمير بن الحمام ١٧٠
عمير بن وهب الجحفي ١٥٤
عنصرة ٣٤، ٤٤، ٤٩، ٨٨، ٨٩،
١٠٢، ٤٢١، ٤٢٢، ١٣٠،
٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٠،
٤٣١

عوف بن عطية بن الخرع ٥٢
عيسى بن فاتك ٢١١

(غ)

الغنوي ٨٧

غنية بنت عفيف ٦١، ٣٧٤

(ف)

فاطمة بنت الحشرب ١٢٦
فخر الدين أبو طالب الدماغاني ٢٤٨
فضالة بن كلفة ١٨
الفضل ٢٤٢
الفضل بن زياد الفارسي ٢٤٢
الفضيل ١٢
فلك الدين بن سنقر ٢٤٨

عبد الله بن مسعود ١٧٩
عبد الملك بن مروان ٨٤
عبد الله الحجام ٢٢٤
عبيد بن الأبرص ٣٧٣
عبدة بن ربيعة التميمي ٤٢
عقبة بن أسيد الثقفي ١٦١
عثمان بن أبي طلحة ١٨٠

عثمان بن عفان ١٥٣، ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٤٥
عدي بن ربيعة ١١٨
عدي بن زيد ١٢٤
عرابة بن أوس ٩٣، ٤١١
العرندس ٨٦

عروة بن الورد ٨٣، ٨٤
عقبة بن نافع ٢١١

عكرمة بن أبي جهل ١٥٣

علي بن أبي بكر الأهوازي ٢٢١

علي بن أبي طالب ١٣٤، ١٣٥، ١٤٩،
١٧٨، ١٧٩، ١٨٠،
٢٢٥، ٢٢٨، ٢٦٩

(ع)

علي بن الجعد ٢١٦

علي بن دغيم ٢٤٣

عمر بن الخطاب ٥٠، ١٢٠، ١٨٧،
١٩١، ١٩٣، ١٩٥،
١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١،
٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٦،
٢١٧، ٢٢٥، ٢٥٣،
٣٠٠، ٣٠٥

عمر بن عبد العزيز ٨٥، ٩٩

عمر الرهاض ٢٤٣

عمران بن حطان ٢١٢

(م)

- ماريت ٤٠ ، ٦٠
مالك بن دينار ٢٢١
مالك بن قيس ١٨٥
مالك بن كعب ٤٨
ماوية بنت عبد الله ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،
٣٧٩ ، ٣٧٨
المتلمس ٣١
متمم بن نويرة ٨٥ ، ٨٧
متي بن يونس ٣١٥
المتنبي ٢٥٤
المنقب العبدى ١٢٤
المثنى بن حارثة ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤
١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ،
٣١٣
محمد الباقر ٢٣٩
محمد بن أحمد الحسامى ٢٥٤
محمد عليه السلام ٣٨ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ،
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٦ ،
١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ،
١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ،
محمد بن عبد الله بن طاهر ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
محمد بن القاسم ٢١٥
مهرة بن محكان السعدى ٧٥
مرداس بن أدية ٢١٢
المستعصم ٢٥٢
مستقيم زاده ٢٦٩
المستنصر ٢٥٢
مسعود بن أبى سالم ٧٤
مسلمة بن عبد الملك ٢١٥

القند الزمانى ١١

فيليب أوجست ٢٧٨

(ق)

- قتادة بن النعمان ١٤٨
قتيبة بن مسلم ٢١٤
قراد بن أجدع ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
القشبرى ١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٧
الققعاق بن عمرو ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣
قطبة بن أوس ١١٧
قطرى بن الفجاءة ٢١٢ ، ٢١٣
قطز ٢٥٥
قلاوون ٢٧٦
قيس بن الخطيم ٦٤
قيس بن زهير ٥٦ ، ٤٣٥
قيس بن عاصم ٣١٧

(ك)

- كازمير ٢٥٣
كعب بن زهير ١٥٤
كعب بن مامة ١٦ ، ٨٤ ، ٨٥
كليب وائل ١٢٣
كنزة المنقرية ٣٩
كورنى ١١٥

(ل)

- لاكورن دى سانت بالاي ١٢٠
ليبد بن ربيعة ٨٦
لجى بن حارثة بن عامر ١١٠
لقيط بن يعمر الإيادى ٣٠

النضر بن الحارث ١٥٦

النفس سلمان ٢٤٢

نعمان ٢٤٣

انتعمان بن شريك ١٣٥

النعمان بن مقرن ٢٠٣ ، ٢٠٢

النعمان بن المنذر ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،

٣٥٢ ، ٣٥٣

نعيم بن مقرن ٢٠٣

النمري ٧٧

نور الدين ٢٧٩

(ه)

هاشم بن عتبة ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٠

هانيء بن قبيصة ١٣٥ ، ١٣٧

هبار بن الأسود ١٥٣

هذيل بن مشجعة ٨٢

هردر ٢٦٦

هرقل ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٣٠٠

هرم بن سنان ٦٨ ، ٤٠٩

هرمز ١٨٣

هلال النيهاني ٢٤١

هلال بن الأسعر ٤٣٨

هند بنت أبي سفيان ٣٨ ، ١٣١ ، ١٧٧

(و)

وداك المازني ١٢٧

واصف غالي ٧١ ، ١٠٤ ، ٢٩٧

(ي)

يزيد بن أبي سفيان ١٥١ ، ٢١٠

يزيد بن حنظلة ١٢٩

يزيد بن عبد المدان ١٨

يزيد بن مزيد الشيباني ١٨

مصعب بن عمير ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧

مضرس الربيعي ٧٨

معاوية بن أبي سفيان ٣٨ ، ٩٣ ، ١٥١ ، ٣١٠

معن بن أوس ٩٣ ، ٩٤

مفروق بن عمرو ١٣٥ ، ١٣٧

المقداد بن الأسود ٢١١

المقداد بن عمرو ٢٠٥ ، ٢٤٠

المقنع السكندري ٧٣

الملا ميراوي ٢٤٢

المهاجر بن عبد الله ٤١٢

المهلب بن أبي صفرة ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ،

المهلهل ٤٦ ، ٩٦ ، ١١٨

مهي العلوي ٢٤٢

المنشور بن وهب ١٣٠

المنصور بن أبي عامر ٣٠٧

موسى بن عقبة ١٤٥

موسى بن نصير ٢١٥

ميثيل اليعقوبي ٢٩٨

(ن)

الناعبة الجعدي ٧٢

الناعبة الذيباني ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ،

٨٥ ، ١٠٤ ، ١١٢ ،

٢٣٧ ، ٣٧٣

نابليون ٢٥٧

الناصر لدين الله ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ،

٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ،

٢٧٨

ناصر الدين بن أبي نعجة ٢٤٢

الناصر (السلطان) ٢٥٦ ، ٢٥٧

الفهرس

ص

٣

المقدمة

معنى الفتوة ١١ — ٢٠

الفتوة فى اللغة ١١ — الفتوة فى الأدب ١٣ — الفرق بين

الفتوة والمروءة ١٥ — معانى الفتوة ٢٠

الفتوة عند العرب ٢١ — ١٣٢

نشأة الفتوة ٢١ — أثر الطبيعة فى الحواس ٢٢ — الشجاعة

٢٦ — أثر الصحراء فى الجسم ٢٧ — معنى الشجاعة ٢٩ —

الثأر ٣٥ — فضل الأمهات فى الشجاعة ٣٧ — الرأى العام

والشجاعة ٤٠ — الخيل ٤١ — السلاح ٤٦ — الرمح ٤٧ —

الدرع ٤٨ — السهام ٤٩ — السيف ٥٠ — ملابسهم فى

الحرب ٥٤ — معاملتهم للأعداء ٥٥ — السكرم ٥٩ —

معانيه ٥٩ — كرم اليد ٥٩ — بواعثه ٦٠ — عنايتهم

بالضعف ٧٠ — أفضل السكرم ٧٢ — مظاهر السكرم ٧٦ —

البشاشة ٧٦ — السخاء ٧٧ — جلب الضيفان ٧٨ — نار

الكريم ٧٨ — الكلب ٧٩ — التعرض للضيوف فى

الطرقات ٨١ — جفان الكرماء ٨١ — الإيثار ٨٣ —

ص

الميسر ٨٥ — الكرم والشجاعة متلازمان ٨٧ — كرم
القلب ٩٢ — معناه ٩٢ — مواطن الحلم ٩٥ — كرم العقل
١٠٤ — أثر الصحراء في كرم عقولهم ١٠٥ — أثر المجتمع
العربي في كرم عقولهم ١٠٧ — أثر ديانة العرب في كرم
عقولهم ١٠٨ — الجن والغول ١١١ — الوفاء بالوعد ١١٥ —
أثر الصحراء في الوفاء ١١٦ — الحرب والوفاء ١١٦ — المجتمع
والوفاء ١١٧ — حماية الضعيف ١٢٠ — حماية الجار ١٢١ —
النجدة ١٢٧ — فك العاني ١٢٨ — الدفاع عن المرأة ١٢٩

الفتوة في الإسلام ١٣٣ — ١٤٢

الإسلام دين الفطرة ١٣٣ — الإسلام وأخلاق الجاهلية ١٣٤
— توجيه الإسلام للعرب ١٣٩ — الفرق بين رشد العقل الجاهلي
ورشد العقل الإسلامي ١٤٠ — الإسلام وصفات الفتوة ١٤٠

سعيد الفتیان ١٤٣ — ١٦٥

استعمال القوة في الإسلام وأسبابها ١٤٣ — مصارعة النبي
١٤٤ — مسابقته لسواه ١٤٥ — مسابقته بين الخيل ١٤٥ —
النضال بالرَّمي ١٤٦ — شجاعته عليه السلام ١٤٩ — كرمه
١٥١ — كرم قلبه ١٥٢ — كرم عقله ١٥٥ — وفاؤه ١٦٠
حمايته للضعيف ١٦١



فتيان المسلمين ١٦٦ — ٢١٩

- قوة الصحابة في الحروب ١٦٦ — أدبهم ١٦٧ — الشجاعة
 ١٦٨ — بواعثها الإسلامية ١٦٩ — يوم مؤنة ١٧٠ —
 حمزة بن عبد المطلب ١٧٥ — علي بن أبي طالب ١٧٨ —
 خالد بن الوليد ١٨٠ — المثني بن حارثة ١٩٢ — القعقاع
 ابن عمرو ١٩٦ — سعد بن معاذ ٢٠٦ — مصعب بن عمير
 ٢٠٧ — خبيب بن عدي ٢٠٧ — زيد بن الدثينة ٢٠٧ —
 أبو محجن الثقفي ٢٠٩ — هاشم بن عتبة ٢١٠ — الخوارج
 ٢١١ — المهلب بن أبي صفرة ٢١٢ — قطري بن الفجاءة
 ٢١٣ — قتيبة بن مسلم ٢١٤ — محمد بن القاسم ٢١٥ —
 موسى بن نصير ٢١٥ — تعاليم عمر بن الخطاب في الفروسية
 ٢١٦ — كرم فتيان المسلمين ٢١٨

الفتوة الصوفية ٢٢٠ — ٢٣٣

- التصوف يأخذ من الفتوة ٢٢١ — معاني الفتوة عند المتصوفة
 ٢٢٣ — أهل الملامة ٢٢٤ — متصوفة نيسابور ٢٢٥ —
 العيارون والشاطار ٢٢٦ — رأى ابن تيمية في الفتوة الصوفية
 ٢٢٨ — ابن جبير يتكلم عن الفتوة والفتيان ٢٣٠ —
 ابن بطوطة والفتيان ٢٣١

ص

فتوة المترفين ... ٢٣٤ — ٢٥٨

الصيد ٢٣٤ — الطرد في الجاهلية ٢٣٤ — أسامة بن منقذ
والصيد ٢٣٩ — الناصر لدين الله ٢٤٠ — سلسلة القتبان
٢٤٠ — أنظمة الفتوة ٢٤٣ — رمى البندق ٢٤٥ — كأس
الفتوة ٢٤٦ — شجاعة أسامة بن منقذ ٢٤٧ — الفتوة بعد
الخليفة الناصر لدين الله ٢٤٨ — صلاح الدين الأيوبي وفتوة
الناصر ٢٥٠ — المماليك ٢٥٢ — نظم الفتوة لديهم ٢٥٣ —
المماليك والحروب الصليبية ٢٥٥ — السلطان الناصر ٢٥٧ —

بين فتوة العرب وفروسية الغرب ... ٢٣٥ — ٣١٩

تعريف الفروسية الغربية ٢٦٠ — أطوارها ٢٦٠ — الطور
الإقطاعي ٢٦١ — الطور المسيحي ٢٦٢ — طور الحب
٢٦٣ — روافد الفروسية الغربية ٢٦٤ — الألمان ٢٦٥ —
أثر العرب في الفروسية الغربية ٢٦٧ — أثر الأندلس
٢٦٩ — لغة البروفنس ٢٧١ — الروايات والقصص ٢٧٣ —
الشعر ٢٧٤ — نماذج من أخلاق العرب بأسبانيا ٢٧٥ —
الحروب الصليبية وأثرها في فروسية الغرب ٢٧٦ — صلاح الدين
الأيوبي ٢٧٨ — أثر المماليك ٢٨٢ — أثر العرب في احترام المرأة
٢٨٤ — التروبادور ٢٨٧ — موازنة بين فروسية الغرب
وفتوة العرب ٢٩٤ — تعاليم الدين ٢٩٤ — التسامح ٣٠٠ —

ص

الديمقراطية العربية ٣٠٣ — الأصول الدينوية للفرسية
العربية والموازنة بينها وبين الأصول العربية ٣٠٥ — القتال
٣٠٦ — الكرم ٣٠٨ — التعصب الديني ٣١٣ — كرم
القلب ٣١٥ — تعاليم العرب في القتال ٣١٨ — الوفاء بالوعد ٢١٨

صور من الفتوة العربية ٣٢٠ — ٣٥٣

٤١٢	السخي العداء	٣٢١	مروءة ووفاء
٤٢١	عنزة القوارسى	٣٣١	فارس الشهباء
٤٣٨	هلال	٣٤٢	حامى الظعينة
٤٤٧	جحدل	٣٥١	نار
٤٥٤	المراجع العربية	٣٦١	تأبط شرا
٤٥٩	المراجع الأجنبية	٣٨٢	فتى كريم
٤٦١	كشاف الأعلام	٣٨٩	لا حر بوادى عوف
٤٦٨	الفهرس	٣٩٨	همة

(تم طبع كتاب « الفتوة عند العرب » في مطبعة لجنة البيان العربى
بالقاهرة في يوم الخميس ٢١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ (الموافق ٢٩
من مارس سنة ١٩٥١) . والحمد لله أولاً وآخراً)

سيد محفوظ

المدير الفني للمطبعة

2347

2347

DATE DUE



394.7:D23fA:c.1

الدسوقي، عمر

الفتوة عند العرب أو احاديث الفروسية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01023852

American University of Beirut



394.7
D23fA

General Library

